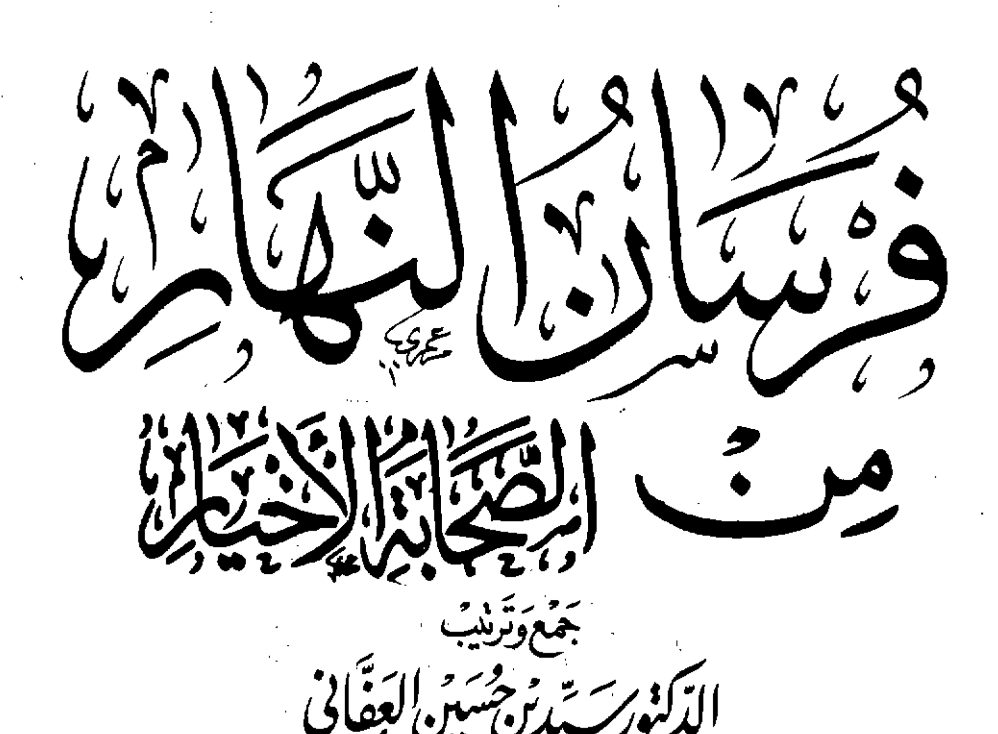


الجزء الأول

الناشر

دار ماجد عسيري ـ جدة

☎ ٠٠٩٦٦٥٤٣٤٦١٥١


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

- إلى شيخي وأستاذي مقدم أهل السنة والجماعة بمصر فضيلة الشيخ الدكتور محمد إسماعيل المقدم حفظه الله، والذي أشار علي بهذا الكتاب عند تقديمه لرهبان الليل.

يا حادي الغرباء للأوطانِ ... يا زهرَ آمال البلاد وحبَّها
أعني البخاريَّ العظيم الشان ... وسَمِيّ حَبْرِ وطبٌ هديْ نبينا
ارو الغليل بشيخنا الألباني ... يا ابنَ إسماعيل ويا بقيةَ سلفنا
لله درك من فتًى رباني ... وانشرْ علومَ السابقين وداوِنا
بظهر الغيوب لحِبِّك العفَّاني ... لا تنسنا من طيب صالح دعوةٍ

- إلى زهر أيامي وربيع عمري ونبض قلبي .. من تمنيت أن يرزقني الله به طيلة عمري فرزقني الله به على الكبر، وكانت البشارة به في وقت الابتلاء تسلية لي: ولدي أبو الفداء سيف الإسلام عبد الله العفاني، اللهم اجعله من علماء المسلمين الربانيين المجاهدين في سبيلك، وبارك في عقبه وارزقه وارزقني أفضل الشهادة في سبيلك.. اللهم اجعله من القانتين العابدين المخبتين.

المؤلف

سيد حسين العفاني

مُقَدِّمَة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ:

فَحَدِيثُنَا عَنْ «**فُرْسَانُ النَّهَارِ**» الَّذِينَ اعْتَلَوْا ذُرَى الْإِيمَانِ، فَكَانَ لَهُمْ مِنْ سَنَامِ

الْإِسْلَامِ ذُرْوَتُهُ وَقُبَّتُهُ.. مَنْ قَاتَلُوا بِالسَّيْفِ وَالسَّهْمِ وَالسِّنَانِ؛ لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَغَلَبَتِهِ، وَتَصَاوَلُوا فِي مَيَادِينِ السِّبَاقِ تَصَاوُلَ الشُّجْعَانِ، وَبَذَلُوا فِي نُصْرَةِ اللَّهِ وَدِينِهِ وَرَسُولِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ نَفَائِسَ الْأَثْمَانِ؛ تَسْلِيمًا لِلْمَبِيعِ الَّذِي جَرَى عَقْدُهُ عَلَى يَدِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ، وَالْتَزَمَ لِلْبَائِعِ بِالضَّمَانِ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: ١١١].

سَارُوا عَلَى دَرْبٍ غَنِيِّ الْأَوْرَادِ، فَوَّاحٍ بِالْمِسْكِ، مَنْثُورِ الْأَزَاهِيرِ فِي مَوْكِبِ الْجِهَادِ وَالْإِيمَانِ... تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِمُ الدُّنْيَا، تَغْبِطُهُمْ عَلَى عِطْرِهِمُ الْأَقْوَى، وَمِسْكِهِمُ الْأَذْكَى، وَفَوْحِهِمُ الْأَنْقَى، عِطْرِ السَّنَابِكِ وَالْخُيُولِ، وَنَقْعِ الْوَغَى، وَمِسْكِ التَّبَتُّلِ وَالْجِهَادِ، وَفَوْحِ الشَّهَادَةِ.

سَاحَةُ الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ لِلْإِسْلَامِ حَمَلَتْ لَهْفَةَ الشَّوْقِ إِلَيْهِمْ، وَكُلُّ مَرَاقِي الصُّعُودِ وَجِبَالِ الْهِمَّةِ مَهْمَا عَلَتْ، حَنَّتْ إِلَيْهِمْ.. هَمَسَاتُ السَّاحَاتِ، ولَفَتَاتُ الْقِمَمِ وَنَجْوَى الْوِدْيَانِ، كُلُّهَا حَنَانٌ وَحَنِينٌ لِوَطْءِ أَقْدَامِهِمُ الطَّاهِرَةِ.

عَبَقُ الْإِسْلَامِ وَأَيَّامُهُ الْخَوَالِي النَّضِرَاتُ تَلَفَّتَتْ إِلَيْهِمْ فِي لَهْفَةٍ وَفِي نَجْوَى مَكْبُوتَةٍ، أَوْ وَثْبَةِ أَمَلٍ، أَوْ دَفْقَةِ عَطَاءٍ.

تَرَكُوا إِسَارَ الدُّنْيَا الْخَانِقَ، وَلَهْوَهَا الرَّخِيصَ، فَهُوَ لَا يَلِيقُ بِمَنْ شَبُّوا عَنِ الطَّوْقِ، فَكَيْفَ بِسَادَاتِ الرِّجَالِ، وَأُسُودِ الْإِسْلَامِ.

تَرَكُوا دُنْيَا الْقَاعِدِينَ، وَتَمْتَمَاتِ الْحَالِمِينَ، وَنَهَضُوا إِلَى عَهْدٍ وَأَمَانَةٍ مَعَ اللَّهِ، إِلَى انْطِلَاقَةٍ، وَفُسْحَةِ مَسْعًى، إِلَى غَرَضٍ أَعْلَى وَأَغْلَى، إِلَى مَيَادِينِ الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ لِلْإِسْلَامِ، الْفَوَّارَةِ بِالدَّمِ، السَّاحَاتِ الَّتِي نُثِرَتْ فِيهَا اللَّآلِئُ وَالْجَوَاهِرُ، وَطَوَّفَتْ فِيهَا

أَحْلَى الأُمْنِيَاتِ بِعَوْدَةِ مَجدِ الإِسْلَامِ.

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَمَا ارْتَفَعَتْ بِنَا هِمَمُ إِلَى الْجِنَانِ وَتَالِي الْقَوْمِ أَوَّابُ
إِلَى كَوَاعِبَ لِلأَطْرَافِ قَاصِرَةٌ وَظِلِّ طُوبَى وَعِطْرُ الشَّذْوِ يَنْسَابُ
إِلَى قَنَادِيلَ ذَهَبٍ عُلِّقَتْ شَرَفًا بِعَرْشِ رَبِّي لِمَنْ قُتِلُوا وَمَا غَابُوا

مَلَئُوا الدُّنْيَا عَبَقًا وَشَذًا، وَخَيْرًا وَصَلَاحًا، وَكَانَ ذِكْرُهُمْ أَعْطَرَ الذِّكْرِ، وَكَانَتْ دَعْوَتُهُم بِمَا سَطَرَهُ، نَجِيعُ الدَّمِ الأَحْمَرِ مِنْهُمْ أَرْجَى أَثَرًا وَأَعْظَمَ مَنْفَعَةً مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

حَمَلُوا كَلِمَةَ اللَّهِ في الأَرْضِ عَالِيَةً، وَغَسَلُوا الْعَارَ بِالدَّمِ الزَّكِيِّ، وَدَفَعُوا أُمَّتَهُمْ بِعَزْمِهِمُ الْقَوِيِّ عَلَى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ، فَظَلَّتْ بِهِمْ غِرَاسُ الْخَيْرِ وَالْمجْدِ فِي أَرْضِ الإِسْلَامِ نَامِيَةً، وَمَنَابِتُ الإِحْسَانِ حَانِيَةً.

وَهَذِهِ الْبُطُولَاتُ أَغْرَبُ مِنَ الخَيَالِ نَفْسِهِ، بَيْدَ أَنَّهَا كَانَتْ فِي دُنْيَا الْوَاقِعِ مَاثِلَةً وَوَاقِعَةً أَمَامَ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ.. هَؤُلَاءِ الأَبْطَالِ الَّذِينَ عَطَّرُوا التَّارِيخَ مِنْ ذِكْرِهِمْ وَبُطُولَاتِهِمْ عَلَى مَدَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ.

بدأنا بالحديث عن «فرسان النهار لماذا؟» ثم ذكرنا فضل الجهاد في القرآن الكريم والآيات الدالة عليه، والتحذير من تركه والتقاعس عنه، ثم الأحاديث في فضل الجهاد من السنة المطهرة، ثم ذكرنا فصلًا خاصًا عن إعلام النبلاء بفضل الشهادة والشهداء،ولقد ذكرنا مراتب الجهاد وأنواعه، ومراحل تشريع الجهاد.

وَهَذِهِ مَوْسُوعَةٌ تَضُمُّ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ـ سِتَّ مِئَةِ فَارِسٍ وَأَكْثَرَ، بِدَايَةً مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُولِ ﷺ، ثُمَّ أَبْطَالِ الصَّحَابَةِ مِنَ الْقَرْنِ الخَيْرِيِّ الَّذِي لَا يَجُودُ بِمِثْلِهِ الزَّمَانُ أَبَدًا.

وَقَدْ بَدَأْنَا بِالْحَدِيثِ عَنِ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ ثُمَّ قَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ فِي حَيَاتِهِ لِقِيَادَةِ السَّرَايَا، وَهَذِهِ أَفْضَلُ تَزْكِيَةٍ مِنَ الرَّسُولِ الْقَائِدِ ﷺ الَّذِي يَعْرِفُ قَدْرَ

الرِّجَال وَيُقَدِّرُ الْبُطُولَةَ وَالْفُرُوسِيَّةَ. ثُمَّ تَكَلَّمْنَا عَنْ أَفْضَلِ الرِّجَالِ مِنَ الْبَدْرِيِّينَ، ثُمَّ قَادَةِ الْفُتُوحَاتِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَوَلَّوا قِيَادَةَ الْجُيُوشِ وَالْفُتُوحَاتِ فِي عَصْرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ. ثُمَّ بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ التَّابِعِينَ، فَتَابِعِي التَّابِعِينَ حَتَّى سَنَةِ (١٩٤٨م) مِنْ عَصْرِنَا.

هَذِهِ الْمَوْسُوعَةُ تَضُمُّ بَيْنَ جَنَبَاتِهَا أَهَمَّ مَعَارِكِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَدَارِ التَّارِيخِ، وَأَبْطَالَهُمُ الَّذِينَ عَرَفَتْهُمْ سَاحَاتُ الْمَعَارِكِ نُسُورًا حَلَّقَتْ فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ.

وَتَضُمُّ هَذِهِ الْمَوْسُوعَةُ الْفِرَقَ الضَّالَّةَ فِي بَعْضِ أَحْكَامِ الْجِهَادِ، وَالْمَفَاهِيمَ الْخَاطِئَةَ وَالشُّبُهَاتِ فِي هَذَا الْبَابِ وَالرَّدَّ عَلَيْهَا.

وَتَضُمُّ ـ أَيْضًا ـ الأَحَادِيثَ الضَّعِيفَةَ وَالْمَوْضُوعَةَ فِي بَابِ الْجِهَادِ؛ حَتَّى لَا يَحْتَجَّ بِهَا الدُّعَاةُ وَالْوُعَّاظُ وَيُعَوِّلُوا عَلَيْهَا.

هَذِهِ الْمَوْسُوعَةُ كُلُّهَا لِلْفُرْسَانِ، وَالْفُرْسَانُ فَقَطْ:

وَفِتْيَةٌ فِي رِيَاضِ الذِّكْرِ مَرْتَعُهُمْ ... لِلَّهِ مَا جَمَعُوا لِلَّهِ مَا وَهَبُوا
إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ خِلْتَ أَنَّهُمُ ... جَاءُوا مِنَ الْخُلْدِ أَوْ لِلْخُلْدِ قَدْ رَكِبُوا
هُمُ الَّذِينَ أَقَامَ الْعَدْلُ عِنْدَهُمُ ... فَحَيْثُمَا حُجِبُوا فَالْعَدْلُ يُحْتَجَبُ
هُمُ الَّذِينَ عَلَى سِيمَائِهِمْ رَكَضَتْ ... أَغْلَى النُّجُومِ وَشَعَّ الْمَوْسِمُ الْخَصِبُ
تَأْبَى الأَعِنَّةُ إِلَّا فِي أَكُفِّهِمُ ... وَالْخَيْلُ إِلَّا إِذَا مَا فَوْقَهَا وَثَبُوا

❑ «رُهْبَانُ اللَّيْلِ» وَ«فُرْسَانُ النَّهَارِ» هَذِهِ سِمَتُهُمْ:

«فُرْسَانُ النَّهَارِ» هُمْ «رُهْبَانُ اللَّيْلِ»، وَمَا عَرَفَ الإِسْلَامُ رِجَالَهُ إِلَّا كَذَلِكَ:

فِي اللَّيْلِ رُهْبَانٌ وَعِنْدَ قِتَالِهِمْ ... لِعَدُوِّهِمْ مِنْ أَشْجَعِ الشُّجْعَانِ

كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ:

مَنْ خَانَ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ... يَخُونُ حَيَّ عَلَى الْكِفَاحِ

وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ:

اللَّيْلُ! حَنَانُكَ يَجْمَعُهُ ... وَيَزِيدُ الشَّوْقَ وَيُوسِعُهُ
وَتَهُبُّ إِلَيْكَ بَوَادِرُهُ ... وَعَصِيُّ الدَّمْعِ وَطَيِّعُهُ
وَقِيَامُ اللَّيْلِ وَهَجْعَتُهُ ... وَنِدَاءٌ فِيهِ يُرَجِّعُهُ
مَا بَيْنَ سُجُودٍ فِي رَغَبٍ ... وَرِضًا فِي اللَّهِ يُشَفِّعُهُ
وَرُكُوعٍ مَالَ عَلَى رَهَبٍ ... وَحَنِينٍ بَاتَ يُصَدِّعُهُ
تَتَجَافَى أَضْلُعُه رَهبًا ... ويَكَادُ هَوَاهُ يَصْرَعُهُ
هَلْ هَاجَ الشَّوقَ وحرَّكَهُ ... مَا كَانَتْ تَكْتُمُ أَضْلُعُهُ
دَفَعَ الأَنَّاتِ عَلَى كَبِدٍ ... فَجَرَتْ بِالأَنَّةِ أَدْمُعُهُ
يَطْوِيهِ اللَّيْلُ وَيَنْشُرُهُ ... عَزْمًا فِي السَّاحَةِ يَدْفَعُهُ
كَمْ شَقَّ الدَّرْبَ وَهَبَّ لَهُ ... وعَجَاجُ الوَثْبَةِ مَطْلَعُهُ
فَسَلِ الْمَيْدَانَ وغَضْبَتَهُ ... يُنْبِئْكَ الجَوْلَةَ مَوْقِعُهُ
وَسَطَ السَّاحَاتِ وخَاضَ بِهَا ... لُجَجًا وَالْحَقُّ تَطَلُّعُهُ
وَالْجَنَّةُ رَائِحَةٌ عَبِقَتْ ... وَشَذًا قَدْ فَاحَ تَضَوُّعُهُ
وَالْجَنَّةُ مَهْوَى أَضْلُعِهِ ... وَحَنِينُ الأَضْلُعِ يَدْفَعُهُ
تَهْوِي الْهَامَاتُ بِضَرْبَتِهِ ... وَيَصُدُّ الْجَحْفَلَ يَصْدَعُهُ
وَتَرَى الْمَيْدَانَ يَخِفُّ لَهُ ... وَحَنَانُ السَّاحِ يُشَيِّعُهُ
وَالْوَرْدُ وَدَفْقٌ مِنْ دَمِهِ ... أَحْلَاهُ المِسْكُ وَأَرْوَعُهُ

وَالْجِهَادُ دَوْمًا يُسْقَى بِدَمْعِ التَّهَجُّدِ.. هَذِهِ سِمَةُ فُرْسَانِ النَّهَارِ أَنَّهُمْ عُبَّادُ الإِسْلَامِ.

رُهْبَانُهُمْ فِي اللَّيْلِ فُرْسَانٌ إِذَا ... طَلَعَ النَّهَارُ أَوِ اسْتَحَرَّ قِتَالَا

وَقَدْ جَمَعْتُ جَمْعِيَ الأَوَّلَ **«رُهْبَانُ اللَّيْلِ»**، وَهَا أَنَا ذَا أُشَفِّعُهُ ـ وَالْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ وَالْفَضْلُ لِلَّهِ ـ الْيَوْمَ بِصِنْوِهِ **«فُرْسَانُ النَّهَارِ»** الَّذِي لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ فِي أَيَّامِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ حَتَّى يَكُونَ حَقِيقَةً فِي دُنْيَا الْوَاقِعِ.

وَقْفَةٌ مُهِمَّةٌ

حِينَ نَتَكَلَّمُ فِي هَذِهِ الْمَوْسُوعَةِ عَنِ الْفُرْسَانِ وَسَادَاتِ الْمُجَاهِدِينَ فَإِنَّمَا نَعْنِي بِذَلِكَ مَنْ لَا يَخْتَلِفُ فِي صِحَّةِ مَنْهَجِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اثْنَانِ وَلَا يَنْتَطِحُ فِيهِمْ عَنْزَانِ..

أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّهُمْ سَادَةُ الْمُسْلِمِينَ وَعُبَّادُهُمْ، وَإِلَيْهِمْ إِذَا ادْلَهَمَّتِ الْأُمُورُ مَفْزَعُهُمْ ـ بَعْدَ اللَّهِ ـ وَمَلَاذُهُمْ.. وَهَؤُلَاءِ بِخِلَافِ آخَرِينَ امْتُهِنَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مُسَمًّى شَرْعِيًّا صَحِيحًا هُوَ «**الْجِهَادُ**»، وَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ خَاضُوا فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَوَأَدُوا الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ وَضَيَّعُوهَا، وَبِسَبَبِهِمْ تَطَاوَلَ أَقْزَامُ الْعَلْمَانِيِّينَ عَلَى ثَوَابِتِ دِينِنَا الْحَنِيفِ، بَعْدَ أَنْ اخْتَلَطَتِ الْمُسَمَّيَاتُ، وَحَسِبُوا الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمٌ.. عَزَفُوا عَنِ الرُّجُوعِ إِلَى الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ الَّذِينَ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى إِمَامَتِهِمْ وَفَضْلِهِمْ، وَسَمَّوْهُمْ عُلَمَاءَ الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ، وَفُقَهَاءَ الطَّهَارَةِ وَدَوْرَاتِ الْمِيَاهِ، بَلْ وَأَطْلَقُوا عَلَيْهِمْ لَقَبَ عُلَمَاءِ السَّلْطَةِ، بَلْ وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ مِنْهُمْ مَنْ تَطَاوَلَ وَتَجَرَّأَ وَكَفَّرَ عَالِمَ الْأُمَّةِ وَإِمَامَهَا الشَّيْخَ عَبْدَالْعَزِيزَ بْنَ بَازٍ، وَقَدْ سَمِعْتُ هَذَا بِأُذُنَيَّ وَكِدْتُ أُصْعَقُ، وَاسْتَغَلُّوا حَمَاسَ الشَّبَابِ وَأَوْرَدُوهُمُ الْمَهَالِكَ وَالْمَتَالِفَ، وَتَجَرَّءُوا عَلَى الْإِفْتَاءِ فِي مَسَائِلِ الدِّمَاءِ الَّتِي لَوْ عُرِضَتْ عَلَى عَالِمٍ مِنَ الْقُرُونِ الْخَيْرِيَّةِ لَجَمَعَ لَهَا أَهْلَ بَدْرٍ.

وَوَقْفَةٌ أُخْرَى مُهِمَّةٌ

وَمِنْ خَلْطِهِمْ لِلْأَوْرَاقِ تَسْمِيَتُهُمُ الْخُرُوجَ عَلَى الْحُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ جِهَادًا. وَهَذَا خَطَأٌ بَيِّنٌ فَادِحٌ، فَلَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَى الْحُكَّامِ إِنْ كَانُوا مُسْلِمِينَ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْحَاكِمِ الظَّلُومِ خَيْرٌ مِنْ فِتْنَةٍ تَدُومُ. وَالْوَاقِعُ يَشْهَدُ بِذَلِكَ،

وَمُحَاوَلَاتُ الْخُرُوجِ الْمُسَلَّحِ هَذِهِ أَتَتْ عَلَى الْأَخْضَرِ وَالْيَابِسِ، وَأَوْدَتْ بِالدَّعْوَةِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ نُسَمِيَ هَذَا بالْجِهَادِ، فَالْجِهَادُ الشَّرْعِيُّ مُصْطَلَحٌ عَظِيمٌ وَجمِيلٌ، وَذُرْوَةٌ عَالِيَةٌ يَخْتَارُ لَهَا اللَّهُ مَنْ يَصْطَفِيهِ مِنْ عِبَادِهِ.

❑ **أما سفك دماء المسلمين فهو من أكبر الكبائر:**

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ**»[1].

وَقَالَ ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَكَبَّهُمُ اللَّهُ ﷻ فِي النَّارِ**»[2].

وَقَالَ ﷺ: «**لَا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**»[3].

وَقَالَ ﷺ: «**لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا، فَإِذَا أَصَابَ دَمًا حَرَامًا بَلَّحَ[4]**»[5].

وَقَالَ ﷺ: «**يَجِيءُ الْمَقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ بِيَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ دَمًا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟ حَتَّى يُدْنِيهِ مِنَ الْعَرْشِ**»[6].

وَهَا نَحْنُ نَرُدُّ الْأَمْرَ إِلَى بَسَاتِينِهِ الْفَوَّاحَةِ؛ إِنْصَافًا لِفُرْسَانِ أُمَّتِنَا الْأَوَائِلِ، حَتَّى

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه عن البراء، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٩٥٤).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة معًا، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥١٢٣).
وَكَبَّهُم؛ أي: ألقاهم على وجوههم.

(٣) رواه أحمد والبخاري عن ابن عمر.

(٤) بَلَّحَ؛ أي: أعيا وانقطع.

(٥) **صحيح**: رواه أبو داود عن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت، ورواه أبو نعيم في «الحلية»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٥٧٠).

(٦) **صحيح**: رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٨٨٧).

يَنْعَمَ الْقَارِئُ وَيَأْنَسُ مَعَ هَؤُلَاءِ الأَكَابِرِ الَّذِينَ كَانُوا زِينَةَ الدُّنْيَا؛ جَمَالَهَا وَبُسْتَانَهَا، وَرَوْحَهَا وَرَيْحَانَهَا، وَأُنْسَهَا، وَرِجَالَ مَيْدَانِهَا.

وَأَخْتِمُ مُقَدِّمَتِي هَذِهِ بِاسْمِ اللَّهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. يَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ. يَا حَيُّ، يَا قَيُّومُ. اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي أَفْضَلَ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِكَ، وَعُدْ بِحِلْمِكَ وَرَحْمَتِكَ عَلَى جُرْمِي وَزَلَلِي وَحَمَاقَتِي وَجَهْلِي، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ، وَارْزُقْنِي جِوَارَ وَمُرَافَقَةَ رَسُولِكَ الْكَرِيمِ ﷺ وَاسْتُرْنِي فِي الدَّارَيْنِ، وَاجْعَلْ تَحْتَ السِّتْرِ مَا تُحِبُّ، وَوَرِّثْ هَمِّي فِيكَ مُنْتَهَى أَمَلِي، وَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ؛ دِقَّهُ وَجِلَّهُ، أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ، وَمَسِّكْنِي بِالإِسْلَامِ حَتَّى أَلْقَاكَ عَلَيْهِ، وَارْزُقْنِي الْعَافِيَةَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ خَوَاصِّ أَوْلِيَائِكَ، وَمَتِّعْنِي بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]، وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ تُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّكَ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّكَ، وَاجْعَلْ لِي فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ وُدًّا، وَلَا تَجْعَلِ الْحَيَاةَ عَلَيْنَا نَكَدًا.

اللَّهُمَّ مَا كَانَ مِنْ خَطَإٍ فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ، وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ فِي هَذَا الْجَمْعِ فَمِنْكَ، وَلَكَ الْمِنَّةُ وَالْفَضْلُ عَلَيَّ، فَضَعْ لَهُ الْقَبُولَ فِي الأَرْضِ، وَلَا تَجْعَلْنِي مِمَّنْ يَكُونُ غَيْرُهُ أَنْفَعَ بِوَعْظِهِ مِنْهُ.

يَا غَافِرَ الذَّنْبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ اغْفِرْ لِيَ مَقَابِحَ الْعَيْبِ، فَهِّمْنِي عَنْكَ، وَاسْلُكْ بِي سَبِيلَ الْمُوقِنِينَ.

أَسْأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَالأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ تَجْعَلَنِي فِي حِرْزِكَ وَحِفْظِكَ وَجِوَارِكَ وَكَنَفِكَ، وَاجْعَلْ وَجْهَكَ الْكَرِيمَ قَصْدِي وَبُغْيَتِي.

أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ؛ الْقَارِئَ لِكِتَابِي وَجَمْعِي هَذَا وَالنَّاظِرَ فِيهِ، هَذِهِ بِضَاعَةُ صَاحِبِهَا الْمُزْجَاةُ مَسُوقَةٌ إِلَيْكَ، وَهَذَا فَهْمُهُ وَجَمْعُهُ مَعْرُوضٌ عَلَيْكَ، لَكَ غُنْمُهُ وَعَلَى مُؤَلِّفِهِ وَجَامِعِهِ غُرْمُهُ، وَلَكَ ثَمَرَتُهُ، وَعَلَيْهِ عَائِدَتُهُ. فَإِنْ عُدِمَ مِنْكَ حَمْدًا وَشُكْرًا وَدُعَاءً لَهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِ سَيِّدُهُ وَمَوْلَاهُ بِأَفْضَلِ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِهِ، فَلَا يُعْدَمُ مِنْكَ عُذْرًا، وَإِنْ أَبَيْتَ إِلَّا الْمَلَامَ فَبَابُهُ مَفْتُوحٌ لِكُلِّ إِنْسَانٍ.

قَدِ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالثَّنَاءِ وَبِالْحَمْدِ وَوَلَّى الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا.

وَاللَّهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَهُ لِوَجْهِهِ خَالِصًا، وَيَنْفَعَ بِهِ مُؤَلِّفَهُ وَجَامِعَهُ وَقَارِئَهُ وَكَاتِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، كَرِيمُ الْعَطَاءِ، وَأَهْلُ الرَّجَاءِ، وَأَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَكَتَبَهُ

حَامِدًا شَاكِرًا وَمُصَلِّيًا عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ
الْفَقِيرُ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ وَسَائِلُهُ أَفْضَلَ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِهِ

سَيِّدُ بْنُ حُسَيْنٍ الْعَفَّانِيُّ
جمهورية مِصْر العربية
محافظةُ بني سويف ـ مركز بني سويف
قرية بني عفان. صندوق بريد (١٢٣)
ت ـ وفاكس ٧٧٠٥٢٢ / ٠٨٢
أو/ القاهرة ـ ٣٣ شارع قصر النيل
الدور (١١) شقة (١). ت/ فاكس: ٣٩٦٢٤٢٩ / ٠٢

الفصل الأول

فُرْسَانُ النَّهَارِ

لِمَاذَا؟

فُرْسَانُ النَّهَارِ لِمَاذَا؟

عندَ زئير الأسدِ في الصباح سَمَّوْنا بأسمائِنا
في ليلةِ مولدِ الذئبِ خَرَجْنا إلى الدنيا
وفي أعشاشِ النسور أرضعَتْنَا أمهاتُنا
ومنذ طُفُولَتِنا علَّمَنا آباؤُنا فنونُ الفروسيةِ
والتَّنَقُّلَ بخفةِ الطيرِ في جبالِ بلادِنا الوَعِرَة
لا إله إلا الله
لهذه الأمةِ الإسلاميةِ، ولهذا الوطنِ ولدتْنَا أمهاتُنا
ووقفنا دائمًا شجعانًا نلبي نداء الأمة والوطن
لا إله إلا الله
جبالُنا المكسورةُ بحجر الصَّوَانِ
عندما يُدَوِّي في أرجائها رَصَاصُ الحربِ
نقفُ بكرامةٍ وشرف على مَرِّ السنين
نتحدى الأعداءَ مهما كانتِ الصعابُ
وبلادُنا عندما تتفجَّرُ بالبارودِ
من المحال أن نُدفنَ فيها إلا بشرفٍ وكرامةٍ
لا إله إلا الله
جراحُنا تضمِّدُها أمهاتُنا وأخواتُنا بذكِر الله

ونظراتُ الفجرِ في عيونِهنَّ تثيرُ فينا مشاعر القوَةِ والتحدي
لا إله إلا الله
إذا حاولُوا تجويعَنا سنأكلُ جذورَ الأشجار
وإذا مُنِعَ عنا الماءُ سنشربُ نَدَى النَّبَاتِ
فَنَحنُ في ليلةِ مولدِ الذئب خَرجْنا للدنيا
ونحنُ دائمًا سنبقى مُطِيعين
للهِ وللوطنِ وهذه الأمةِ
لا إله إلا الله

إن الأمة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة، يهب لها اللَّه الحياة العزيزة في الدنيا، والنعيم في الآخرة، وما الوهن الذي أذلَّنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت، فأعدوا أنفسكم لعمل عظيم، واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة.

والموت لا بدَّ منه، ولن يكون إلا مرَّة واحدة، فإن جعلتموها في سبيل اللَّه كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة.

إن النفرة للجهاد في سبيل اللَّه انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع من ثقلة اللحم والدم، وتحقيق للمعنوي العلوي في الإنسان، وتغليب لعنصر الشوق ـ المجنَّح في كيانه ـ على عنصر القيد والضرورة.

بالجهاد الذي فيه الشُّقَة والعناء، يذهب الهمُّ والغمُّ، ولكنها الشُّقة البعيدة التي تتناحر دونها الهمم الساقطة، والعزائم الضعيفة، ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة المنخوبة، ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة.

كثيرٌ هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة، إنهم

ليعيشون على حاشية الحياة، وإن خُيِّل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب، واجتنبوا أداء الثمن الغالي، فالثمن القليل لا يشترى سوى التافه الرخيص.

أفلا عاقل يعلم أن الجنة تحت ظلال السيوف، وأن الرِّيَّ الأعظم في شرب كئوس الحتوف، وأنَّ من اغبرَّت قدماه في سبيل الله، حرَّمه اللَّه على النار، ومن أنفق دينارًا، كُتب له به سبعُ مئة دينار، وأن الشهداء حقًّا عند اللَّه من الأحياء، وأن أرواحهم في جوف طير خضر تتبوأ من الجنة حيث تشاء، وأنه لا يحسُّ ألم القتل إلا كمسِّ القرصة، وكم للموت على الفراش من سكْرة وغُصَّة. فهذا فضل لا يُضاهي، وخير لا يتناهى، فهل من متعرِّض لهذه الرتب وإن كان نيلها مقسومًا، وصرف عمره في طلبها وإن كان منها محرومًا، ومشمِّر للجهاد على ساق الاجتهاد.

هل من نفير إلى ذوي العناد من كل العباد، وتجهيز الجيوش والسرايا، وبذل الصلات والعطايا، وإقراض الأموال لمن يضاعفها ويزكِّيها، ودفع سلع النفوس من غير مماطلة لمشتريها، وأن ننفر في سبيل اللَّه خفافًا وثقالًا، ونتوجه لجهاد أعداء اللَّه رُكبانًا ورجالًا، وأن نجرَّ الخميس القمقام[1] إلى أولياء إبليس اللئام، حتى يخرجوا إلى الإسلام من أديانهم، ويُعطوا الجزية صغرة بأَيْمانهم، أو نستلب نفوسهم من أبدانهم، ونجتذب رءوسهم من تيجانهم، فجموع ذوي الإلحاد مكسَّرة، وجيوش أولي العناد مُدبرة مُدَمَّرة، وعزمات رجال الضلال مؤنثة مُصَغَّرة، أفلا نطير إليهم زرافات ووحدانا، ونغير عليهم رجالًا وفرسانًا، ونخاطر بالنفوس والمهج، ونركب قفر البَرِّ وثبج البحر لنيل الدَّرج، أفلا يبيت كل منا وسلاحه له ضجيعًا، ويصبح معترك الحروب للمسلمين ربيعًا، وحرُّ الوطيس لهم غيثًا مَريعًا[2].

أفلا نُبيد بأيدي الجلاد حماة الشرك وأنصاره، ونصولُ بنصول الحداد على

(١) القمقام: العدد الكثير.

(٢) المريع: الخصيب.

دُعاة الكفَّار؛ لنهتك أستاره، ونتطهَّر بدماء المشركين والكفَّار من أرجاس الذنوب وأنجاس الأوزار.

ألا من أيام تعود، تلمع البيض البواتر في ظلمات نَقْع كالدياجِرْ، وجريان الدم الذاخر من الحناجر بالخناجر، هُنالك تُفتح من الجنة أبوابها، وترتفع فرشها، وتُوضع أكوابها، وتبرز الحور العين عروبها وأترابها، هنالك يقوم للجهاد خُطَّابها، يضربون فوق الأعناق، ويستعذبون من المنيَّة مُرَّ المذاق، ويبيعون الحياة الفانية بالعيش الباق، يردون مورد الشهادة منهلًا لن يظمئوا بعده أبدًا، تربح تجارتهم وهم أسعد السعداء.

يا رجال الله، أتُقفل أبواب الجهاد فلا تُطرَق؟! وتُهمل أسبابه فلا ترمق! وُتَصَّفنُ خيوله فلا تركض! وتصمت طبوله فلا تنبض! وتربض أسوده فلا تنهض! أتمتد أيدي الكفرة الأذلاء إلى المسلمين فلا تُقبض! أتُغمد السيوف من أعداء الدين؛ إخلادًا إلى حضيض الدَّعَة والأمان! ويخرس لسان النفير إليهم فصاح نفيرهم في أهل الإيمان!

آمَتْ عروس الشهادة إذْ عدمت الخاطبين، وأمات الناسُ الجهادَ كأنهم ليسوا به مخاطبين، فلا نجد إلا من طوى بساط نشاطه عنه، أو اثاقل إلى نعيم الدنيا الزائل رغبةً منه، أو تركه جزعًا من القتل وهلعًا، أو أعرض عنه شُحًّا على الإنفاق وطمعًا، أوْ جهل ما فيه من الثواب الجزيل، أو رضِي بالحياة الدنيا من الآخرة، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

أفلا يقظة للهمم الرُّقَّدْ! أفلا نهضة للعزم المُقْعَد!

أيهوى نجم الجهاد بعد أن كان مشرِقًا سَنِيًّا، وينمحي رسْمُه واسمه كأن لم يكن له من قبل سَمِيًّا؟! (١)

---

(١) انظر: مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق لابن النحاس.

❑ فُرْسَانُ النَّهَارِ.. لِمَاذَا؟

حين نكتب عن فرسان النهار.. ونكتب عن الجهاد فذلك لأسباب؛ منها:

١ـ أن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وعلاة الهمم لا يرضون بالدون من الأمور:

أَيَا صَاحِ هَذَا الرَّكْبُ قَدْ سَارَ مُسْرِعًا وَنَحْنُ قُعُودٌ مَا الَّذِي أَنْتَ صَانِعُ
أَتَرْضَى بِأَنْ تَبْقَى الْمُخَلَّفُ بَعْدَهُمْ رَهِينَ الأَمَانِي وَالْغَرَامُ يُنَازِعُ
عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَا كَانَ بَاكِيًا أَيَذْهَبُ وَقْتٌ وَهْوَ بِاللَّهْوِ ضَائِعُ

«إن الجهاد والهجرة إلى الجهاد جزء أصيل لا يتجزأ عن طبيعة هذا الدين، والدين الذي ليس فيه جهاد لا يستطيع أن يثبت فوق أي أرض، ولا أن تستوي شجرته على سوقها، وأصالة الجهاد ـ التي هي من صميم هذا الدين، ولها وزنها في ميزان ربِّ العالمين ـ ليست ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة التي تَنَزَّلَ فيها القرآن، وإنما هو ضرورة مصاحبة لهذه القافلة التي يوجهها هذا الدين.

يقول الأستاذ/ سيد قطب في «الظلال» (٢/٧٤٢): «لو كان الجهاد ملابسةً طارئةً في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب اللَّه في مثل هذا الأسلوب، ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنَّة رسول اللَّه ﷺ وفي مثل هذا الأسلوب.

لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول اللَّه ﷺ تلك الكلمة لكل مسلم إلى قيام الساعة: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ**»[(١)].

إن اللَّه ـ سبحانه ـ يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك، ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه؛ لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم، ليس بالأمس فقط، ولكن اليوم وغدًا، وفي كل أرض، وفي كل جيل.

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

وإن اللَّه ـ سبحانه ـ يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفًا ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طريق سليمة موادعة، فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطر على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل.

ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة.

هذه جبلة.. وليست ملابسة وقتية.

هذه فطرة.. وليست حالة طارئة.

ومن ثم لا بد من الجهاد... لا بد منه في كل صورة.. ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير، ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود... ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح... ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة... وإلَّا كان الأمر انتحارًا، أو كان هزلًا لا يليق بالمؤمنين».

أَنَا لَا أَلُومُ الْمُسْتَبِدَّ إِذَا تَجَبَّر أَوْ تَعَدَّى   فَسَبِيلُهُ أَنْ يَسْتَبِدَّ وَشَأْنُنَا أَنْ نَسْتَعِدَّا

٢ـ الاستجابة للنداء الرَّباني:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

وقد أورد القرطبي (في تفسيره ٨/ ١٥٠) في تفسيرها عشرة أقوال:

﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾

١ـ روي عن ابن عباس: شبانًا وكهولًا.

٢ـ روي عن ابن عباس، وقتادة: نشاطًا وغير نشاط.

٣ـ الخفيف: الغني، والثقيل: الفقير، قاله مجاهد.

٤ـ الخفيف: الشاب، والثقيل: الشيخ، قاله الحسن.

٥ـ مشاغيل وغير مشاغيل، قاله زيد بن علي، والحكم بن عتيبة.

٦ـ الثقيل: الذي له عيال، والخفيف: الذي لا عيال له، قاله زيد ابن أسلم.

٧ـ الثقيل: الذي له ضيعة يكره أن يدعها، والخفيف: الذي لا ضيعة له، قاله ابن زيد.

٨ـ الخفاف: الرجال، الثقال: الفرسان، قاله الأوزاعي.

٩ـ الخفاف: الذين يسبقون إلى الحرب كالطليعة وهو مقدمة الجيش، الثقال: الجيش بأسره.

١٠ـ الخفيف: الشجاع، الثقيل: الجبان، حكاه النقاش.

والصحيح في معنى الآية: أن الناس أمروا جملة؛ أي: انفروا، خفت عليكم الحركة أو ثقلت. روي أن ابن أم مكتوم جاء إلى رسول اللّه ﷺ وقال له: أعليَّ أن أغزو؟ فقال: «**نعم**» حتى أنزل اللّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾.

وهذه الأقوال إنما هي على معنى المثال، في الثقل والخفة، ولا يشك عاقل أن حالتنا التي نعيشها في أفغانستان وفي فلسطين[1].. بل في معظم أرجاء العالم الإسلامي داخلة تحت نص هذه الآية.

فقد اتفق المفسرون، والمحدثون، والفقهاء، والأصوليون على أنه إذا دخل العدو أرضًا إسلامية، أو كانت في يوم من الأيام دارًا للإسلام، فإنه يجب على أهل تلك البلدة أن يخرجوا لملاقاة العدو، فإن قعدوا، أو قصروا، أو تكاسلوا، أو لم يَكْفُوا توسَّع فرض العين على من يليهم، فإن قصروا، أو قعدوا، فعلى من يليهم، وثم وثم حتى يعم فرض العين الأرض كلها، ولا يسع[2] أحدٌ تركَه؛ كالصلاة، والصيام بحيث يخرج الولد دون إذن والده، والمدين دون إذن دائنه، والمرأة دون إذن زوجها، والعبد دون إذن سيده، ويبقى فرض العين مستمرًا حتى تطهر البلاد من رجس الكفار.

---

(١) والعراق، وكشمير، والفلبين، والبوسنة والهرسك.

(٢) لا يسع: لا يجوز لأحد.

يقول ابن تيمية: «والعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا ليس أوجب بعد الإيمان من دفعه». والحق المبين الذي لا محيد عنه قول أبي طلحة عندما قرأ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قال: «شبانًا وكهولًا، ما سمع اللَّه عذر أحد»، ثم قال: «أي بني، جهزوني جهزوني، فقال بنوه: يرحمك الله، لقد غزوت مع النبي ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزوا عنك، فقال: لا، جهزوني»، فغزا في البحر، فمات في البحر، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلَّا بعد سبعة أيام، فدفنوه فيها، ولم يتغير رضي الله عنه.

يقول القرطبي (١٨/١٥١) في تفسيره: «إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعقر (أصل الدار)، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافًا وثقالًا، شبابًا وشيوخًا، كلٌّ على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه ومن لا أب له.

ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكثر، فإن عجز أهل تلك البلدة على القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم.

وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم، وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه - أيضًا - الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم، حتى إذا قام بدفع الغدو أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتلها سقط الفرض عن الآخرين.

ولو قارب العدو دار الإسلام، ولم يدخلوها لزمهم - أيضًا - الخروج إليه، حتى يظهر دين الله، وتحمى البيضة، وتحفظ الحوزة، ويخزى العدو، ولا خلاف في هذا، وما أجمل أبيات النابغة الجعدي وهو يخاطب زوجته التي ترجوه أن يجلس عند عائلته:

بَاتَتْ تُذَكِّرُنِي بِاللَّهِ قَاعِدَةً وَالدَّمْعُ يَهْطِلُ مِنْ شَأْنَيْهِمَا سَبِلًا[1]

---

(١) شأنيهما: طريقا الدمع. سبلًا: غزيرًا.

يَا بِنْتَ عَمِّي كِتَابُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي كَرْهًا وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللَّهَ مَا فَعَلَا؟
فَإِنْ رَجَعْتُ فَرَبُّ الْخَلْقِ أَرْجَعَنِي وَإِنْ لَحِقْتُ بِرَبِّي فَابْتَغِي بَدَلَا[١]
مَا كُنْتُ أَعْرَجَ أَوْ أَعْمَى فَيَعْذِرَنِي أَوْ ضَارِعًا مِنْ ضَنًى لَمْ يَسْتَطِعْ حِوَلَا[٢]

٣ـ اتباعًا للسلف الصالح:

فقد كان الجهاد ديدنًا للسلف الصالح، وكان ﷺ سيدًا للمجاهدين، وقائدًا للغرِّ الميامين، فكانوا إذا اشتد الوطيس يحتمون برسول اللَّه ﷺ، فيكون أقربَهُم للعدو، وعددُ مغازيه ﷺ التي خرج بنفسه فيها سبع وعشرون، وقاتل في تسع منها بنفسه: (بدر، وأُحد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف)، وهذا على قول من قال: مكة فتحت عُنْوَةً.

وكانت سراياه التي بعثها سبعًا وأربعين، وقيل: إنه قاتل في بني النضير. (نهاية المحتاج ٨/١٦).

وهذا يعني أن رسول اللَّه ﷺ كان يخرج في غزوة أو يرسل سرية في كل شهرين أو أقل.

وسار الصحب الكرام على سنَّة النبي الكريم ﷺ، فلقد كان القرآن الكريم يربي هذا الجيل تربيةً جهادية، ويحميهم من أن ينغمسوا في الدنيا كما يحمي أحدنا لديغه من الماء.

فقد روى الحاكم في «**المستدرك**» (٢/٢٧٥) وصححه ووافقه الذهبي: عن أسلم أبو عمران قال: حمل رجل من المهاجرين ـ بالقسطنطينية ـ على صف العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية.. إنما نزلت فينا، صحبنا رسول اللَّه ﷺ وشهدنا

(١) فابتغي بدلًا: تزوجي غيري.
(٢) ضارعًا من ضنى: ضعيفًا من مرض.

معه المشاهد، ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر.. اجتمعنا معشر الأنصار تحببًا، فقلنا: فقد أكرمنا اللَّه بصحبة نبيّه ﷺ حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين، والأموال، والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلنا وأولادنا، فنقيم فيهما، فنزل فينا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال، وترك الجهاد.

وقد روى عكرمة أن ضمرة بن العيص ـ وكان من المستضعفين في مكة، وكان مريضًا ـ فلما سمع ما أنزل اللَّه في الهجرة، قال: أخرجوني، فَهُيِّءَ له فراش، ثم وُضِعَ عليه، وخرج به فمات في الطريق بالتنعيم (على بعد ٦ كم من مكة)[١].

وأسند الطبري عمن رأى المقداد بن الأسود في «**حمص**» على تابوت صراف، وقد فضل على التابوت من سمنه، وهو يتجهز للغزو، فقيل له: عذرك الله، فقال: أبت علينا سورة البعوث: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وقال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل، فقال: استنفر اللَّه الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد، وحفظت المتاع.

وروي أن بعض الناس رأى في غزوات الشام رجلًا قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فقال له: يا عم، إن اللَّه قد عذرك، فقال: يا ابن أخي، قد أمرنا بالنفر خفافًا وثقالًا...[٢]

وهذا إبراهيم بن أدهم عندما أحسن بالموت قال: أوتروا لي قوسي، وتوفي وهي في كفه، ودفن في إحدى جزائر البحر في بلاد الروم..[٣].

وهذا عبداللَّه بن المبارك كان يقطع مسافة ألفين وستمائة كيلو متر راجلًا أو

---

(١) القرطبي ٥/٣٤٩.
(٢) القرطبي ٨/١٥١.
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/١٧٩٠]

راكبًا دابته؛ ليقاتل في سبيل اللَّه في ثغور المسلمين..[١]

وهذا زهير بن قمير المروزي يقول: أشتهي لحمًا من أربعين سنة ولا آكلها حتى أدخل الروم فآكله من مغانم الروم[٢]..

وهذا قاضي الكوفة عروة بن الجعد كان في بيته سبعون فرسًا مربوطةً للجهاد[٣]..

وهذا محمد بن واسع كان من العبَّاد المحدِّثين، الغزاة المرابطين؛ يقول عنه القائد قتيبة بن مسلم الباهلي: «لَإِصْبَعُ محمد بن واسع تشير إلى السماء في المعركة أحب إليَّ من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير (قوي)»[٤]..

وهذا أحمد بن إسحاق السرماري يقول: «أعلم يقينًا أني قتلت بسيفي هذا ألف تركي، ولولا أن يكون بدعة لأمرت أن يدفن معي»[٥]..

وهذا أبو عبداللَّه بن قادوس؛ لكثرة قتله من نصارى الأندلس، كان النصراني إذا سقى فرسه فلم يقبل على الماء قال له: مالك، أرأيت ابن قادوس في الماء؟[٦]...

وهذا بدر بن عمار يقتل الأسد بسوطه، فيمدحه المتنبي:

أَمُعَفَّرَ اللَّيْثَ الْهِزَبْرَ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا

مُعَفَّر: ممرِّغ بالتراب. الْهِزَبْرُ: الأسد. الصَّارِمُ: السيف.

وهذا عمر المختار، يقول عنه غراسياني القائد الإيطالي: لقد خاض عمر المختار مع جنودنا (٢٦٣) معركة خلال عشرين شهرًا، أما مجموع معارك فقد بلغت

---

(١) عبداللَّه بن المبارك، د. المحتسب.
(٢) ترتيب المدارك للقاضي عياض ٣/٢٤٩.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات ١/٣٣١.
(٤) المشوق في الجهاد ٦٦].
(٥) تهذيب التهذيب لابن حجر ١/١٤.
(٦) المشوق في الجهاد ٧٧ .

ألف معركة.

وهذا الشيخ محمد فرغلي، كان الإنجليز في الإسماعيلية يعلنون حالة الطوارئ في معسكراتهم إذا دخل الفرغلي المدينة، وقد دفع الإنجليز خمسة آلاف جنيه لمن يأتي برأسه حيًّا أو ميتًا.

وهذا يوسف طلعت، كان يُسمى جزار الإنجليز؛ لكثرة ما قتل منهم في قناة السويس؛ فأعدمهما عبدالناصر»[(١)].

٤ـ لقلة الرجال وندرة الفرسان:

عن عبدالله بن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول الله ﷺ «**إِنَّمَا النَّاسُ كَإِبِلٍ مِئَةٍ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً**»[(٢)].

لقد آن أوان الرجال، وهذا مقام الفعال دون حال المقام.

فَدَعْ عَنْكَ نَهْبًا صَحِيحًا فِي حُجُرَاتِهِ وَلَكِنْ حَدِيثًا مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ[(٣)]

وأزمة العالم الإسلامي اليوم أزمة رجال يضطلعون بحمل المسئولية والقيام بأعباء الأمة.. فارس يحمل همَّ الإسلام بعد أن تخلى الفرسان.. نسر يعلو إلى الأعالي بعد أن سقط الجميع إلى الحضيض والقيعان.

ولله در القائل في هذا الفارس الذي لا يعرف العيش إلا حساما:

لِأَنَّكَ لَا تَعْرِفُ الْعَيْشَ إِلَّا حُسَامَا

---

(١) الحَقْ بالقافلةِ «للدكتور عبدالله عزام » ص (١٤ ـ ٢٢) دار ابن حزم.

(٢) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه.

أي: أن الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل؛ لقلة الراحلة في الإبل، والراحلة هي البعير القوي على الأسفار والأحمال النجيب التام الخلق الحسن المنظر، ويقع على الذكر والأنثى، والهاء فيه للمبالغة.

(٣) البيت لامرئ القيس، ومعناه الحرفي: اترك الحديث عن الحجرات التي نهبت أمتعتها، وحدثني عن قطيع الجمال القوي التي عليها مدار حياتنا. وهذا مثال يقال لمن يتحدث عن الأمور التافهة ويدع الأمور العظيمة.

وَلَا تَعْرِفُ الْمَوْتَ إِلَّا شَهَادَهْ
لِأَنَّكَ تَفْضَحُ فِينَا الْخِيَانَهْ..
لَا تَشْتَهِينَا وُجُوهٌ كَسَتْهَا الْبَلَادَهْ
سَيَقْرَؤُكَ الْقَادِمُونَ عَلَى كُلِّ لَحْظَهْ..
صِدْق...
وَيَرْسُمُكَ الطَّالِعُونَ خُطُوطَ إِرَادَهْ
لِأَنَّكَ تَعْرِفُ أَنَّ الْحُسَامَ الَّذِي..
يَسْتَكِينُ لِغَمْدٍ يَمُوتُ
وَأَنَّ السُّيُولَ الَّتِي لَيْسَ تَجْرِفُ..
كُلَّ الصُّخُورِ تَمُوتُ
وَأَنَّ الحِصَان الذي لا يخبُّ يموتْ
تحدَّيت هذا السكوتْ
تحدَّيْت هذا الهوانَ المقيتْ
وأعْلنتَ... والليل حولك يضربُ..
أطنابَهُ..
أن فجرك آتٍ،..
وصبحك يركض نحو بلاد،
يعشعشُ في قلبها العنكبوتْ
الضياءُ الذي في فؤادِك يَصْهلُ..

والليل ليلٌ مقيتْ

والأحبَّة ـ حين تذكرتهم ـ

أشعلوك انتصارًا لمجدك..

ها أنت ذا تستميتْ

والرياح التي حَوْل هذي القبور...

يصفرُ فيها المساءُ المُميت

والأسى في فوادي يرسمُ..

أنشودةً مُخرَسةْ

والنشيد الذي أرتجيه..

يسافرُ تحت ظلال السيوفِ..

ويطلع في الليلة الدامسةْ

وردة من ضياءٍ، وريحانةً هامسةْ

فلعل جهادك يفرح أجواءَنا العابسَةْ

ولعل الذين يبيعون وجهك

يا نسرنا

يدركون بأنك لن تتبدَّدْ

وستبقى مع الخالدين نشيدًا تجدَّدْ

«لك اللَّه يا دعوةَ الخالدين

لقد أوشك البغي أن يهمدَا

نشرنا دمانا الزكيَّة نورًا
يضيء الظلامَ، ويجلو الهدى»

* * *

إنك أنت الوحيد الذي ما تبلَّدْ
فهل نفروا مثلما قد نفرتَ...؟
وهل سهدوا مثلما ـ أنت مُسْهَدْ؟
وهل عرفوا لغة السيف يأبى المذلَّة
يا سيفنا المشرئب الذي..
ليس يُغمد؟
وها أنت طاولت كل النجوم...
وها هم عبيدُ القرودِ..
وها هم وطاءٌ لكُلِّ مُشَرَّدْ
تساميتَ كالأقحوانِ..
وأُرهفتَ ... فالكلُّ جَلْمَدْ...
فهمْ كالحجارة... لا حسَّ فيها
ولكنكَ الآن نبعٌ تَوَلَّدْ
وما غير وجهك فينا ـ لواءٌ
وما غير صوتك فينا يُغَرِّدْ
فيا ويحَ من أسلموا وجههم

للخيانة ...، وارتكنوا للتجمُّدْ

ويا ويحَ ريح الخيانة...

حين تمرُّ على كل أرضٍ،

فتطفئ روح التمرُّدْ

ويا ويحهم أشعلوا في المدى

شعلةً من ضِرام، وأنشودة تتوقَّدْ

هو الليل... يا نسرنا،

حاصر المترفين بقاعاتِ..

هذا المساء المبدَّدْ

هو الليل... يا نسرنا،

أوغلتْ في القلوب نصال الخيانة...

والكل أرْمَدْ

وما عادَ يملؤنا غير خوفِ الذئابِ...

وزَهْو القرود...

وصمتُ التبلُّدْ

وما عاد فينا حسامٌ جرئٌ...

فما ثَمَّ غُرٌّ، ولا ثم خيلٌ...

ولا ثَمَّ سُؤدَدْ

وما عادَ إلا رُوَيْبضةٌ،

فوق كُرْسيِّة يُتقن الدَّوْرَ..

في ريبه يتردَّدْ

وما عاد وجه الأُلى ملئوا الأرض...

عدلا...

وصاروا على الشهب... عِزًّا

وكانت لهم ساحة الأرض...

مسجِدْ

وهل أنت إلا جوادٌ يخبُّ..

سيفٌ مجرَّدْ؟

وهل أنت إلا كتابٌ..

سيقرؤهُ القادمونَ حروفا تُغَرِّدْ؟

وهل أنت إلا الثباتُ الأَبيُّ...؟

وهل أنت إلا التجرُّدْ؟

وهل أنت إلا الزمانُ النقيُّ..

يخاطبنا عَبْرَ هذي الفيافي

فنشقى ونسعَدْ؟

ويدمغُ من يذبحون الرجولة فينا

ويدحضُ من يفقدون اليقين المؤكَّدْ

❊ ❊ ❊

المساء المُلَبَّدْ
وصورة «مَدْريدَ» في صفحةِ الخزي
والكلُّ يَرْتَدْ
وأقنعةٌ فوق هذي الوجوهِ البليدةِ...
في قاعة العار تُعبَدْ
وأصوات خرسٍ يبيعوننا...
فوق هذي الموائد..
لا يحسبون حسابًا لطفل سيولَدْ
ويلعنهم حينَ يَرشَدْ
ويومًا سيرجمهم في قبور الخيانة
صَوتُ السنين المُنَدِّدْ
المساء الملبَّدْ
وهذا الغطيط الذي تستحمُّ..
الخرائط فيه...
وأكذوبةٌ تتردَّدْ
وريحٌ تفجَّرُ من داخل الصمتِ..
تعلو وتزبدْ
وتزحف من كل صوبٍ
وتطلع من كل مسجِدْ

«سئمنا الخيانةَ والخائنينا

سئمنا السنين الكذوبةَ...

تحمل هذا البقاءَ المهينا

سئمنا بلادًا على صدْرها

يجلس المجرمونا

سئمنا عيون الذئاب اللقيطة...

تغزو الجلودَ ... وتسمل منا العيونا

سئمنا سئمنا...

سئمنا المجونا

وهذي الكئوس التي خَدَّرتْنَا سنينَا

وهذي العباراتِ ما أرجعت أرضنَا

فاعتقونا

وما حررَّت قدسنا

أيها القاتلونا

سئمناكُمُ كالدُّمى

فوقَ هذي الخرائطِ وَجْهًا خئونا

سئمنا.. سئمنا

لأن الخرائط أضحَتْ سجونا»

* * *

المساء المُلبَّدْ

وصوتُك يا نسرنا

منذ حلَّ المساءُ...

وأوغل هذا الظلام المعربِدْ

وعادت خفافيشه تترصَّدْ

يسافر في زمرة القابضينَ...

على الجمر... والجَمْر مُوقَدْ

ووجهكَ... يا نسرنا راحةُ القلبِ...

في زمن أقفرتْ أرضُهُ...

من إمامِ مُوَحِّدْ

فلا تبتئسْ،

إنَّ فينا من الذكِر آيًا

تصبِّرنا في التهجُّدْ

وفينا من القبس النبويِّ..

مشاعل ضوءٍ تبث اليقين.. بأرواحنا

في زمان الترَدُّدْ[1].

* * *

(١) قصيدة «لأنك لا تعرف العيش إلا حسامًا» من ديوان «الجواد المهاجر» لطاهر العَتَباني ص (٢١ - ٣٠) دار الوفاء.

٥ـ تبصير المؤمنين بغاية الجهاد وأهدافه

إن للجهاد غايات وأهدافًا جليلة كثيرة؛ منها:

ـ تعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد، وإزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعًا حتى تنتهي الفتنة الكبرى وهي الشرك ويكون الدين كله لله:

إن للجهاد حِكَمًا بالغةً وأهدافًا جليلةً؛ لأن الذي شرعه هو العليم الخبير، فما دام أن الآمِرَ به هو الحكيم فالحكمة والمصلحة ثابتة فيه قطعًا، وَتَلَمُّسُ حكمة الجهاد لا يتوقف القيام به على معرفتها عند المسلم الصادق؛ فإن مقتضى العبودية أن ينفذ العبد أمر سيده عرف حكمته أو لم يعرف، ولكن معرفة الحكمة تقوي العزائم، وتشحذ الهمم، وتيسر أمر التكاليف على المكلفين ونحو ذلك من الفوائد والمصالح، ولنرجع إلى ما أمرنا اللَّه بالرجوع إليه ـ الكتاب والسنة ـ نأخذ منهما أهداف الجهاد وغايته.

الهدف الرئيسي هو تعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد، وإزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعًا، وإخلاء العالم من الفساد؛ وذلك لأن خضوع البشر لبشر مثلهم وتقديم أنواع العبادة لهم من الدعاء والنذر والذبح والتعظيم والتشريع والتحاكم هو أساس فساد الأجيال المتعاقبة من لدن نوح ﷺ إلى يومنا هذا، وهو انحراف بالفطرة السوية عما خلقها اللَّه عليه من التوحيد؛ كما قال ﷺ عن اللَّه قال: «**وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا...**» الحديث(١).

فهدف الجهاد الإسلامي الأكبر هو إرجاع البشر إلى الأصل وهو الملة الحنيفية

(١) صحيح مسلم مع النووي (١٧/١٩٨).

التي تخضعهم لرب العالمين، وتجعلهم يستمدون منه ـ سُبْحَانَهُ ـ منهج حياتهم الدنيا، ويعبدونه كما أمر، ولا يعبدون أحدًا غيره، وهذا الخضوع لله هو الذي يحقق لهم السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

يقول سيد قطب ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ تحت عنوان «**منهج متفرد**»: «والآن يقول قائل: إذا كان الإسلام وهو منهج اللَّه للحياة البشرية لا يتحقق في الأرض وفي دنيا الناس إلا بالجهد البشري، وفي حدود الطاقة البشرية، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في البيئات المختلفة، فما ميزته إذن على المناهج البشرية التي يضعها البشر لأنفسهم، ويبلغون منها ما يبلغه جهدهم في حدود طاقتهم وواقعهم؟! ولماذا يجب أن نحاول تحقيق ذلك المنهج، وهو يحتاج إلى الجهد البشري ككل منهج، فلا يتحقق منه شيء بمعجزة خارقة ولا بقهر إلهي ملزم، وهو يتحقق في حياة الناس في حدود فطرتهم البشرية وطاقتهم العادية وأحوالهم الواقعية، ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ابتداء؛ لنحقق لأنفسنا صفة الإسلام؛ فركن الإسلام الأول: أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول الله، وشهادة «**أن لا إله إلا الله**» معناها القريب: إفراد اللَّه ـ سبحانه ـ بالألوهية وعدم إشراك أحد من خلقه معه في خاصية واحدة من خصائصها، وأولى خصائص الألوهية حق الحاكمية المطلقة الذي ينشأ عنه حق التشريع للعباد، وحق وضع المناهج لحياتهم، وحق وضع القيم التي تقوم عليها هذه الحياة؛ فشهادة «**أن لا إله إلا الله**» لا تقوم ولا تتحقق إلا بالاعتراف بأن لله وحده حقَّ وضعِ المنهج الذي تجري عليه الحياة البشرية، وإلا بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لأسباب تتعلق بالمنهج ذاته فهو وحده المنهج الذي يحقق كرامة الإنسان، ويمنحه الحرية الحقيقية، ويطلقه من العبودية، هو وحده الذي يحقق له التحرر الكامل الشامل المطلق في حدود إنسانيته وعبوديته لله؛ التحرر من العبودية للناس بالعبودية لله رب الناس، وما من منهج آخر في الأرض يحقق هذه الخاصية إلا الإسلام.. ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج، لأنه وحده المنهج المبرأ من

نتائج الجهل الإنساني والقصور الإنساني براءته من نتائج الضعف البشري؛ فواضعه هو خالقُ هذا الكائن الإنساني العليمُ بما يصلحه ويصلح له، وهو المطلع على خفايا تكوينه وتركيبه وخفايا الملابسات الأرضية والكونية كلها في مدى الحياة البشرية كذلك»[١].

والأدلةُ على أن هدف الجهاد الأكبر «تعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد، وإزالة الطواغيت كلها من الأرض، وإخلاء العالم من الفساد» كثيرةٌ جدًّا.

يقول اللَّه ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

ويقول - تعَالَى -: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩].

قال ابن كثير: «ثم أمر - تعَالَى - بقتال الكفار؛ ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شرك، قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ومقاتل بن حيان والسُّدِّيُّ وزيد بن أسلم، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾؛ أي: يكون دين اللَّه هو الظاهر على سائر الأديان»[٢].

وقال ابن الجوزي: «﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ قال ابن عباس: أي يخلص له التوحيد»[٣].

وقال ابن جرير الطبري: «فقاتلوهم حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا اللَّه وحده لا شريك له؛ فيرتفع البلاء عن عباد اللَّه من الأرض وهو الفتنة، ويكون الدين كله

---

(١) هذا الدين، لسيد قطب ص (١٥ - ٢٠).
(٢) ابن كثير (١: ٣٢٩).
(٣) زاد المسير (١: ٢٠٠).

لله، وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره»[١].

وقال الشوكاني: «﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فيه الأمر بمقاتلة المشركين إلى غاية هي ألا تكون فتنة وأن يكون الدين لله وهو الدخول في الإسلام والخروج عن سائر الأديان المخالفة له، فمن دخل في الإسلام وأقلع عن الشرك لم يَحِلَّ قتاله»[٢].

ويقول الرسول ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[٣].

ويقول ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»**[٤].

ويقول ﷺ: **«بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله ـ تَعَالَى ـ وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري»**[٥].

وقد كان هذا الهدف العظيم للجهاد حاضرًا في حس الصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ أثناء معاركهم مع أعداء الله؛ ففي صحيح البخاري عن جبير بن حية قال: «فندبنا عمر، واستعمل علينا النعمان بن مُقَرِّنٍ حتى إذا كنا بأرض العدو خرج علينا عامل كسرى في أربعين ألفًا، فقام ترجمان فقال: ليكلمني رجل منكم. فقال المغيرة: سل عما شئت. قال: ما أنتم؟ قال: نحن أناس من العرب كنا في شقاء شديد وبلاء شديد، نمص الجلد والنوى من الجوع، ونلبس الوبر والشعر، ونعبد

---

(١) تفسير الطبري (١٣/٥٣٧).
(٢) فتح القدير، للشوكاني (١: ١٩١).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٣: ٤٩).
(٤) صحيح البخاري مع الفتح (١: ٧٢).
(٥) مجمع الزوائد (٦: ٤٩) وقال: رواه أحمد وفيه عبدالرحمن بن ثابت وثقه المديني وغيره، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات. وَصَحَّحَهُ الألباني.

الشجر والحجر، فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السموات ورب الأَرَضِينَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ وَجَلَّتْ عَظَمَتُهُ - إلينا نبيًّا من أنفسنا نعرف أباه وأمه، فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا اللَّه وحده أو تؤدوا الجزية، وأخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه من قُتِلَ منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط ومن بقي منا ملك رقابكم»[(١)].

وذكر ابن كثير قصة ربعي بن عامر رضي الله عنه لما بعثه سعد بن أبي وقاص إلى رستم وفيها: «... فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي والحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإِلَّا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق؛ فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: اللَّه ابتعثنا؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه؛ لندعوهم إليه فمن قَبِلَ ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أَبَى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال الجنة لمن مات على قتال من أَبَى والظفر لمن بقي...»[(٢)].

وهذا الهدفُ السامي المتضمن لإعلاء كلمة اللَّه - وهي الإسلام -، وإقامة سلطان اللَّه في الأرض، وَجَعْل كلمة الذين كفروا السفلى، وإخلاء العالم من الفساد الأكبر الذي هو الشرك وما ينتج عنه، وإزالة الطواغيت الذين يحولون بين

(١) صحيح البخاري مع الفتح (٦: ١٩٠).
(٢) البداية، لابن كثير (٧: ٣٩).

الناس وبين الإسلام ويعبدونهم لغير اللَّه ـ موضعُ اتفاقٍ بين علماء الإسلام، وهاهي ثلة من أقوالهم.

يقول الشافعي: «فَدَلَّ كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ أن فرض الجهاد إنما هو على أن يقوم به مَن فيه كفاية للقيام به حتى يجتمع أمران:

أحدهما: أن يكون بإزاء العدو المخوف على المسلمين مَن يمنعه.

والآخر: أن يجاهد من المسلمين مَنْ في جهاده كفايةٌ حتى يُسْلِمَ أهل الأوثان أو يعطي أهل الكتاب الجزية»(١).

ويقول محمد بن الحسن: «فرضية القتال المقصود منها إعزاز الدين وقهر المشركين»(٢).

ويقول ابن القيم: «والمقصود من الجهاد إنما هو أن تكون كلمة اللَّه هي العليا ويكون الدين كله لله... فإن من كون الدين كله لله إذلال الكفر وأهله وصغاره وضرب الجزية على رءوس أهله والرق على رقابهم فهذا من دين اللَّه ولا يناقض هذا إلا ترك الكفار على عزهم وإقامة دينهم كما يحبون بحيث تكون لهم الشوكة والكلمة»(٣).

ويقول ابن عبدالبر المالكي: «يقاتل جميع أهل الكفر من أهل الكتاب وغيرهم من القبط والترك والحبشة والفزارية والصقالبة والبربر والمجوس وسائر الكفار من العرب والعجم، يقاتلون حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»(٤).

«ويقول سيد قطب: «إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته ودوره في هذه الأرض وأهدافه العليا التي قررها اللَّه وذكر اللَّه أنه

---

(١) الأم، للشافعي (٤: ١٦٧).
(٢) السير الكبير، للشيباني (١: ١٨٨).
(٣) أحكام أهل الذمة، لابن القيم (١: ١٨).
(٤) من كتاب الكافي في فقه أهل المدينة المالكي، للحافظ ابن عبدالبر ص (٤٦٦).

أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات، إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد ـ ومن العبودية لهواه أيضًا وهي من العبودية للعباد ـ وذلك بإعلان ألوهية الله وحده ـ سبحانه ـ وربوبيته للعالمين، إن إعلان ربوبية اللَّه وحده للعالمين معناها الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور أو بتعبير آخر مرادف الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور، ذلك أن الحكم الذي مرد الأمر فيه إلى البشر ومصدر السلطات فيه هم البشر هو تأليه للبشر يجعل بعضهم لبعض أربابًا من دون الله، إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان اللَّه المغتصب ورده إلى اللَّه وطرد المغتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب ويقوم الناس منهم مقام العبيد، إن معناه تحطيم مملكة البشر؛ لإقامة مملكة لله في الأرض أو بالتعبير القرآني الكريم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ذلك الدين القيم، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

ومملكة اللَّه في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم هم رجال الدين كما كان الأمر في سلطان الكنيسة ولا رجال ينطقون باسم الآلهة كما كان الحال في ما يعرف باسم «الثيوقراطية» أو الحكم الإلهي المقدس، ولكنها تقوم بأن تكون شريعة اللَّه هي الحاكمة وأن يكون مرد الأمر إلى اللَّه وفق ما قرره من شريعة مبينة، وقيام مملكة اللَّه في الأرض وإزالة مملكة البشر وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد ورده إلى اللَّه وحده وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان؛ لأن المتسلطين على رقاب

العباد المغتصبين لسلطان اللَّه في الأرض لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين اللَّه في الأرض وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل ـ صلوات اللَّه وسلامه عليهم ـ، وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال، إن هذا الإعلان العام لتحرير الإنسان في الأرض من كل سلطان غير سلطان اللَّه بإعلان ألوهية اللَّه وحده وربوبيته للعالمين لم يكن إعلانًا نظريًّا فلسفيًّا سلبيًّا؛ إنما كان إعلانًا حركيًّا واقعيًّا إيجابيًّا، إعلانًا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة اللَّه ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك؛ ومن ثَمَّ لم يكن بد من أن يتخذ شكل الحركة إلى جانب شكل البيان؛ ذلك ليواجه الواقع البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه والواقع الإنساني أمس واليوم وغدًا يواجه هذا الدين بوصفه إعلانًا عامًّا لتحرير الإنسان في الأرض من كل سلطان غير سلطان اللَّه بعقبات اعتقادية تصورية، وعقبات مادية واقعية، وعقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة، وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد، وإذا كان البيان يواجه العقائد والتصورات فإن الحركة تواجه العقبات المادية الأخرى وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة، وهما معًا ـ البيان والحركة ـ يواجهان الواقع البشري بجملته بوسائل مكافئة لكل مكوناته وهما معًا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض، الإنسان كله في الأرض كلها، وهذه نقطة مهمة لا بد من تقريرها مرة أخرى.

إن هذا الدين ليس إعلانًا لتحرير الإنسان العربي وليس رسالة خاصة بالعرب، إن موضوعه هو الإنسان نوع الإنسان، ومجاله هو الأرض كل الأرض، إن اللَّه ـ سبحانه ـ ليس ربًّا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية

وحدهم، إن اللَّه هو رب العالمين وهذا الدين يريد أن يرد العالمين إلى ربهم وأن ينتزعهم من العبودية لغيره، والعبودية الكبرى في نظر الإسلام هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر وهذه هي العبادة التي يقرر أنها لا تكون إلا لله وأن من يتوجه بها لغير اللَّه يخرج من دين اللَّه مهما ادعى أنه في هذا الدين، ولقد نص رسول اللَّه ﷺ على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي صار بها اليهود والنصارى مشركين مخالفين لِمَا أُمِرُوا به من عبادة اللَّه وحده؛ أخرج الترمذي بإسناده عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول اللَّه ﷺ فَرَّ إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم مَنَّ رسول اللَّه ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول اللَّه ﷺ، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول اللَّه ﷺ وفي عنقه - أي عدي - صليب من فضة وهو - أي النبي ﷺ - يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم.

وتفسير رسول اللَّه ﷺ لقول اللَّه - سبحانه - نص قاطع على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين وأنها هي اتخاذ بعض الناس أربابًا لبعض، الأمر الذي جاء هذا الدين ليلغيه ويعلن تحرير الإنسان في الأرض من العبودية لغير الله؛ ومن ثَمَّ لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في الأرض؛ لإزالة الواقع المخالف لذلك الإعلان بالبيان وبالحركة مجتمعين، وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تُعَبِّد الناس لغير الله؛ أي تحكمهم بغير شريعة اللَّه وسلطانه والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى البيان واعتناق العقيدة بحرية لا يتعرض لها السلطان، ثم لكي يقيم نظامًا اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي بعد إزالة القوة المسيطرة سواء كانت سياسية بحتة أو متلبسة

بالعنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد»[١]. اهـ[٢].

وكانت دعوة الإسلام إلى التوحيد دعوة أيضًا إلى قطع دابر الذين تسنموا ذروة الألوهية واستعبدوا الناس ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾

٦ـ رد اعتداء المعتدين على المسلمين:

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [التوبة: ١٣].

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: «**إنما بعثتك؛ لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء تقرؤه نائمًا ويقظان، وإن اللَّه أمرني أن أُحَرِّقَ قريشًا؛ فقلت: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا**[٣] **رأسي فيدعوه خبزة. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْزِكَ، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشًا نبعث خمسةً مثلَهُ، وقاتل بمن أطاعك مَنْ عصاك...**» الحديث[٤].

وقد تقدم معنا أن علماء الإسلام أجمعوا على أن رد اعتداء الكفار عن المسلمين فرض عين على كل قادر.

ومن ذلك ما فعله الناصر صلاح الدين ومن قبله القسيم بن القسيم نور الدين

---

(١) في ظلال القرآن (٣/١٤٣٣ ـ ١٤٣٥)، **وانظر**: أيضًا: كلام أبي الأعلى المودودي الذي نقله سيد قطب في الظلال (٣/١٤٤٨ ـ ١٤٥١).

(٢) أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية، للدكتور علي بن نفيع العلياني ص (١٥٨ ـ ١٦٦)، دار طيبة.

(٣) يثلغ: يكسر ويشدخ.

(٤) صحيح مسلم مع شرح النووي (١٧/١٩٨).

محمود زنكي من رد اعتداء الإفرنج الصليبيين على ديار المسلمين وأخذهم للمسجد الأقصى وقتلهم لآلاف من المسلمين في القدس حتى غاص قائد الصليبيين في دماء المسلمين إلى ركبتيه، وبعد عشرات من السنين في إذلال المسلمين وقهرهم كان استرداد بيت المقدس على يد البطل صلاح الدين الأيوبي.

ولما خرج الأذفونس واعتدى على بلاد المسلمين في الأندلس بجيش عدته مئة ألف من المشاة وثمانين ألفًا من الفرسان تصدى لهم يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد في سهل الزلاقة وكان النصر العظيم للمسلمين.

وقبل هذا كله نجدة المعتصم لامرأة مسلمة لما صاحت ونادت في بلاد الروم: **«وامعتصماه»**!!.

رُبَّ وامعتصماهُ انطلقتْ مِلْءَ أفواه الصبايا اليُتَّمِ
صادفت أسماعنا لكنها لم تصادف نخوة المعتصم

في سنة (٢٢٣ هـ) أوقع ملك الروم توفيل بن ميخائيل بأهل ملطية وما وَالَاهَا ملحمة عظيمة، قتل فيها خلقًا كثيرًا من المسلمين، وأسر ما لا يحصون كثرة، وَمَثَّلَ بمن وقع في أسره من المسلمين، فقطع أنوفهم وآذانهم وسمل أعينهم، قَبَّحَهُ الله، وكان جملة مَن أسر ألف امرأة من المسلمات.

فلما سمع بذلك المعتصم انزعج لذلك جدًّا وصرخ في قصره بالنفير، ثم نهض من فوره، وأمر بتعبئة الجيوش، واستدعى القاضي والشهود، فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع: ثلثه صدقة، وثلثه لولده، وثلثه لمواليه، وقال للأمراء: أي بلاد الروم أمنع؟ قالوا: عمورية، لم يعرض لها أحد مذ كان الإسلام، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية، فاستدعى الجيوش وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال، فأنكاهم نكاية عظيمة، لم يُسمع بمثلها لخليفة، وقتل منهم ثلاثين ألفًا وسبى مثلهم.

أما سمعتَ بأرض الرومَ مسلمةً تشكو «لمعتصم» ظُلْمَ المغيرينا

فتسبق الخيلُ أصوات استغاثتها وتملأ الكون صيحاتُ المُلَبِّينا
وتصرخ اليوم آلافٌ مُؤَلَّفَةٌ فهل سمعتَ سوى أحزانِ باكينا
ونحن نسمعُ أصوات استغاثتها وليس نُسْمِعُهَا إلا أغانينا
«خضر مرابِعُنَا بيضٌ صنائِعُنَا سودٌ وقائعنا حُمْرٌ مواضينا»
ويسبَحُ الطُّهْرُ - طُهْرُ البِكْرِ - في دمه ونحن نسبح في أحلام ماضينا

لولا تعطيل المسلمين لهذا الركن ما اسْتُبِيحَتْ أغلى أوطانهم ومقدساتهم، ولما أخذ المغضوب عليهم من شراذم اليهود فلسطين وانتزعوها من أيدي المسلمين، ولما اعتدوا على بلاد المسلمين في البوسنة والهرسك وألبانيا وفعلوا بهم الأفاعيل، والمقابر الجماعية التي تضم المئات والآلاف خير شاهد على ذلك.

وهل كان يظن أحد أن عاصمة الرشيد بغداد تسقط؛ بسبب هذا العلماني سفاك الدماء تلميذ مشيل عفلق صدام حسين الذي أذل شعبه وضرب المسلمين من الأكراد بالقنابل المحرمة دوليًا، واعتدى على جيرانه من الكويتيين ثم تسقط بغداد درة بلاد المسلمين.

إن ما فعله الصليبيون في معركة «عاصفة الصحراء» أو «المجد للغذراء»، وما فعلوه عند دخولهم العراق وبعد احتلالهم له تشيب منه النواصي والولدان: من اغتصاب للنساء، وقتل للأطفال - بعد قتلهم قبل ذلك بالتجويع - وهدم المساجد، وانتهاك حرمتها، وإدخالهم الألوف من المنصرين، واستيلائهم على ثروات العراق ونفطه.. إن هذا كله لم يحدث إلا بعد أن ضاعت هوية العراق الإسلامية لتصبح علمانية بعثية محاربة لله ولرسوله، أذلت المسلمين أكبر من ذل الأمريكان لهم.ز فهل من عودة والعود أحمد.. حتى نقول بصدق « بغداد عودي».

* * *

بغداد عودي

بغدادُ خَارَتْ[١] فحزنُ العُمرِ أَحزانٌ والعينُ نهرُ الدِّما والهمُّ شُطآنُ
والنَّارُ تكوي الحنايا فالطَّوى سُعُرٌ[٢] تجتاحُ قلبي فبردُ القلبِ نيرانُ
والعارُ يَخْفِضُ هام العِزِّ في صَلَفٍ[٣] حتَّى كَأَنَّ رُءوسَ العُرْبِ عُبْدانُ
في كُلِّ آنٍ[٤] لنا بَيْتٌ نُشَيِّعُهُ بينَ الدُّموعِ وتتلو البيتَ أَوْطَانُ
ولَيْسَ يَبْرا[٥] لنا جُرْحٌ نُضَمِّدُهُ إِلَّا وَيَنكأُ[٦] جُرْحَ القَلْبِ بُركانُ
ولَيْسَ يَرْقَأُ[٧] دَمْعٌ في مَدَامِعِنَا إِلَّا ويَنْزِفُ في الأَحْشاءِ طُوفَانُ
نَبِيتُ والقُدسُ تبكي في جَوانِحِنَا[٨] فَتُرْسِلُ الآهَ عبرَ القَلْبِ شِيشَانُ
وتُسْفِرُ[٩] الشَّمسُ في كَشميرَ مُظْلِمَةً إِثْرَ الدَّواهِي وتُورِي[١٠] القَلبَ لُبْنَانُ
وكَمْ نَغِيبُ عن الدنيا فَتَحْسَبُنَا صَرْعى يُخَبِّطَ في ألبابِنَا[١١] الجَانُ
وكَمْ يطِيشُ لنا لُبٌّ ولا مَرَضٌ لكنما الداءُ بَغدادٌ وسُودَانُ

❑ بغدادُ سِحْرُ الدُّنَا

إِنِّي لأبكي وما أبكيكِ فاتنةً تَسْبي العُيونَ بها للحُسْنِ أَلْوَانُ

---

(١) خارت: خار الرجل: ضعف وانكسر.
(٢) سُعُر: جمع سعير: النار أو لهب النار.
(٣) صَلف: كِبْر، وثقل روح.
(٤) آن: الآن: ظرف للوقت الحاضر، والمراد: في كل وقت.
(٥) يبرا: يبرأ، برئ المريض بُرْءًا: شفي وتخلص مما به.
(٦) ينكأ: نكأ الجرح نَكئًا: أعاد فتحه قبل اكتمال شفائه.
(٧) يرقأ: رقأ الدمع رَقْئًا: سكن وجفَّ وانقطع بعد جريانه.
(٨) جوانحنا: الجوانح: جمع الجانحة؛ وهي: الضلع القصيرة مما يلي الصدر.
(٩) تسفر: سفر سُفُورًا: وضح وانكشف وأضاء وأشرق.
(١٠) توري: أورى النار: أوقدها.
(١١) ألبابنا: الألباب: جمع اللبِّ؛ وهو: العقل.

ونَهْرُ دِجْلَةَ يجري بينَ أَضْلُعِهَا شهدًا سَكُوبًا فَزَهْرُ الرَّوْضِ ثَمْلَانُ
إِذ غَازَلَتْهُ الصَّبَا[١] فَجْرًا فَلَاطَفَهَا وَرَفَّ بَيْنَ النَّدى وَرْدٌ ورَيْحَانُ
وَبَانَ[٢] سِرُّ الهوى عطرًا وهَفْهَفةً رَغْمَ الحَيَاءِ وهَل للشَّوقِ كتمانُ؟!

❑ بغدادُ عِطر الدُّنَا

إِنِّي لأبكي ولا أَبْكي لعابقَةٍ قَرَّ الزَّمانُ بها مُذْ كَانَ أَزْمَانُ
إِذْ كُلُّ رُكْنٍ لَدَى «الكَرْخِيِّ»[٣] راويةٌ ثكلى تُحَدِّثُ عَنْ أَمْجادِ مَنْ كَانُوا
حتَّى تَخالَ شُخوصَ القَوْمِ حاضِرةً فوقَ العُروشِ وتَعْلُوهُنَّ تِيجانُ

❑ بغدادُ صَرْحُ[٤] الدُّنَا

إنِّي لأبكي وما أبكيكِ شاهقةً قَصْرًا مَشِيدًا لَهُ صَرْحٌ وإيوانُ[٥]
إذ الرَّصَافَةُ[٦] في عَيْنَيكِ سَامِقَةٌ رَفَّ العبَيرُ بها وازْدَانَ مَيدَانُ
والأعظميةُ[٧] طرحُ النهر فَاتِنَةٌ بها القصورُ تُدَاعِبُهُنَّ أَفْنَانُ
بغدادُ يَبْكِيكِ دَمْعُ الْقَلْبِ مسْلِمَةً قَدْ سَامَهَا[٨] الذُّلَّ دُونَ الخلقِ صِبْيَانُ
أبكي فَتاةً كَطُهْرِ الثَّلْجِ بَاكِيةً قَدْ غَالَ[٩] عِفَّتَهَا كَلْبٌ وذُؤْبَانُ

---

(١) الصَّبا: ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار.
(٢) بان: بان الشيء بيانًا: ظهر واتضح.
(٣) الكرخيُّ: الاسم الدارج لـ«الكرخ»، وهو أحد شطري بغداد، والذي يمثل الجزء القديم منها.
(٤) صرح: الصرح: القصر العالي أو البناء العالي الذاهب في السماء.
(٥) إيوان: الإوان والإيوان: مجلس كبير على هيئة صُفَّة واسعة، لها سقف محمول من الأمام على عقد، يجلس فيه كبار القوم.
(٦) الرصافة: شطر بغداد الجديد.
(٧) الأعظمية: أرقى أحياء الرصافة.
(٨) سامها: سام الشيء سَوْمًا وسَوَامًا: لزمه ولم يبرح عنه.
(٩) غال: غال فلانًا غولًا: أخذه من حيث لا يدري فأهلكه.

أبكي الصِّغارَ ولا ماءٌ ولا شَجرٌ[١] خَلْفَ الخِيامِ ولا دِفْءٌ وَتَحْنَانُ[٢]
والبردُ يَنْهَسُ[٣] في أحْشَائِهِمْ نَهِمًا[٤] وَهَلْ تَقِي البردَ أَسْمَالٌ[٥] وأَغْصَانُ؟!
يَا طَالَمَا قَرَّحَتْ قَلْبِي مَدَامِعُهُمْ وَقَدْ تَقَافَزَ بينَ يَدَيَّ وِلْدَانُ
أبْكي الرِّجَالَ وذُلُّ العَارِ يَدْمَغُنَا[٦] أَنْ تَسْتَذِلَّ أُنوفَ الصِّيدِ[٧] نِسْوَانُ!!
دَارَ الرَّشِيدِ وَقَدْ أَصْبَحْتِ أُحْجِيَةً[٨] حَارَ الأَرِيبُ[٩] بِهَا فَالصَّمْتُ تِبْيَانُ
نَقْفُورُ[١٠] عَادَ وَلَا هَارُونُ يُلْجِمُهُ نَارًا فَيَجْثُو[١١] وَمِلْءُ القَلْبِ إِذْعَانُ
نَقْفُورُ عَادَ وَتِلْكَ الغُرْبُ قَدْ بَسَطَتْ لَهُ الرُءوسَ وكَيفَ تَثُورُ جِرْذَانُ[١٢]؟!
وَيْحَ الأَكَابِرَ مِنْ قومِي تَجَاذَبهم عَنِ السَّبِيلِ أَبَاطِيلُ وأَوْثَانُ!!
فَمَشْرِقيٌّ رَأى لِينينَ بُغْيَتَه فَالكُفْرُ لُبٌّ لَهُ والدِّينُ عُنْوانُ
تَغْدو الْبِلَادُ عَلى كَفَّيهِ مَقْبرةً وَمَنْ سَينْجُو فَمسْجُونٌ وسَجَّانُ
يَقْعَى[١٣] هُنَاكَ وَجَوفُ الأَرض يَلْفُظُهُ والأَرْضُ رُوحٌ لَهُ حِسٌّ وتِبْيَانُ
أَوْ «مَغْرِبيٌّ» هَوَى في الغَرْبِ «لَوْثَتَهُ» خَلْفَ السُّتُورِ لَه في الغَرْبِ أَخْدَانُ[١٤]

---

(١) لا ماء ولا شجر؛ أي: لا طعام ولا شراب.
(٢) تحنان: حنان.
(٣) ينهس: نهس اللحم نهسًا: أخذه بمقدم أسنانه ونتفه للأكل. نَهَشَ الشيء نهشًا: تناوله بفمه ليعضه.
(٤) نَهِمًا: نَهِمَ في الشيء نَهَمًا: أفرط الشهوة أو الرغبة فيه.
(٥) أسمال: جمع سَمَل؛ وهو: الثواب الخَلِقُ البالي.
(٦) يدمغنا: دمغ فلانًا دمغًا: شجه حتى بلغت الشجة دماغه، أخرج دماغه، محاه.
(٧) الصِّيد: جمع الأَصْيَدِ؛ وهو: كل ذي حول وطول من ذوي السلطان.
(٨) أحِجية: لغز يتبارى الناس في حله.
(٩) الأريب: العاقل الداهية.
(١٠) نقفور: ملك من ملوك الروم، ذو واقعة شهيرة مع هارون الرشيد.
(١١) يجثو: جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه.
(١٢) جرذان: جمع جرذ: ضَرب من الفأر.
(١٣) يقعى: أقعى الكلب: جلس على استه مفترشًا رجليه وناصبًا يديه.
(١٤) أخدان: جمع خِدْن؛ وهو: الصاحب في السر وأكثر ما يقال في الفاحشة.

يَهوى «الحضَارَة» عِند الغَربِ رَاقيةً ... وَاخَجلتَاهُ وَهَلْ للعِهرِ[١] أَوْزَانُ؟!!
أَوْ «يعْرُبيٌ» رأى الأعْرَابَ تمْنعُهُ ... إنْ غَارَ سَيلُ العِدَا أَو عَمَّ طُوفَانُ
تُرَى تَنَاسَى حَدِيثًا كَانَ أَذْهَلَنَا ... عَمَّا جَنَتْ سَالِفًا عَبْسٌ وَذُبْيَانُ
أَمْ قَدْ تَنَاسَى عِظَاتِ الدَّهْرِ صَادِقَةً ... كَيفَ اسْتَبَاحَ الحِمَى رُومٌ وَغَسَّانُ؟!
وآخرُ «موطِنيٌ» هَمُّهُ وَطَنٌ ... فليسَ دِينٌ ولا قُرْبى وإخوانُ
وكيفَ تَنْهَضُ أشلاءٌ مُبعثَرَةٌ ... وقد تهاوَتْ لدى الأَدْوَاءِ[٢] أبدانُ؟!!
كم ضَلَّلُونَا بأسماءٍ مُرَقَّشَةٍ ... رَقْشَ الفلاحِ وتحتَ الرَّقْشِ[٣] خُسرانُ
وانقادَ مِنَّا قطيعُ الجَهْلِ يَتْبَعُهُمْ ... نَحْوَ الحُتُوفِ[٤] كما تنقادُ ثِيرانُ!!!
كما الفراشاتُ تطوي الرَّحْبَ لاهثةً ... خلفَ الضِّياءِ فتُصْلِيهِنَّ[٥] نيرانُ
بغدادُ هل قد تناسَوْا طهر شرعتنا ... أم ما تسامى[٦] لها عقلٌ ووجدانُ؟!
تاللهِ لو لامسوا يومًا بشاشَتَهَا ... ما فارقوا هَدْيَهَا أو كانَ سُلوانُ
شَرْعُ عَليٍّ حِسانُ الخَلْقِ لُجَّتُهُ[٧] ... وقانتاتٌ[٨] الحِجَا[٩] والرَّوحِ شُطْآنُ
تهفو إليه قلوبُ الخَلْقِ قاطبةً ... كما يَحِنُّ إلى المحبوب هَيْمانُ[١٠]
وكَمْ تَضِلُّ فتأويها مرافِئُهُ[١١] ... كما تَجِنُّ[١٢] رِقاقَ الطَّيْر أَفْنَانُ

---

(١) العِهْر: الفجور والزنى.
(٢) الأدواء: جمع الداء؛ وهو: المرض.
(٣) رقش: رقش كلامه ترقيشًا: زَوَّقه.
(٤) الحُتُوف: جمع الحَتْفِ؛ وهو: الموت.
(٥) تُصْليهن: تحرقهن.
(٦) تسامى: سَمَا سُمُوًّا: علا وارتفع.
(٧) لُجَّته: لُجَّة البحر: عمقه ومعظمه.
(٨) قانتات: قنت قنوتًا: أطاع.
(٩) هيمان: مشتاق إلى محبوبه. (١٠) الحِجَا: العقل.
(١١) مرافئه: مرافئ: جمع مَرْفَأ؛ وهو: مرسى السفن.
(١٢) تَجِنُّ: تخفى وتستر.

فكيفَ تهجرُ دربَ النورِ أُمَّتَنَا يَحْدُو خُطاهَا بليل التِّيهِ شَيْطَانُ؟!
وكيف تصرف عنه القلب زاهدة وقَدْ أتَتْهُ على الأَشْوَاقِ أكْوَانُ؟!
كَمْ خَدَّرُوكِ بِبَعْثٍ[1] وَاعِدٍ زَعَمُوا يُحْيِي الأَشَاوِسَ[2] والصِّيد الأُلى كَانُوا
وتُصْبِحِينَ فما «بَعْثٌ»[3] سِوى «عَبَثٍ» بِشَرعِ رَبيِّ فلا هَدْيٌ وقُرْآنُ
بَعْثٌ جديدٌ ولكِنَّا إلى عَدَمٍ وَكَيْفَ تَنْهَضُ بالأَجْدَاثِ[4] أكْفَانُ
قَتْلٌ ونَفْيٌ وتَشْرِيدٌ ومَذْبَحَةٌ وَدَارُ لَهْوٍ وإِرْهَابٌ وقُضْبَانُ
وَكَيْفَ تَسْمُو إِلَى الْعَلْيَاءِ قُبَّرَةٌ[5] أَمْ كَيْفَ يُثْمِرُ زُبْدَ الطَّلْحِ[6] سَعْدَانُ[7]
فكيفَ تَرْقُبُ مِنهُ النَّصْر يا وَطني وذا حديثُ الأُلَى للبَعْثِ عُنوانُ
«آمنتُ بالبعثِ رَبًّا لا شريك لَهُ وبالعروبةِ دينًا ما لهُ ثَانِ»[8]
بغدادُ قُولي فكيفَ اللهُ ينصُرنا أليسَ عُقبى جُحود الحَقِّ خُذلانُ؟!
بغدادُ لا تعجبي فالعُرْبُ ما فَقِهتْ بوحَ الدُّهورِ وأَعْمَى قَلْبَهَا الرَّانُ[9]
راحَتْ تَطِيرُ إلى الأعداءِ أَفْئِدةٌ فالحبُّ مهرٌ وخلعُ الدِّينِ قُربانُ!
طَوْرًا جِهارًا وأَطْوارًا مُوارَبَةً لها وأعدا العِدَا صِهْرٌ وأَخْدَانُ!
طَوْرًا جِهارًا وعينُ الشَّعْبِ سِاذِجَةٌ[10] فالدِّينُ سَمْحٌ وأَصْلُ النَّاسِ إِخوانَ!!

---

(١) ببعث: حزب البعث: وهو حزب في العراق وسوريا له مبادئ تناقض الشريعة.
(٢) الأشاوس: جَمعُ الأَشْوَسِ؛ وهو: الجريء الشجاعُ.
(٣) بعث: حزب البعث: وهو حزب في العراق وسوريا له مبادئ تناقض الشريعة.
(٤) الأجْداث: جمع جدث؛ وهو: القبر.
(٥) قُبَّرةٌ: طائر صغير.
(٦) الطَّلْحُ: الموز.
(٧) سَعدان: نبت ذو شوك كثير ولكنه جيد كمرعى.
(٨) هذا البيت لأحد كبار شعراء حزب البعث.
(٩) الران: الغطاء الكثيف والحجاب الذي يغطي القلب من الذنوب فيمنعه من رؤية الحق حقًّا والباطل باطلًا.
(١٠) ساذجة: خالصة غير مشوبة؛ والمراد: قليلة الخبرة.

والدِّينُ شَيءٌ وأَغْراضُ الدُّنا أُخَرُ ... مَاذا يَضيرُ وهُمْ لِلخَيرِ أَعْوانُ؟!
كَأَنَّ مَا رَاعَنا مِنْ أَهْلِ أَنْدَلُسٍ ... خطْبٌ ولا مِن حليفِ اليومِ عُدوانُ!!
كَلَّا ولا قَدْ أتانا عَنْ سريرتِهِمْ ... فَصْحٌ جَلِيٌّ به هَدْيٌ وفُرقَانُ!!
هُمُ العَدُو وبُغضُ السِّلْمِ دَيْدَنهُمْ[1] ... مُذْ كَان سِلْمٌ ومُذْ قَدْ كَان كُفْرانُ
تَبْدُو العداوةُ رَغْمَ المكْرِ سَافِرَةً ... بينَ الشِّفاهِ وملءُ الصَّدْرِ شَنْآنُ[2]
ودُّوا لَوَ انَّا عَنِتْنا[3] تِلْكَ مُنْيتهُمْ ... يسرِي بتِلكَ المُنَى في القوم شُريَانُ!!
إنْ عَنَّ[4] فَرْحٌ لنا يومًا ففرحتُهمْ ... في أَنْ يَعُمَّ دِيارَ السِّلْمِ خُسرانُ!!
لا يَرقُبونَ[5] بِنَا إلًّا[6] ولا ذِمَّةً[7] ... وهَلْ لِنَبْتِ الخَنَا[8] عَهْدٌ وأَيمَانُ؟!
قُلنا الفُظُوهُمْ فإنَّ اللهَ أَبْعدهُمْ ... فالزَّورُ رُوحٌ لَهُمْ والغَدْرُ لُحْمَانُ
قُلنا مِرارًا فقالوا ما لكم صِلَةٌ ... بِنا دَعُونا فإنَ القَوْمَ إخْوَانُ
واليومَ عادَ رِفاقُ الأَمْسِ يا وطني ... أَعْدا الأَعَادِي وأَوْدى الحِقْدَ أَضْغانُ
عادُوا جميعًا فَمنْ لم يأتِ عَسْكرُه ... بذَّ[9] الجحافِل تأييدٌ وإذعانُ
جَاءُوا جَمِيعًا تُثِيرُ الهند غزوَهُمُ ... وتفضَحُ السرَّ إثْر السرِّ يُونانُ
جاءُوا عِيانًا وتحت الستر «طارقُهم»[10] ... يُبدى الخفاءَ فيأْوِيهِ الـ«بريطانُ»

(١) ديدنهم: الدَّيْدَنُ والدَّيْدَان: العادة والدأب.
(٢) شنآن: الشَّنَآن: البغض.
(٣) عنتنا: أصابنا العَنَتُ؛ وهو: الشدة.
(٤) عَنَّ: عَنَّ الشيء عَنًّا وعُنونًا: بدا وظهر.
(٥) يرقُبون: رَقَب رقْبًا وَرَقُوبًا: حفظ وحرس.
(٦) إلا: الإلُّ: العهد والقرابة.
(٧) ذمة: الذمَّة: العهد والأمان والحق والحرمة.
(٨) الخنا: الفحش في الكلام.
(٩) بذَّ: غلب وفاق وسبق.
(١٠) طارقهم: طارق عزيز نائب وزير الخارجية العراقي وطلبه حق اللجوء السياسي إلى بريطانيا.

جاءوا جميعًا فلا تَغْرُرْكَ خُلْفتُهم[١] فما تَوانَى[٢] غَداةَ الخَطْبِ ألمانُ[٣]
هِيَ المصالحُ قَدْ أذكَتْ[٤] خِلافَهُمْ لا ليسَ دينٌ ولا عَدْلٌ وإنسانُ
جَاءوا جميعًا وفاقَ الكفرَ شيعتُنا[٥] أَمَا أَتاكِ حَديثُ القَوْمِ إِذْ خَانُوا؟[٦]
تَجْري الخيانَةُ في أَرْواحِهِمْ أبَدًا مَجْرى الدِّماءِ بها للغَدْرِ أَلْحَانُ
كم ذَا يُسامِرُني التَّاريخُ غَدْرهُمُ وكيفَ كَادُوا لدينِ اللهِ مُذْ كانوا
وكيفَ بَاعُوا قِبابَ القُدْسِ بَاكِيةً[٧] كَيْما يَعِيشوا فهَلْ يَفْدِيكِ خَوَّانُ؟!
وكيفَ كَادُوا صلاحًا[٨] وابتَغُوا دَمَهُ وكَيْفَ تَصْلَى بغدرِ القَوْمِ لُبنانُ[٩]
لا زِلْتُ أَقرأُ في عينيكِ غَدْرَتهمْ إذ الرَّوافِضُ والأعداءُ أخدانُ[١٠]
عادَ الكلابُ ونارُ الغدرِ تأكُلُنا تُرى تُعيدُكِ يا بُغدادُ أَحْزَانُ
بَغْدادُ لا تَعْجبي فالُعربُ قد لَفَظَتْ رُوحَ العُروبَةِ حتَّى خَرَّ بُنيانُ
راحَتْ تنكَّرُ للإسلام في سَفَهٍ بعدَ الوِدادِ وأقسى الجُرحِ نُكرانُ
حتَّى غَدَوْنا كَأَنَّ السِّلْمَ عِلَّتُنا وأَنَّ سِرَّ تَدَانِي القومِ إيمانُ!!
حتَّى رَجَعْنا رُعاةَ الشَّاةِ ثانيةً تُغيرُ بَكْرٌ وتَسْبى الأُخْتَ غزوان
نَغْزُو الكُوَيْتَ ونَعْمَى عَنْ مَذَابِحِنا عِنْدَ اليهودِ فلا تَحْزُنْكِ إيرانُ

(١) خلفتهم: الخلفة: الاختلاف.
(٢) توانى: ونى وَنْيًا: فتر وضعُف وتأخّر.
(٣) فتح مستشفيات ألمانيا لمصابي حادث المطار من قوات المارينز.
(٤) أذكت: ذكى النار: ألهبها.
(٥) شيعتنا: الشيعة إحدى الفرق الضالة للمسلمين.
(٦) خيانة الشيعة بإخبارهم عن المجاهدين العرب.
(٧) تنازل الفاطميون عن القدس للصليبيين مقابل خروجهم سالمين.
(٨) محاولتهم اغتيال صلاح الدين الأيوبي ثلاث مرات.
(٩) الدور القذر للشيعة ضد المسلمين السنة في الحرب الأهلية بلبنان.
(١٠) خيانة ابن العلقمي الرافضي عند سقوط بغداد.

صِرْنَا الخَواءَ وكُلُّ صَمَّ مَسْمَعَهُ ... يبغي الأَمَانَ وعافَ النُّطْقَ فُرسانُ
صِرْنَا الشَّتاتَ ولَيْلُ التِّيهِ مَرْتَعُنا ... ثَورٌ يسيرُ لمَهْلَكِه فثِيرانُ
واحَسْرَةَ القَلْبِ لا سِلْمٌ يُجَمِّعُنا ... نَحْوَ المَعَالَي وما في القومِ رُبَّانُ
بَغْدادُ لا تَعْجبي فالعُرْبُ قَد مَجَنت[1] ... ولِلمعَاصِي لدى الهَيْجَاءِ[2] خُذلانُ
وكَفْكِفي الدَّمْعَ إنَّ القومَ قَدْ فَسَقُوا ... وعُدَّةُ الحَرْبِ قبلَ الرُّمْحِ إيمانُ
فهَلْ رِجَالُكِ والهَيْجاءُ قَدْ حَمِيَتْ ... أُسْدٌ وتَحْتَ جَناحِ الليلِ رُهْبَانُ؟!
تِلْكَ الأَعَادِي أَعَدَّتْ نارَها سَقَرًا ... ونَحْنَ عُدَّتُنا رقْصٌ وأَلْحَانُ!!
فكَيْفَ أُمِّي تَرَيْنَ النَّصْر عَنْ كَثَبٍ[3] ... وقَدْ تَنَاغى[4] بِكِ المَاخُورُ[5] والحَانُ[6]؟!
بَغْدادُ دَارَ زَمانُ العِهْرِ دَوْرَتَهُ ... وعاثَ بينَ القُصورِ البِيضِ صِبْيَانُ
جاءَ الأَعَادِي وجُلُّ القومِ مُعْتَضِدٌ ... بَيْنَ الجَواري وجُلُّ القَوْمِ ثَمْلَانُ
بغدادُ قُولي وهذِي حَرْبُ مُعْتَقَدٍ ... أَيَنْصُرُ الدِّينَ مَنْ للعِهْرِ قد دانُوا؟![7]
عُرْبٌ وكُلُّ عَتادِ العُرْب مِن قِدَمٍ ... في عَنْتَرِيِّ الهِجَا نَثْرٌ وأَوزانُ
جاءَ الأَعَادِي وقَالَ النَّارَ قالَتُهم[8] ... تُرى يَفُلُّ[9] لظى البارودِ سَحْبَانُ[10]
بغدادُ أَمِّي ولا آلوك[11] مَوْعِظَةً ... هذا حديثي ودمعُ القَلْبِ هَتَّانُ

---

(١) مجنت: مَجَنَ مُجُونًا: قل حياؤه.
(٢) الهَيْجاء: الحرب.
(٣) كَثَب: قُرْب.
(٤) تناغى: ناغى فلانًا: لاطفه بالمحادثة والملاعبة.
(٥) الماخور: بيت الريبة (الزنى).
(٦) الحان: محل بيع الخمور.
(٧) دانوا: دان: خضع وذل.
(٨) قالتهم: القالة جمع قائل.
(٩) يفل: فل السيف فلًّا: كسر حده.
(١٠) سحبان بن وائل خطيب العرب وكان يضرب به المثل في الفصاحة.
(١١) آلوك: ألا، ألوًا: فتر وضعف وقصر؛ أي لا أقصر في نصحي لك.

بغدادُ لا تَيْأَسِي فاليأسَ مهلكةٌ واطوي الشُّجونَ فلَنْ تُجديكِ أشجانُ
تِلكَ الخُطوبُ أراها أنبتَتْ همَمًا مِنَ المَوَاتِ فَهَبَّ لَدَيْكِ وَسْنانُ
بغدادُ عُودي فدارُ السِّلم ما فتأتْ[1] تُومي[2] إليكِ ودَوحُ السِّلْمِ فَيْنانُ
بغدادُ عُودي إلى الإسلام خاشعةً يعدُو إليك الحيا والعز والشآنُ[3]

إن استقراء كتاب اللَّه ـ تَعَالَى ـ وسنة رسوله ﷺ ليؤكد تأكيدًا لا ريب فيه أن السبب الرئيس في هزيمة الأمة الإسلامية في كل معركة في عصرنا الحاضر إنما هو تخلي هذه الأمة عن سر قوتها.. وهو تمسكها بمبادئ دينها.. فإن المعصية أضر على الجيش من سيوف أعدائه، وإنه لا سبيل للنصر إلا بالعودة إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥][4].

سيتحدث التاريخ عما فعله إيفان الرهيب (قيصر روسيا) بالمسلمين في القوقاز أثناء حكمه «١٥٤٧ـ ١٥٨٤م»، وما فعلته إمبراطورة الروس «**تسارينا آنا**» «١٧٣٨ـ ١٧٥٥م» بمساجد المسلمين في قازان.

سيتحدث التاريخ أن «**ستالين**» نفى شعب الشيشان بأكمله عام ١٩٤٥م «١,٢ مليون» إلى سيبريا، وظل الشعب منفيًّا حتى سُمح له بالعودة عام ١٩٥٧م، وأنه نفاهم قبل ذلك في فبراير عام ١٩٤٤م إلى سيبريا، وقد مات ٥٠٪ من الشعب الشيشاني أثناء هذا التهجير القسري من الأطفال والنساء بسبب سياسة التجويع

---

(١) ما فتأت: ما زالت.
(٢) تومي: يومي: يشير.
(٣) قصيدة «بغداد عودي» لعبد الله العفاني.
(٤) ديوان: حداء الغرباء للشاعر عبد الله العفاني

حتى الموت[١].

أبادت روسيا أكثر من ٢٠مليون مسلم[٢].

وما فعله سلوبودان ميلوسفيتش بالمسلمين في كوسوفا يفوق الخيال... حول حياة المسلمين إلى جحيم مستعر؛ لدفعهم إلى التخلي عن وطنهم والرحيل عنهم طوعًا أو كرهًا[٣].

٧ـ إزالة الفتنة عن الناس حتى يستمعوا إلى دلائل التوحيد من غير عائق:

وحتى يروا نظام الإسلام مطبقًا؛ ليعرفوا ما فيه من عدل وإصلاح للبشر، وما فيه من سمو في شتى المجالات.

والفتنة ثلاثة أنواع:

النوع الأول: ما يمارسه الكفار من أشكال التعذيب والتضييق على المسلمين؛ ليرتدوا عن دينهم. وقد ندب الله المسلمين للجهاد؛ لإنقاذ المستضعفين. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

وفي هذا لا تكفي ـ والله ـ لسرد مآسي المسلمين على مدار التاريخ عند ضعفهم مئاتُ المجلدات، على يد الكافرين، وصنوفهم شتى.. بداية من أكل لحومهم بعد قتلهم، كما حدث أثناء الحروب الصليبية في معرَّة النعمان، واغتصاب النساء أمام الآباء والولدان، وجعل المساجد لرعي الخنازير، وعلى قبابها تعلو الصلبان.. اقرءوا التاريخ حتى لو كانت قلوبكم أقسى من الحجر، وانظروا إلى مآسي المسلمين

---

(١) محنة الشيشان، لشعبان عبدالرحمن ص (٧٤ ـ ٧٦)، دار الوفاء.

(٢) الدفاع عن أراضي المسلمين، للدكتور عبدالله عزام ص (١٢٤)، مكتبة المنار ـ الأردن.

(٣) كارثة المسلمين الجديدة كوسوفا بين التسوية والأساطير، لمحمد يوسف عدس ص (١٥)، المختار الإسلامي.

المستضعفين في فلسطين، وأفغانستان، والعراق والفلبين، والشيشان، وكشمير، وقبلها في الأندلس، ومحاكم التفتيش[١].

ماذا فعل الشيوعيون في يوغسلافيا بالمسلمين؟

زجوا بآلاف المسلمين في السجون، وبخيرة الشباب والعلماء، وعزم الحزب الشيوعي على إبادتهم إعدامًا؛ كما فعل أسلافه في الماضي حين قتلوا الفتى عصمت مفتيش والعالم الجليل عصمت يوصلا جيتش، كما أبادوا أكثر من اثني عشر ألف مسلم في المسجد الكبير بفوجا في شرق بوسنة، وعندما ذبحوا أكثر من ستة آلاف مسلم في جسر قورا جدة على نهر الدريفا، وعندما أبادوا أكثر من ثلاثة آلاف في توزلا وضواحيها، وأكثر من ستة آلاف مسلم في مقدونيا، وتم إعدام اثني عشر عالمًا مسلمًا ألبانيًا في محاكم الشيوعيين، وإرسال عشرات من علماء البوسنة للسجون على رأسهم العالم قاسم دوبراجا ـ عليه رحمة اللَّه ـ، وأعيدت تلك المحاكمات عدة مرات للمحاكمة تحت المادة ١٣٣ الفترة الأولى والثانية بتهمة الدعاية المضادة للدولة والاتصال بجهات خارجية[٢].

وفي البوسنة والهرسك بعد سقوط يوغسلافيا ذُبح الآباء أمام الأبناء.

صبتُ المسكرات بالقوة في أفواه القاصرات، وحَقْنِهِنَّ بدماء الخنازير قبل الاغتصاب؛ امرأة تموت فورًا فيغتصبها جندي صربي مباشرة بعد موتها ـ وكان يقول: لا تزال ساخنة، يمكنني أن أفعل ذلك... اغتصاب آلاف الفتيات والنساء من مسلمي البوسنة .. المقابر الجماعية للمئات، ذبح الآلاف كما تُذبح الشياه، قطع الرءوس بالمناشير الكهربائية، وتعليق الرءوس على جانبي الطرق وفي المساجد، اغتصاب المئات من القاصرات ما بين خمسة سنوات إلى اثنتى عشرة سنة..

نناديكم وقد كَثُرَ النحيبُ نناديكم ولكِنْ من يجيبُ

(١) نحيلك على كتاب: «قادة الغرب يقولون: دمِّروا الإسلام أبيدوا أهله»، لجلال العالم.

(٢) الدفاع عن أراضي المسلمين ص (١٢٠).

تـعـثـرت الخُطَـا حـتـى رأيـنـا ... خُـطَـانـا لا تَـهَـشُّ لـهـا الـدروبُ
نـناديـكـم وآهـاتُ الـثـكـالـى ... تُحـدِّثُـكـم بما اقـتـرف الـصـليـبُ
«سرايـيـفـو» تـقـول لـكـم ثـيـابـي ... ممـزقـةٌ وجـدرانـي ثـقـوبُ
مـحـاريـبـي تَـئِـنُّ وقـد تـهـاوى ... على أركانها القصفُ الرهيبُ
وأوردتـي تُـقَـطَّـعُ لا لِأَنِّـي ... جـنـيْـتُ ولا لأنـي لا أتـوبُ
بـنـاتُ المـسـلـمـين هـنـا سـبـايـا ... وشمس المكرمُاتَ هـنـا تـغـيـب
تـبـيـت كـريمـةً لـيـلـى وتـضـحـو ... وَقَدْ أَلْغَى كَرَامَتَهَا الـغَـرِيـبُ
تُـخَـبِّئُ وَجْـهَـهَـا يا لـيْـتَ شِـعْـري ... بمَاذَا يَنْطقُ الـوَجْـهُ الـكَـئِـيـبُ؟!
يَمُـوتُ الـطِّـفْـلُ في أحـضَـانِ أمٍّ ... تَـهُـدْهِـدُهُ وقَـدْ جَـفَّ الحَلِـيـبُ
بـكـتْ حُـزْنًـا عـلـيـه بِـغَـيْـرِ دَمْـع ... وأيْـنَ الـدَّمْـعُ والـظَّـمَـأُ النَّـصِـيـبُ
وكَـمْ يَـرعَـى خَـلايَـا الجِـسْـمِ داءٌ ... فَيُهلِكُـهُ وَقَـدْ عَـزَّ الـطَّـبِـيـبُ[١]

وفي بلغاريا عام ١٩٤٠م تم طرد ما يزيد عن مليون تركي من منطقة جنوب دبروكا، وقتل ما يزيد عن ثلاث مئة وخمسين ألفًا في المذابح التي قام بها البلغاريون ضد المسلمين هناك، ولم يستطع اللاجئون بعد الحرب العودة إلى أراضيهم[٢].

تَـدَفَّـقُ مِـنْـهَـا كُـلَّ يَـوْمٍ قَـوَافِـلُ ... يَـشُـقُّ دَرُوبًـا بِـالأَسَـى وَالـتَّـظَـلُّـمِ
دُرُوبَ لجُوءٍ في الْفَيَافِي تقَطَّعَتْ ... عَلَى دَمْعَةٍ أَوْ حَسْرَةٍ أَوْ تَنَدُّمِ
يَمِيلُونَ بِالطَّرْفِ الذَّلِيلِ لَعَلَّهُمْ ... يَرَوْنَ وَرَاءَ الأُفْقِ طَلْعَةَ مُسْلِمِ
قَوَافِلُ تَمْضِي بَيْنَ أَفْوَاجِ رُضَّعٍ ... وَأَحْزَانِ ثَكْلَى أَوْ تَبَارِيحِ أَيِّمِ
وَبَيْنَ صَبَايَا يَالَذُلِّ دُمُوعِهَا ... وَأَفْوَاجِ أَطْفَالٍ وَأَمْوَاجِ يُتَّمِ

(١) من ديوان «من القدس إلى سرايفو» ص (١٤-١٧).
(٢) الدفاع عن أراضي المسلمين ص (١٣٩).

قَوَافِلُ تَمْضِي وَهْيَ تَسْحَبُ خَطْوَهَا ذَلِيلًا عَلَى شَوْكٍ مُدَمٍّ وَمُوضِمِ[١]
لَقَدْ خَلَّفُوا التَّارِيخِ يَدْمَى وَخَلَّفُوا أَبًا فِي مَيَادِينِ الْجِهَادِ الْمُضَرَّمِ
لَقَدْ خَلَّفُوا بَيْنَ الْمَيَادِينِ عُصْبَةً تُقَاتِلُ عَنْ دِينٍ أَعَزَّ وَأَقْوَمِ
فَهَلْ ثَبَتُوا فِيهَا أَمِ الْتَقَمَتْهُمُ بُطُونُ وُحُوشٍ أَوْ مَخَالِبُ قَشْعَمِ[٢]
يُفَرِّقُهُمْ كَيْدٌ شَدِيدٌ مُدَبَّرٌ وَمَكْرُ شَيَاطِينٍ وَعُدْوَانُ مُجْرِمِ
لَعَلَّكَ لَوْ عَايَنْتَ أُمًّا إِذَا دَنَا فِرَاقٌ وَهَاجَتْ بَيْنَ دَمْعٍ وَمَبْسَمِ
وَزَوْجًا يُدَارِي زَوْجَهُ وَصَبِيَّةً وَطِفْلًا وَأَشْوَاقَ الْفِرَاقِ الْمُصَرَّمِ
تَجَلَّدَ كَيْ يُخْفِي الدُّمُوعَ وَلَمْ يَزَلْ يُدَافِعُهَا بَيْنَ الأَسَى وَالتَّحَلُّمِ
عَرَفْتَ إِذَنْ هَوْلَ الْجَرِيمَةِ وَالْمَدَى وَشِدَّةَ مَكْرٍ قَاتِلٍ مُتَوَغِّمِ[٣]
جَرَائِمُ! أَشْوَاقُ الطُّفُولَةِ لَمْ تَزَلْ تَمُوجُ بِهَا فِي لَهْفَةٍ وَتَلَوُّمِ[٤]
تَكَادُ عُيُونُ الطِّفْلِ تَسْأَلُ مَنْ أَنَا إِلَى أَيْنَ أَمْضِي يَا فَيَافِي تَكَلَّمِي
وَأَيْنَ أَبِي وَالأَهْلُ وَيْحِي وَإِخْوَتِي وَلَهْفَةُ سَاحَاتٍ وَطَلْعَةُ أَنْجُمِ
وَأَيْنَ حَنَانُ الأُمِّ أَوْ ضَمُّ صَدْرِهَا وَتَحْنَانُ عَيْنَيْهَا وَحُلْوُ التَّبَسُّمِ
إِذَا اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ غَابَ وَرَاءَهَا مَلَاحِمُ تَارِيخٍ وَأَشْوَاقُ هُيَّمِ

* * *

وَيَسْأَلُ مَنْ هَذِي الْوُجُوهُ تَحُوطُنِي تَبِيعُ وَتَشْرِي بِي وَلَمْ تَتَأَثَّمِ
كَأَنِّي إِذَنْ أَصْبَحْتُ سِلْعَةَ تَاجِرٍ لَئِيمٍ يُوَارِي كَيْدَهُ بِالتَّكَرُّمِ
فَشَتَّانَ بَيْنَ الْفَضْلِ يَأْتِيهِ صَادِقٌ وَبَيْنَ يَدٍ مَنَّتْ بِثَوْبٍ وَدِرْهَمِ

---

(١) موضم: مؤلم، مذل.
(٢) القشعم: المسن من النسور.
(٣) متوغم: مغتاظ، قاهر.
(٤) تلوم: تلوم في الأمر: تمكث وانتظر.

وَبَيْنَ حَنَانِ الأُمِّ هَاجَتْ ضُلُوعُهَا وَبَيْنَ مِرَاءٍ خَادِعٍ مُتَعَلَّمِ
أَتَحمِلُنِي دُورُ النَّصَارَى وَبَيْعَةٌ وَسَاحَاتُ شِرْكٍ أَوْ مَنَازِلُ سُوَّمِ
لِتُنْزَعَ مِنِّي فِطْرَةٌ وَطَهَارَةٌ وَيُغْرَسَ بِي شِرْكٌ وَفِتْنَةُ مَأْثَمِ
فَيَا وَيْحَ نَفْسِي أَيْنَ قَوْمِي وَعُزْوَةٌ مِنَ الدِّينِ كَانَتْ لُحْمَةً لَمْ تُفَصَّمِ
أَضَاقَتْ دِيَارُ الْمُسْلِمِينَ وَضُيِّقَتْ عَلَى رَحْبِهَا يا لَلْبَلَاءِ الْمُرَغِّمِ(١)
فَسِيحِي إِذَنْ فِي الْأَرْضِ يَا نَفْسُ دُونَنَا أَعَاصِيرُ مِنْ تِيهٍ وَأَمْوَاجُ غَيْهَمِ(٢)

* * *

في أوغندا:

«بدأت المذبحة في قرية ناموجونجو على بعد ١٤ كيلو مترًا شمال كمبالا العاصمة الأوغندية. فقد دخل القريةَ جنودٌ مجهزون بأسلحة ثقيلة ينشرون الدمار في كل شوارعها، ثم توجهوا إلى «**كيرو**» فبدءوا بالمسجد (وكان به جمع من المصلين يؤدون صلاة الظهر)، لم ينج أحد من القتل بما فيهم إمامهم الشيخ يوسف موللو. ونقل الصحفي الفرنسي دي بارين صورة لما حدث إلى صحيفة «**لوموند**»، فقال: «**بعد أن أحرقوا المسجد الصغير في كيرو جلسوا إلى الجوار يطهون خنزيرًا، ثم يأخذون قطع اللحم على الكتب الدينية المتناثرة في المكان بدلًا من الأطباق. وعندما غادروا المكان خلفوا وراءهم ٩٤ قتيلًا، ومسجدًا أكلته النيران**»(٣).

كان يوم ٧ يوليو ١٩٨٣م يومًا مشهودًا في تاريخ المسلمين في «بولو» التي تقع على بعد ٢٥ ميلًا غرب كمبالا، فقد تجمعوا فرحين مستبشرين يحتفلون بعيد الفطر المبارك، وبلا مقدمات دخل المسجد عدة عشرات من الجنود المدججين

---

(١) المرغم: الملصق أو الملزم للتراب.
(٢) غيهم: ظلمة.
(٣) الدفاع عن أراضي المسلمين ص (١٤٦، ١٤٧).

بالسلاح، سحبوا الإمام وخمسة مسلمين آخرين من قلب المسجد وذبحوهم على بابه دون أن يرمش لهم طرف، ثم قطعوا رقابهم أمام الجمع المذعور. وبعد أسبوعين أصدر مفتي أوغندا بيانًا نعى فيه الشهداء: عباس كتومبا، محمد سجربين، وسليمان زيروا، موسى كونجيزي، محمد رويجزا والشيخ كاتما نجيرا[١].

وفي الفلبين:

أبادت عناصر الكتيبة التاسعة والثلاثين للجيش الفلبيني بقيادة الكولونيل لاسبيرتو سافيدرا جموعًا كثيرة من المسلمين، في ٣٠أكتوبر ١٩٧٩م، وفي احتفالات عيد الأضحى المبارك يقتل الجيش النصراني أسرة بأكملها بمدينة ماراوي ـ راناو، وفي حملة عسكرية على بلدة واوؤ الإسلامية بمحافظة راناو اغتصب الجيش نساء مسلمات، ورموا بأطفالهم الرضع في سلال المهملات.

وفي الهند:

قتل وحرق جميع سكان ٥٢ قرية في مرة من المرات، وتدمير ١٥٠٠٠ بيت مسلم وسووها بالتراب[٢].

وفي أسبانيا:

ويذكر التاريخ للقائد الإسلامي خير الدين بربروس أنه مضى ومعه ٣٦ سفينة من الجزائر وأنقذ ما يقارب من سبعين ألفًا من مسلمي أسبانيا من رجالهم ونسائهم وأطفالهم، كانوا يريدون منهم التخلي عن دينهم[٣] وفي محاكم التفتيش من القتل ما يفوق الخيال.

النوع الثاني:

من الفتن التي يزيلها الجهاد الأوضاع والأنظمة الشركية وما ينتج عنها من

---

(١) المصدر السابق ص (١٤٨، ١٤٩).

(٢) المصدر السابق ص (١٥٨).

(٣) يراجع: كتاب خير الدين برباروس، لبسام العسلي ـ دار النفائس.

فساد في شتى مجالات الحياة.

فإن هذه من شأنها أنها تفتن المسلم عن دينه؛ لذلك صارت إزالتها هي الهدف الرئيس للجهاد، كما سبق أن بينا أن أكثر السلف يفسرون الفتنة في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ بالشرك. ومن فسر الفتنة بما يمارسه الكفار لصد المسلم عن دينه من أنواع التعذيب فلا منافاة بين قوله وقول الفريق الأول، فإزالة الشرك مقصودة، ورفع الفتنة عن المسلمين وإنقاذ المستضعفين مقصود كذلك، وقد دل على كلا الأمرين الكتاب والسنة وإجماع فقهاء الأمة كما تقدم.

ومن هذا الباب إخضاع أهل الجزية لأحكام الإسلام، ومنعهم من المجاهرة بدينهم، ومنعهم من التعامل بالربا، والزنا ونحو ذلك؛ لأن هذه الأوضاع من شأنها أنها تفتن المسلم عن دينه.

وقد أمر اللَّه المسلمين بالجهاد حتى تزول الفتنة، ورسوله اللَّه ﷺ لما صالح أهل نجران أرسل إليهم من الصحابة من يقيم على البلاد حكم الإسلام، إلا في أمور النصارى الخاصة بهم داخل كنائسهم، واشترط عليهم ألا يتعاملوا بالربا، فإن تعاملوا به فذمة الرسول ﷺ منهم بريئة[(١)].

ومن إزالة الفتنة عن المسلمين فك أسراهم، فإن من شأن الكفار أنهم يفتنون الأسرى عن دينهم؛ لذلك قال الفقهاء: إن فك الأسير فرض عين على المسلمين، ويتعين عليهم الجهاد حتى يستنقذوا أسرى المسلمين جميعًا[(٢)]. وقال ابن بطال: فكاك الأسير واجب على الكفاية، وبه قال الجمهور[(٣)].

قلت: معلوم أن فرض الكفاية إذا لم يقم به مَنْ يكفي صار فرض عين على القادر حتى تحصل الكفاية. فإزالة الفتنة عن المسلمين وإعزاز المسلمين وإذلال

---

(١) الخراج، لأبي يوسف ص (٧٧).
(٢) القوانين الفقهية، لابن جزي المالكي ص (١٢٦).
(٣) فتح الباري، لابن حجر (٦/١١٦).

الكافرين كلها من مقصود الجهاد. وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه رُفِعَ إليه ذمي نخس دابة عليها امرأة مسلمة فرمحت فأسقطتها فانكشف بعض عورتها، فأمر بصلبه في الموضع(١).

وقول اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ دليل على أن إلزام الكفار الذلة والصغار من أهداف الجهاد الإسلامي، وكذلك إعزاز المسلمين ورفع المهانة عنهم، فقد كان من أسباب طرد الرسول ﷺ ليهود بني قينقاع أن منهم رجلًا كشف عورة امرأة مسلمة؛ ليضحك الناس عليها، فقتله رجل من المسلمين كان حاضرًا، فلم ينكر النبي ﷺ قتل ذلك اليهودي الذي رام إذلال المسلمة، بل كاد أن يقتل بقية يهود بني قينقاع حتى شفع فيهم رأس النفاق بالمدينة ـ لعنه اللَّه وأخزاه ـ، فترك الرسول ﷺ قتلهم؛ لمقاصد شرعية، وأجلاهم عن المدينة(٢).

النوع الثالث من الفتن:

فتنة الكفار أنفسهم، وصدهم عن استماع الحق وقبوله.

وذلك أن الأنظمة والحكومات الشركية تقيم حاجزًا بين الناس واستماع الحق أو قبوله بتخريبها لفطر الناس بما تشرعه لهم من مناهج في شتى مجالات الحياة، فإذا فسدت فطر الناس وعقولهم قل أن يستجيبوا للهدى، وإذا تربى جيل على الذلة والمهانة والعبودية للخلق من دون الخالق وتربى على الإدمان وعلى الخمر، والتمرغ في وحل الجنس، والتحلل من الأخلاق الفاضلة قل أن يرتفع إلى مستوى النفس البشرية السوية التي تعرف المعروف من المنكر وتحب الخير وتبغض الشر إلا أن يتداركه اللَّه برحمة منه.

لذا كان من أهداف الجهاد إزالة الفتنة عن الكفار أنفسهم بالإضافة إلى إزالتها

---

(١) تفسير القرطبي (٨/٨٣).

(٢) البداية والنهاية (٤/٣).

عن المسلمين من باب أولى، فإذا زالت الفتنة عن الكفار المحكومين من قبل الطغاة المتألهين الذين يشرعون ما يفسد الفطرة البشرية لكي يضمنوا عبوديتها لهم رُجِيَ إسلامهم واستجابتهم لداعي الهدى، لا سيما إذا عاشوا في المجتمع الإسلامي الذي يخضع لتشريعات اللَّه العليم الخبير، خالق النفس البشرية والعالم بما يصلحها، وهذا طرف من الحكمة الإلهية في تشريع الجزية على أهل الكتاب والمجوس؛ لإعطائهم فرصة تصلح فيها فطرهم بتطبيقها لتشريعات الإسلام العامة، ومخالطة المسلمين، ومعرفة ما في الدين الإسلامي من تكريم للنفس البشرية، وانتشالها من القبائح إلى الفضائل، ومن عبادة الخلق والشيطان والهوى إلى عبادة الحي القيوم.

٨- حماية الدولة الإسلامية من شر الكفار:

ومن الأدلة على هذا الهدف العظيم ما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عبداللَّه بن أنيس عن أبيه رضي الله عنه قال: دعاني رسول اللَّه ﷺ فقال: «**إنه قد بلغني إن خالد بن سفان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعرنة، فأته فاقتله**»، قال: قلت: يا رسول الله، انعته لي حتى أعرفه. قال: «**إذا رأيته وجدت له أقشعريرة**». قال: فخرجت متوشحًا بسيفي حتى وقعت عليه وهو بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلًا، وحين كان وقت العصر فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول اللَّه ﷺ من الأقشعريرة، فأقبلت نحوه وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي الركوع والسجود، فلما انتهيت له قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لهذا. قال: أجل أنا في ذلك. قال: فمشيت معه شيئًا حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه، فلما قدمت على رسول اللَّه ﷺ فرآني فقال: «**أفلح الوجه**». قال: قلت: قتلته يا رسول الله. قال: «**صدقت**». قال: ثم قام معي رسول اللَّه ﷺ، فدخل في بيته، فأعطاني عصا، فقال: «**أمسك هذه العصا عندك يا عبد اللَّه بن أنيس**»، قال: فخرجت بها على

الناس فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول اللَّه ﷺ وأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول اللَّه ﷺ فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول اللَّه ﷺ، فقلت: يا رسول الله، لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: «**آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المتحصرون يومئذ يوم القيامة**»، فقرنها عبداللَّه بسيفه، فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فصبت معه في كفنه، ثم دفنا جميعًا»[١].

ومن ذلك أمر الرسول ﷺ بقتل كعب بن الأشرف اليهودي، وسلام بن أبي الحقيق اليهودي؛ فإنهما كانا مصدر خطر على الدولة الإسلامية، فأرسل لهما الرسول ﷺ من يقتلهما.

ومن ذلك حض الرسول ﷺ على الرباط وحراسة المسلمين، والرباط هو المرابطة في الثغور على حدود الدولة الإسلامية وفي مقابلة الأعداء.

وفيما تقدم دليل جلي على أن حماية الدولة الإسلامية من أهداف الجهاد العظيمة، ولكن مما ينبغي أن يُتَنَبَّهَ له أن الدولة الإسلامية ليست حوزة من الأرض لها حدود معينة يحافظ عليها فقط، بل كلما امتد الإسلام إلى أرض وأزال عنها أنظمة الشرك صارت داخلة في الدولة الإسلامية، فعلى المسلمين المحافظة عليها، ودفع سلطان الإسلام إلى الأمام في الأراضي المجاورة؛ لكي تتوسع رقعة الدولة الإسلامية؛ لأن الإسلام يتطلب الأرض كلها؛ ليخضعها لحكم اللَّه ورسوله ﷺ، فليس دين اللَّه مرادًا به بلدًا معينًا أو جنسًا معينًا من الأجناس البشرية.

يقول سيد قطب: «وحقيقة أن حماية دار الإسلام حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج، ولكنها هي ليست الهدف النهائي، وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامي، إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام

(١) مسند أحمد (٣/٤٩٦).

مملكة الله فيها، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها وإلى النوع الإنساني بجملته، فالنوع الإنساني هو موضوع هذا الدين، والأرض هي مجاله الكبير»(١).

٩ـ قتل الكافرين وإبادتهم ومحقهم:

وذلك لأن الكفر كالسرطان، بل أشد، فإذا لم يسلم الكافر أو يخضع للحكم الإسلامي فلا بد من استئصاله حتى لا يفسد المجتمع الذي يوجد فيه؛ يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾.

ويقول ـ جل شأنه ـ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران: ١٢٧].

ومن ترغيب الرسول ﷺ في قتل الكافرين قوله ﷺ: «**لا يجتمع في النار كافر وقاتله أبدًا**»(٢)، ويدل على هذا ـ أيضًا ـ حرص رسول الله ﷺ على قتل أبي جهل وغيره من صناديد الكفر؛ يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن مقتل أبي جهل: «**فجعلت أتناوله بسيف لي غير طائل فأصبت يده، فندر سيفه، فأخذته فضربته حتى قتلته، قال: ثم خرجت حتى أتيت النبي** ﷺ كأنما أقل من الأرض، فأخبرته، فقال: «**الله لا إله إلا هو**» رددها ثلاثًا، قال: قلت: الله الذي لا إله إلا هو، قال: فخرج

---

(١) في ظلال القرآن (٣: ١٤٤١).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم وأبو داود.

يمشي معي حتى قام عليه، فقال: «**الحمد لله الذي قد أخزاك الله يا عدو الله هذا كان فرعون هذه الأمة**».

ولما قَتَلَ جليبيب سبعة المشركين ثم قتلوه، قال النبي ﷺ مثنيًا عليه: «**قتل سبعة ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه**» الحديث.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما استشاره رسول الله ﷺ في أسارى بدر: «**أرى أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه يضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم**».

وقد نزل القرآن الكريم حاضًا على هذا الهدف وهو قتل صناديد الكفر حتى يتم الإثخان في الأرض. قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

وفي معركة «**نهر الدم**» ينادي خالد بن الوليد في المسلمين: الأسر الأسر حتى يوفي بنذره لله عز وجل أن يجري النهر من دمائهم، ثم جمعهم على حافة النهر وضرب رقابهم.

وفي معركة «**الزلاقة**» كانت جيوش النصارى مئة ألف من المشاة، وثمانين ألفًا من الفرسان فأبادهم المسلمون، ولم ينج من هذا الجيش سوى أربع مئة أو خمس مئة فارس، وأمر ابن تاشفين برءوس القتلى فصُفَّت في سهل الزلاقة على شكل هرم، ثم أمر فأذن للصلاة من فوق أحدها.

ولله دَرُّ خالد بن الوليد لما قال لرسول ملك الروم يوم اليرموك: إنَّا قوم نحب شرب الدماء، وقد بلغنا أن دماء الروم من أحلى الدماء مذاقًا، فلا نعود إلا بشرب دمائكم.

١٠- إرهاب الكفار، وإخزاؤهم، وإذلالهم، وإيهان كيدهم، وإغاظتهم:

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٥٩]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]. وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال: ١٨].

ومما يدل على أن إخافة العدو من مقاصد الجهاد ما رواه الإمام أحمد عن أم مالك البهزية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ «**خير الناس في الفتنة رجل معتزل في ماله يعبد ربه ويؤدي حقه، ورجل آخذ برأس فرسه في سبيل اللَّه يخيفهم ويخيفونه**»(١).

ويقول ابن القيم «... ولا شيء أحب إلى اللَّه من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له، وقد أشار ـ سبحانه ـ إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه؛ أحدها قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ سمي المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة اللَّه مراغمًا يراغم به عدو اللَّه وعدوه، واللَّه يحب من وليه مراغمة عدوه وإغاظته كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

وقال ـ تَعَالَى ـ في مثل رسوله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾،

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٦/٤١٩)، وسيأتي تخريجه كاملًا.

فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة، فموافقته فيها من كمال العبودية.

وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «**إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان**»، وفي رواية «**ترغيمًا للشيطان**»، وسماهما المرغمتين، فمن تعبد اللَّه بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه وموالاته ومعاداته لعدوه يكون نصيبه من هذه المراغمة، ولأجل هذه المراغمة حُمِدَ التبختر بين الصفين...»[1].

كتب هارون الرشيد إلى نقفور ملك الروم: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.

قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه.

والسلام»[2].

وألب أرسلان يبيع إمبراطور الروم بكلب.

ومحمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام الخليفة الأندلسي صاحب «**موقعة سليط**» الملحمة العظمى التي يقال: إنه قُتل فيها ثلاث مئة ألف كافر.

والحاجب المنصور الذي يكتب إلى قادة النصارى: «**إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى، فنقعد هاهنا إلى وقت الغزاة، فإذا غزونا عدْنا**»، فما زال الإفرنج يسألونه إلى أن قرّر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبْي، وأن يمدوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده، وأن يُنحُّوا جيف القتلى عن طريقة بأنفسهم، ففعلو ذلك كله».

وكتب يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو ملك أسبانيا: «**الذي سيكون ستراه**».

وكتب يعقوب بن يوسف ملك الموحدين وبطل معركة «**الأرك**» إلى ألفونسو

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (١/٢٢٦).

(٢) تاريخ الطبري: أحداث سنة (١٨٧، ١٩٠ هـ)، والكامل، لابن الأثير: أحداث سنة (١٨٧هـ).

الثامن ملك قشتالة ممزقًا كتابه، فكتب على ظهر قطعة منه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٧]، الجواب ما ترى لا ما تسمع.

ولا كُتْبَ إلا المشرفيَّةُ عندَهُ ولا رُسْلَ إلا الخميس العرمرمُ[١]

١١ـ كَشْف المنافقين:

فإن المسلمين في حال الرخاء والسعة ينضاف إليهم غيرهم ممن يطمعون في تحقيق مكاسب مادية وهم لا يريدون رفع كلمة اللَّه على كلمة الكفر، وقد يتصنعون الإخلاص فيخفى أمرهم على كثير من المسلمين، وأكبر كاشف لهم هو الجهاد؛ لأن في الجهاد بذلًا لأغلى ما يملك الإنسان غير عقيدته، وهو روحه، والمنافق ما نافق إلا ليحفظ روحه، وليوفر لنفسه ملذاتها، فإذا دعا داعي الجهاد الذي قد يعرضه لفقد روحه انكشف نفاقه للناس؛ يقول اللَّه ـ تَعَالَى ـ:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ويقول: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

ومعرفة المؤمنين للمنافقين فيها فوائد لا تحصى، فإنهم العدو الداخلي وخطرهم يفوق خطر العدو الخارجي أحيانًا. فإذا عُرفوا مُنعوا من الغزو مع المسلمين، ولا يستمع المؤمنون لما يعرضونه عليهم من أراجيف وتثبيط، ومن أقاويل يلبسونها ثياب النصح والإصطلاح، وجاهدهم المؤمنون بما أمرهم اللَّه به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

١٢ـ تمحيص المؤمنين من ذنوبهم ومغفرتها.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٨).

١٣ـ تربية المؤمنين على الصبر والثبات، والطاعة وبذل النفس، وغير ذلك من الفوائد التربوية:

فإن الركون إلى الراحة والدعة، وعدم ممارسة الشدائد والصعاب تورث العبد ذلًّا وخمولًا وتشبثًا بمتاع الحياة الدنيا، وخوض المعارك ومقارعة الأعداء والتعرض لنيل رضا اللَّه في ساحات الوغى يصقل النفوس، ويهذبها، ويذكرها بمصيرها، ويوجب لها استعدادًا للرحيل حتى تصبح ممارسةُ الجهاد عادةً لها تشتاق لها كما يشتاق الخاملون للقعود والراحة.

وتتربى في النفس البشرية من الجهاد صفات كثيرة؛ كصفة الشجاعة، والنجدة، والصبر، والأخوة، والعفو ونحو ذلك من الصفات المحمودة، ويزول من النفس ما يقابلها من الصفات المذمومة؛ كصفة الجبن، والشح، والأنانية ونحو ذلك.

١٤ـ ولأن الجهاد أفضل العبادات بعد الإيمان:

عن أبي هريرة ﷺ قال: مرَّ رجل من أصحاب رسول اللَّه ﷺ بشِعْب فيه عُيينة من ماء عَذْبة، فأعجبته لطيبها، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمتُ في هذا الشِّعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول اللَّه ﷺ فذكر ذلك لرسول اللَّه ﷺ فقال: «**لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل اللَّه أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر اللَّه لكم ويدخلكم الجنة؟! اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل اللَّه فواق ناقة وجبت له الجنة**»[١].

١٥ـ الجهاد أفضل الأعمال على الإطلاق:

عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «**أن يُسلِم قلبك لله** عز وجل، وأن يَسْلَم المسلمون من لسانك ويدك».

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي (١٦٥٠)، والبيهقي (٩/ ١٦٠، ١٦١)، والحاكم (٢/ ٦٨)، والحديث حسن.

قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: «**الإيمان**».

قال: وما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت**». قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: «**الهجرة**».

قال: فما الهجرة؟ قال: «**أن تهجر السوء**».

قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: «**الجهاد**».

قال: وما الجهاد؟ قال: «**أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم**».

قال: فأي الجهاد أفضل؟ قال: «**مَن عُقِر جواده وأهريق دمه**» (١).

١٦ـ الجهاد لا يعدله شيء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: دُلَّني على عمل يعدل الجهاد؟ قال: «**لا أجده**». قال: «**هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تُفطِر؟**» قال: ومن يستطيع ذلك؟ (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**لا تستطيعونه**».

قال: فأعادوا عليه مرتين وثلاثًا، كل ذلك يقول: «**لا تستطيعونه**»، وقال في الثالثة: «**مثل المجاهد في سبيل اللَّه كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل اللَّه ـ تَعَالَى ـ**» (٣).

١٧ـ وهو أحب الأعمال إلى الله:

عن عبداللَّه بن سلام رضي الله عنه قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فتذاكرنا فقلنا: لو نعلمُ أي الأعمال أحب إلى اللَّه لعملناه؟ فأنزل اللَّه ـ تَعَالَى ـ:

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/١١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٧٨).

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ① يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ②﴾ [الصف: ١، ٢].

قال عبدالله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ(١).

١٨ـ المجاهد من أفضل الناس عند الله:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله**». قالوا: ثم من؟ قال: «**مؤمن في شِعْب من الشِّعاب يتقي الله، ويدع الناس من شره**»(٢).

١٩ـ الجهاد مذهب للهمِّ والغم:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد في سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ باب من أبواب الجنة يُنجِّي الله ـ تبارك وتعالى ـ به من الهمِّ والغم**»(٣).

وكيف لا يقتل المسلمين الغمُّ والهمُّ على اغتصاب النساء وسبي الحرائر:

كَيفَ القرارُ وَكيفَ يهدأُ مسلمٌ ... والمسلماتُ معَ العدوِّ المعتدِي

وانظر إلى الشاعر كيف يستمطر الدمع فيقول:

أَتُسْبَى المسلماتُ بِكُلِّ ثَغْرٍ ... وَعيشُ المسلمين إذن يَطيبُ

أَمَا لِلَّهِ والإسلامِ حَقٌّ ... يُدافِعُ عَنهُ شُبَّانٌ وشِيبُ

وما أحزن قول الدكتور عدنان النحوي:

وَضَاعَتْ «كُسُوفُو» يَا لِهَوْلِ جَرِيمَةٍ ... وَ«أَلْبَانِيَا» أَضْحَتْ بِقَبْضَةِ مُجْرِمِ

وَغَابَتْ وَرَاءَ الْأُفْقِ عَنْكِ قِبَابُهَا ... عَلَى غُصَصٍ مِنْ حَسْرَةٍ وَتَنَدُّمِ

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٣٠٩)، والبيهقي (١٥٩/٩، ١٦٠)، والحاكم (٦٩/٢).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٦)، ومسلم (١٨٨٨).
(٣) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٣١٤/٥) واللفظ له، والحاكم (٧٥/٢).

وَغَابَ أَذَانٌ وَالصَّدَى يَدْفَعُ الصَّدَى عَلَى أُفُقٍ نَاءِ الْمَسَالِكِ أَقْتَمِ

* * *

فَمَنْ لِزُخُوفِ الْيَوْمِ وَالنَّاسُ جُلُّهُمْ طَوَائِفُ شَتَّى بَيْنَ لَاهِينَ نُوَّمِ
تَلاقَتْ عَلَى الْآفَاقِ أَدْمُعُ أُمَّةٍ وَغَابَتْ عَنِ الْآفَاقِ وَثْبَاتُ ضَيْغَمِ
وَصَارَتْ شُعُوبُ الْمُسْلِمِينَ بِسَاحِهَا قَوَافِلَ تِيهٍ أَوْ تَبَارِيحَ هُوَّمِ
أَطَلَّتْ وَرَاءَ الْأُفْقِ مِنْهَا مَآذِنٌ تُنَادِي وَتَدْعُو كُلَّ قَرْنٍ مُعَظَّمِ
وَتَدْعُو شُعُوبَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ غَفَوْا عَلَى جَهْلِهِمْ فِي حَيْرَةٍ وَتَبَرُّمِ
تَقُولُ لَهُمْ هَذِي مَيَادِينُ عِزَّةٍ فَصُبُّوا هُنَا يَا قَوْمِ مَا عَزَّ مِنْ دَمِ
سَتَمْضِي عَلَيْكُمْ إِنْ رَكَنْتُمْ مَذَلَّةٌ تَذُوقُونَ مِنْ صَابٍ عَلَيْهَا وَعَلْقَمِ
أَتَعْنُو رِقَابُ الْمُسْلِمِينَ لِكَافِرٍ وَتَخْضَعُ دَارٌ لِلْعَدُوِّ الْمُصَلِّمِ[1]

واستمع إلى أبي البقاء الرندي[2] الأندلسي وهو يرثي الأندلس:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُغَرَّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلٌ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
وَعَالَمُ الْكَوْنِ لَا تَبْقَى مَحَاسِنُهُ وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ
يُمَزِّقُ الدَّهْرُ حَتْمًا كُلَّ سَابِغَةٍ إِذَا نَبَتْ[3] مَشْرَفِيَّاتٌ وَخِرْصَانُ[4]

---

(١) المصلم: المستأصل.

(٢) هو: الشاعر المجود المتقن صالح بن شريف الرندي، والمشتهر بأبي البقاء الرندي، الشاعر الأندلسي المعروف، نظم قصيدته في رثاء الأندلس، مات ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ سنة ٧٩٨هـ.
انظر: «نفح الطيب»، للمقري التلمساني (٢/١٩٤، ٣/٣٤٧، ٤/١٤٧، ٤٨٦، ٤٨٨، ٥/٦٠٢)؛ و«الإذاعة في أشراط الساعة»، للسيد صديق حسن خان المقبوجي؛ «وجواهر الأدب»، للسيد أحمد الهاشمي، ص (٦٢٠، ٦٢٢).

(٣) نَبَتْ: نَبَا حد السيف: إذا لم يقطع.

(٤) مشرفيات: المشارف: قرى من أرض اليمن أو من أرض العرب تدنو من الريف تنسب إليها السيوف المشرفية. خرصان: جمع خرص؛ وهو: سنان الرمح.

وَيُنْتَضَى كُلُّ سَيْفٍ لِلْفَنَاءِ وَلَوْ ... كَانَ ابْنَ ذِي يَزَنٍ وَالْغُمْدُ غُمْدَانُ
أَيْنَ الْمُلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ ... وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلٌ وَتِيجَانُ
وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَّادُ مِنْ إِرَمٍ ... وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ
وَأَيْنَ مَا حَازَهُ قَارُونُ مِنْ ذَهَبٍ ... وَأَيْنَ عَادٌ وَشَدَّادٌ وَقَحْطَانُ
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ ... حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ الْكُلَّ مَا كَانُوا
وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ ... كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطَّيْفِ وَسْنَانُ
دَارَ الزَّمَانُ عَلَى «دَارَا» وَقَاتِلِهِ ... وَأَمَّ[1] كِسْرَى فَمَا آوَاهُ إِيوَانُ
كَأَنَّمَا الصَّعْبُ لَمْ يَسْهُلْ لَهُ سَبَبٌ ... يَوْمًا وَلَمْ يَمْلِكِ الدُّنْيَا سُلَيْمَانُ
فَجَائِعُ الدَّهْرِ أَنْوَاعٌ مُنَوَّعَةٌ ... وَلِلزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وَأَحْزَانُ
وَلِلْمَصَائِبِ سُلْوَانٌ يُهَوِّنُهَا ... وَمَا لِمَا حَلَّ بِالإِسلام سُلْوَانُ
دَهَى الْجَزِيرَةَ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ ... هَوَى لَهُ أُحُدٌ وَانْهَدَّ ثَهْلَانُ
أَصَابَهَا الْعَيْنُ فِي الإِسْلَامِ فَارْتَزَأَتْ[2] ... حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارٌ وَبُلْدَانُ
فَاسْأَلْ «بَلَنْسِيَةً» مَا شَأْنُ «مُرْسِيَةٍ» ... وَأَيْنَ «قُرْطُبَةٌ» أَمْ أَيْنَ «جَيَّانُ»
وَأَيْنَ «حِمْصٌ» وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزَهٍ ... وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلْآنُ
كَذَا «طُلَيْطِلَةٌ» دَارُ الْعُلُومِ فَكَمْ ... مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانُ
وَأَيْنَ «غِرْنَاطَةٌ» دَارُ الْجِهَادِ وَكَمْ ... أُسْدٌ بِهَا وَهُمُ فِي الْحَرْبِ عِقْبَانُ
وَأَيْنَ حَمْرَاؤُهَا الْعَلْيَا وَزُخْرُفُهَا ... كَأَنَّهَا مِنْ جِنَانِ الْخُلْدِ عَدْنَانُ
قَوَاعِدٌ كُنَّ أَرْكَانَ الْبِلَادِ فَمَا ... عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ
وَالْمَاءُ يَجْرِي بِسَاحَاتِ الْقُصُورِ بِهَا ... قَدْ حَفَّ جَدْوَلَهَا زَهْرٌ وَرَيْحَانُ
وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ يَحْكِي فِي تَسَلْسُلِهِ ... سُيُوفَ هِنْدٍ لَهَا فِي الْجَوِّ لَمَعَانُ

---

(١) أَمَّ: قَصَدَ.
(٢) ارتزأت: ارتزأ الشيء: انتقص.

وَأَيْنَ جَامِعُهَا الْمَشْهُورُ كَمْ تُلِيَتْ ... فِي كُلِّ وَقْتٍ بِهِ آيٌ وَفُرْقَانُ
وَعَالِمٌ كَانَ فِيهِ لِلْجَهُولِ هُدًى ... مُدَرِّسٌ وَلَهُ فِي الْعِلْمِ تِبْيَانُ
وَعَابِدٌ خَاضِعٌ لِلَّهِ مُبْتَهِلٌ ... وَالدَّمْعُ مِنْهُ عَلَى الْخَدَّيْنِ طُوفَانُ
وَأَيْنَ «مَالِقَةٌ» مَرْسَى الْمَرَاكِبِ كَمْ ... أَرْسَتْ بِسَاحَتِهَا فُلْكٌ وَغُرْبَانُ
وَكَمْ بِدَاخِلِهَا مِنْ شَاعِرٍ فَطِنٍ ... وَذِي فُنُونٍ لَهُ حِذْقٌ وَتِبْيَانُ
وَكَمْ بِخَارِجِهَا مِنْ مَنْزِهٍ فَرِجٍ ... وَجَنَّةٍ حَوْلَهَا نَهْرٌ وَبُسْتَانُ
وَأَيْنَ جَارَتُهَا «الزَّهْرَا» وَقُبَّتُهَا ... وَأَيْنَ يَا قَوْمُ أَبْطَالٌ وَفُرْسَانُ
وَأَيْنَ «بَسْطَةٌ» دَارُ الزَّعْفَرَانِ فَهَلْ ... رَأَى شَبِيهًا لَهَا فِي الْحُسْنِ إِنْسَانُ
وَكَمْ شُجَاعٍ زَعِيمٍ فِي الْوَغَى بَطَلٍ ... تَبْكِيهِ مِنْ أَرْضِهِ أَهْلٌ وَوِلْدَانُ
وَ«وَادِيَا» مَنْ غَدَتْ بِالْكُفْرِ عَامِرَةً ... وَرَدَّ تَوْحِيدَهَا شِرْكٌ وَطُغْيَانُ
كَذَا «الْمَرِيَّةُ» دَارُ الصَّالِحِينَ فَكَمْ ... قُطْبٍ بِهَا عَلَمٌ بَحْرٌ لَهُ شَانُ
تَبْكِي الْحَنِيفِيَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ ... كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلْفِ هَيْمَانُ
حَتَّى الْمَحَارِيبُ تَبْكِي وَهْيَ جَامِدَةٌ ... حَتَّى الْمَنَابِرُ تَبْكِي وَهْيَ عِيدَانُ
عَلَى دِيَارٍ مِنْ الإسلام خَالِيَةٍ ... قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بِالْكُفْرِ عُمْرَانُ
حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ أَمْسَتْ كَنَائِسَ مَا ... فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ
يَا غَافِلًا وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ ... إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةٍ فَالدَّهْرُ يَقْظَانُ
وَمَاشِيًا مَرِحًا يُلْهِيهِ مَوْطِنُهُ ... أَبَعْدَ «حِمْصٍ» تَغُرُّ الْمَرْءَ أَوْطَانُ
تِلْكَ الْمُصِيبَةُ أَنْسَتْ مَا تَقَدَّمَهَا ... وَمَا لَهَا مَعْ طَوِيلِ الدَّهْرِ نِسْيَانُ
يَا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً ... كَأَنَّهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عُقْبَانُ
وَحَامِلِينَ سُيُوفَ الْهِنْدِ مُرْهَفَةً ... كَأَنَّهَا فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ نِيرَانُ
وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ النَّهْرِ فِي دَعَةٍ ... لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطَانُ
أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَمْرِ أَنْدَلُسٍ ... فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ

كَمْ يَسْتَغِيثُ صَنَادِيدُ الرِّجَالِ وَهُمْ أَسْرَى وَقَتْلَى فَلَا يَهْتَزُّ إِنْسَانُ
مَاذَا التَّقَاطُعُ فِي الإِسلام بَيْنَكُمُ وَأَنْتُمُ يَا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانُ
أَلَا نُفُوسٌ أَبِيَّاتٌ لَهَا هِمَمٌ أَمَا عَلَى الْخَيْرِ أَنْصَارٌ وَأَعْوَانُ
يَا مَنْ لِنُصْرَةِ قَوْمٍ قَسَّمُوا فِرَقًا سَطَا عَلَيْهِمْ بِهَا كُفْرٌ وَطُغْيَانُ
بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ وَالْيَوْمَ هُمْ فِي قُيُودِ الْكُفْرِ عُبْدَانُ
فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ مِنْ ثِيَابِ الذُّلِّ أَلْوَانُ
فَلَوْ رَأَيْتَ بُكَاهُمْ عِنْدَ بَيْعِهِمُ لَهَالَكَ الْأَمْرُ وَاسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانُ
يَا رُبَّ أُمٍّ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا كَمَا تُفَرَّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ
وَطِفْلَةٍ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ كَأَنَّمَا هِيَ يَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ
يَقُودُهَا الْعِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً وَالْعَيْنُ بَاكِيَةٌ وَالْقَلْبُ حَيْرَانُ
لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ
هَلْ لِلْجِهَادِ بِهَا مِنْ طَالِبٍ فَلَقَدْ تَزَخْرَفَتْ جَنَّةُ الْمَأْوَى لَهَا شَانُ
وَأَشْرَفَ الْحُورُ وَالْوِلْدَانُ مِنْ غُرَفٍ فَازَتْ وَرَبِّي بِهَذَا الْخَيْرِ شُجْعَانُ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍ مَا هَبَّ رِيحُ الصَّبَا وَاهْتَزَّ أَغْصَانُ

* * *

٢٠ـ طلبًا للدرجات العلى من الجنة:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومِ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ
يَرَى الْجُبَنَاءُ أَنَّ الْجُبْنَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ

إنها الجنة التي غرس غراسها الرحمن بيده، إنها جوار الرحمن، والنظر إلى وجه الكريم العلَّام.. إنها دار الطيبين، ورفقة الملائكة والنبيين، والفوز بالحور العين، إنها

الظل الظليل، إنها العيش الهني، إنها السدر المخضود، والطلح المنضود، والماء المسكوب.

ألا من مشمر لها وهي ريحانة تهتز، ونهر مطرد، وغناء الحور العين، وتمجيد داود صاحب المزامير لربه الكريم.

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّنا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا أَوْنَسْلَمُ

٢١- طلبًا للشهادة، وهذا بيت القصيدة:

اللهم ارزقنا الصدق في طلبها.. اللهم يا حنان يا منان يا ذا الجلال والإكرام مُنَّ عليَّ بأفضل الشهادة في سبيلك، واحشرني إليك من بطون السباع وحواصل الطيور، وارزق أولادي وبناتي أفضل الشهادة في سبيلك.. فالموت في سبيلك وإعلاء كلمتك في الأرض أعظم ميلاد.

يقول سلطان العلماء عِز الدين بن عبدالسلام عن الشهداء: «أحيا القتلى فيه بعد مماتهم، وعوَّضهم عن حياتهم التي بذلوها لأجله بحياة سرمدية، لا يصفها الواصفون، ولا يعرفها العارفون.

وكذلك لما فارقوا الأهل والأوطان أسكنهم في جواره، وآنسهم بقربه بدلًا من أُنس من فارقوه من أحبائهم لأجله. فطوبى لمن حَصَل على هذا الأجر الجزيل في جوار الرب الجليل»(١).

٢٢- الحصول على الغنائم والسبي، وإن لها لموقعًا في النفس البشرية:

فَلَيْتَهُم إِذْ لَمْ يَذُودُوا حِمْيَةً عَنِ الدِّينِ ضَنُّوا غَيْرَةً بِالْمَحَارِمْ
وَإِنْ زَهِدُوا فِي الأَجْرِ إِذْ حَمِيَ الْوَغَى فَهَلَّا أَتَوْهُ رَغْبَةً فِي الْمَغَانِمْ

---

(١) أحكام الجهاد وفضائله، للإمام عبدالعزيز بن عبدالسلام ص (٥٣)، دار الوفاء.

ولذلك كان ﷺ يعطي القاتل سلب المقتول، وينفل جزءًا من الغنيمة لبعض الجيش إذا قاموا بعمل حربي بمفردهم. وقال لبعض أصحابه لما بلغه خبر عير أبي سفيان راجعة من الشام: «**هذه عير قريش فيها أموالهم، فأخرجوا إليها لعل اللَّه ينفلكموها**»[١].

وقال ﷺ حين خروجه من المدينة قاصدًا التعرض لعير قريش: «**اللهم إنهم حفاة فاحملهم. اللهم إنهم عراة فاكسهم. اللهم إنهم جياع فأشبعهم**»[٢].

وقال القرطبي «ودل خروج النبي ﷺ ليلقى العير على جواز النفير للغنيمة؛ لأنها كسب حلال، وهو يرد ما كره مالك من ذلك إذ قال: ذلك قتال على الدنيا.

وما جاء أن من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه دون من يقاتل للغنيمة يراد به إذا كان قصده وحده وليس للدين فيه حظ[٣].

وقال ـ أيضًا ـ: «ثم قيل: الأسباب التي يطلب بها الرزق ستة أنواع أعلاها كسب نبينا محمد ﷺ قال: «**جُعِلَ رزقي تحت ظل رمحي، وجُعِلَ الذلة والصغار على من خالف أمري**» [أخرجه الترمذي وصححه]، فجعل اللَّه رزق نبيه ﷺ في كسبه؛ لفضله، وخصه بأفضل أنواع الكسب وهو أخذ الغلبة والقهر؛ لشرفه»[٤].

وقال الشوكاني: «قال ابن أبي جمرة: ذهب المحققون إلى أنه إذا كان الباعث الأول إعلاء كلمة اللَّه لم يضره ما ينضاف إليه»[٥].

وبهذا يظهر ـ واللَّه أعلم ـ أن قصد الغنيمة يكون من أهداف الجهاد التابعة لا الأصلية، والذي لا يجاهد إلا للغنيمة فلا خير في جهاده؛ لأن الهدف الأصلي

---

(١) البداية والنهاية (٣/٢٥٦).
(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، المجلد الثالث، رقم الحديث (١٠٠٣).
(٣) تفسير القرطبي (٧: ٣٧٦).
(٤) تفسير القرطبي (٨: ١٠٨).
(٥) نيل الأوطار، للشوكاني (٧: ٢٤٤).

للجهاد هو إعلاء كلمة اللَّه وخفض كلمة الطاغوت ومد سلطان اللَّه على الأرض، فإذا قصد المسلم بجهاده هذا ثم اشتاقت نفسه ورغبت في الحصول على غنيمة من الكفار بعد كسر شوكتهم والاستيلاء عليهم فلا حرج في ذلك إن شاء اللَّه ـ تَعَالَى ـ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**تكفَّل اللَّه لمن جاهد في سبيله، لا يُخرجه إلا الجهادُ في سبيله وتصديق كلماته، بأن يُدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لَتُنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله**»(٢).

٢٣ـ المجاهد في ضمان الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثلاثة في ضمان اللَّه عز وجل: رجل خرج إلى مسجد من مساجد اللَّه عز وجل ورجل خرج غازيًا في سبيل اللَّه ـ تَعَالَى ـ، ورجل خرج حاجًّا**»(٣).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**ثلاثة كلهم ضامن على الله: رجل خرج غازيًا في سبيل اللَّه فهو ضامن على اللَّه حتى يتوفاه فيدخله الجنة، أو يرده بما نال من أجر أو غنيمة، ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على اللَّه حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يردَّه بما نال من أجر، ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٢٠).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو نعيم في «الحلية»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٥٩٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٠٥١).

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود، وابن حبان، والحاكم عن أبي أمامة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٥٣).

٢٤ـ المجاهدون وفد اللَّه يستجيب دعاءهم ويتولاهم بعنايته:

عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ عن النبي ﷺ قال: «**الغازي في سبيل اللَّه** ﷻ، والحاج، والمعتمر، وفد اللَّه دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»(١).

عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج قوم غزاة، ومعهم محمد بن المنكدر، وبينما هم يسيرون قال رجل منهم: أشتهى جبنًا طريًّا!

قال محمد بن المنكدر: استطعموا اللَّه يطعمكم، فإنه القادر على كل شيء، فدعا القوم، فلم يسيروا إلا قليلًا حتى وجدوا مِكْتلا مخيطًا، فإذا فيه جبن طري! فقال بعض القوم: لو كان عسلًا؟

فقال محمد بن المنكدر: إن الذي أطعمكم جبنًا هاهنا، قادر على أن يطعمكم عسلًا، فاستطعموه يطعمكم!

فدعا القوم فساروا قليلًا، فوجدوا وعاء عسل على الطريق! فأكلوا الجبن والعسل، وتابعوا سيرهم للغزو»(٢).

والمجاهد مسافر في سبيل الله، والمسافر لا ترد دعوته، فما ظنك إذا كان هذا السفر أفضل سفر.

دَعْنَا نُسَافِرُ فِي دُرُوبِ جِهَادِنَا وَلَنَا مِنَ الْهِمَمِ الْعَظِيمَةِ زَادُ
دَعْنَا نَمُتْ حَتَّى نَنَالَ شَهَادَةً فَالْمَوْتُ فِي دَرْبِ الْهُدَى مِيلَادُ

٢٥ـ الجهاد رفعة للأمة:

طبيعة المجتمعات كالماء تماما، ففي الماء الراكد تطفو على السطح الطحالب والأعفان، أما الماء المتحرك فلا يحمل العفن فوقه.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجة (٢٨٩٣) وابن حبان، والطبراني في «الكبير»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (١٨٢٠)، و«صحيح الجامع» رقم (٤١٧١).
(٢) كتاب مجابي الدعوة، لابن أبي الدنيا ص (٧١، ٧٢).

والجهاد بطول طريقه، ومرارة معاناته، وضخامة تضحياته، وفداحة أرزائه يصفِّي النفوس فتعلو على واقع الأرض الهابط، وترتفع الاهتمامات عن الخصومة الصغيرة وعن الأعراض القريبة وسفساف المتاع، يزيل الأحقاد، ويصقل الأرواح، وتسير القافلة صعدًا من السفح الهابط إلى القمة السامقة بعيدًا عن نتن الطين وصراع الغابات.

«لا بد للمجتمع الإسلامي من ميلاد، ولا بد للميلاد من مخاض، ولا بد للمخاض من آلام».

إن الجهاد يمحو الترهل من حياة الأمة، ويذيب مظاهر البذخ والترف التي تستعبد الشعوب الراكدة.

ذُرْوَةُ الدِّينِ جِهَادٌ فِي الصَّمِيمْ فَلْنُجَاهِدْ أَوْ لِتَلْفُظْنَا الْحَيَاهْ

إما جهاد وتعاهد على إرخاص قطرات الدم، وإما أن تلفظهم الحياة، ويستبدل اللَّه ـ تَعَالَى ـ بهم آخرين... أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين ـ يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، ولا يغريهم جمال نساء ومال، ولا يرهبهم طغيان طاغية، واستئساد جاهلية.

نعم.. هذا أو لقب ذي العقل المستريح
نعم... وإلا فإنها الترهات[1]

٢٦ـ تحريم المجاهد الذي اغبرّت قدماه في سبيل اللَّه على النار:

قال رسول اللَّه ﷺ: **«من اغبرت قدماه في سبيل اللَّه حرّمه اللَّه على النار»**[2].

٢٧ـ نكتب هذا خوفًا من النار واتقاء لغضب القوي الجبّار:

أيُّ وعيد أشد من النار، أيُّ خزي أعظم ووبال أليم أشد من عذاب المتخلفين

(١) «المنطلق»، لمحمد أحمد الراشد ص (٢٣٤)، مؤسسة الرسالة.
(٢) أخرجه البخاري رقم (٩٠٧).

عن الجهاد القاعدين عنه.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٩].

قال ابن العربي: العذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو، وبالنار في الآخرة(١).

ويقول اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧- ٩٩].

روى البخاري بإسناده عن عكرمة: أخبرني ابن عباس: أن أناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على عهد رسول اللَّه ﷺ يأتي السهم، فيرمي به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾.

فإذا كان المؤمنون في مكة ـ القابضون على دينهم كالجمر، ولم يهاجروا، وخرجوا حياءً وخوفًا من الكفار يوم «**بدر**»، فكثروا سواد المشركين(٢)، ثم قتل بعضهم ـ قد استحقوا جهنم برواية البخاري، فما بالك بالملايين من المسلمين الذين يسامون سوء العذاب، ويعيشون حياة دون حياة السوائم، ولا يملكون أن يردُّوا عاديةً عن أعراضهم أو دمائهم أو أموالهم.

حياة واللَّه ذليلة مهينة مستضعفة، وتتوفاها الملائكة ظالمة لأنفسها.

---

(١) تفسير القرطبي (١٤٢/٨).

(٢) سواد المشركين: عددهم

سَأَصْرِفُ وَجْهِي عَنْ بِلَادٍ غَدَا بِهَا ... لِسَانِي مَعْقُولاً وَقَلْبِي مُقْفَلاً

٢٨ـ رفضًا للواقع البائس المرير.. رفضًا لهزيمة المسلمين:

قالها سالم مولى أبي حذيفة: «**بئس حامل القرآن إذن أنا**»؛ يعني: إن فرَّ. ونقولها نحن بملء الفم.

سَيَأْخُذُ ثَأْرَ اللَّهِ أَنْصَارُ دِينِهِ ... فَلِلَّهِ أَوْسٌ آخَرُونَ وَخَزْرَجُ

بئس حملة القرآن نحن إن قبلنا الذل والهوان، وهزيمة المسلمين على يد المغضوب عليهم والضالين.

وعن عطية بن أبي عطية ـ رحمه اللَّه ـ: أنه رأى عبداللَّه بن أم مكتوم رضي الله عنه يومًا من أيام القادسية وعليه دروع سابغة يجرها في الصف في ميدان الجهاد[1]. كان ابن أم مكتوم رضي الله عنه أعمى، ولقد أعذره الله، ولكنه خرج للجهاد واشترك في معركة القادسية، وحمل اللواء فيها واستشهد...

هذا أبصر من قومنا مَن عميت بصيرتهم.. أما ابن أم مكتوم فإنا

نَرَاهُ كَالضَّوْءِ يَسْرِي فِي مَحَاجِرِنَا ... فَلَا تَرَاهُ عُيُونُ الْأَجْلَفِ الْقَالِي

عن ابن شهاب الزهري قال: خرج سعيد بن المسيب ـ رحمه اللَّه ـ إلى الغزو، وقد سقطت إحدى عينيه! فقيل له: إنك عليل!

فقال: قد استنفر اللَّه الخفيف والثقيل، فإن لم أتمكن من الحرب والقتال كثَّرت عدد المسلمين وسوادهم وحفظت المتاع![2]

نرفض واقعنا.. ونرفض ذل الهزيمة:

.. أرفُضُ أنْ أتَوَهَّمَ نعشَ خيالٍ،

.. عبَرَتْ فيه!

---

(١) الجهاد، لعبد الله بن المبارك (١/١١٩).

(٢) تفسير الطبري (١٠/٩٨).

.. أَرفضُ.. خطوَ العُمْر،
إذا لم تُصبحْ عدمًا، لا يدْريهْ!
ترفض روحي، كلَّ رُؤاها
يرفضُ زَمني، أنْ يحياها
يرفضُ صمتي، همسَ صداها
يرفضُ غضبُ الثأر سُراها
.. يرفض وهْمي أن يتمثَّلَ،
طيفَ أسًى منها يُخزيهْ!
.. يرفضُ أنْ يلقاها شبَحًا،
ريحُ اللَّعنةِ لا تطْويه!
يرفضُ وتَرِي أنْ يعزفَها
يرفضُ خَلَدِي أنْ يعرفها
أرفضُ أنْ أتوهَّمَ نعشَ خيال عبَرتْ فيه!!
ترفُضُ مِثْلي..
.. أرْض سمعت نجوى اللَّه على شَفَتَيْها
أصغَتْ، ورنَتْ،
ثم أضاءتْ حَلَكَ الدنيا، من خَدَّيْها
تم تهادَى خطْوُ الرُّسُلِ،
يُدَفِّقُ نورًا بينْ يدَيْها
عانقَ فيها كُلُّ نبيٍّ مر أخاهْ..
وغدتْ كلُّ حصاةٍ فيها، قُدْسَ صَلاهْ..
حين أتاها حادي النورِ،

يَشُقُّ ضُحاهْ..
.. فوق سفينٍ، عبرتْ لُجَّ الْغيبِ،
وطارتْ دون شراعْ،
غير نداء الأُفق الأعلَى
سبَّح في يُمناه شعاعْ..
فدنا منه، وشرب الحقَّ من الآياتْ
ومضَى يُنقِذُ وجه الأرض من الظلُماتْ
كلُّ ظلامٍ مرَّ عليه، توهَّج نورًا منه وذابْ
غيرَ وُجوه أبت اللعنةُ ملء دُجاها أن تنسابْ
حملتْ حقدَ الكونِ وسارتْ
تَئِدُ الطهْرَ بكل ترابْ
ثم رماها التِّيهُ..
فألقَتْ عَارَ خُطاها في المحرابْ!
مهما نهَبَتْ مِني،مهما،
بنْتُ الغدر.. ولا أرْوِيه!
أرفضُ.. أن أتوهَّم نعش خيالِ عبرتْ فيهْ!!

* * *

أرفُضُ.. نورَ الشمسِ،
إذا أحْلامي لم تقْطِفْهُ شرَارْ
وتجرِّعهُ غضبَ الْعزَّة،
ووَتُلَقِّنُهُ حقدَ الثَّارْ..

وتجسِّدُهُ فوق سَماها،
بغْتَة هولٍ، في إعصارْ..
كلُّ زمانِي فيه يَدُورْ
كلُّ وُجودي فيه عبورْ
كُلُّ دروبي فيه سَعيرْ
كلُّ كياني فيه أسيرْ..
كلُّ الماضي..
كلُّ الآتي..
كلُّ حياتي قَيْدَ خُطاهْ..
.. حتى يسَحَقَ هذا الليلَ،
ويُهْلِكَ في جنبيَّ دُجاهْ!
.. حتَّى يورقَ في مَسْراه،
صوتٌ، كُبِّلَ فيه صَداه،
في مئذنَةٍ،..
وقفتْ تجْأَرُ في الظلماتِ بِلا كَفَّيْنْ
لا تَسْبيحَ،
ولا ترتيل، يعجُّ به ثاني الحرَمَيْنْ
ذُبحَ النورُ عليه،
وعاد رُفاتَ دعاءٍ من شفَتَيْنْ
وغدا الرِّجسُ،
يدوسُ ثراهُ، وينهش فيه بالقدمَيْنْ
.. مهما دَنَّس بَاغٍ فيهْ؛

مهما فَجَرَت أُمُّ التيه،
أرفُضُ.. حتى أن أتوهَّمَ نَعْشَ خيالٍ..
.. عبَرَتْ فيه!!

* * *

يرفُضُ شيْءٌ..
ظلَّ يغَنِّي فوق جبيني طولَ العُمْرْ
ذوَّبَ كِبْرَ الشمسِ، وذاب،
فأنْبَتَ فيه إباء الدهْرْ
لمَعَ النَّجْمُ، وشابَ سَناهُ،
وكل شعاعٍ منْه يمر...
خلقَتْ منه صَلاةُ البيدْ
أَلْفَ لهَاةٍ، أَلْفَ قصيدْ
تُبْدِئُ منه، ثم تُعيدْ
هب العزَّةِ في التَّغريدْ!!
شيء.. منه انتفَض الأمْسُ،
وشقَّ حشايَ على سِكِّينْ
وأتى يَزْأَرُ في شفَتَيْهِ،
قسَمُ الثأر بألف يمينْ:
.. لَنْ أتركها، وخزَةَ عارٍ فيَّ لعينْ!!
لن أتركها.. يُطرق منها أيُّ جبينْ!!
ترفض أرضي..

ترفض عِرْضي..
يرفضُ كبْرٌ فيَّ طعينْ!!
يرفض وَجْهي
يرفض لهبٌ تحت جراح القلب دفينْ!!
يرفض كلُّ وجودٍ حَوْلي،
كلُّ حراكٍ، كل سكونْ!!
يرفض أن يحياها يأسا
لم تسحقه رياح يقين
حتى يصْعَقَ يومُ الثارِ،
خُطاها السُّودَ بكل بنيهْ!
حتى ينْفُضَ حقدُ الرَّمْل،
صداها الآثمَ من أيديهْ...
حتَّى يرفعَ وجهُ القُدْسِ،
أذانَ النَّصْر إلى حاميهْ..
.. أرفُضُ!!
.. حتى أنْ أتوهَّمَ نعش خيالٍ
.. عبرَتْ فيهْ!![1]

٢٩ـ أمر الإسلام قائم بالكتاب.. والبأس الشديد.

كلام مقدس قاله اللَّه ـ تَعَالَى ـ، محكم غير متشابه، ماض غير منسوخ، أراده ـ عزَّت إرادته ـ أن يكون للدعوة الإسلامية شعارًا، ودستور عمل، ومعلم طريق،

(١) قصيدة «رقص الهزيمة»، لمحمود حسن إسماعيل ص (١٤٨٧ ـ ١٤٩٤) من «الأعمال الكاملة، لمحمود حسن إسماعيل» مع تغيير لبعض الكلمات التي تخالف العقيدة السلفية.

فجعله ـ جلَّ وعلا ـ في آية يتلوها الملايين كل يوم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

فكل قلب أُحكمت أقطاره ولم تتشابه، ومضت إلى الخير عزيمته ولم تنسخ فَهِمَ هَذِهِ الآيَةَ فَهْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهَا.

فهمها أبو بكر رضي الله عنه، فكانت حروب الردة.

وفهمها عمر الفاروق رضي الله عنه، المشتق لقبه من أسماء السيف، فكان منه الإقرار لمن لوح له بالسيف أداة تقويم إن زاغ واتبع الهوى.

وتواصت أجيال المسلمين بعدهما بهذا السلوك، وتواصت بالقرآن، فبعدوا عن الخسران.

حتى إذا خسروا، وفق اللَّه ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ يتلو عليهم هذه الآية، ويفسرها، ويقول لهم: «ذكر ـ تَعَالَى ـ أنه أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد؛ لأجل القيام بالقسط، وليعلم اللَّه من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي، وسيف ينصر، وكفى بربك هاديًا ونصيرًا»(١).

ويؤكد لهم أنه «إذا ظهر العلم بالكتاب والسنة، وكان السيف تابعًا لذلك، كان أمر الإسلام قائمًا»(٢).

عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: «**ما ليلة تهدى إليَّ فيها عروس أنا لها محب، أو أبشر فيها بغلام أحب إليَّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد أُصبِّح فيها العدو، فعليكم بالجهاد**»(٣).

---

(١)، (٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/١٠) (٣٩٣/٢٠).
(٣) المصنف، لابن أبي شيبة (٣١٧/٥، ٣١٨).

❑ الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة

«إذا كانت هذه هي معظم أهداف الجهاد ومقاصده، فما الغاية التي يتوقف عندها الجهاد؟

إن الغاية التي يتوقف عندها الجهاد هي إسلام أهل الأرض كلهم، واعتناقهم عقيدة الإسلام، من غير أهل الكتاب والمجوس. أما أهل الكتاب والمجوس، فإذا دفعوا الجزية ملتزمين لأحكام الإسلام القضائية حال كونهم في ذل وصغار فإن المسلمين يوقفون جهادهم، ويكفون عنهم، ويحمونهم من عدوهم.

ولن يتوقف الجهاد الإسلامي مدى الحياة؛ لأن الشيطان مستمر في إغواء بعض البشر، والصراع بين الحق والباطل سنة إلهية لا تنتهي حتى ينتهي وجود البشر في هذه الأرض.

فعن جبير بن نفير أن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى النبي ﷺ فقال: إني سئمت الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها، قلت: لا قتال. فقال النبي ﷺ: «**الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس، يزيغ الله قلوب أقوام فيقاتلونهم، ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله** ﷻ **وهم على ذلك، ألا إن عقر دار المؤمنين الشام، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[1].

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة**»[2].

وقال البخاري - رحمه الله - في صحيحه: باب الجهاد ماض مع البر والفاجر؛ لقول النبي ﷺ: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**». قال ابن حجر في شرحه لهذه الترجمة: «**سبقه إلى الاستدلال بهذا الإمام أحمد؛ لأنه** ﷺ ذكر بقاء الخير في نواصي الخيل إلى يوم القيامة، وفسره بالأجر والمغنم، والمغنم المقترن بالأجر

---

(١) **صحيح**: مسند أحمد (١٠٤/٤) وسيأتي تخريجه.

(٢) مسند أحمد (٩٣/٤) وهو في الصحيحين.

إنما يكون من الخيل بالجهاد، ولم يقيد ذلك بما إذا كان الإمام عادلًا، فدل على أن لا فرق في حصول هذا الفضل بين أن يكون الغزو مع الإمام العادل أو الجائر»[(١)].

وبهذا يظهر أن الجهاد مستمر إلى قيام الساعة، وأنه لا ينتهي جهاد الكفار إلا إذا أسلموا أو خضعوا لحكم الإسلام ودفعوا الجزية حالة كونهم متلبسين بالذل والصغار»[(٢)].

٣٠- وأخيرًا: إحياءً للأمل... وما أحلى الشعر في تصوير الأمل:

نكتب عن «**فُرْسان النَّهَارِ**»؛ إحياءً للأمل في النفوس، فالمستقبل كلَّ المستقبل للإسلام، وصُمَّتْ أذن الدنيا إن لم تسمع لنا.

أكتب هذه الرسالة؛ ليكون تسكينها للقلب أعظم، وتسليتها للحزين اليائس أبلغ، ولتكون انتشالاً من وهدة، وتوجيهًا في ساعة حيرة، وأذانًا في نيام، وسلوة بين أحزان، ونبلًا عندما يسفل الواقع، وسُمُوًّا إذا نطق الإغراء، ووفاءً في ساعة النكوص، واقتحامًا في مواطن الانخزال، ودفعًا للانزواء الذي كَلْكَلَ على اليائسين القانطين، وترطيبًا للنفوس بعد اليبوسة والجفاف، وتثبيتًا لأفئدة المؤمنين، وبعثًا للأمل، وترجمانًا لأشواق الصحوة التي تسري في ضمير الأمة، كما تسري جداول المياه العذبة في الرمال العطشى.

نُنَقِّبُ في الماضي، نستخرج السوابق، وتسطر دمعاتُ القلمِ العِبَرَ من نبع الكتاب والسنة الصافي؛ لتجفَّ دمعات قلوب التائهين البائسين اليائسين القانطين، ويكون ثَمَّ ابتسام وأمل في فجرنا الآتي المضمَّخ بطيب القرآن غيث قلوبنا.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

يقولون: إن المطرْ

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح (٦/٤٢).

(٢) أهمية الجهاد ص (١٨٥، ١٨٦).

يترجمُ أشواقه أنهُرا
يغوص ببطن التراب
ليسكن قلب الثرى
ويخرج ينبوع ماء نمير
يفيض نماءً
يفيض عطاءً
يعطر هام الروابي
ويبهجها منظرًا منظرَا
لقد جعل اللَّه هذا المطر
حياة لكل النفوس
مشاعًا لكل البشر
غديرًا.. لتشرب منه الزهور
لتنقر منه الطيور
لتعكس فيه الضياء البدورُ
ليملأ تلك الجداول والأنهرا
فيا مطرًا غاب عن أرضنا أدهرَا
تحنُّ إليك النفوس
ويشتاق كل الورى
تعالَ إلينا
تحنُّ إليك ضروع اليباس
تحن إليك البذور بكل التراب
وكل ربوع اليباب

لتنقذها من جيوش التراب

وتغسل بالحب وجه الثرى

* * *

أكتب هذه الرسالة ليعقل ساذج، ويتململ راقد، ويتنافس قاعد، ويتأنى متهور، ويفرح هامد يائس بائس؛ لتغمر القلبَ برودةُ السكينة بوعد الله، بعد حرارة القلق، ولذعات الحيرة، ومرارة اليأس والقنوط، وتنفرج أسارير الوجه عن ابتسام وضَّاء، بعد عبوس أو ذهول.

إن ابتسامة من يبتسم من الناس، وبثَّ الأمل لن يأتي سهلًا أبدًا في هامد قانط، والذين ما زالت أفواههم تفغر حيرة ليسوا بقادرين على تصور ابتسامة تبتسمها الصفحات، ولا على فهم دور الأقلام المؤمنة ودموعها الباسمة في وجه قلم أسود مأجور غريق، تائه لا يبدو له طريق.

فَدَعْ عَنْكَ الْكِتَابَةَ لَسْتَ مِنْهَا وَلَوْ لَطَّخْتَ وَجْهَكَ بِالْمِدَادِ

اللَّهم اجعل لنا نصيبًا وافرًا في جهاد المنافقين المارقين، والغلظة عليهم بهذا الأمل الذي نبثه في بني الإسلام لفجرهم المرتقب، وتثبيت أفئدة المؤمنين بتحلية حقيقة هذا الدين العظيم وشرف الانتساب إليه، وقَدْر هذه الأمة العظيمة واصطفاء اللَّه لها وكرامتها عليه.

بَنُو الْإِنْسَانِ يَنْتَظِرُونَ فَجْرًا بِلَيْلِ الْوَهْمِ يَخْتَرِقُ الضَّبَابَا

وَقَدْ لَاحَتْ أَشِعَّتُهُ وَضَاءً وَإِرْهَاصَاتُهُ انْطَلَقَتْ شِهَابَا

غَدًا تَمْشِي الشُّعُوبُ عَلَى هُدَاهُ وَنُورُ اللَّهِ يَحْدُوهَا رِكَابَا

أما الشانئ الأبتر، الذي يظن أن الإسلام لن تعلو له راية، ولن تشرق له شمس مرة أخرى، ولن يكون له فجر، فنقول له: «**اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدو قَدْرَكَ**».

ونقول له:

سَنَمْضِي وَالنُّجُومُ لَنَا دَلِيلُ مَتَى أَصْغَى السَّحَابُ إِلَى النُّبَاحْ؟
فَقَدْ وَلَّى زَمَانُكَ يَا أُبَيٌّ كَمَا وَلَّى زَمَانُكَ يَا سِجَاحْ

ونقول له:

لَا تُهَيِّئْ كَفَنِي يَا عَاذِلِي فَأَنَا لِي مَعَ الْفَجْرِ مَوَاثِيقٌ وَعَهْدُ

❑ **أخي.. يا بن الإسلام:**

لا شيء في هذه الحياة يعدل ذلك الفرح الروحي الشفيف عندما نستطيع أن ندخل الثقة ونبث الأمل في نفوس المسلمين. وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**أحب الناس إلى اللَّه أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى اللَّه ﷻ سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كُرْبة**»[1].

من يقيننا بوعد اللَّه ينبثق الفجر وينداح، نعيش لنرقب هذا الفجر الوضيء، والأفق العالي، والمثال السامي.

إن الذي يعيش لنفسه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا، والذي يعيش يرقب ببصر فؤاده ذلك النور فإنه يعيش كبيرًا.

عندما نعيش مع هذا الفجر، ولهذا الفجر، ولمجد بني الإسلام، فإننا نعيش حياة مضاعفة بقدر ما يتضاعف إحساسنا بالمسلمين.

عندما نعيش للإسلام فإن حياتنا تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت البشرية، وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم - كأنا في دار عقبة بن رافع، فأُتينا برطب من رطب ابن طاب**[2] **فأوَّلتُ: الرفعة لنا في**

---

(١) **حسن**: رواه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج»، والطبراني في «المعجم الكبير» عن ابن عمر، وَحَسَّنَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٠٦)، و«صحيح الجامع» رقم (١٧٤).

(٢) نوع من الرطب معروف يُقَالُ له: رطب ابن طاب، وتمر ابن طاب، وابن طاب رجل من أهل المدينة.

الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب»(١).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن من الناس ناسًا مفاتيحَ للخير، مغاليقَ للشر، وإن من الناس ناسًا مفاتيحَ للشر، مغاليقَ للخير، فطوبى لمن جعل اللَّه مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل اللَّه مفاتيح الشر على يديه**»(٢).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**عند اللَّه خزائن الخير والشر مفاتيحها الرجال، فطوبى لمن جعله اللَّه مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر، وويل لمن جعله اللَّه مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير**»(٣).

وعن أبيٍّ بن كعب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بشِّر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا؛ لم يكن له في الآخرة من نصيب**»(٤).

وعند البيهقي: «**بشِّر هذه الأمة بالتيسير والسناء والرفعة بالدين والتمكين في البلاد والنصر، فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا، فليس له في الآخرة من نصيب**».

وعن أبي عنبة الخولاني قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يزال اللَّه يغرس في هذه الدين غرسًا، يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة**»(٥).

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٠).

(٢) **حسن**: رواه ابن ماجه عن أنس، وَحَسَّنَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٣٣٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٢١٩).

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، والضياء في «المختارة» عن سهل بن سعد، وكذا أخرجه ابن ماجه، وأبو يعلى في «مسنده»، وابن أبي عاصم، والخرائطي، والطيالسي، والمروزي عن أنس، وَحَسَّنَهُ الألباني في «تخريج السنة» رقم (٢١٩، ٢٩٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٩٨٧).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد (١٣٤/٥)، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم (٣١١/٤)، وَصَحَّحَهُ، ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥/١، ١٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٨٢٢)، و«أحكام الجنائز» ص (٥٢).

(٥) **حسن**: أخرجه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه، والبخاري في «التاريخ»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤٤٢)، و«صحيح الجامع» (٧٥٦٩).

هذا غرس الله، ومن أحسن من اللَّه صبغة، ويأبى الغرس إلا طبيعته، والحمقى هم الذين يريدون أن يخرج هذا الغرس نكدًا، وكأنهم يقولون لشجر التفاح: لَا تُخْرِجْ إِلَّا حَنْظَلًا.

فَهَذَا الْغَرْسُ لَيْسَ لَهُ نَظِيرُ   وَحَاشَا أَنْ يَكُونَ لَهُ نَظِيرُ
بِمَاءِ الذِّكْرِ يُسْقَى كُلَّ يَوْمٍ   وَفِي أَحْضَانِهِ تَنْمُو الْبُذُورُ[(١)]

* * *

نعم لأمل بسَّام نعيش به، ولا للمنى فهي رءوس أموال المفاليس والنَّوْكَى[(٢)].

أمل وضيء في وسط ظلام واقعنا الحالك، يطمئن في وسط الزلازل، وثقة لا تتزعزع في وعد الله.. نستشرف النصر من بعيد، ونراه رأي العين، ونوقن أن البشرية في طريقها إلى ربيعها المونق المزهر الذي يملأ حياتها بالعطر والدفء والنور.. ربيع الإسلام.

قال ـ تعَالَى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

ولله دَرُّ أحمد محمد الصديق وهو يقول:

لَوْ كانَ لي عُنُقُ الأعاصيرِ التي   تجتاحُ عندَ تَحَفُّزِ البُرْكانِ
لأَتَيْتُ أَمْتَشِقُ الصَّواعِقَ مُعْلِنًا   سَحْقَ الدُّجى وَنهايَةَ القُرْصانِ
يا أَيُّها النَّسْرُ المَشُوقُ إلى الذُّرى   يَطْوي الفَضاءَ بلَهْفَةٍ وَحَنانِ
أَتُراكَ بَعْدَ البَيْنِ تَعْرِفُ ما الذي   يُشْجي الفَتَى في غُرْبَةِ الأَوْطانِ؟
قُمْ وانْتَفِضْ يا ابْنَ العَلاءِ مُبَشِّرًا   بتَفَتُّحِ النِّسْرينِ وَالرَّيْحانِ

---

(١) من قصيدة «نحن وهم» من ديوان «لأنك مسلم»، لمحمود مفلح ص (٦١).
(٢) النوكى: الحمقى.

وَلْتركَبِ الرِّيحَ الغَضوبَ يَهيجُها قَدَرٌ وَيُطْلِقُها بغَيْرِ عِنانِ
وَاحْمِلْ إلى الآفاقِ مُزْعَةَ رايةٍ سَقَطَتْ وَتَأْبى ذِلَّةَ القِيعانِ
مَغْموسَةً بجراحِنا مَنْسوجَةً مِنْ روحِنا بِالصِّدْقِ والإيمانِ
مِنْ كَهْفِنا المَقْرورِ في غَسَقِ الدُّجى مِنْ عَضَّةِ الآلامِ والأحْزانِ
مِنْ صَرْخَةِ المَوْتورِ في أَحْشائِهِ حُمَمٌ تثورُ بِجاحِمِ النِّيرانِ
مِنْ دَمْعَةِ الطِّفْلِ البَريءِ تَعاظَمَتْ حتَّى غَدَتْ في الأَرْضِ كَالطُّوفانِ
مِنْ لَوْعَةِ الأمِّ الرَّءومِ مَهيضَةً بالثُّكْلِ تَسْبيها يَدُ الطُّغْيانِ
وَدَمُ الشَّهيدِ على الرَّغامِ مُجَدَّلًا أنفاسُهُ طُوِيَتْ بلا أَكْفانِ
مِنْ كُلِّ مَنْ ذَهَبوا سِياطُ الظُّلْمِ في أَعْقابِهِمْ وَسَلاسِلُ السَّجّانِ
مِنْ عُمْقِ هاتيكَ الجِراحِ شُموسُنا وُلِدَتْ وَتُسْقى بالطَّهورِ القَاني
وَتَفَتَّقَتْ خُضْرُ البَراعِمِ في الضُّحى وَتأَلَّقَتْ شُهُبًا بكُلِّ مَكانِ
وعلى مُصاوَلَةِ الخُطوبِ تَمَرَّسَتْ وَتَرَعْرَعَتْ في حَوْمَةِ المَيْدانِ
إنَّ النُّفُوسَ إذا تَمَخَّض سَعْيُهَا فَثِمَارُهَا يَوْمَ الحَصَادِ دَوَانِي
قَدْ أَبْرَمَتْ بِجِهَادِهَا وَثَبَاتِهَا عَهْدًا يَدُومُ غَدًا مَعَ الرَّحْمَنِ
وَلَهَا مَعَ الأَمْجَادِ وَعْدٌ صَادِقٌ قَدْ سُطِّرتْ بُشْرَاهُ فِي الْقُرْآنِ
وَإِذَا الرِّجَالُ عَلَى الْعَقِيدَةِ بَايَعُوا يَا صِدْقَ أَحْلَامٍ لَهُمْ وَأَمَانِي[1]

ولله دره وهو يقول:

قادِمٌ فَجْري وَمِنْ أَعْطافِهِ يَعْبَقُ الزَّهْرُ ويَنْهَلُّ الغَمامُ
يَتَخَطَّى عَقَباتٍ كُلُّها مِحَنٌ تَتْرَى وَآلامٌ جِسامُ
إنَّهُ يَبْزُغُ مِنْ أَعْماقِنا وَالجِرَاحَاتُ عَلَى الأُفْقِ وِسَامُ

(١) قصيدة «عودة النسر»، لأحمد محمد الصديق من ديوان «قادمون مع الفجر» ص (٦٨ - ٧٠) دار الضياء.

ويقول أيضًا:

يَـا رايَـةً بـالـنُّـورِ خـافِـقَـةً ... يَهْفو إليك السَّمْعُ والبَصَرُ

هَـيَّـا فـإنَّ الـدَّهـرَ مُـرْتَـقِـبٌ ... وَمَـواكـبُ الـتَّـاريـخِ تَـنْـتَـظِـرُ

* * *

ولله دَرُّ محمود مفلح حين يقول:

هي أمةٌ وَالنَّهْجُ نَهْجُ محمدٍ ... هَيْهَاتَ أَنْ يَرْضَوْا سِوَاهُ إِمَامَا

مُسَّتْ عَقِيدَتُهُمْ فَكَانَ دَوِيُّهُمْ ... كَالرَّعْدِ يَقْذِفُ عِزَّةً وَضِرَامَا

وَلَوَوْا بِجِيدِ الذِّئْبِ لَوْلَا أَنَّهُ ... قَدْ فَرَّ يَسْبِقُ فِي الظَّلَامِ نَعَامَا

ضَاقَتْ بِهِ الْأَرْضُ الرَّحِيبَةُ بَعْدَمَا ... حَمَلَتْه كُرْهًا فَوْقَهَا وَأَثَامَا

هِيَ عِزَّةُ الْإِيمَانِ فِي فَتَكَاتِهِمْ ... هَلَّا عَرَفْتَ الْمُسْلِمَ الْمِقْدَامَا

هَذِي سُيُوفُ الْفَاتِحِينَ وَطَالَمَا ... عَانَتْ سُيُوفُ الْفَاتِحِينَ صِيَامَا

هَذِي عَقِيدَتُنَا وَذَلِكَ نَهْجُنَا ... فَاقْرَأْ عَلَيْنَا «الْفَتْحَ» وَ«الْأَنْعَامَا»

قَدْ آنَ أَنْ تَلِدَ اللَّيَالِي مُسْلِمًا ... وَالْمُسْلِمُونَ يُبَايِعُونَ إِمَامَا

قَدْ آنَ أَنْ يَعْلُو النَّفِيرُ وَفِي دَمِي ... صَخَبُ النَّفِيرِ مَتَى يَكُونُ صِدَامَا؟

«بَدْرٌ» تَعُودُ إِلَى الحَيَاةِ وَ«خَيْبَرٌ» ... تُلْقِي عَلَى أَقْدَامِهَا الْأَعْلَامَا

شَتَّانَ بَيْنَكَ يَا هَمَّامُ وَبَيْنَ مَنْ ... بَاعَ الْقُبُورَ حِجَارَةً وَعِظَامَا[1]

ولله دَرُّ محمود مفلح حين يقول:

فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْضِي

وَعَلَى هَدْيِ كِتَابِ اللهِ قَدْ أَحْكَمْتُ نَبْضِي

أَرْتَدِي الْفَجْرَ وَأَمْضِي فِي سَبِيلِي

---

(١) الثائر المسلم من ديوان الراية، لمحمود مفلح ص (٣٥، ٣٦)، دار عمار.

فَإِذَا الشَّمْسُ دَلِيلِي
وَإِذَا الْأَنْجُمُ فِي قَلْبِي وَأَعْرَاسُ النَّخِيلِ
خَارِجًا مِنْ مِحْنَةِ اللَّيْلِ
وَمِنْ صَمْتِ الْقُبُورِ
نَهَشَتْ أَظْفَارُهُمْ وَجْهِي
وَفِي جَنْبَيَّ عَضَّاتُ الْحَصِيرِ
مُمْسِكًا حَفْنَةَ قَمْحٍ، رَغْمَ عَصْفِ الرِّيحِ وَالْأَنْوَاءِ، وَالْجُرْحِ الْخَطِيرِ
وَسُطُورًا مِنْ رَحِيقِ الذِّكْرِ
أَتْلُوهَا فَيَسْتَيْقِظُ سَيْفُ الْحَقِّ
أَتْلُوهَا فَيَصْحُو الشَّوْقُ
أَتْلُوهَا فَتَجْرِي لِلْيَنَابِيعِ طُيُورِي
وَعَلَى هَذْي كِتَابِي
أُبْصِرُ الْأَشْيَاءَ مِنْ خَلْفِ الضَّبَابِ
وَأَرَى الْأَوْجُهَ مِنْ غَيْرِ قِنَاعَاتٍ وَمِنْ غَيْرِ خِضَابِ
وَعَلَى هَذْي كِتَابِي
أَزْرَعُ النَّخْلَةَ تَجْتَازُ الْمَسَافَات لِتَمْتَصَّ رَحِيقَ الشَّمْسِ مِنْ ثَدْيِ الرَّوَابِي
أَسْمَعُ التَّرْنِيمَةَ الْأُولَى لِطَيْرِ الْفَجْرِ
وَالتَّرْجِيعَةَ الْأُولَى لِدِيكِ الْفَجْرِ
بَوْحَ[١] الْغَيْثِ لِلْأَرْضِ الْيَبَابِ[٢]
وَعَلَى هَذْي كِتَابِي

---

(١) بوح الغيث: ظهور المطر.
(٢) اليباب: الخراب.

أَكْتُبُ الْفَضْلَ الَّذِي يَأْتِي
وَأَخْطُو فَوْقَ حَدِّ الشَّمْسِ أَسْتَنْطِقُ عُرْيَ[١] الْبَرْقِ
كَيْ أُنْقِذَ آلَافَ الرِّقَابِ
قَدْ تَقُولُونَ بِأَنَّ السَّيْفَ فِي كَفِّي أَقَالَتْهُ الْمَعَارِكْ
وَبِأَنَّ اللَّيْلَ هَالِكْ
وَبِأَنِّي لَمْ أَعُدْ أُتْقِنُ شَدَّ الْقَوْسِ تَغْرِيدَ النِّبَالِ
وَالْفُتُوحَاتِ الَّتِي أَدْمَنَهَا الْعُشَّاقُ فِي السَّبْعِ الطِّوَالِ
قَدْ تَقُولُونَ
«وَإِفْكًا مَا يَقُولُ الزَّيْفُ» ضَرْبٌ مِنْ خَيَالْ
قَدْ تَقُولُونَ مُحَالْ
أَنْ يَجِيءَ السَّيْلُ دَفَّاقًا
وَأَنْ تَجْرِي مَعَ السَّيْلِ التِّلَالْ
قَدْ تَقُولُونَ
وَلَكِنِّي أَقُولْ
وَأَنَا جِدُّ خَجُولْ
وَأَنَا أَقْرَأُ فِي فَاتِحَةِ الْعَصْرِ وَأَشْوَاقِ الْحُقُولْ
إِنَّ فِي الدَّرْبِ الْخُيُولْ
وَعَلَى وَقْعِ التِّلَاوَاتِ سَتَخْضَرُّ الْفُصُولْ
وَلَنَا الْيَوْمُ الْجَمِيلْ
وَلَنَا التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى
لَنَا الْأُفْقُ

(١) عري: يقال: فرس عري: لا سرج له.

لَنَا الرَّايَاتُ وَالصَّوْتُ الْبَدِيلْ
وَلَنَا السَّيْفُ الَّذِي خَبَّأَهُ الْبَرْقُ إِلَى الْيَوْمِ الثَّقِيلْ
وَلَنَا الشَّجَرُ الأَخْضَرُ وَالْمَاءُ الَّذِي تَجْرِي إِلَيْهِ الطَّيْرُ وَالظِّلُ الظَّلِيلْ
وَلَنَا قَارُورَةُ الْعِطْرِ الَّتِي تَسْفَحُهَا الشَّمْسُ عَلَى كَفِّ الأَصِيلْ(١)

* * *

ولله دره وهو يقول:

وَأَقُولُ لِلْجِيلِ الْجَدِيدِ
أَقُولُ لِلْجِيلِ الْمُحَصَّنِ بِالْعَقِيدَةِ وَالْمُتَوَّجِ بِالصَّبَاحْ
وَأَقُولُ يَا جِيلَ الْكِفَاحْ
إِنَّا بَلَوْنَا اللَّيْلَ وَالأَشْبَاهَ وَالْمَوْتَ الْمُؤَجَّلَ وَالْجِرَاحْ
وَأَقُولُ يَا جِيلَ الْمَصَاحِفِ
يَا خَمِيرَ الأَرْضِ يَا طَلْقَ الْوِلَادَةْ
هَا أَنْتَ كَالْيَنْبُوعِ تَدْفُقُ فِي صَحَارِينَا
وَتَمْنَحُنَا الْوَثِيقَةَ وَالشَّهَادَةْ

* * *

أَنْتَ الَّذِي سَيُبَدِّلُ الأَوْزَانَ وَالأَحْزَانَ
يَزْرَعُ فِي الْعُيُونِ نَخِيلَهَا
فَلَكَمْ تَبَاطَأَ فِي الرَّحِيلِ عَنِ الْقُرَى عَامُ الرَّمَادَةْ

* * *

(١) قصيدة «عندما تزهر الحروف»، لمحمود مفلح، من ديوانه «إنها الصحوة».

وَأَقُولُ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ
أَقُولُ حَيَّ عَلَى السِّلَاحِ
فَإِنَّ فِيكَ النَّبْضَ يُورِقُ بَيْنَ تَرْتِيلِ الظَّهِيرَةِ وَالْمَسَاءْ
وَأَقُولُ يَا جِيلَ الْفِدَاءْ
أَكَلَتْ مَوَاسِمَنَا الْجَنَادِبُ
وَاسْتَبَدَّ بِنَا الْحُوَاةُ
وَغَادَرَتْنَا آخِرُ السُّحْبِ فِي السَّمَاءْ
أَنْتَ الَّذِي يَقْتَاتُ جَمْرَ الْمَرْحَلَهْ
هَا إِنَّ أَحْبَارَ الْيَهُودِ تَجَمَّعُوا، هَا إِنَّهُمْ حَشَدُوا لَنَا
فَاقْرَأْ عَلَى تِلْكَ الرُّءُوسِ «**الزَّلْزَلَهْ**»

* * *

اقْرَأْ عَلَيْنَا بِاسْمِ رَبِّكَ مَا تَيَسَّرَ يَا بِلَالْ
الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ
وَنَحْنُ فِي وَقْدِ الظَّهِيرَةِ
كَمْ نَتُوقُ إِلَى الظِّلَالْ
اقْرَأْ عَلَيْنَا «**الْمُؤْمِنُونَ**» وَشُدَّ قَوْسَكَ
إِنَّ قَوْسَك لَا تَطِيشُ بِهَا النِّبَالْ
كَمْ ذَا سَأَلْتُ فَلَمْ يُجِيبُوا
كَمْ سَأَلْتُ فَلَمْ يُجِيبُوا
أَنْتَ وَحْدَكَ مَنْ يُجِيبُ عَنِ السُّؤَالْ
يَا أَيُّهَا الْجِيلُ الْجَدِيدُ وَيَا سَلِيلَ الطُّهْرِ يَا بَرْدَ الْيَقِينْ

كُنْ بِاسْمِ رَبِّكَ قَلْعَةً لِلْخَائِفِينَ وَمَنْهَلًا لِلظَّامِئِينَ
وَكُنْ رَصَاصًا كُنْ قَصَاصًا
كُنْ جُذُورًا كُنْ طُيُورًا
كُنْ كَمَا شَاءَتْ لَكَ «**الْأَعْرَافُ**» فِي الزَّمَنِ الْعَجِينْ(١)

* * *

يَا أَيُّهَا الجِيلُ الجَدِيدُ
وَقَفْتُ مُنْدَهِشًا عَلَى عَتَبَاتِ خُطُوَتِكَ الْجَدِيدَةْ
وَقَرَأْتُ نَبْضَكَ وَانْطَلَقْتُ بِلَا عِنَانْ
مِنْ سُورَةِ «**الْإِسْرَاءِ**» جِئْتَ وَمِنْ نَقَاءِ «**الْفَجْرِ**»
وَالسَّبْعِ الْمَثَانِي
وَرَأَيْتَ مِنْ خَلْفِ الدُّخَانِ وَجُوهَهُمْ
وَبَلَوْتَ عَرْبَدَةَ الدُّخَانِ
وَحَمَلْتَ جُرْحَكَ وَالْهَجِيرَ
حَمَلْتَ جُرْحَكَ وَالْعَبِيرَ
فَمَا الَّذِي حَمَلَتْهُ أَغْرِبَةُ الزَّمَانِ(٢)

ويقول في قصيدته «**حكاية نسر**»(٣):

قَدْ أَصَابَ النَّسْرَ الَّذِي قَدْ أَصَابَهْ فَدَعِ الْيَأْسَ مَرَّةً وَالْكَآبَهْ
لَا تُفَجِّرْ فِي النَّسْرِ شَوْقَ الْأَعَالِي فَلَقَدْ تَقْتُلُ النُّسُورَ الصَّبَابَهْ

---

(١) عجن فلان عجنًا: ينهض معتمدًا بيديه على الأرض كِبَرًا. أعجن: شاخ وأسن. العجين: المسن، المخنث، الأحمق.
(٢) قصيدة «جيل الصحوة» من ديوان «إنها الصحوة»، لمحمود مفلح.
(٣) ديوان «نقوش إسلامية على الحجر الفلسطيني»، شعر: محمود مفلح.

لَا تَلُمْهُ فَالنَّوْمُ أَثْقَلَ جَفْنَيْـ ـهِ وَأَرْخَى عَلَى الْمُنَى أَهْدَابَهْ
دَعْهُ فِي سَكْرَةِ الْحَنِينِ فَإِنِّي أَتَقَرَّى فِي مُقْلَتَيْهِ الصَّلَابَهْ

* * *

إِنَّ هُوجَ الرِّيَاحِ تَمْضُغُ سَاقَيْـ ـهِ وَيَشْوِي هَجِيرُهَا أَعْصَابَهْ
ظَلَّ دَهْرًا يُصَارِعُ الْمَوْتَ فَرْدًا وَالْخَفَافِيشُ حَوْلَهُ صَخَّابَهْ
وَذِئَابُ الدُّجَى تُسَاوِرُ فَرْخَيْـ ـهِ وَتَلْوِي عَنِ الصُّعُودِ رِكَابَهْ
وَالْأَلِدَّاءُ[1] يَنْصِبُونَ الْمَنَايَا قَدْ تَدَاعَوْا مِنْ كُلِّ جُحْرٍ وَغَابَهْ
ثُمَّ مَالَتْ عَلَيْهِ بِنْتُ اللَّيَالِي فَإِذَا خَصْمُهُ الْعَنِيدُ ذُبَابَهْ
وَإِذَا النَّسْرُ فِي الْقَصَائِدِ يَسْمُو وَالْفَضَاءُ الرَّحِيبُ يَبْكِي غِيَابَهْ
دَجَّنُوهُ فَلَمْ يُغَادِرْ فِنَاءً وَأَسَالُوا لِلْمُغْرِيَاتِ لُعَابَهْ
صَارَ يَلْهُو مَعَ الْعَصَافِيرِ حَتَّى لَمْ تَجِدْ فِيهِ سَطْوَةً أَوْ مَهَابَهْ
رَكَلَتْهُ فَلَمْ يُحَرِّكْ جَنَاحًا وَاسْتَبَدَّتْ بِهِ فَغَضَّ جَنَابَهْ

* * *

أَيُّ نَسْرٍ هَذَا الَّذِي يَلْعَقُ التُّرْ بَ وَيَحْسُو مِنَ الْأَكُفِّ شَرَابَهْ؟
أَيُّ نَسْرٍ هَذَا الَّذِي نَسِيَ الْوَثْـ ـبَ وَضَاقَتْ بِمُقْلَتَيْهِ الرَّحَابَهْ؟
يَفْقِدُ اللُّبَّ حِينَمَا يَسْمَعُ الصَّوْ تَ وَيَدْنُو إِنْ أَوْمَأَتْ سَبَّابَهْ
كَادَ يَنْسَى مِنْ كَثْرَةِ الزَّحْفِ أُفْقًا عَبْقَرِيًّا وَكَادَ يَنْسَى عُبَابَهْ
وَغَفَا مَرَّةً فَضَجَّتْ حَوَالَيْـ ـهِ بُغَاثٌ[2] وَبَعْثَرَتْ أَسْلَابَهْ
بَقِيَتْ هَكَذَا وَلِلنَّسْرِ زَفْرٌ فَوْقَ صَخْرٍ لَوْ مَسَّهُ لَأَذَابَهْ

---

(١) الألداء: جمع الأَلَدِّ؛ وهو: شديد الخصومة، الجَدِل: الشحيح الذي لا يزيغ إلى الحق.
(٢) بَغاث الطير، وبُغاثها: ألائمها، وشرارها، وما لا يصيدُ منها، جمع بُغاثة.

وَصَحَا النَّسْرُ حِينَ مَرَّتْ عَلَيْهِ غَيْمَةٌ عَاتَبَتْهُ هَزَّتْ عِتَابَهْ
أَيْنَ أَيَّامُكَ الْعِتَاقُ وَأَيْنَ الْـ ـمَجْدُ يُلْقِي عَلَى خُطَاكَ إِهَابَهْ؟
أَيْنَ يَا نَسْرُ عُنْفُوَانُكَ بِالأَمْـ ـسِ وَمَرْمَى نُجُومِكَ الْوَثَّابَهْ!؟

* * *

نَشَقَ الأُفْقَ فَالْكَوَاكِبُ سَكْرَى إِنَّ لِلْأُفْقِ نَكْهَةً جَذَّابَهْ
حَرَّكَ النَّسْرُ جَانِحَيْهِ وَدَوَّى فِي سَمَاءٍ غِرْبَانُهَا جَوَّابَهْ
فَتَوَارَتْ عَنِ الْعُيُونِ وَلَاذَتْ وَتَوَارَتْ أَيَّامُهَا الْكَذَّابَهْ
ثُمَّ شَقَّ السَّمَاءَ بِالْقَفْزَةِ الْكُبْـ ـرَى جَرِيئًا مُحَطِّمًا أَعْتَابَهْ
وَاعْتَلَى صَهْوَةَ الرِّيَاحِ وَمَاجَتْ بَيْنَ عَيْنَيْهِ قِمَّةٌ خَلَّابَهْ

* * *

وللفرسان أشدو

سأشدو لكم:
... سأشْدُوا!
... وشَدْوي... أعاصيرُ رَفْضٍ؛ ونارٌ تدورْ!
على كلِّ صوتٍ بُجُرحى يُسلى فراغِ الصدور
ويسرق مِن غضبةِ الثَّار، بركانَ حقدٍ يفورْ!
ويمْرُقُ كالإثم... يحجُبُ عني أذانَ المصير...
ويُغري يَدِي عن رَحيق الفِداءِ!
وشوْقِ الدماءِ، وعصف البنادقْ..!
وشِريانها يَسْتَرِدُّ الكرامةَ من كل باغٍ!

.. ومِن كل سارقْ..!
ويَلْغو بوهمي،
وهيهاتَ يُصغي ضياعي وحُزني!
لِأشلابِ صيتٍ،
صداهُ زوالٌ على كلِّ أُذْنِ!
... فمعركتي...
... صوتُها فوق صوتِ الوجودِ،
وصوتِ النشيد، وصوت الوَترْ!
وفوق الحياةِ، وفوق المماتِ...
صداها يُدَوِّي بصوتِ القَدَرْ!
... سأشدو لكم...
وشَدْوِي مناجلُ مجنونةٌ بحصاد الهَشيمْ!
تُعَرِّي الجراحَ...
لتسْتلَّ منها قشورَ الرِّياء،
وزَيْفَ العصورْ!
وتهْتكَ ما بَرْقَعَتْهُ عليْها،
وما كفَّنَتْه بَغايا الستورْ!
وما سَمَّرَتْهُ نعوش الحَقيقةِ،
في دَرْبها مِن ظلامٍ، وزُورْ!![1]

* * *

(١) «سأشدو لكم»، لمحمود حسن إسماعيل ص (١٥٣٩، ١٥٤٠) من الأعمال الشعرية الكاملة، لمحمود حسن إسماعيل.

رفيق صلاح الدين هل لك عودة

زَمَانُكَ بُسْتَانٌ وَعَصْرُكَ أَخْضَرُ ... وَذِكْرَاكَ عُصْفُورٌ مِنَ الْقَلْبِ يَنْقُرُ
دَخَلْتَ عَلَى تَارِيخِنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ ... فَرَائِحَةُ التَّارِيخِ مِسْكٌ وَعَنْبَرُ
وَكُنْتَ فَكَانَتْ فِي الْحُقُولِ سَنَابِلٌ ... وَكَانَتْ عَصَافِيرٌ وَكَانَ صُنُوبَرُ
لَمَسْتَ أَمَانِينَا فَصَارَتْ جَدَاوِلًا ... وَأَمْطَرْتَنَا حُبًّا وَلَا زِلْتَ تُمْطِرُ
تَأَخَّرْتَ عَنْ نَقْعِ الْوَغَى يَا حَبِيبَنَا ... وَمَا كُنْتَ عَنْ نَقْعِ الْوَغَى تَتَأَخَّرُ
سَهِدْنَا وَفَكَّرْنَا وَشَاخَتْ دُمُوعُنَا ... وَشَابَتْ لَيَالِينَا وَمَا كُنْتَ تَحْضُرُ
تُعَاوِدُنِي ذِكْرَاكَ كُلَّ عَشِيَّةٍ ... وَيُورِقُ فِكْرِي حِينَ فِيكَ أُفَكِّرُ
وَتَأْبَى جِرَاحِي أَنْ تَضُمَّ شِفَاهَهَا ... كَأَنَّ جِرَاحَ الْحُبِّ لَا تَتَخَثَّرُ(١)
تَأَخَّرْتَ يَا أَغْلَى الرِّجَالِ فَلَيْلُنَا ... طَوِيلٌ وَأَضْوَاءُ الْقَنَادِيلِ تَسْهَرُ
تَأَخَّرْتَ فَالسَّاعَاتُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا ... وَأَيَّامُنَا فِي بَعْضِهَا تَتَعَثَّرُ
أَتَسْأَلُ عَنْ أَعْمَارِنَا أَنْتَ عُمْرُنَا ... وَأَنْتَ لَنَا الْآمَالُ أَنْتَ الْمُحَرِّرُ
وَأَنْتَ أَبُو الْغَمَرَاتِ أَنْتَ وَقُودُهَا ... وَأَنْتَ انْبِعَاثُ الدِّينِ أَنْتَ التَّغَيُّرُ
تَأَخَّرْتَ عَنَّا فَالْجِيَادُ حَزِينَةٌ ... وَسَيْفُكَ مِنْ أَشْوَاقِهِ كَادَ يُنْحَرُ
حِصَانُكَ فِي سَيْنَاءَ يَشْرَبُ دَمْعَهُ ... وَيَا لَعَذَابِ الْخَيْلِ إِذْ تَتَذَكَّرُ
وَرَايَاتُكَ الْخَضْرَاءُ تَمْضُغُ دَرْبَهَا ... وَعِنْدَكَ آمَالُ الثُّغُورِ تُقَصَّرُ
نِسَاءُ فِلَسْطِينَ تَكَحَّلْنَ بِالْأَسَى ... وَفِي بَيْتِ لَحْمٍ قَاصِرَاتٌ وَقُصَّرُ
وَلَيْمُونُ يَافَا يَابِسٌ فِي حُقُولِهِ ... وَهَلْ شَجَرٌ فِي قَبْضَةِ الظُّلْمِ يُزْهِرُ
رَفِيقَ صَلَاحِ الدِّينِ هَلْ لَكَ عَوْدَةٌ ... فَإِنَّ جُيُوشَ الرُّومِ تَنْهَى وَتَأْمُرُ
رِفَاقُكَ فِي الْأَغْوَارِ شَدُّوا سُرُوجَهُمْ ... وَجُنْدُكَ فِي حِطِّينَ صَلَّوْا وَكَبَّرُوا

(١) لا تتخثر: لا تلتئم بسرعة.

تُغَنِّي بِكَ الدُّنْيَا كَأَنَّكَ طَارِقٌ عَلَى بَرَكَاتِ اللهِ يَرْسُو وَيُبْحِرُ
تُنَادِيكَ مِنْ شَوْقٍ مَآذِنُ مَكَّةٍ وَتَبْكِيكَ بَدْرٌ يَا حَبِيبِي وَخَيْبَرُ
وَيَبْكِيكَ صَفْصَافُ الشَّآمِ وَوَرْدُهَا وَيَبْكِيكَ زَهْرُ الْغُوطَتَيْنِ وَتَدْمُرُ
تَعَالَى إِلَيْنَا فَالْمُرُوءَاتُ أَطْرَقَتْ وَمَوْطِنُ آبَائِي زُجَاجٌ مُكَسَّرُ
هُزِمْنَا وَمَا زِلْنَا شَتَاتَ قَبَائِلٍ تَعِيشُ عَلَى الْحِقْدِ الدَّفِينِ وَتَزْأَرُ
يُحَاصِرُنَا كَالْمَوْتِ بِلْيُونُ كَافِرٍ فَفِي الشَّرْقِ «هُولَاكُو» وَفِي الْغَرْبِ «قَيْصَرُ»
أَيَا فَارِسًا أَشْكُو إِلَيْهِ مَوَاجِعِي وَمِثْلِي لَهُ عُذْرٌ وَمِثْلُكَ يَعْذُرُ
أَنَا شَجَرُ الْأَحْزَانِ أَنْزِفُ دَائِمًا وَفِي الثَّلْجِ وَالْأَنْوَارِ أُعْطِي وَأُثْمِرُ
وَأَصْرُخُ يَا أَرْضَ الْمُرُوءَاتِ اِحْبَلِي لَعَلَّ صَلَاحًا ثَانِيًا سَوْفَ يَظْهَرُ

* * *

❑ **إلى الصابرين المتطلِّعين إلى فجر الإسلام الآتي:**

سأشدو لكمْ..
وأُشعلُ بالحرفِ أشواقكمْ
وأعصر في الشدو أيامَكمْ
وأمتص منكْم رَمادَ الظلام
وأسقيه نورًا لأحلامكم..
وأعزف ما عِشتُ للحائرينَ
وللواقفينَ على بابِكمْ..

* * *

..سأشدو لكمْ
وأسقي العطاش بأكوابكمْ..

وأسْتَلُّ من سَكراتِ الظلام
شُعاعاً يغنِّي لأسرابكمْ..
فلي روضة إن دهاها الخريفُ
ربيعي على صدرها كل حينْ
ولي رشفةٌ من رحيق عميقٍ
بساتينُهُ عِطرُها لا يحينْ
من الروح للروح يجري شذاهُ
وتنهلُّ أنهاره في الجبينْ..
ولي قدرٌ في دمي ناغمٌ
تلاغيه إصغاءةُ العابرينْ..
عبرتُ الوجود بلا أي فُلْكٍ
ولا أي موجٍ يناجي السفينْ
سأشدو لكمْ..
وأشعل بالحرف أشواقَكمْ
وأعصر في الشدو أيامَكمْ..
وأسكُبها في دم الحائرين
صلاة لفجر قريب لكمْ..

* * *

فهيا نغني على دربه..
لتشربَ نجواهُ أبصاركمْ..
وهيا نشد إليه الزمامَ

ليخضَّرَ للروح بستانكمْ..
وتدنو لكم يانعاتُ الثمارِ
قطوفاً.. قطوفًا لأطياركم
ولا تبقى تأويهةٌ للحيارى
تنغض بالسخط أيامكم

* * *

أصيخوا فإنِّي لكْم رافضٌ
إذا لم تردوا إلي الجبينْ..
فقد ضاعَ وجهي .. في غفلة
وضاع الغناءُ وضاعَ الرنينْ..
وقلبتُ غيبي في كُلِّ أفقٍ
لعلي أعودُ مع العائدينْ..
لعلي أرى الأرضَ ألقتْ كراهَا
ودبتْ بها صحوة النائمينْ..
لعلَّ الأسى في اختلاج الوجوهِ
تشبُّ القيامة في الراقدينْ..
لعل المنادي يهزُّ الدروب
ويسقي خطاها لظى الغاضبينْ..
لعلي أرى فوقَهَا كلَّ شيءٍ
حصادَ انتقامٍ وسُخط دفينْ!!
لعلي أرى سجدات السماء

عليها أعادت شذى المرسلينْ

وردتْ عبيرًا سحقنا رياهُ

ودسناهُ قبل خُطا المجرمينْ!!

لعلي أرى كلَّ شيء إباء

ورفضًا لهذا ا لوجود المهينْ!!

سأشدو لكم..

وتشدو معي ذكرياتُ الضياءْ

ويشدو الصباح ويشدو المساءْ

ويَشدو اللسانُ ويشدو الضمير

ويشدو الزمانُ ويشدو المصير

ويَشدو لقاءٌ مع النور فاتْ

ويشدو لقاء بكفيه آت..

ويشدوهُ صحوٍ ويشدو سباتٍ

وتشدو المعاركُ والتضحياتْ..

وتشدو المناراتُ والمعجزات

وتفنى الأباطيلُ والترهات..

ضممتم خطاكم .. فسار الضياءْ

ومدَّ على كل أرض سماء..

وفرقتموها فحاق الظلامْ

وصرتُم نَداماهُ تَحت الخيام..

وكنتم مع النور مَوجَ الطريق

فصرتم بِلاهُ لُهاثَ الغريق

وكم قالَ والحقُ فيه نَشيد
وأنتم لما لم يَقُلْهُ عبيد
فقال: اتبعوني أزدكُم ضياءْ
فَدُرْتُم نشاوى بخمر الرياء
أديروا على النور أقداحَكمْ
تروا آيةَ النور تمحو الغروب
وتشرق في كل وجهٍ سلامًا
وعدلاً ورؤيا وجودِ خصيب

* * *

... وماذا أنا ... إن أَطَلَّ الضياءْ
ولم يلقَ في الأفق تسبيحَ جفني!!
ولم يلقَ فيَّ انعتاقِ الصباحِ
وإيماضهُ في حشاشاتِ لحني!!
ولم يلق فِيَّ المدى مستمرًّا
إلى الشمس يعرفُ منها لكوني!!
وماذا أنا ... إن عَبرتُ الوجود
أناديه... أين الذي ضاع مِنِّي؟
ولابد ... وجهي لوجهي يعود
ولو خطفته أساطيرُ جنٍّ!!
سأستلُّ ذاتي ... فإن لم أجدها
سأستلُّ ما بين ذاتي وبيني

وأُشْعِلُ فيها ضرامَ التحرُّكِ
من عارها الخامد المطمئنِّ
وأضري بها نشوة الناظرين
ليوم ضحاهُ أهاويلُ جن
... فلابدَّ من غضبةٍ نارها
تردُّ الذي ضاع منكم ومني!!
ولابد أَمْسِي ليومي يعود!!
ويأتي غدي عاتيًا في الصعود
ومهما استبد عويل الظلام
وَغَطَّ بجنبيه خزيُ النيام
فللفجر شوقٌ لأبوابكم
وللثأر دقٌّ بأعتابكم
فأصغوا بنار الليالي إليَّ
ولن يهدأ الحرف في راحتيّ
إذا لم يعد لي جبيني الأبيْ!!
وحتى تعودَ لوجهي سماهْ
ويرجعَ للأفقِ عاتي ضحاهْ...
...سأشدو ...وأشدو لكم لا أملْ!!
ولو ضاعَ ـ لا ضاع ـ باقي الأجلْ!!(١)

* * *

(١) من قصيدة «سأشدو لكم»، لمحمود حسن إسماعيل، بتصرف.

أمل ... أمل ... أمل

وجودي أمَلْ
وعمري أَمَل
وكل حياتي أَمَلْ
ومهما تكن خافياتُ الأجلْ
فإني أملْ
ودرب جديد لشطِّ الأمل
فلو هاجت الريحُ
كنتُ لموجي شْراعَ السفينْ
ولوْ زمجرَ الموْجُ
كنتُ ضِفاف السكونْ
ولو ذُبِلَتْ زهرتي في شعاب الجبلْ
فربي سيخْلقُ منها الأمل
يُجدِّدها روضةً يانعهْ
وينسخها جنةً رائعهْ

* * *

خُلِقْتُ لأنسِجَ من كل موتٍ حياهْ
ومن كل أمسٍ غدًا واثبًا في خطاهْ
ومن كلِّ ليلٍ ضياءْ
ومن كلِّ دَمْعٍ صفاءْ
فإنْ شجري قطعته أيادي الخريفْ

ربيعي سيحييه غضّ القُطوفْ
... وإنْ زهري أسقطته الرياحْ
سيأتي مع العطر عند الصباحْ
ولو مزّق الشوكُ أحلام قلبي
فحبي وإيمانُ قلبي وروحي
يذيبان جمرَ الأسى من جروحي!!
سأفضي بدربي إلى كلِّ فجٍّ
ولو كان ما بين ريحٍ ولُجٍّ
ومهما بروضي غصنٌ ذَبَلْ
سيحييه للفجر روض الأملْ
وجودي أملْ
وعمري أملْ
وكل حياتي أملْ[١]

* * *

(١) قصيدة «أمل»، لمحمود حسن إسماعيل ص (١٤٧٣ ـ ١٤٧٥)، من الأعمال الشعرية الكاملة له.



الفصل الثاني

الجهاد في القرآن الكريم
الحثُّ عليه
وبيانُ ثوابه وفضله

والترهيب من تركه والنكوص عنه

فضل الجهاد والترغيب فيه والترهيب من تركه في القرآن الكريم

هذه آيات من كتاب اللَّه المجيد «**القرآن الكريم**».. وكلامُ الملوكِ ملوكُ الكلامِ.

وهذه آيات تتحدث عن ذروة السنام «**وهو الجهاد**»، والترغيب فيه، والحض عليه، والترهيب من التقاعس عنه، والتثاقل إلى الأرض.. وفيها **بيان فضل الجهاد:**

١ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن جرير الطبري شيخُ المفسرين: «يقول ـ تعَالَى ذكره ـ للمؤمنين باللَّه وبرسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: صدَّقوا باللَّه ورسوله، وأقروا بما جاء به نبيهم محمد ﷺ.

﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾: من يرجع منكم عن دين الحق الذي هو عليه اليوم، فيبدِّله ويغيره بدخوله في الكفر، إما في اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك من صنوف الكفر فلن يضر اللَّه شيئًا، وسيأتي اللَّه بقوم ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ يقول: فسوف يجيء اللَّه بدلًا منهم بالمؤمنين الذين لم يبدلوا ولم يغيروا ولم يرتدوا، بقوم خير من الذين ارتدوا وبدلوا دينهم، يحبهم الله، ويحبون الله. وكان هذا الوعيد من اللَّه لمن سبق في علمه أنه سيرتد بعد وفاة نبيه محمد ﷺ، وكذلك وعده مَنْ وَعَدَ من المؤمنين ما وعده في هذه الآية لمن سبق له في علمه أنه لا يبدل ولا يغير دينه ولا يرتد. فلما قبض اللَّه نبيه ﷺ ارتد أقوام من أهل الوبر وبعض أهل المدر، أبدل اللَّه المؤمنين بخير منهم كما قال ـ تعَالَى ذكره ـ ووفَّى للمؤمنين، وأنفذ فيمن

ارتد منهم وعيده»(١).

«ثم اختلف أهل التأويل في أعيان القوم الذين أتى اللَّه بهم المؤمنين، وأبدل المؤمنين مكان من ارتد منهم؛ فقال بعضهم: هو أبو بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة حتى أدخلوهم من الباب الذي خرجوا منه»(٢) وممن قال بذلك: الحسن، والضحاك، وقتادة، وابن جريج.

«وقال آخرون: يعني بذلك قومًا من أهل اليمن، وقال بعض من قال ذلك منهم: هم رهط أبي موسى الأشعري عبداللَّه بن قيس»(٣)، وممن قال بذلك عياض الأشعري، ومجاهد محمد بن كعب القرظي.

ثم قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب ما رُوي به الخبر عن رسول اللَّه ﷺ أنهم أهـل اليمن قوم أبي موسى الأشعري، ولولا الخبر الذي روي في ذلك عن رسول اللَّه ﷺ بالخبر الذي رُوي عنه ما كان القول عندي في ذلك إلا قول من قال: هم أبو بكر وأصحابه، وذلك أنه لم يقاتل قومًا كانوا أظهروا الإسلام على عهد رسول اللَّه ﷺ ثم ارتدوا على أعقابهم كفارًا غير أبي بكر ومن كان معه ممن قاتل أهل الردة بعد رسول اللَّه ﷺ، ولكنا تركنا القول في ذلك للخبر الذي روي فيه عن رسول اللَّه ﷺ أن كان ﷺ معدن البيان عن تأويل ما أنزل اللَّه من وحيه وآي كتابه»(٤).

ثم قال عن أهل اليمن: «جاء بهم على عهد عمر، فكان موقعهم من الإسلام وأهله أحسن موقع، وكانوا أعوان أهل الإسلام، وأنفع لهم ممن كان ارتد بعد رسول اللَّه ﷺ من طغام الأعراب وجفاة أهل البوادي الذين كانوا على أهل

---

(١) تفسير ابن جرير (٦/١٨٢).
(٢) المصدر السابق (٦/١٨٢).
(٣) المصدر السابق (٦/١٨٣).
(٤) المصدر السابق (٦/١٨٤، ١٨٥).

الإسلام كَلًّا لا نفعًا»[١].

قال القرطبي: «قال الحسن وقتادة وغيرهما: نزلت في أبي بكر الصديق وأصحابه.. وقيل: هي إشارة إلى قوم لم يكونوا موجودين في ذلك الوقت، وأن أبا بكر قاتل أهل الردَّة بقوم لم يكونوا وقت نزول الآية، وهم أحياء من اليمن؛ من كندة وبجيلة، ومن أشجع. وقيل: إنها نزلت في الأشعريين، ففي الخبر أنها لما نزلت قدِم بعد ذلك بيسير سفائن الأشعريين، وقبائل اليمن من طريق البحر، فكان لهم بلاء في الإسلام في زمن رسول اللَّه ﷺ، وكانت عَامَة فتوح العراق في زمن عمر بن الخطاب ﷺ على يدي قبائل اليمن، وهذا أصح ما قيل في نزولها. واللَّه أعلم.»[٢].

ويقول ابن كثير: «يقول ـ تَعَالَى ـ مخبرًا عن قدرته العظيمة: أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن اللَّه يستبدل من هو خير لها منه؛ وأشد منعة، وأقوم سبيلًا، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٠]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠]؛أي: بممتنع ولا صعب. وقال ـ تَعَالَى ـ ها هنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾؛ أي: يرجع عن الحق إلى الباطل»[٣].

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: لما نزلت ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال رسول اللَّه ﷺ: **«هم قوم هذا»**[٤].

(١) تفسير الطبري (٦/١٨٥). (٢) تفسير القرطبي (٤/٢٢١٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٥/٢٥٨، ٢٥٩)، طبعة أولاد الشيخ.
(٤) **إسناده صحيح**: رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/١١٦٠) (٦٥٣٥)، وابن جرير في «تفسيره» (١٠/٤١٥) (١٢١٨٩، ١٢١٩١)، وابن سعد في الطبقات (٤/٨٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٢/١٢٣) وفي «مسنده» (٦٦٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٥١٥).

عن جابر بن عبدالله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «سُئِل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]قال: هؤلاء قوم من أهل اليمن، ثم من كندة، ثم من السكون، ثم من تجيب»(١).

ثم وصف الله. ثم يحبهم ويحبونه من سادات أولياء الله ﷻ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن جرير: «أرقاء عليهم، رحماء بهم، ويعني بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أشداء عليهم، غلظاء بهم».

عن علي بن أبي طالب «أهل رقة على أهل دينهم، أعزة على الكافرين، أهل غلظة على من خالفهم في دينهم».

وقال ابن عباس: يعني بالذلة: الرحمة(٢).

قال ابن كثير: «﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] هذه صفات المؤمنين الكُمَّل؛ أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه، كما قال ـ تعالَى ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي صفة رسول الله ﷺ: أنه الضحوك القتَّال، فهو ضحوك لأوليائه، قتَّال لأعدائه»(٣).

قال القرطبي: قال ابن عباس: «هم للمؤمنين كالوالد للولد، والسيد للعبد، وهم في الغلظة على الكفار كالسبع على فريسته»(٤).

---

(١) **إسناده حسن:** رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/١١٦٠) (٦٥٣٤)، والطبراني في «الأوسط» (١٣٩٢)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٩)، وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن، وَحَسَّنَهُ السيوطي في «الدر المنثور» (٢/٥١٨)، وزاد نسبته إلى الحاكم، وقال ابن كثير: غريب جدًّا.

(٢) تفسير الطبري (٦/١٨٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/٢٦٠).

(٤) تفسير القرطبي (٤/٢٢١٧).

﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾[المائدة: ٥٤].

قال ابن جرير: «يجاهدون في قتال أعداء اللَّه على النحو الذي أمر اللَّه بقتالهم والوجه الذي أذن لهم به، ويجاهدون عدوهم، فذلك مجاهدتهم في سبيل الله. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾[المائدة: ٥٤] يقول: ولا يخافون في ذات اللَّه أحدًا، ولا يصدهم عن العمل بما أمرهم اللَّه به من قتال عدوهم لومة لائم لهم في ذلك»(١).

قال ابن كثير ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾[المائدة: ٥٤]؛ أي: لا يردُّهم عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك رادٌّ، ولا يصدهم عنه صادٌّ، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل»(٢).

عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بحب المساكين، والدنوِّ منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًّا، وأمرني أن لا أخاف في اللَّه لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرِّب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق، أو أن يذكر بعظم»(٤).

---

(١) تفسير الطبري (٦/١٨٥، ١٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/٢٦١).

(٣) **إسناده صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» (٥/١٥٩)، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٨٦)، وفي «عمل اليوم والليلة» (٣٥٤)، والطبراني في «الأوسط» (٧٧٣٩)، وفي «الصغير» (١/٢٦٨)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/٩١)، وفي «الشعب» (٦/٩٣، ٩٤) (٧٥٨٣).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد «مسنده» (٣/٥، ٤٤، ٤٦، ٥٠، ٥٣، ٧١، ٨٧، ٩٢)، واللفظ له، وأبو يعلى في «مسنده» (١٤١١)، والطبراني في «الأوسط» (٢٨٠٤)، وعبد بن حميد في «مسنده» كما في=

قال القرطبي: «قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الصفة ـ أيضًا ـ. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة: ٥٤] بخلاف المنافقين يخافون الدوائر، فدلَّ بهذا على تثبيت إمامة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ؛ لأنهم جاهدوا في اللَّه عَجَّلَ في حياة رسول اللَّه ﷺ، وقاتلوا المرتدين بعده، ومعلوم أن من كانت فيه هذه الصفات فهو ولي لله ـ تَعَالَى ـ. وقيل: الآية عامة في كل من يجاهد الكفار إلى قيام الساعة. واللَّه أعلم»[1].

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: ٥٤] من خلقه؛ مِنَّة عليه وتطوُّلًا. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤] يقول: واللَّه جواد بفضله على من جاد به عليه، لا يخاف نفاد خزائنه فيكف من عطائه، عليم بموضع جوده وعطائه، فلا يبذله إلا لمن استحقه، ولا يبذل لمن استحقه إلا على قدر المصلحة؛ لعلمه بموضع صلاحه له من موضع ضره»[2].

«هنا ـ في صفة العصبة المؤمنة المختارة لهذا الدين ـ يرد ذلك النص العجيب: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ويطلق شحنته كلها في هذا الجو، الذي يحتاج إليه القلب المؤمن، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق شاعرًا أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل.

ثم يمضي السياق يعرض بقية السمات: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].. وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين.. فالمؤمن ذلول للمؤمن.. غير

= «المنتخب» من المسند (٨٦٩)، والطيالسي في «مسنده» (٢١٥١، ٢١٥٦، ٢١٥٨)، والترمذي في كتاب الفتن ـ باب ما جاء فيما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة، حديث (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٧)، والحاكم (٤/٥٠٦)، وأبو يعلى (١٢١٢)، وابن حبان (٢٧٥، ٢٧٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٩٠٦)، و«الصغير» (١/٢٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٩٨، ٩٩)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠/٩٠)، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (١٦٨).

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٢١٧، ٢٢١٨).

(٢) تفسير الطبري (٦/١٨٦).

عصيٌّ عليه ولا صعب. هين لين.. ميسر مستجيب.. سمح ودود.. وهذه هي الذلة للمؤمنين.

وما في الذلة للمؤمنين من ذلة ولا مهانة، إنما هي الأخوة، ترفع الحواجز، وتزيل التكلف، وتخلط النفس بالنفس، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين.

إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هي التي تجعله شموسًا عصيًّا شحيحًا على أخيه. فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به.. وماذا يبقى له في نفسه دونهم، وقد اجتمعوا في اللَّه إخوانًا؛ يحبهم ويحبونه، ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمـونه؟!

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤]..

فيهم على الكافرين شِمَاسٌ وإِبَاءٌ واستعلاءٌ.. ولهذا الخصائص هنا موضع.. إنها ليست العزة للذات، ولا الاستعلاء للنفس. إنما هي العزة للعقيدة، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين.

إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم، لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين.

ثم هي الثقة بغلبة دين اللَّه دينَ الهوى؛ وبغلبة قوة اللَّه على تلك القوى؛ وبغلبة حزب اللَّه على أحزاب الجاهلية.. فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك، في أثناء الطريق الطويل..

﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]..

فالجهاد في سبيل الله؛ لإقرار منهج اللَّه في الأرض، وإعلان سلطانه على البشر، وتحكيم شريعته في الحياة؛ لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس.. هي صفة العصبة المؤمنة التي يختارها الله؛ ليصنع بها في الأرض ما يريد.. وهم يجاهدون في سبيل

الله؛ لا في سبيل أنفسهم، ولا في سبيل قومهم؛ ولا في سبيل وطنهم؛ ولا في سبيل جنسهم.. في سبيل الله؛ لتحقيق منهج الله، وتقرير سلطانه، وتنفيذ شريعته، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق.. وليس لهم في هذا الأمر شيء، وليس لأنفسهم من هذا حظ، إنما هو لله، وفي سبيل الله بلا شريك..

وهم ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]..

وفيم الخوف من لوم الناس، وهم قد ضمنوا حب رب الناس؟ وفيم الوقوف عند مألوف الناس، وعرف الجيل، ومتعارف الجاهلية، وهم يتبعون سنة الله، ويعرضون منهج الله للحياة؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس؛ ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس؛ أما من يرجع إلى موازين الله ومقاييسه وقيمه؛ ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم؛ ومن يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته، فما يبالي ما يقول الناس وما يفعلون، كائنًا هؤلاء الناس ما كانوا؛ وكائنًا واقع هؤلاء الناس ما كان، وكائنة «**حضارة**» هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون!

إننا نحسب حسابًا لما يقول الناس، ولما يفعل الناس، ولما يملك الناس، ولما يصطلح عليه الناس، ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين.. لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم.. إنه منهج الله وشريعته وحكمه.. فهو وحده الحق، وكل ما خالفه فهو باطل؛ ولو كان عرف ملايين الملايين، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون!

إنه ليست قيمة أي موضع، أو أي عرف، أو أي تقليد، أو أية قيمة.. أنه موجود، وأنه واقع، وأن ملايين البشر يعتنقونه، ويعيشون به، ويتخذونه قاعدة حياتهم. فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي. إنما قيمة أي وضع، وأي عرف، وأي تقليد، وأية قيمة، أن يكون لها أصل في منهج الله، الذي منه ـ وحده

تستمد القوانين»[1].

هذه سمة المؤمنين المختارين، وذلك فضل الله، يعطي عن سعة، ويعطي عن علم.. وما أوسع هذا العطاء؛ الذي يختار اللَّه له من يشاء عن علم، وعن تقدير.

٢ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ **[الصف: ٤]**.

«عن عبداللَّه بن سلام رضي الله عنه قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى اللَّه لعملناه، فأنزل اللَّه ـ تعالَى ـ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ١، ٢] قال عبداللَّه بن سلام: فقرأها علينا رسول اللَّه ﷺ»[2].

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ٢] قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن اللَّه دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبر اللَّه نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان باللَّه لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به، فلما نزل الجهاد، كره ذلك أناس من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره، فقال اللَّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾.

---

(١) في ظلال القرآن (٢/٩١٩، ٩٢٠).

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه الترمذي (٥/٤١٢، ٤١٣) حديث (٣٣٠٩)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الصف، وأخرجه الدارمي (٢/٢٠٠)، وابن حبان في «صحيحه» (الإحسان ـ ١٠/٤) حديث (٤٥٩٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٦٩) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وأشار إليه الحافظ ابن حجر فقال: «إسناده صحيح قَلَّ أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوّه» (فتح الباري) (٨/٥٠٩).

وأخرج الطبري ـ أيضًا ـ بسنده الحسن عن قتادة قوله: «ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه، كذلك تبارك وتعالى لا يختلف أمره، وإن اللَّه وصف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليهم بأمر اللَّه فإنه عصمة لمن أخذ به»[١].

قال سعيد بن جبير: «كان رسول اللَّه ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم، وهذا تعليم من اللَّه للمؤمنين»[٢].

قال القرطبي: يصفون صفًّا؛ أي: يصفُّون أنفسهم صفًّا ـ ومعنى الآية: يحب من يثبت في الجهاد في سبيل اللَّه ويلزم مكانه كثبوت البناء»[٣].

وقال القاسمي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ قال القاشاني: لأن بذل النفس في سبيل اللَّه لا يكون إلا عند خلوص النفس في محبة الله؛ إذ المرء إنما يحب كل ما يحب من دون اللَّه لنفسه. فأصل الشرك ومحبة الأنداد محبة النفس، فإذا سمح بالنفس، كان غير محب لنفسه، وإذا لم يحب نفسه فبالضرورة لم يحب شيئًا من الدنيا. وإذا كان بذله للنفس في اللَّه وفي سبيله لا للنفس، كما قال: ترك الدنيا للدنيا، كانت محبة اللَّه في قلبه راجحة على محبة كل شيء، فكان من الذين قال فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وإذا كانوا كذلك يلزم محبة اللَّه إياهم؛ لقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. انتهى.

في ذكر هذه الآية عقيب مقت المخلف دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا بالثبات في قتال الكفار، فلم يفوا. انتهى.

---

(١) التفسير الصحيح موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، للأستاذ الدكتور حكمت بن بشير بن ياسين (٤/٤٨١، ٤٨٢)، دار المآثر ـ المدينة النبوية.
(٢) تفسير ابن كثير ـ مختصر تفسير ابن كثير، لهاني الحاج (٥٣٧/٣).
(٣) تفسير القرطبي (٩/٦٥٦٠).

وأيده الناصر من الوجهة البيانية بأن الأول كالبسطة العامة لهذه القصة»[(١)]

❑ وقفة مع آيات سورة الصف:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [**الصف: ٢- ٤**].

نقف أمام موضوعات شتى للحديث، والملاحظة، والعبرة.

نقف أولًا أمام النفس البشرية التي تلم بها لحظات الضعف الطارئة، فلا يعصمها منها إلا عون الله، وإلا التذكير الدائم، والتوجيه الدائم، والتربية الدائمة.. فهؤلاء جماعة من المسلمين قيل في بعض الروايات: إنهم من المهاجرين الذين كانوا يتمنون أن يأذن اللَّه لهم في القتال وهم في مكة من شدة الحماس والاندفاع. وكانوا يؤمرون بكف أيديهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [النساء: ٧٧] في المدينة في الوقت المناسب الذي قدره اللَّه ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾ [النساء: ٧٧].. أو هم جماعة من المسلمين في المدينة كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله؛ ليفعلوه، فلما أمروا بالجهاد كرهوه!

وهذه الوقفة كفيلة بأن تفتح أعيننا على ضرورة الموالاة للنفس البشرية بالتقوية والتثبيت والتوجيه، وهي تواجه التكاليف الشاقة؛ لتستقيم في طريقها، وتتغلب على لحظات ضعفها، وتتطلع دائمًا إلى الأفق البعيد. كما تلهمنا أن نتواضع في طلب التكاليف وتمنيها ونحن في حالة العافية! فلعنا لا نقوى على ما نقترح على اللَّه حين يكلفنا إياه! وهؤلاء جماعة من المسلمين الأوائل يضعفون ويقولون ما لا يفعلون؛ حتى يعاتبهم اللَّه هذا العتاب الشديد، وينكر عليهم هذا الإنكار المخيف!

---

(١) محاسن التأويل، للقاسمي (١٦/٥٧٨٢ - ٥٧٨٣)، طبعة عيسى الحلبي.

ونقف ثانية أمام حب الله للذين ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾.

نقف أمام هذا الإغراء القوي العميق على القتال في سبيل الله.. وأول ما يسجل هنا أنه كان لمواجهة حالة تقاعس وتخلف وكراهية للقتال. ولكن هذا السبب الغريب في الحادث المحدود لا ينفي أن الحض عام، وأن وراءه حكمة دائمة.

إن الإسلام لا يتشهي القتال، ولا يريده حبًّا فيه. ولكنه يفرضه؛ لأن الواقع يحتمه، ولأن الهدف الذي وراءه كبير. فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الإلهي في صورته الأخيرة المستقرة. وهذا المنهج ـ ولو أنه يلبي الفطرة المستقيمة ـ إلا أنه يكلف النفوس جهدًا لتسمو إلى مستواه، ولتستقر على هذا المستوى الرفيع.

وهناك قوى كثيرة في هذه الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر؛ لأنه يسلبها كثيرًا من الامتيازات، التي تستند إلى قيم باطلة زائفة، يحاربها هذا المنهج ويقضي عليها حين يستقر في حياة البشر. وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقاء في المستوى الإيماني وتكاليفه، كما تستغل جهل العقول، وموروثات الأجيال؛ لتعارض هذا المنهج، وتقف في طريقه. والشر عارم. والباطل متبجح. والشيطان لئيم!

ومن ثم يتعين على حملة الإيمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء؛ ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان. أقوياء في أخلاقهم، وأقوياء في قتال خصومهم على السواء. ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد، وحرية الاعتقاد به، وحرية العمل وفق نظامه المرسوم.

وهم يقاتلون في سبيل الله.. لا في سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون.. عصبية الجنس، وعصبية الأرض، وعصبية العشيرة، وعصبية البيت.. في سبيل الله وحده؛ لتكون كلمة الله هي العليا. والرسول ﷺ يقول: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

ومنهج اللَّه في صورته الأخيرة التي جاء بها الإسلام هو الذي يتناسق مع ذلك الناموس، ويجعل الكون كله ـ والناس من ضمنه ـ يحكمون بشريعة الله. لا بشريعة يضعها سواه.

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد، وأن تقاومه طبقات، وأن تقاومه دول. ولم يكن بد كذلك أن يمضي الإسلام في وجه هذه المقاومة، ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين؛ لنصرة هذا المنهج، وتحقيق كلمة اللَّه في الأرض. ولهذا أحب اللَّه ـ سبحانه ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ .

ونقف ثالثًا أمام الحالة التي يحب اللَّه للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ .. فهو تكليف فردي في ذاته، ولكنه فردي في صورة جماعية. في جماعة ذات نظام. ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة؛ فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفًّا؛ صفًّا سويًّا منتظمًا، وصفًّا متينًا راسخًا، ذلك إلى أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة، وأن ينشئ مجتمعًا متماسكًا.. متناسقًا. فصورة الفرد المنعزل الذي يعبد وحده، ويجاهد وحده، ويعيش وحده، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين، وعن مقتضياته في حالة الجهاد، وفي حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة.

وهذه الصورة التي يحبها اللَّه للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم، وتوضح لهم معالم الطريق، وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذي يرسمه التعبير القرآني المبدع: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾ .. بنيان تتعاون لبناته وتتضام وتتماسك، وتؤدي كل لبنة دورها، وتسد ثغرتها؛ لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها. تقدمت أو تأخرت سواء. وإذا تخلت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها أو على جانبيها سواء.. إنه التعبير المصور للحقيقة لا لمجرد التشبيه العام. التعبير المصور لطبيعة الجماعة، ولطبيعة ارتباط الأفراد في الجماعة. ارتباط الشعور،

وارتباط الحركة، داخل النظام المرسوم، المتجه إلى هدف مرسوم[١].

❏ **تجارة مع الله.. فيها غفران الذنوب، ودخول جنات عدن.. والنصر على الأعداء، ورضا الله:**

٣ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [**الصف: ١٠ـ ١٣**].

قال ابن جرير الطبري: «يقول ـ تعَالَى ذكره ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ موجع، وذلك عذاب جهنم، ثم بين لنا ـ جل ثناؤه ـ ما تلك التجارة التي تنجينا من العذاب الأليم، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾؛ يقول ـ تعَالَى ذكره ـ: وتجاهدون في دين اللَّه وطريقه الذي شرعه لكم بأموالكم وأنفسكم، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تضيع ذلك والتفريط، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مضار الأشياء ومنافعها.

عن قتادة: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾ الآية، فلولا أن اللَّه بيّنها، ودلَّ عليها المؤمنين لتلهّف عليها رجال أن يكونوا يعلمونها، حتى يضنوا بها، وقد دلكم اللَّه عليها، وأعلمكم إياها، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٢].

قال الحافظ ابن كثير: «فسّر هذه التجارة العظيمة، التي لا تبور، والتي هي محصلة للمقصود، ومزيلة للمحذور، فقال ـ تعَالَى ـ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: من تجارة

---

(١) الظلال (٦/٣٥٥٥).
(٢) الطبري (١١/٩٠).

الدنيا والكدِّ لها والتصدي لها وحدها. ثم قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلّات وأدخلتكم الجنات والمساكن الطيبات والدرجات العاليات، ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١).

قال ابن جرير «يستر عليكم ربكم ذنوبكم إذا أنتم فعلتم ذلك، فيصفح عنكم ويعفو، ويدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، ويدخلكم ـ أيضًا ـ مساكن ﴿طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ يعني: في بساتين إقامة، لا ظعن فيها»(٢).

قال القرطبي: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ أي: السعادة الدائمة الكبيرة، وأصل الفوز: الظفر بالمطلوب(٣).

قال ابن كثير: ثم قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾؛ أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ﴾؛ أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه تكفَّل اللَّه بنصركم، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ﴾؛ أي: عاجل، فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع اللَّه ورسوله ونصر اللَّه ودينه، ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: قال ابن جرير: «وبشر يا محمد المؤمنين بنصر اللَّه إياهم على عدوهم، وفتح عاجل لهم»(٥).

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٤٠).
(٢) الطبري (١١/٩٠).
(٣) تفسير القرطبي (٩/٦٥٦٧).
(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٤٠).
(٥) تفسير الطبري (١.١/٩١).

قال القرطبي: «وبشر المؤمنين برضا اللَّه عنهم»[(١)].

قال القاسمي عن سورة الصف: «كان القصد منها تشجيع المؤمنين على قتال محاربيهم، والثبات أمامه، والتحذير من الزيغ عن ذلك، والترغيب في السخاوة ببذل الأنفس والأموال في سبيل الحق؛ لإعلاء شأنه، وإزهاق الباطل»[(٢)].

«في ظلال قصة العقيدة، وفي مواجهة وعد اللَّه بالتمكين لهذا الدين الأخير، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا.. من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين.. يهتف بهم إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة؛ تجارة الإيمان باللَّه والجهاد في سبيل الله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل، واستفهام وجواب، وتقديم وتأخير، صيغة ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا الهتاف في القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية.

يبدأ بالنداء باسم الإيمان: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.. يليه الاستفهام الموحي، فاللَّه ـ سبحانه ـ هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدله اللَّه على هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق، ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.. وهم مؤمنون باللَّه ورسوله، فتشرق

(١) تفسير القرطبي (٩/٦٥٦٨).

(٢) محاسن التأويل، للقاسمي (١٦/٥٧٩٣).

قلوبهم عند سماع شطر الجواب، هذا المتحقق فيهم! ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾.. وهو الموضوع الرئيس الذي تعالجه السورة، يجيء في هذا الأسلوب، ويكرر هذا التكرار، ويساق في هذا السياق، فقد علم اللَّه أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار، وهذا التنويع، وهذه الموحيات؛ لتنهض بهذا التكليف الشاق، الضروري الذي لا مفرَّ منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض.. ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.. فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد.. ثم يفصِّل هذا الخير في آية تالية مستقلة؛ لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه، ويقره في الحس، ويمكن له: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.. وهذه وحدها تكفي، فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء؟ أو يدخر في سبيلها شيئًا؟ ولكن فضل اللَّه ليس له حدود. ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾.. وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة ـ حتى حين يفقد هذه الحياة كلها ـ، ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم.. وحقًّا.. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة، وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة، فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق، فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض، ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا، فيكسب به خلودًا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله، ومتاعًا غير مقطوع ولا ممنوع؟

ولقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول اللَّه ﷺ وعبداللَّه بن رواحة رضي الله عنه ليلة العقبة؛ قال لرسول اللَّه ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال ﷺ: **«أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»**.. قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: **«الجنة»** قالوا: ربح البيع

لا نقيل ولا نستقيل! ولكن فضل الله عظيم. وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض، يناسب تركيبها البشري المحدود، وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض، وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾..

وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله. الله الذي لا تنفد خزائنه، والذي لا ممسك لرحمته، فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة. وفوقها ـ فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة ـ النصر والفتح القريب.. فمن الذي يدله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد؟!

وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب.. إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة، ويعيش بقلبه في هذا التصور، ويطلع على آفاقه وآماده، ثم ينظر للحياة بغير إيمان، في حدودها الضيقة الصغيرة، وفي مستوياتها الهابطة الواطية، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة.. هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان، ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الوسيع الرفيع في عالم الواقع؛ ليعيش فيه، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك.. ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجرًا خارجًا عن ذاته، فهو ذاته أجر.. هذا الجهاد.. وما يسكبه في القلب من رضىً وارتياح، ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان، ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان، فهو مدفوع دفعًا إلى الجهاد، كائنًا مصيره فيه ما يكون.

ولكن الله ـ سبحانه ـ يعلم أن النفس تضعف، وأن الاندفاع يهبط، وأن الجهد يكل، وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها، ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط..

ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد، ويعالجها ذلك العلاج، ويهتف

لها بالموحيات والمؤثرات ذلك الهتاف المتكرر المتنوع، في شتى المناسبات. ولا يَكِلُها إلى مجرد الإيمان، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان»[١].

❑ **المجاهدون أنصار الله:**

٤ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

فيها قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فقراءة عامة قراء المدينة والبصرة بتنوين الأنصار ﴿كونوا أنصارًا لله﴾[٢]، وقرأ عامة قُرَّاء الكوفة بإضافة الأنصار إلى الله «ومعنى الكلام: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، كونوا أنصار الله، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ يعني: من أنصاري منكم إلى نصرة الله.

قال قتادة: «قد كانت لله أنصار من هذه الأمة، تجاهد على كتابه وحقه، وذُكِر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلًا من الأنصار. ذُكِر لنا أن بعضهم قال: هل تدرون علام تُبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعون على محاربة العرب كلها أو يسلموا. ذُكر لنا أن رجلًا قال: يا نبي الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم**»؛ قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبي الله؟ قال: «**لكم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة**»، ففعلوا ففعل الله».

وعن معمر قال: تلا قتادة: ﴿كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله، جاءه سبعون رجلًا فبايعوه عند العقبة، فنصروه وآووه حتى أظهر الله دينه».

---

(١) الظلال (٦/٣٥٥٩، ٣٥٦٠).

(٢) قراءة نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

قال مجاهد: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ قال: من يتبعني إلى الله؟[١]

قال ابن كثير: «يقول ـ تعَالَى ـ آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصارًا لله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم، وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: مَن معيني في الدعوة إلى الله ﷻ؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به، ومؤازروك على ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام؛ في الإسرائيليين واليونانيين، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «**من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي؟ فإن قريشًا قد منعوني أن أُبلِّغ رسالة ربي**»[٢] حتى قيّض الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه، ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سمَّاهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علمًا عليهم ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ وأرضاهم.

فأمة محمد ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، حتى يقاتل آخرهم الدَّجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح. والله أعلم»[٣].

وقال القرطبي: «أكَّد أمر الجهاد؛ أي: كونوا حَوَارِيِّ نبيكم؛ ليظهركم الله على من خالفكم، كما أظهر حواري عيسى على من خالفهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمر ونافع ﴿كونوا أنصارًا لله﴾ بالتنوين. قالوا: لأن معناه اثبتوا وكونوا أعوانًا لله بالسيف على أعدائه.

---

(١) تفسير الطبري (١١/٩١، ٩٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح السنن».

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٤٠، ٥٤١).

وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ بلا تنوين، وحذفوا لام الإضافة من اسم اللَّه ـ تَعَالَى ـ واختاره أبو عبيد، ومعناه: كونوا أنصارًا لدين الله[1].

قال القاسمي: «فيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الرَّباني لهم، ما داموا متناصرين على الحق، مجتمعين عليه، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين، كما وقع لسلفهم؛ اتفقوا فملكوا، وإلا فإذا تفرَّقوا هلكوا»[2].

«الآية هنا تهدف إلى تصوير موقف، لا إلى تفصيل قصة، فنسير نحن معها في ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضع من السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾.. في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله. وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيرًا للرب؟!

إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم.. ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾.. فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم. وعيسى جاء ليبشر بالنبي الجديد والدين الجديد.. فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت! وهذه هي اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في هذا السياق.

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير، الأمناء على منهج اللَّه في الأرض، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية، المختارين لهذه المهمة الكبرى استنهاض همتهم لنصرة اللَّه ونصرة دينه.. والنصر في النهاية لأنصار اللَّه المؤمنين»[3].

---

(١) تفسير القرطبي (٩/٦٥٦٨).

(٢) محاسن التأويل، للقاسمي (١٦/٥٧٩٤).

(٣) الظلال (٦/٣٥٥٦، ٣٥٥٧).

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويتقيَّدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1].

❑ الجهاد سبيل النبيين والصالحين، وثوابه عظيم في الدنيا، وحسن الثواب في الآخرة.

٤- قال - تعالى -: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ **[آل عمران: ١٤٦- ١٤٨].**

قال الطبري - رحمه الله -: «اختلف القُرَّاء في قراءة ذلك؛ فقرأ بعضهم: ﴿وَكَأَيِّن﴾ بهمز الألف وتشديد الياء، وقرأ آخرون بمد الألف وتخفيف الياء، وهما قراءتان مشهورتان في قراءة المسلمين، ولغتان معروفتان لا اختلاف في معناهما.. ومعناه: وكم من نبي.

القول في تأويل: ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ اختلفت القرَّاء في قراءة قوله: ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾؛ فقرأ ذلك جماعة من قرَّاء الحجاز والبصرة ﴿قُتِلَ﴾ بضم القاف، وقرأ جماعة أخرى بفتح القاف وبالألف، وهي قراءة جماعة من قُرَّاء الحجاز والكوفة.

فأما من قرأ: ﴿قَٰتَلَ﴾ فإنه اختار ذلك؛ لأنه قال لو قُتِلوا لم يكن لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ وجه معروف؛ لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما

(١) رواه أحمد ومسلم.

قُتِلوا.

وأما الذين قرءوا ﴿قُتِلَ﴾ فإنهم قالوا: إنما عني بالقتل النبي وبعض من معه من الربيين دون جميعهم، وإنما نفى الوهن والضعف عمن بقي من الربيين ممن لم يُقتل.

وأَوْلَى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب قراءة من قرأ بضم القاف ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾؛ لأن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ إنما عاتب بهذه الآية والآيات التي قبلها من قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

الذين انهزموا يوم «**أحد**» وتركوا القتال أو سمعوا الصائح يصيح: إن محمدًا قد قُتل، فعذلهم اللَّه عَزَّ وَجَلَّ على فرارهم وتركهم القتال، فقال: أفإن مات محمد أو قتل أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم، ثم أخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلَّا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلون؛ إذ قُتِل نبيهم من المضي على منهاج نبيهم والقتال ـ على دينه ـ أعداء دين اللَّه على نحو ما كانوا يقاتلون مع نبيهم، ولم تهنوا ولم تضعفوا كما لم يضعف الذين كانوا قبلكم من أهل العلم والبصائر من أتباع الأنبياء إذ قُتِل نبيهم، ولكنهم صبروا لأعدائهم حتى حكم اللَّه بينهم وبينهم»[1].

والربيون هم الجماعة، واحدهم: رِبِيٌّ.

قال عبداللَّه بن مسعود: الربيون: الألوف، وقال ابن عباس: ربيون: جموع كثيرة، وعنه أيضًا: علماء كثيرون. وقال الحسن: فقهاء علماء، وعنه: الجموع الكثيرة، وهو قول عكرمة أيضًا، ومجاهد، والضحاك.

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

---

(١) تفسير الطبري (٤/٧٧).

قال ابن جرير: «فما عجزوا لما نالهم من ألم الجراح الذي نالهم في سبيل الله، ولا لقتل من قُتل منهم عن حرب أعداء الله، ولا نكلوا عن جهادهم.

﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ﴾: وما ذلوا فيتخشعوا لعدوِّهم بالدخول في دينهم ومداهنتهم فيه؛ خيفة منهم، ولكنهم مضوا قدمًا على بصائرهم ومنهاج نبيهم صبرًا على أمر الله وأمر نبيهم، وطاعة لله، واتباعًا لتنزيله ووحيه.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يقول: والله يحب هؤلاء وأمثالهم من الصابرين لأمره وطاعته وطاعة رسوله في جهاد عدوه، لا من فشل ففرَّ عن عدوه، ولا من انقلب على عقبيه فذلَّ لعدوه؛ لِأَنْ قُتل نبيه أو مات، ولا من دخله وهن عن عدوه، وضعف لفقد نبيه»(١).

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾.

«وما كان قول الربيين؛ يعني: ما كان لهم قول سوى هذا القول إذ قُتِل نبيهم.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾: لم يعتصموا إذْ قُتِل نبيهم إلا بالصبر على ما أصابهم ومجاهدة عدوهم، وبمسألة ربهم المغفرة والنصر على عدوهم.

﴿ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الصغار منها، وما أسرفنا فيه منها، فتخطينا إلى العظام.

قال ابن عباس في قول الله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾؛ قال: خطايانا. وقال الضحاك بن مزاحم: الكبائر.

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: اجعلنا ممن يثبت لحرب عدوك وقتالهم، ولا تجعلنا ممن ينهزم فيفرُّ منهم ولا يثبت قدمه في مكان واحد لحربهم، وانصرنا على الذين جحدوا وحدانيتك ونبوة نبيك.

---

(١) تفسير الطبري (٤/٧٨).

وإنما هذا تأنيبٌ من اللهﷻ عباده الذين فروا عن العدو يوم «**أحد**» وتركوا قتالهم، وتأديبٌ لهم(١).

قال ابن القيم: «أخبر ـ سبحانه ـ عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم، وتوبتهم، واستغفارهم، وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

لما علم القوم أن العدو إنما يُدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصرة منوطة بالطاعة، قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾، ثم علموا أن ربهم ـ تبارك وتعالى ـ إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا، فوفَّوا المقامين حقهما: مقام المقتضى، وهو التوحيد والالتجاء إليه ـ سبحانه ـ. ومقام إزالة المانع من النصرة، وهو الذنوب والإسراف»(٢).

وفي «**صحيح مسلم**» عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري**».

قال القرطبي «﴿وَكَأَيِّن﴾ بمعنى كم. قال الخليل وسيبويه: هي أن دخلت عليها كاف التشبيه، وبُنيت معها، فصار في الكلام بمعنى كم.

قرأ ابن كثير: ﴿وَكَائِن﴾ على وزن فاعل، وأصله كَيْءٍ، فقلبت الياء ألفًا، قال الشاعر:

وكـائِـنْ بـالأبـاطِـح مـن صَـدِيقٍ ... يَـرَانـي لـو أُصِـبـتُ هـو المصـابَـا

---

(١) الطبري (٧٩/٤).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم.

ومعنى الآية تشجيع المؤمنين، والأمر بالاقتداء بمن تقدَّم من خيار أتباع الأنبياء؛ أي: كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثيرون، أو كثير من الأنبياء قُتِلوا فما ارتدت أممهم؛ قولان: الأول للحسن، وسعيد بن جبير، قال الحسن: ما قُتِل نبي في حرب قط. وقال ابن جبير: ما سمعنا أن نبيًّا قُتِل في القتال. والثاني عن قتادة وعكرمة. والوقف على هذا القول على ﴿قَـٰتَلَ﴾ جائز، وهي قراءة نافع، وابن جبير، وأبي عمرو، ويعقوب. وفيه وجهان: **أحدهما**: أن تكون ﴿قَـٰتَلَ﴾ واقعًا على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله: ﴿قَـٰتَلَ﴾، ويكون في الكلام إضمار؛ أي: ومعه ربيون كثير؛ كما يُقال: قاتل الأمير ومعه جيش عظيم. وخرجت معي تجارة؛ أي: ومعي.

الوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومن معه من الرِّبيِّين، ويكون وجه الكلام: قُتِل بعض من كان معه، تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني سُليم، وإنما قتلوا بعضهم. ويكون قوله ﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾ راجعًا إلى من بقي منهم.

قلت: وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب، فإن النبي ﷺ لم يُقتل، وقُتِل معه جماعة من أصحابه. وقرأ الكوفيون وابن عامر: ﴿قَـٰتَلَ﴾ وهي قراءة ابن مسعود، واختارها أبو عبيد وقال: إن اللَّه إذا حمد من قاتل كان من قُتِل داخلًا فيه، وإذا حَمِد من قُتِل لم يدخل فيه غيرهم؛ فـ﴿قَـٰتَلَ﴾ أعمُّ وأمدح»[١].

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

ثواب الدنيا يعني: جزاء في الدنيا، وذلك النصر على عدوِّهم وعدو الله، والظفر والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد.

وحسن ثواب الآخرة يعني: وخير جزاء الآخرة؛ وذلك الجنة ونعيمها.

قال قتادة: أي: والله لآتاهم الله الفتح، والظهور، والتمكين، والنصر على

(١) تفسير القرطبي (٢/١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢).

عدوهم في الدنيا، وحسن الثواب في الآخرة هي الجنة[1].

«يضرب اللَّه للمسلمين المثل من إخوانهم المؤمنين قبلهم. من موكب الإيمان اللاحب الممتد على طول الطريق، الضارب في جذور الزمان.. من أولئك الذين صدقوا في إيمانهم، وقاتلوا مع أنبيائهم، فلم يجزعوا عند الابتلاء، وتأدبوا - وهم مقدمون على الموت - بالأدب الإيماني في هذا المقام.. مقام الجهاد.. فلم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم، وأن يجسموا أخطاءهم فيروها «**إسرافًا**» في أمرهم، وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار.. وبذلك نالوا ثواب الدارين، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء، وإحسانهم في وقت الجهاد. وكانوا مثلًا يضربه اللَّه للمسلمين:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

لقد كانت الهزيمة في «**أحد**»، هي أول هزيمة تصدم المسلمين، الذين نصرهم اللَّه ببدر وهم ضعاف قليل؛ فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو السنة الكونية. فلما أن صدمتهم «**أحد**»، فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه!

ولعله لهذا طال الحديث حول هذه الواقعة في القرآن الكريم. واستطرد السياق يأخذ المسلمين بالتأسية تارة، وبالاستنكار تارة، وبالتقرير تارة، وبالمثل تارة، تربية لنفوسهم، وتصحيحًا لتصورهم، وإعدادًا لهم. فالطريق أمامهم طويل، والتجارب أمامهم شاقة، والتكاليف عليهم باهظة، والأمر الذي يندبون له عظيم.

والمثل الذي يضربه لهم هنا مثل عام، لا يحدد فيه نبيًّا، ولا يحدد فيه قومًا. إنما

---

(١) تفسير الطبري (٤/٨٠).

يربطهم بموكب الإيمان، ويعلمهم أدب المؤمنين، ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد في كل دعوة وفي كل دين، ويربطهم بأسلافهم من أتباع الأنبياء؛ ليقرر في حسهم قرابة المؤمنين للمؤمنين، ويقر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد. وأنهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾..

وكم من نبي قاتلت معه جماعات كثيرة، فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والجراح، وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء.. فهذا هو شأن المؤمنين المنافحين عن عقيدة ودين..

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾..

الذين لا تضعف نفوسهم، ولا تتضعضع قواهم، ولا تلين عزائمهم، ولا يستكينون أو يستسلمون.

والتعبير بالحب من اللَّه للصابرين له وقعه، وله إيحاؤه، فهو الحب الذي يأسو الجراح، ويمسح على القرح، ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير!

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين في موقفهم من الشدة والابتلاء. فهو يمضي بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم؛ صورة الأدب في حق الله، وهم يواجهون الهول الذي يذهل النفوس، ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه. ولكنه لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى الله.. لا لتطلب النصر أول ما تطلب ـ وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس ـ ولكن لتطلب العفو والمغفرة، ولتعترف بالذنب والخطيئة قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراءً، بل لم يطلبوا ثوابًا ولا جزاءً.. لم يطلبوا ثواب

الدنيا ولا ثواب الآخرة. لقد كانوا أكثر أدبًا مع الله، وهم يتوجهون إليه، بينما هم يقاتلون في سبيله، فلم يطلبوا منه ـ سبحانه ـ إلا غفران الذنوب، وتثبيت الأقدام.. والنصر على الكفار. فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار.. إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق اللَّه الكريم.

وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئًا، أعطاهم اللَّه من عنده كل شيء؛ أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة، وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وشهد لهم ـ سبحانه ـ بالإحسان؛ فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد، وأعلن حبه لهم، وهو أكبر من النعمة، وأكبر من الثواب:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾..

وهكذا تنتهي هذه الفقرة في الاستعراض، وقد تضمنت تلك الحقائق الكبيرة في التصور الإسلامي. وقد أدت هذا الدور في تربية الجماعة المسلمة، وقد ادخرت هذا الرصيد للأمة المسلمة في كل جيل»[1].

٥ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ **[آل عمران: ١٥٧، ١٥٨]**

قال ابن جرير الطبري: «خاطب ـ جل ثناؤه ـ عباده المؤمنين؛ يقول لهم: لا تكونوا ـ أيها المؤمنون ـ في شك من أن الأمور كلها بيد اللَّه وأن إليه الإحياء والإماتة ـ كما شك المنافقون في ذلك ـ ولكن جاهِدُوا في سبيل الله، وقاتِلُوا أعداء اللَّه على يقين منكم بأنه لا يقتل في حرب ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته. ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أن

---

(١) الظلال (٤٨٨/١، ٤٨٩).

موتًا في سبيل اللَّه وقتلًا في اللَّه خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل اللَّه ويتأخرون عن لقاء العدو»[1].

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

فالموت أو القتل في سبيل اللَّه ـ بهذا القيد، وبهذا الاعتبار ـ خير من الحياة، وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أعراضها الصغار؛ من مال، ومن جاه، ومن سلطان، ومن متاع. خير بما يعقبه من مغفرة اللَّه ورحمته، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون. وإلى هذه المغفرة وهذه الرحمة يكل اللَّه المؤمنين.. إنه لا يكلهم ـ في هذا المقام ـ إلى أمجاد شخصية، ولا إلى اعتبارات بشرية، إنما يكلهم إلى ما عند الله، ويعلق قلوبهم برحمة الله. وهي خير مما يجمع الناس على الإطلاق، وخير مما تتعلق به القلوب من أعراض..

وكلهم مرجوعون إلى الله، محشورون إليه على كل حال؛ ماتوا على فراشهم، أو ماتوا وهم يضربون في الأرض، أو قتلوا وهم يجاهدون في الميدان. فما لهم مرجع سوى هذا المرجع، وما لهم مصير سوى هذا المصير.. والتفاوت إذن إنما يكون في العمل والنية وفي الاتجاه والاهتمام.. أما النهاية فواحدة: موت أو قتل في الوعد المحتوم، والأجل المقسوم، ورجعة إلى اللَّه وحشر في يوم الجمع والحشر.. ومغفرة من اللَّه ورحمة، أو غضب من اللَّه وعذاب.. فأحمق الحمقى من يختار لنفسه المصير البائس.. وهو ميت على كل حال!

بذلك تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة، وحقيقة قدر الله. وبذلك تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر، وإلى ما وراء القدر من

---

(١) تفسير الطبري (٤/٩٨).

حكمة، وما وراء الابتلاء من جزاء.. وبذلك تنتهي هذه الجولة في صميم أحداث المعركة، وفيما صاحبها من ملابسات..»[١].

٦ـ **قال ـ تعَالَى ـ:** ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [**آل عمران: ١٩٥**].

وقرأ ابن كثير وابن عامر :﴿وَقَٰتَلُواْ وقُتِّلوا﴾؛ أي: قاتلوا المشركين، وقتلهم المشركون بعضًا بعد بعض وقتلًا بعد قتل.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ يعني: لأمحونها عنهم، ولأتفضلن عليهم بعفوي ورحمتي، ولأغفرنها لهم، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار .﴿ثَوَابًا﴾؛ يعني: جزاءً لهم على ما عملوا وأبلوا في اللّه وفي سبيله. ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: من قِبَل اللّه لهم. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾؛ يعني: أن اللّه عنده من جزاء أعمالهم جميع صنوفه، وذلك ما لا يبلغه وصف واصف؛ لأنه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٢].

قال ابن كثير: «﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ هذا أعلى المقامات أن يُقاتل في سبيل اللّه فيُعقر جوادُه ويعفَّر وجهه بدمه وترابه. وقد ثبت في الصحيحين أن رجلًا قال: يا رسول اللّه أرأيت إن قُتلتُ في سبيل اللّه صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، يكفر اللّه عني خطاياي؟ قال: «**نعم**»، ثم قال: «**كيف قلت؟**»، فأعاد عليه ما قال. فقال: «**نعم إلا الذي قاله لي جبريل آنفًا**»[٣] ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ أي: تجري في خلالها الأنهار من

---

(١) الظلال (٤٩٩).

(٢) تفسير الطبري (٤/١٤٤).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم في الإمارة (١٨٨٥)، وأما عزوه للصحيحين فَوَهْمٌ.

أنواع المشارب؛ من لبن، وعسل، وخمر، وماء، غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ أضافه إليه، ونسبه إليه؛ ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يُعطي إلا جزيلًا كثيرًا.

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾؛ أي: عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا»[1].

٧ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٧٤﴾ [**الأنفال: ٧٤**].

قال ابن جرير الطبري: «يقول ـ تعالى ذكره ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ آووا رسول اللَّه ﷺ والمهاجرين معه ونصروهم، ونصروا دين اللَّه أولئك هم أهل الإيمان حقًّا... ﴿لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ : لهم ستر من اللَّه على ذنوبهم بعفوه لهم عنها، ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لهم في الجنة طُعْم ومشرب هَنِيٌّ كريم، لا يتغيَّر في أجوافهم فيصير نجوا، ولكنه يصير رشحًا كرشح المسك»[2].

هؤلاء ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.. والرزق يذكر هنا بمناسبة الجهاد والإنفاق والإيواء والنصرة وتكاليف هذا كله.. وفوقه المغفرة وهي من الرزق الكريم، بل هي أكرم الرزق الكريم.

٨ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [**العنكبوت: ٦٩**].

قال ابن جرير: (٢١/١١): «يقول ـ تعالى ذكره ـ: والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على اللَّه كذبًا، من كفار قريش المكذبين بالحق لما جاءهم، فينا، مبتغين بقتالهم علوَّ

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤١٨/١، ٤١٩).

(٢) تفسير الطبري (٤٠/١٠).

كلمتنا ونصرة ديننا؛ ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ يقول: لنوفقنهم لإصابة الطرق المستقيمة، وذلك إصابة دين اللَّه الذي هو الإسلام الذي بعث اللَّه به محمدًا ﷺ، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يقول: وإن اللَّه لمع من أحسن من خلقه، فجاهد فيه أهل الشرك؛ مصدقًا رسوله فيما جاء به من عند اللَّه بالعون له والنصرة على من جاهد من أعدائه».

قال ابن كثير: «﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾؛ يعني: الرسول ـ صلوات اللَّه وسلامه عليه ـ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾؛ أي: لنبصرنهم. ﴿سُبُلَنَاۚ﴾؛ أي: طرقنا في الدنيا والآخرة»[1].

لن يتركهم اللَّه وحدهم، ولن يضيع إيمانهم، ولن ينس جهادهم، إنه سينظر إليهم من عليائه، فيرضاهم. وسينظر إلى جهادهم إليه، فيهديهم، وسينظر إلى محاولتهم الوصول، فيأخذ بأيديهم. وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم، فيجازيهم خير الجزاء.

٩ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ **[التوبة: ١٩، ٢٠]**.

قال الطبري (١٠/٦٧): «﴿ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾، وهذا توبيخ من اللَّه ـ تعَالَى ذكره ـ لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم ـ جل ثناؤه ـ أن الفخر في الإيمان باللَّه واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السدانة والسقاية».

(١) تفسير ابن كثير (١٠/٥٣٠).

قال ابن الجوزي: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾: في سبب نزولها ستة أقوال:

أحدها: رواه مسلم في «**صحيحه**» من حديث النعمان بن بشير قال: «**كنت عند منبر رسول الله** ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد [الإسلام إلا] أن أسقي الحاج، وقال الآخر: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، قال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكني إذا صليت الجمعة، دخلت فاستفتيت رسول الله فيما اختلفتم فيه، فنزلت هذه الآية»(١).

والثاني: أن العباس بن عبدالمطلب قال يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفكُّ العاني(٢)، فنزلت هذه الآية(٣). رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس»(٤).

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام إذا جعلتم ـ أيها القوم ـ سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستوون هؤلاء وأولئك، ولا تعتدل أحوالهما عند الله ومنازلهما؛ لأن الله لا يقبل بغير الإيمان به وباليوم الآخر عملًا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: والله لا يوفق لصالح الأعمال من كان به كافرًا ولتوحيده جاحدًا».

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾: وهذا قضاء من الله بين فرق المفتخرين الذين افتخر

---

(١) رواه مسلم (٢٦/١٣)، والطبري (١٦٩/١٤)، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأورده السيوطي في «الدرر» (٢١٨/٣).
انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول»، لمقبل بن هادي ص (١٠٦).

(٢) العاني: الأسير.

(٣) الطبري (١٧٠/١٤).

(٤) «زاد المسير في علم التفسير»، لابن الجوزي (٤٠٩/٣، ٤١٠)، المكتب الإسلامي.

أحدهم بالسقاية والآخر بالسدانة والآخر بالإيمان باللَّه والجهاد في سبيله؛ يقول - تَعَالَى ذكره -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باللَّه وصدقوا بتوحيده، ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ دور قومهم، ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ المشركين في دين اللَّه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأرفع منزلة عنده من سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام وهم باللَّه مشركون. وهؤلاء الذين وصفنا صفتهم أنهم ﴿ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ هم ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالجنة والناجون من النار»[١] اهـ.

قال ابن الجوزي «قوله - تَعَالَى - ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ قال الزجاج: هو منصوب على التمييز، والمعنى: أعظم من غيرهم درجة.

والفائز: الذي يظفر بأمنيته من الخير. فأمَّا النعيم، فهو لين العيش. والمقيم: الدائم»[٢].

«وأفعل التفضيل هنا في قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ ليس على وجهه، فهو لا يعني أن للآخرين درجة أقل، إنما هو التفضيل المطلق. فالآخرون[٣] ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾، فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين في درجة ولا في نعيم»[٤].

قال القرطبي: «﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من الذين افتخروا بالسقي والعمارة. وليس للكافرين درجة عند اللَّه حتى يُقال: المؤمن أعظم درجة. والمراد أنهم قدَّروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسقي؛ فخاطبهم على ما قدَّروه في أنفسهم وإن كان التقدير خطأً؛ كقوله - تَعَالَى -: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤] الآية.

---

(١) تفسير الطبري (١٠/٦٨، ٦٩).
(٢) زاد المسير (٣/٤١١).
(٣) أي: المشركون.
(٤) الظلال (٣/١٦١٤).

١٠ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

يقول ابن جرير الطبري في تفسيره (١٤٤/٥): ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾: لا يعتدل المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الإيمان باللَّه وبرسوله، المؤثرون الدعة والخفض والقعود في منازلهم على مقاساة حزونة الأسفار والسير في الأرض ومشقة ملاقاة أعداء اللَّه بجهادهم في ذات اللَّه وقتالهم في طاعة اللَّه ـ لا أهل العذر منهم بذهاب أبصارهم وغير ذلك من العلل التي لا سبيل لأهلها للضرر الذي بهم إلى قتالهم وجهادهم في سبيل الله، والمجاهدون في سبيل اللَّه ومنهاج دينه؛ لتكون كلمة اللَّه هي العليا، المستفرغون طاقتهم في قتال أعداء اللَّه وأعداء دينه بأموالهم إنفاقًا لها فيما أوهن كيد أعداء أهل الإيمان بالله، وبأنفسهم مباشرة بها قتالهم بما تكون به كلمة اللَّه العالية وكلمة الذين كفروا السافلة».

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ درجة واحدة يعني فضيلة واحدة، وذلك بفضل جهاده بنفسه، فأما فيما سوى ذلك فهما مستويان، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وعد اللَّه الكل من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين من أهل الضرر الحسنى، ويعني ـ جلَّ ثناؤه ـ بالحسنى الجنة.

«**عن البراء** ﷺ **قال: لما نزلت** ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **دعا رسول اللَّه زيدًا فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل اللَّه** ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾»[1].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣١، ٤٥٩٠، ٤٥٩٣، ٤٥٩٤)، ومسلم (١٤١، ١٤٢، ١٨٩٨)، والترمذي (١٦٧٠، ٣٠٣١)، والنسائي (١٠/٦، ٤٣)، وأحمد (٢٨٢/٤، ٢٨٤، ٢٩٠، ٢٩٩، ٣٠١).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه «**أن رسول الله** ﷺ أملى عليَّ ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليَّ، قال: يا رسول الله، واللَّه لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل اللَّه على رسوله، وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترضَّ فخذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل اللَّه ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾»[(١)].

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن بدر، والخارجون إلى بدر[(٢)].

قال الحافظ ابن كثير: «وقوله ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقًا، فلما نزل بوحي سريع ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ صار ذلك مخرجًا لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد: من العمى، والعرج، والمرض عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل اللَّه بأموالهم وأنفسهم.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من واد، إلا وهم معكم فيه**» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال «**نعم، حبسهم العذر**»[(٣)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لقد تركتم بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد، إلا وهم معكم فيه**» قالوا: يا رسول الله، كيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «**حبسهم العذر**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣٢، ٤٥٩٢)، والترمذي (٣٠٣٣)، والنسائي (٦/٩)، وأحمد (٥/١٨٤).

(٢) تفسير عبدالرزاق (١/١٧٠)، ومن طريقه رواه البخاري (٣٩٥٤، ٤٥٩٥)، وابن جرير (٩/ ١٠٢٤١)، وابن أبي حاتم (٣/٥٨٤٨).

(٣) رواه البخاري (٩/٢٨٣٨، ٢٨٣٩، ٤٤٢٣)، وأحمد (٣/١٠٣، ١٨٢)، وابن ماجه (٢٧٦٤)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤٠٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦/٣٨٣٩)، وابن حبان (١١/ ٤٧٣١ ـ الإحسان)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠/٢٦٣٧).

(٤) **حديث حسن صحيح:** أخرجه البخاري معلقًا عقب حديث (٢٨٣٩)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٣/٤٣٤)، وأحمد (٣/١٦٠، ٢١٤)، وأبو داود (٢٥٠٨).

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسومًا وسرْنا نحن أرواحَا

إنا أقمنا على عذرٍ وعنْ قَدَرٍ ومن أقام على عذرٍ فقد راحَا[1]

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ثم أخبر ـ سبحانه وتعالى ـ بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وحلول الرحمة والبركات؛ إحسانًا منه وتكريمًا، ولهذا قال: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ درجات منه: فضائل منه ومنازل من منازل الكرامة.

قال قتادة: درجات منه ومغفرة ورحمة: كان يُقال الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة».

عن أبي سعيد الخدري ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن في الجنة مئة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**»[2].

وعن كعب بن مُرَّة قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من بلغ العدو بسهم، رفع اللَّه به درجة له**»، فقال له عبدالرحمن بن النحَّام: يا رسول الله، وما الدرجة؟ قال: «**أما إنها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مئة عام**»[3].

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ

قال الحافظ في «الفتح» (٦/٤٧) عقب رواية أبي داود: «هذا عندي حديث صحيح حسن؛ لحسن سياقه وجودة رجاله»، ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/٢٤).

(١) تفسير ابن كثير (٤/٢٢٤، ٢٢٥).

(٢) رواه مسلم (١١٠٦) (١٨٨٤) بلفظ: «وأخرى يُرْفَعُ بها العبد مئة درجة من الجنة، ما بين كل درجتين؛ كما بين السماء والأرض. قال: يا رسول الله، وما هي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»، وأخرجه البخاري (٢٧٩٠) واللفظ له.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/٢٣٥)، والنسائي (٦/٢٧)، وابن حبان (١٠/٤٦١٦)، وَصَحَّحَهُ الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٦/٣٢٤).

ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

«إن هذا النص القرآني كان يواجه حالة خاصة في المجتمع المسلم وما حوله، وكان يعالج حالة خاصة في هذا المجتمع من التراخي من بعض عناصره في النهوض بتكاليف الجهاد بالأموال والأنفس. سواء كان المقصود أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة؛ احتفاظًا بأموالهم، إذ لم يكن المشركون يسمحون لمهاجر أن يحمل معه شيئًا من ماله، أو توفيرًا لعناء الهجرة وما فيها من مخاطر، إذ لم يكن المشركون يتركون المسلمين يهاجرون، وكثيرًا ما كانوا يحبسونهم ويؤذونهم - أو يزيدون في إيذائهم بتعبير أدق - إذا عرفوا منهم نية الهجرة.. سواء كان المقصود هم أولئك الذين تخلفوا عن الهجرة - وهو ما نرجحه -، أو كان المقصود بعض المسلمين في دار الإسلام، الذين لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس - من غير المنافقين المبطئين الذين ورد ذكرهم في درس سابق - أو كان المقصود هؤلاء وهؤلاء ممن لم ينشطوا للجهاد بالأموال والأنفس في دار الحرب ودار الإسلام سواء.

إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة، ولكن التعبير القرآني يقرر قاعدة عامة، يطلقها من قيود الزمان، وملابسات البيئة، ويجعلها هي القاعدة التي ينظر اللَّه بها إلى المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان؛ قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس - غير أولي الضرر الذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس، أو يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال -؛ عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم.. قاعدة عامة على الإطلاق:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ﴾ .

ولا يتركها هكذا مبهمة، بل يوضحها ويقررها، ويبين طبيعة عدم الاستواء بين

الفريقين:

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾

وهذه الدرجة يمثلها رسول اللَّه ﷺ في مقامهم في الجنة.

عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن في الجنة مئة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيله، وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**».

وهذه المسافات التي يمثل بها رسول اللَّه ﷺ، نحسب أننا اليوم أقدر على تصورها، بعد الذي عرفناه من بعض أبعاد الكون. حتى إن الضوء ليصل من نجم إلى كوكب في مئات السنين الضوئية! وقد كان الذين يسمعون رسول اللَّه ﷺ يصدقونه بما يقول. ولكننا ـ كما قلت ـ ربما كنا أقدر ـ فوق الإيمان ـ على تصور هذه الأبعاد بما عرفناه من بعض أبعاد الكون العجيب!

ثم يعود السياق بعد تقرير هذا الفارق في المستوى بين القاعدين من المؤمنين ـ غير أولي الضرر ـ والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم، فيقرر أن اللَّه وعد جميعهم الحسنى:

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

فللإيمان وزنه وقيمته على كل حال؛ مع تفاضل أهله في الدرجات وفق تفاضلهم في النهوض بتكاليف الإيمان؛ فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والأنفس.. وهذا الاستدراك هو الذي نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطئين، إنما هم طائفة أخرى صالحة في الصف المسلم ومخلصة، ولكنها قصرت في هذا الجانب، والقرآن يستحثها لتلافي التقصير، والخير مرجو فيها، والأمل قائم في أن تستجيب.

فإذا انتهى من هذا الاستدراك عاد لتقرير القاعدة الأولى؛ مؤكدًا لها، متوسعًا في عرضها؛ ممعنًا في الترغيب فيما وراءها من أجر عظيم:

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

وهذا التوكيد.. وهذه الوعود.. وهذا التمجيد للمجاهدين.. والتفضيل على القاعدين.. والتلويح بكل ما تهفو له نفس المؤمن من درجات الأجر العظيم.. ومن مغفرة اللَّه ورحمته للذنوب والتقصير.

هذا كله يشي بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: هي أن هذه النصوص كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة ـ كما أسلفنا ـ وتعالجها، وهذا كفيل بأن يجعلنا أكثر إدراكًا لطبيعة النفس البشرية، ولطبيعة الجماعات البشرية، وأنها مهما بلغت في مجموعها من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائمًا في حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس، مع خلوص النفس لله، وفي سبيل الله. وظهور هذه الخصائص البشرية ـ من الضعف والحرص والشح والتقصير ـ لا يدعو لليأس من النفس أو الجماعة، ولا إلى نفض اليد منها، وازدرائها؛ طالما أن عناصر الإخلاص، والجد والتعلق بالصف والرغبة في التعامل مع اللَّه موفورة فيها.. ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على ما بدا منها من الضعف والحرص والشح والتقصير، والهتاف لها بالانبطاح في السفح، باعتبار أن هذا كله جزء من «واقعها»! بل لا بد لها من الهتاف؛ لتنهض من السفح، والحداء؛ لتسير في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة. بكل ألوان الهتاف والحداء.. كما نرى هنا في المنهج الرباني الحكيم.

والحقيقة الثانية: هي قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان اللَّه واعتبارات هذا الدين وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام؛ لما يعلمه اللَّه ـ سبحانه ـ من طبيعة الطريق، وطبيعة البشر، وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين.

إن «**الجهاد**» ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة، إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة.

وليست المسألة ـ كما توهم بعض المخلصين ـ أن الإسلام نشأ في عصر الإمبراطوريات؛ فاندس في تصورات أهله ـ اقتباسًا مما حولهم ـ أنه لا بد لهم من قوة قاهرة لحفظ التوازن.

هذه المقررات تشهد ـ على الأقل ـ بقلة ملابسة طبيعة الإسلام الأصيلة لنفوس هؤلاء القائلين بهذه التكهنات والظنون.

لو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول من صلب كتاب الله؛ في مثل هذا الأسلوب! ولما استغرق كذلك كل هذه الفصول من سنة رسول الله ﷺ وفي مثل هذا الأسلوب.

لو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول اللَّه ﷺ تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق**»[١].

ولئن كان ﷺ رد في حالات فردية بعض المجاهدين؛ لظروف عائلية لهم خاصة، كالذي جاء في الصحيح أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أجاهد؟ قال: «**للك أبوان؟**» قال: نعم. قال: «**ففيهما جاهد**».. لئن كان ذلك فإنما هي حالة فردية لا تنقض القاعدة العامة، وفرد واحد لا ينقص المجاهدين الكثيرين. ولعله ﷺ على عادته في معرفة كل ظروف جنوده فردًا فردًا، كان يعلم من حال هذا الرجل وأبويه ما جعله يوجهه هذا التوجيه.

فلا يقولن أحد ـ بسبب ذلك ـ إنما كان الجهاد ملابسة طارئة بسبب ظروف، وقد تغيرت هذه الظروف! وليس ذلك لأن الإسلام يجب أن يشهر سيفه ويمشي

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة.

به في الطريق يقطع به الرءوس! ولكن لأن واقع حياة الناس وطبيعة طريق الدعوة تلزمه أن يمسك بهذا السيف ويأخذ حذره في كل حين!

إن اللَّه ـ سبحانه ـ يعلم أن هذا أمر تكرهه الملوك! ويعلم أن لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه؛ لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم. ليس بالأمس فقط، ولكن اليوم وغدًا. وفي كل أرض، وفي كل جيل!

وإن اللَّه ـ سبحانه ـ يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفًا، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو ـ مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة! ـ فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر. ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل. ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة!

هذه جبلة! وليست ملابسة وقتية..

هذه فطرة! وليست حالة طارئة..

ومن ثم لا بد من الجهاد.. لا بد منه في كل صورة.. ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير، ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع والشهود. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح. ولا بد من لقاء الباطل المتترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة.. وإلا كان الأمر انتحارًا، أو كان هزلًا لا يليق بالمؤمنين!

ولا بد من بذل الأموال والأنفس، كما طلب اللَّه من المؤمنين، وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. فأما أن يقدر لهم الغلب، أو يقدر لهم الاستشهاد؛ فذلك شأنه ـ سبحانه ـ وذلك قدره المصحوب بحكمته.. أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم.. والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل.. والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون..

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة، وفي منهجها الواقعي، وفي خط سيرها المرسوم، وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية، التي لا علاقة لها بتغيير

الظروف.

وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين ـ تحت أي ظرف من الظروف. ومن هذه النقط.. الجهاد.. الذي يتحدث عنه اللَّه ـ سبحانه ـ هذا الحديث.. الجهاد في سبيل اللَّه وحده، وتحت رايته وحدها.. وهذا هو الجهاد الذي يسمى من يقتلون فيه «**شهداء**» ويتلقاهم الملأ الأعلى بالتكريم»[1].

١١ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: ١٠]

قال ابن كثير: «أي: أنفقوا ولا تخشوا فقرًا وإقلالًا، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السماوات والأرض بيده مقاليدهما وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى: وهو القائل: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. وقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. فمن توكل على اللَّه أنفق ولم يخش من ذي العرش إقلالًا وعلم أن اللَّه سيخلفه عليه.

وقوله ـ تعَالَى ـ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾؛ أي: لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديدًا فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهورًا عظيمًا، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، ولهذا قال ـ تعَالَى ـ ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾، والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة، وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح هاهنا صلح الحديبية، وقد يستدل لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد

---

(١) الظلال (٢/٧٤٠ ـ ٧٤٣).

وبين عبدالرحمن بن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذُكِر للنبي ﷺ، فقال: «**دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبًا ما بلغتم أعمالهم**»(١) ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة.. والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**»(٢).

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥]. وهكذا الحديث الذي في الصحيح: «**المؤمن القوي خير من وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**»(٣). وإنما نبَّه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر فيتوهم متوهم ذمه، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه مع تفضيل الأول عليه، ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ أي: فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق، وفي الحديث: «**سبق درهم مئة ألف**»، ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه له الحظ

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد ولفظه: «دعوا لي أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد ذهبًا ما بلغتم أعمالهم»، ورواه البزار عن ابن أبي أوفى، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (١٩٢٣)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٣٨٦).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٣٦٧٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد وأيضًا عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه اللَّه ﷻ ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها»[1].

١٢- قال - تَعَالَى -: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٨٩﴾ [التوبة: ٨٨، ٩٨].

قال ابن جرير الطبري (١٠/١٤٣، ١٤٤): «يقول - تَعَالَى ذكره -: لم يجاهد هؤلاء المنافقون (الذين اقتصصت قصصهم) المشركين، لكن الرسول محمد ﷺ والذي صدقوا اللَّه ورسوله معه هم الذين جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم، فأنفقوا في جهادهم أموالهم، وأتعبوا في قتالهم أنفسهم وأجهدوها. وللرسول وللذين آمنوا معه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم الخيرات، وهي خيرات الآخرة، وذلك نساؤها وجناتها ونعيمها. والخيرة من كل شيء: الفاضلة. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: وأولئك هم المخلدون في الجنات، الباقون فيها، الفائزون بها».

١٣- قال - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨].

قال ابن جرير الطبري: «إن الذين صدَّقوا باللَّه وبرسوله وبما جاء به، والذين هجروا مساكنة المشركين في أمصارهم ومجاورتهم في ديارهم كراهة منهم النزول بين أظهر المشركين وفي سلطانهم بحيث لا يأمنون فتنتهم على أنفسهم، فتحولوا عنهم وعن جوارهم وبلادهم إلى غيرها.

﴿وَجَٰهَدُواْ﴾: يعني: وقاتلوا وحاربوا، وأصل المجاهدة المفاعلة من قول الرجل: قد جهد فلان فلانًا على كذا إذا كَرَبه وشقَّ عليه يجهده جهدًا، وأما ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فطريقه ودينه. فمعنى قوله إذًا: والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل اللَّه

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٤٩٣، ٤٩٤).

والذين تحوَّلوا من سلطان أهل الشرك هجرة لهم وخوف فتنتهم على أديانهم، وحاربوهم في دين الله؛ ليدخلوهم فيه وفيما يرضي اللَّه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: يطمعون أن يرحمهم الله، فيدخلهم جنته بفضل رحمته إياهم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾؛ أي: ساتر ذنوب عباده بعفوه عنها، متفضل عليهم بالرحمة.

وهذه الآية ذكر أنها نزلت في عبداللَّه بن جحش وأصحابه.

١٤- ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠﴾ [التوبة: ١٢٠].

قال ابن جرير في تفسيره (٤٧/١١، ٤٨): «**لم يكن** ﴿لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾: مدينة رسول اللَّه ﷺ، ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾: سكان البوادي، الذين تخلفوا عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة «**تبوك**» وهم من أهل الإيمان به ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ﴾ في أهليهم ولا دارهم، ولا أن ﴿يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ في صحبته، وفي سفره والجهاد معه، ومعاونته على ما يعانيه في غزوه ذلك؛ يقول: إنه لم يكن لهم هذا لأجل أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمۡ﴾ في سفرهم إذا كانوا معه ﴿ظَمَأٞ﴾ وهو العطش، ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾ ولا تعب، ﴿وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: ولا مجاعة في إقامة دين اللَّه ونصرته وهدم منار الكفر، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾؛ يعني: أرضًا. يقول: ولا يطئون أرضًا. ﴿يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ وطؤهم إياهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا﴾؛ يقول: ولا يصيبون من عدو اللَّه وعدوهم شيئًا في أموالهم وأنفسهم وأولادهم إلا كتب اللَّه لهم بذلك كله ثواب عمل صالح قد ارتضاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ يقول: إن اللَّه لا يدع محسنًا من خلقه أحسن في عمله فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه ويثيبه على

صالح عمله».

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة في سبيل الله، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ ولا يقطعون مع رسول اللَّه ﷺ في غزوه واديًا إلا كُتب لهم أجر عملهم ذلك؛ جزاءً لهم عليه كأحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم التي كانوا يعملونها وهم مقيمون في منازلهم.

عن قتادة قال: ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل اللَّه بُعدًا إلا ازدادوا من الله قُربًا.

قال ابن كثير: «وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة»(١).

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

وفي التعبير تأنيب خفي. فما يُؤَنَّبُ أحدٌ يصاحب رسول اللَّه ﷺ بأوجع من أن يقال عنه: إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله، وهو معه، وهو صاحبه!

وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة في كل جيل؛ فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول اللَّه في سبيل هذه الدعوة؛ وهو يزعم أنه صاحب دعوة؛ وأنه يتأسى فيها برسول اللَّه ﷺ!

إنه الواجب الذي يوجبه الحياء من رسول اللَّه ـ فضلًا على الأمر الصادر من الله ـ ومع هذا فالجزاء عليه ما أسخاه!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٣١٥)، طبعة أولاد الشيخ.

لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

إنه على الظمأ جزاء، وعلى النصب جزاء، وعلى الجوع جزاء، وعلى كل موطئ قدم يغيظ الكفار جزاء، وعلى كل نيل من العدو جزاء، يكتب به للمجاهد عمل صالح، ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع لهم اللَّه أجرًا.

وإنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر، وعلى الخطوات لقطع الوادي أجر.. أجر كأحسن ما يعمل المجاهد في الحياة.

ألا والله، إن اللَّه ليجزل لنا العطاء، وإنها واللَّه للسماحة في الأجر والسخاء. وإنه لمما يخجل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول اللَّه ﷺ من الشدة واللأواء في سبيل هذه الدعوة التي نحن فيها خلفاء، وعليها بعده أمناء!»[١].

١٤- قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [**الحجرات: ١٥**].

قال ابن كثير: «﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾؛ أي: لم يَشُكُّوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة اللَّه ورضوانه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾؛ أي: في قولهم إذ قالوا: إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب الذين ليس معهم من الدين إلا الكلمة الظاهرة»[٢].

قال ابن زيد: «صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم»[٣].

---

(١) الظلال (١٧٣٣/٣، ١٧٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (١٧٥/١٣).

(٣) تفسير ابن جرير (٩١/٢٦).

التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن، الثابت، المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور، والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فالقلب متى تذوَّق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لا بد مندفعٌ لتحقيق حقيقته في خارج القلب، في واقع الحياة، في دنيا الناس، يريد أن يوحِّد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان التي في حسه، والصورة الواقعية من حوله؛ لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة. ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل اللَّه بالمال والنفس، فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن، يريد أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه؛ ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس. هذا هو الإيمان الكامل الجميل المستقيم.

١٥ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [النساء: ٧٤]

قال ابن جرير في تفسيره (١٠٦/٥): «وهذا حضٌّ من اللَّه المؤمنين على جهاد عدوه من أهل الكفر به على أحايينهم؛ غالبين كانوا أو مغلوبين... وقع جهادهم منزلة من اللَّه رفيعة.

يقول اللَّه لهم: ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: في دين اللَّه والدعاء إليه والدخول فيما أمر به أهل الكفر.

﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ يعني: الذين يبيعون حياتهم الدنيا بثواب الآخرة وما وعد اللَّه أهل طاعته بها. وبيعهم إياها إنفاقهم أموالهم في طلب رضا الله؛ كجهاد من أمر بجهاده من أعدائه وأعداء دينه وبذلهم مهجهم له في ذلك.

﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

يقول: ومن يقاتل في طلب إقامة دين اللَّه وإعلاء كلمة اللَّه أعداءَ اللهِ، ﴿فَيُقۡتَلۡ﴾ يقول: فيقتله أعداء الله، ﴿أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ أو يغلبهم فيظفر بهم. ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ فسوف نعطيه في الآخرة ثوابًا وأجرًا عظيمًا. وليس لما سمَّى - جل ثناؤه - عظيمًا مقدارٌ يعرف مبلغه عباد الله».

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «كل من قاتل في سبيل الله، سواء قُتِل أو غَلَبَ، فله عند اللَّه مثوبة عظيمة وأجر جزيل، كما ثبت في الصحيحين. وتكفل اللَّه للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة»[(١)] [(٢)].

أفق عظيم أراد اللَّه أن يرفع المسلمين إليه، وتعليق نفوسهم بالرجاء في فضل اللَّه العظيم في كلتا الحالتين، وأن يهوِّن عليها ما تخشاه من القتل، فهو شهادة، وما ترجوه من الغنيمة! فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئًا إلى جانب الفضل العظيم من الله... أين الدنيا من الآخرة؟ وأين غنيمة المال من فضل الله؟ وهو يحتوي المال فيما يحتويه، ويحتوي سواه.

١٦- قال - تعالَى -: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلًا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾ [الحج: ٥٨، ٥٩].

قال ابن جرير في تفسيره (١٧/١٣٦): «يقول - تعالَى ذكره -: والذين فارقوا أوطانهم وعشائرهم فتركوا ذلك في رضا اللَّه وطاعته وجهاد أعدائه، ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾ وهم كذلك ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة في جناته رزقًا

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٠٤) (١٨٧٦)، وأحمد (٢/٣٩٨)، والنسائي (٦/١٦)، كلهم عن أبي هريرة.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/١٥٩).

كريمًا، وإنما يعني بالرزق الحسن الثواب الجزيل، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: وإن الله لهو خير من بسط فضله على أهل طاعته وأكرمهم.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾: «يقول ـ تَعَالَى ذكره ـ: ليدخلن الله المقتول في سبيله من المهاجرين والميت منهم ﴿مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ وذلك المدخل هو الجنة، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بمن يهاجر في سبيله ممن يخرج من داره طلب للغنيمة أو عرض من عروض الدنيا».

قال ابن كثير: «فأما من قُتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حيٌّ عند ربه يُرزق، كما قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩]، والأحاديث في هذا كثيرة. وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

عن عبدالرحمن بن جحدم الخولاني أنه حضر فضالة بن عُبيدٍ في البحر مع جنازتين، أحدهما أُصيب بمنجنيق، والآخر تُوفي، فجلس فضالة بن عُبيد عند قبر المتوفَّى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أيِّ حفرتيْهما بُعثت، إن الله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾، فما تبتغي أيها العبد إذا أُدخِلت مدخلًا ترضاه، ورزقت رزقًا حسنًا، والله ما أبالي من أي حفرتيهما بُعِثت»[^1].

الهجرة في سبيل الله تجرُّد من كل ما تهفو له النفس، ومن كل ما تعتزُّ به وتحرص عليه؛ الأهل، والديار، والوطن، والذكريات، والمال، وسائر أعراض الحياة. وإيثار العقيدة على هذا كله ابتغاء رضوان الله وتطلعًا إلى ما عنده، وهو خير مما في الأرض جميعًا.

---

(١) تفسير ابن كثير (١٠/٩٠، ٩١).

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سواء لاقوا اللَّه شهداء بالقتل، أو لاقوه على فراشهم بالموت، فلقد خرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيله مستعدين لكل مصير، واستروحوا الشهادة في هجرتهم عن أيِّ طريق، وضحوا بكل عرض الحياة وتجرَّدوا بهذا لله، فتكفَّل اللَّه لهم بالعوض الكريم عمَّا فقدوه.

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: وهو رزق أكرم وأجزل من كلِّ ماتركوا؛ ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ فقد خرجوا مخرجًا يُرضي الله، فتعهد لهم اللَّه بأن يُدخلهم مدخلًا يرضونه، وإنه لمظهر لتكريم اللَّه لهم بأن يتوخَّى ما يرضونه فيحققه لهم، وهم عباده، وهو خالقهم.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ عليم بما وقع عليهم من ظلم وأذى، وبما يُرضي.

❑ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا رسول اللَّه ﷺ على عدم الفرار أو على الموت:

١٧ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

عن جابر قال: كنا يوم الحديبية ـ ألفًا وأربع مئة[١].

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: «**ثم دعا رسول اللَّه ﷺ** عمر بن الخطاب؛ ليبعثه إلى مكة، ليبلِّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال له: يا رسول الله؛ إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عديٍّ بن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكني أدلك على رجل أعزَّ بها مني؛ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت، معظمًا لحرمته.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره حتى بلغ رسالة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٤٠)، ومسلم (١٨٥٦).

رسول اللَّه ﷺ واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول اللَّه ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قُتِل، فقال رسول اللَّه ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قُتِل: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**»، ودعا رسول اللَّه ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول اللَّه ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبدالله؛ يقول: إن رسول اللَّه ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا علي أن لا نفرَّ(١).

عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مئة فبايعناه، وعمر آخذه بيده تحت الشجرة وهي سَمُرة، وقال: بايعناه على أن لا نفرَّ، ولم نبايعه على الموت»(٢).

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنًا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مئة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه علىأن لا نفرَّ(٣).

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعتُ رسول اللَّه ﷺ تحت الشجرة، قال يزيد بن أبي عبيد: قلت: يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت(٤).

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعتُ رسول اللَّه ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيْتُ، فقال: «**يا سلمة، ألا تبايع؟**» قلت: قد بايعت، قال: «**أقبِل فبايع**»، فدنوت فبايعته، قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت»(٥).

وأخرجه مسلم عن يزيد بن عبيد. وكذا روى البخاري عن عباد بن تميم أنهم بايعوه على الموت(٦).

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٢٧١، ٢٧٢).
(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٥٦). (٣) رواه مسلم.
(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٩٦٠)، كتاب الجهاد والسير ـ باب: البيعة في الحرب.
(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٢٠٨)، كتاب الأحكام، باب: من بايع مرتين، وأخرجه مسلم في الإمارة (١٨٦٠).
(٦) أخرجه البخاري في المغازي ـ باب: غزوة الحديبية (٤١٦٧) من حديث عباد بن تميم.

عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مئة، فقال لنا رسول الله ﷺ **«أنتم خير أهل الأرض اليوم»**(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة»**(٢).

وقال رسول الله ﷺ **«من يصعد الثنية ثنية المُرَار فإنه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل»**(٣)، فكان أول من صعد خيل بني الخزرج.

عن الشعبي قال: لما دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، كان أول من انتهى إليه أبو سنان، فقال: ابسط يدك أبايعك، فقال النبي ﷺ **«علام تبايعني»**؟ فقال أبو سنان: على ما في نفسك.

هذا أبو سنان وهب الأسدي رضي الله عنه

قال ابن كثير: «قال - تَعَالَى - لرسول الله ﷺ تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو - تَعَالَى - المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦) (٧١)، والحميدي في «مسنده» (١٢٧٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/٣٥٠)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، والنسائي في «تفسيره» (٥٢٨)، ورواه مسلم عن أم مبشر، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٦٨٠)، و«السلسلة الصحيحة» (٢١٦٠).

(٣) رواه مسلم عن جابر (٢٨٨٠).

بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ثوابًا جزيلًا.

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية»(١).

يا لها من بيعة الله صاحبها، والله أخذها، ويده فوق أيدي المتبايعين. ومَن؟ الله! يا للهول! ويا للروعة! ويا للجلال!

إن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة ـ مهما غاب شخص رسول الله ﷺ فالله حاضر لا يغيب، والله آخذ في هذه البيعة ومعط، وهو عليها رقيب.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فهو الخاسر من كل جانب، هو الخاسر في كل جانب؛ هو الخاسر في الرجاع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله ـ تَعَالَى ـ، وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله، والله هو الغني عن العالمين.

وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله؛ فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء، ويحب الأوفياء.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

هكذا على إطلاقه: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يفصّله، ولا يحدده، فهو الأجر الذي يقول عنه الله: إنه عظيم. عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصوره أبناء الأرض المقلّون المحدودون الفانون!

---

(١) تفسير ابن كثير (١٣/٩١، ٩٢).

١٨- وقال - تعالَى -: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [**الفتح**: **١٨- ٢٢**].

قال ابن جرير: «**يقول - تعالَى ذكره -**: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ يعني: بيعة أصحاب رسول اللَّه ﷺ رسول اللَّه بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريش الحرب وعلى أن لا يفروا ولا يولوهم الدبر».

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾: من صدق النية والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾: الطمأنينة والثبات على ما هم عليه من دينهم وحسن بصيرتهم بالحق الذي هداهم اللَّه له.

قال قتادة: أنزل السكينة عليهم: الصبر والوقار(١).

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: «وهو ما أجرى اللَّه على أيديهم من الصلح بينهم ومن أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

يقول ابن جرير (٢٦/٥٥، ٥٦): «أثاب اللَّه هؤلاء الذين بايعوا رسول اللَّه ﷺ

---

(١) تفسير الطبري (٢٦/٥٣، ٥٥).

تحت الشجرة مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم وإنزاله السكينة عليهم، وإثابته إياهم فتحا قريبًا معه مغانم كثيرة يأخذونها من أموال خيبر، فإن اللَّه جعل ذلك خاصة لأهل بيعة الرضوان دون غيرهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: ذا عزة في انتقامه ممن انتقم من أعدائه، حكيمًا في خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه» ا. هـ.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾: هي جميع المغانم إلى اليوم، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾؛ يعني: صلح الحديبية، قاله الضحاك، وابن إسحاق، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة: هي فتح مكة، واختاره ابن جرير، وقال: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، وهذه منة أخرى من ربهم عليهم.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يروا فيها عواقب تدبير اللَّه لهم؛ جزاءَ طاعتهم لرسول اللَّه وتسليمهم له.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ جزاء طاعتهم وامتثالهم وصدق سريرتهم.

وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه، والهداية يرزقونها، فيتم لهم الخير من كل جانب.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾: قال ابن عباس: هذه الفتوح التي تُفتح إلى اليوم.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾: يقول ـ تَعَالَى ـ مبشرًا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر اللَّه رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفار فارًّا مدبرًا لا يجدون وليًّا ولا نصيرًا؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين.

ثم قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: هذه سنة اللَّه وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيْصل إلا نصر اللَّه الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل ـ تَعَالَى ـ يوم بدر بأوليائه المؤمنين؛ نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعُددهم، وكثرة المشركين وعُددهم»[1].

هكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسننه الكونية التي لا تتبدَّل. فأي سكينة؟ وأي ثقة؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم، وهم يسمعون من اللَّه أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود.

وهي سنة دائمة لا تتبدَّل، ولكنها قد تتأخرُ إلى أجل، ولأسباب قد تتعلَّق باستواء المؤمنين على طريقهم، واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها اللَّه لهم، أو تتعلَّق بتهيئة الجو الذي يُولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين؛ لتكون له قيمته وأثره، أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله، ولكن السنَّة لا تتخلَّف، واللَّه أصدق القائلين: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

❑ **كلمات أعطر من شذا الورد.. وأحلى من الشهد.. وأرق من نسيم السحر.**

يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه اللَّه ـ: «إنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربع مئة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من اللَّه العليِّ العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين.. أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون، وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم، عن أولئك الرجال القائمين إذْ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود.. وأحاول أن أستشعر بالذات شيئًا من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم أنهم هم بأشخاصهم وأعيانهم، يقول اللَّه عنهم: لقد رضِي

(١) تفسير ابن كثير (١٣/١٠٧).

عنهم، ويحدد المكان الذي كانوا فيه، والهيئة التي كانوا عليها حتى استحقوا هذا الرضى ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق، على لسان ربه العظيم الجليل.

يا لله! كيف تلقَّوا - أولئك السعداء - تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد، في ذات نفسه، ويقول له: أنت.. أنت بذاتك. يبلغك الله.. لقد رَضي عنك.. وأنت تبايع تحت الشجرة! وعلم ما نفسك فأنزل السكينة عليك!

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧] فيسعد فيقول في نفسه: ألست أطمع أن أكون داخلًا في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].. فيطمئن.. يقول في نفسه: ألستُ أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويُبلَّغون: واحدًا واحدًا أن اللَّه يقصده بعينه وبذاته ويبلغه: لقد رضِي عنه! وعلم ما في نفسه، ورضي عما في نفسه! يالله! إنه أمر مهول.

علم اللَّه ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم؛ ليقفوا خلف كلمة رسول اللَّه ﷺ طائعين مسلمين صابرين، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ تضفي على تلك القلوب الحارة المتأهبة بردًا وسلامًا وطمأنينةً وارتياحًا»[1].

---

(١) الظلال (٦/٣٣٢٥، ٣٣٢٦).

الحضُّ على القتال والأمر به في القرآن الكريم

❑ مراحل تشريع الجهاد:

لقد مرَّ الجهاد بنوعيه: جهاد الطلب والابتداء، وجهاد الدفع، بعدة مراحل قبل أن يصل إلى حكمه النهائي.

المرحلة الأولى: مرحلة الكف عن المشركين، والإعراض عنهم، والصبر على أذاهم مع الاستمرار في دعوتهم إلى دين الحق، وبيان دين الإسلام، وبيان تفاهة معبودات الجاهلية، وضلال أهلها وخسارتهم في الدنيا والآخرة.

قال ابن تيمية «... فكان النبي ﷺ في أول الأمر مأمورًا أن يجاهد الكفار بلسانه لا بيده، فيدعوهم، ويعظهم، ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويجاهدهم بالقرآن جهادًا كبيرًا، قال ـ تَعَالَى ـ في سورة الفرقان ـ وهي مكية ـ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢]. وكان مأمورًا بالكف عن قتالهم»(١).

وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال الشافعي: «وأنزل اللَّه ﷻ فيما يثبته إذا ضاق من أذاهم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩] ففرض عليه إبلاغهم ولم يفرض عليه قتالهم، وأبان ذلك في غير آية من كتابه»(٢).

نهى رسول اللَّه ﷺ أصحابه عن قتال أهل مكة في الفترة المكية، فقال لمن قال

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (٧٤/١).

(٢) أحكام القرآن، للشافعي (٩/٢).

له: «**كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة**»، فقال: «**إني أُمِرت بالعفو فلا تقاتلوا...**»[(١)] وقد ذكر اللَّه هذا النهي في القرآن الكريم فقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

وقال ﷺ لما استأذنه أهل يثرب ليلة العقبة أن يميلوا على أهل منى فيقتلوهم: «**إني لم أؤمر بهذا**»[(٢)].

قال ابن كثير عند تفسير قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]: «أي: يصفحوا عنهم، ويحملوا الأذى منهم، وهذا كان في ابتداء الإسلام أُمِروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب؛ ليكون ذلك لتأليف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع اللَّه للمؤمنين الجلاد والجهاد، هكذا روي عن ابن عباس وقتادة[(٣)].

قال الحافظ ابن حجر: «فأول ما شُرِع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلى المدينة اتفاقًا»[(٤)].

وقال القرطبي: «ولم يُؤذن للنبي ﷺ في القتال مدة إقامته بمكة»[(٥)].

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي (٣/٦)، والبيهقي (٩/١١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٣٠٧) وقال: على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) **حديث صحيح**: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/٤٦٢)، وقد ورد في سياق بيعة العقبة الثانية من رواية كعب بن مالك، وقال الشيخ شعيب الأرناءوط وعبد القادر الأرناءوط: أخرجه ابن هشام (١/ ٤٤٠ ـ ٤٤٧)، وأحمد (٣/٤٦٠ ـ ٤٦٢)، والطيالسي (٢/٩٣)، وسنده صحيح.

(٣) تفسير ابن كثير (٧/٢٥١).

(٤) فتح الباري (٦/٢٧).

(٥) تفسير القرطبي (٣/٣٨).

المرحلة الثانية: إباحة القتال من غير فرض:

قال ـ تعالى ـ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

قال ابن كثير عند تفسيره هذه الآية: «وقال غير واحد من السلف: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وقاله مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغير واحد... وإنما شرع اللَّه ـ تَعَالَى ـ الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا، فلو أمر المسلمين وهم أقل من العُشر بقتال الباقين؛ لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول اللَّه ﷺ وكانوا نيِّفًا وثمانين قالوا: يا رسول الله، ألا نميلُ على أهل الوادي ـ يعنون أهل منى ـ ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إني لم أومر بهذا**». فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي من بين أظهرهم، وهموا بقتله وشرَّدوا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول اللَّه ﷺ واجتمعوا عليه وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلًا يلجئون إليه شرع اللَّه جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك»[1].

المرحلة الثالثة: فرض القتال على المسلمين لمن يُقاتلهم فقط:

قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٣٠، ٤٣١).

ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء: ٩٠، ٩١].

قال ابن تيمية عن هذه المرحلة (...ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم بل قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ﴾ الآيات، وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله، وإن كانت الهدنة عقدًا جائزًا غير لازم»(١).

وقال ابن تيمية: «فمن المعلوم من سيرة النبي ﷺ الظاهر علمه عند كل من له علم بالسيرة أنه ﷺ لما قدم المدينة لم يحارب أحدًا من أهل المدينة، بل وادعهم حتى اليهود، خصوصًا بطون الأوس والخزرج، فإنه كان يسالمهم ويتألفهم بكل وجه، وكان الناس إذ قَدِمَهَا على طبقات منهم المؤمن وهم الأكثرون، ومنهم الباقي على دينه وهو متروك لا يُحارِب ولا يُحارَب، وهو والمؤمنون من قبيلته وحلفائهم أهل سلم لا أهل حرب، حتى حلفاء الأنصار أقرهم النبي ﷺ على حلفهم»(٢).

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦] ففرضه بعد أن كان مباحًا.

المرحلة الرابعة: قتال جميع الكفار على اختلاف أديانهم وأجناسهم ابتداءً، وإن لم يبدأ بقتال، حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية، على خلاف بين العلماء فيمن تُؤخذ منه الجزية:

وهذه المرحلة بدأت من انقضاء أربعة أشهر من بعد حج العام التاسع من الهجرة، ومن بعد انقضاء العهود المؤقتة، وتُوفي الرسول ﷺ والعمل على هذه المرحلة الأخيرة، وعليها استقر حكم الجهاد.

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح، لابن تيمية (٧٣/١).
(٢) الصارم المسلول، لابن تيمية ص (٩٩).

ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة: ٥].

وقال - تعالى -: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»(١).

وقد استقر أمر الجهاد على المرحلة الأخيرة التي ذُكِرت في سورة التوبة، وهي قتال المشركين حتى يسلموا، وقتال أهل الكتاب والمجوس حتى يسلموا أو يدفعوا الجزية مع الذل والصغار.

قال ابن القيم (... فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة»(٢).

وروى الحاكم عن علي بن عبداللَّه بن عباس قال: سمعت أبي يقول: سألت علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لِمَ لم تكتب في براءة بسم اللَّه الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم اللَّه الرحمن الرحيم أمان وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان(٣).

وقال ابن كثير عند تفسير سورة التوبة: «هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول اللَّه ﷺ، كما قال البخاري: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ٢٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة»(٤).

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢١٢/١). (٢) زاد المعاد (١٦٠/٣).

(٣) المستدرك، للحاكم (٣٣٠/٢).

(٤) تفسير ابن كثير (٤٤/٤).

قلت: ولكون سورة براءة المقررة لحكم المرحلة الأخيرة من مراحل الجهاد هي آخر السور نزولًا اعتبر علماء السلف أن المرحلة الأخيرة للجهاد ناسخة لبقية المرحلة؛ قال ابن العربي: «قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾.. الآية ناسخ لمئة وأربع عشرة آية»[١].

والقول بالنسخ مروي عن الضحاك بن مزاحم[٢]، والربيع بن أنس[٣]، ومجاهد، وأبو العالية[٤]، والحسين بن الفضل[٥]، وابن زيد[٦]، وموسى بن عقبة[٧]، وابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة[٨]، وابن الجوزي[٩]، وعطاء[١٠].

وكذلك قال بالنسخ ابن تيمية[١١]، والشوكاني[١٢]، والقرطبي[١٣]، وجمع من العلماء في شتى العصور الإسلامية.

يقول صديق حسن البخاري: «**ما ورد في موادعتهم أو في تركهم إذا تركوا المقاتلة فذلك منسوخ باتفاق المسلمين**»[١٤].

---

(١) أحكام القرآن، لابن العربي (٢٠١/١).
(٢) ابن كثير (٥٥/٤).
(٣) البغوي (١٦٨/١).
(٤) فتح القدير، للشوكاني (١٩١/١).
(٥) القرطبي (٧٣/٨).
(٦) القرطبي (٣٣٩/٢).
(٧) الجصاص (٨١/٣).
(٨) فتح القدير (٤٩٧/١).
(٩) زاد المسير، لابن الجوزي (٣٧٦/٣).
(١٠) البغوي (١٢٢/٣).
(١١) الاحتجاج بالقدر، لابن تيمية ص (٣٦).
(١٢) فتح القدير، للشوكاني (٢٧٥/١).
(١٣) تفسير القرطبي (٣٣١/٢).
(١٤) الروضة الندية (٣٣٣/٢).

وذكر ابن تيمية عن موسى بن عقبة عن الزهري: «كانت سيرة رسول الله ﷺ في عدوه قبل أن تنزل براءة يقاتل من قاتله، ومن كف يده وعاهده كف عنه؛ قال الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾، وكان القرآن ينسخ بعضُه بعضًا، فإذا أنزلت آية نسخت التي قبلها، وعمل بالتي أنزلت، وبلغت الأولى منتهى العمل بها، وكان ما قد عمل بها قبل ذلك طاعة لله حتى نزلت براءة»(١).

وادعى الزركشي أنه ليس في مراحل الجهاد نسخ، بل يعمل بكل مراحله عند الحالة المشابهة للحالة التي شرعت فيها، وعاب على من قال بالنسخ؛ إذ قال: «قسم بعضهم النسخ من وجه آخر إلى ثلاثة أَضْرُبٍ.. الثالث: ما أمر به لسبب، ثم يزول السبب؛ كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر وبالمغفرة للذين لا يرجون لقاء الله ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها، ثم نسخه إيجاب ذلك، هذا ليس بنسخ في الحقيقة، وإنما هو نسيء؛ كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَوۡ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون». وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف، وليست كذلك، بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما؛ لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدًا»(٢).

وأتى السيوطي في كتابه «**الإتقان**» بكلام الزركشي، هذا غير أنه لم ينسبه له(٣) مع أنه ذكر في كتابه «**الإكليل**» بأن آية السيف ناسخة لآيات العفو والصفح

---

(١) الصارم المسلول، لابن تيمية ص (١٠٣).
(٢) البرهان، للزركشي (٢/٤١، ٤٢).
(٣) انظر: الإتقان، للسيوطي (٣/٦٦).

والمسالمة[١].

والحقيقة أن الزركشي ـ رحمه اللَّه ـ صادق في قوله: إن مراحل الجهاد يعمل بها في الظروف المشابهة للظروف التي شرعت فيها. مخطئ في تضعيفه لأقوال السلف القائلين بالنسخ؛ لأن السلف لا يقصدون بالنسخ المعنى الذي هو يقصده «وهو الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدًا»، وإنما يقصدون معنى أعم وأشمل من ذلك، فإن النسخ عندهم يشمل التقييد والبيان والتخصيص ونحو ذلك، فليس للزركشي أن يحاكم السلف إلى اصطلاح المتأخرين، وهذا غفلة منه ـ رحمه اللَّه ـ عن قصد السلف بالنسخ.

يقول ابن تيمية عن مفهوم النسخ عند السلف: «... ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها، أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها، فإن سنة رسول اللَّه ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه، وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخًا لها، فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل، وإن كان ذلك المعنى لم يرد بها، وإن كان لا يدل عليه ظاهر الآية، بل قد لا يفهم منها. وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الإبهام والإفهام نسخًا، وهذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم. وأصل ذلك من إلقاء الشيطان، ثم يحكم اللَّه آياته، فما ألقاه الشيطان في الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخًا، كما سموا قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ناسخًا لقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ناسخًا لقوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع

---

(١) **انظر**: الإكليل في استنباط التنزيل ص (١١٦).

بسطه»(١).

وقد رجح بعض العلماء في العصور المتأخرة ما ذهب إليه الزركشي(٢) ظنًّا منهم أن قول السلف يخالف قول الزركشي في العمل بمراحل الجهاد. والحقيقة أن الخلاف بين الزركشي وعلماء السلف هو في مسمى النسخ لا في العمل بمراحل الجهاد، وإلا فالسلف لا يكلفون المستضعف من المسلمين الذي حاله مشابهة لحال الرسول في مكة بالقتال، وإنما الواجب عليه أن يجتهد لكي يصل إلى حال قوة يجاهد فيها الكفار؛ لأن الحال التي توفي عليها الرسول ﷺ هي تمام الدين التي يجب على المسلمين بذل قصارى الجهاد لتحقيقها في الواقع البشري. وإليك أقوال السلف المؤيدة لهذا:

قال ابن حجر ـ عند الكلام على مهادنة الكفار بمال يدفعه المسلمون لهم في حال الضرورة ـ: «وأما أصل المسألة فاختلف فيه؛ فقال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي عن موادعة إمام المسلمين أهل الحرب على مال يؤديه إليهم؛ فقال: لا يصلح ذلك إلا عن ضرورة؛ كشغل المسلمين عن حربهم، قال: ولا بأس أن يصالحهم على غير شيء يؤدونه إليهم؛ كما وقع في الحديبية.

وقال الشافعي: إذا ضعف المسلمون عن قتال المشركين جازت لهم مهادنتهم على غير شيء يعطونهم؛ لأن القتل للمسلمين شهادة، وإن الإسلام أعز من أن يُعطى المشركون على أن يكفوا عنهم إلا في حالة مخافة اصطلام المسلمين لكثرة العدو؛ لأن ذلك من معاني الضرورات، وكذلك إذا أسر رجل مسلم فلم يطلق إلا بفدية جاز»(٣).

وقال ابن قدامة: «... لا تجوز المهادنة مطلقًا من غير تقدير مدة؛ لأنه يفضي إلى

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٠).
(٢) **انظر**: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٩٠)، ومناهل العرفان، للزرقاني (٢/ ١٥٠).
(٣) فتح الباري، لابن حجر (٦/ ١٩٨).

ترك الجهاد بالكلية[١]... وتجوز مهادنتهم على غير مال؛ لأن النبي ﷺ هادنهم يوم الحديبية على غير مال. ويجوز ذلك على مال يأخذه منهم، فإنها إذا جازت على غير مال فعلى مال أولى. وأما إن صالحهم على مال نبذله لهم فقد أطلق أحمد القول بالمنع منه، وهو مذهب الشافعي؛ لأن فيه صَغَارًا للمسلمين، وهذا محمول على غير حالة الضرورة. فأما إذا دعت إليه ضرورة؛ وهو أن يخاف على المسلمين الهلاك أو الأسر فيجوز؛ لأنه يجوز للأسير فداء نفسه بالمال، فكذا ههنا، ولأن بذله المال إن كان فيه صَغَارٌ فإنه يجوز تحمله لدفع صغار أعظم منه وهو القتل والأسر وسبي الذرية الذي يفضي سبيهم إلى كفرهم»[٢].

وقال أبو حنيفة: «لا ينبغي موادعة أهل الشرك إذا كان بالمسلمين عليهم قوة، وإن لم يكن بالمسلمين قوة عليهم فلا بأس بالموادعة».

وقال الشيباني ـ بعد ذكره لكلام أبي حنيفة هذا ـ: «وإذا خاف المسلمون المشركين فطلبوا موادعتهم فأبى المشركون أن يوادعوهم حتى يعطيهم المسلمون على ذلك مالًا فلا بأس بذلك عند تحقيق الضرورة»[٣].

وقال ابن جزي الغرناطي المالكي: «... لا يجوز الانصراف من صف القتال إن كان فيه انكسار المسلمين، وإن لم يكن فيجوز لمتحرف لقتال أو متحيز إلى فئة، والتحرف للقتال هو أن يظهر الفرار وهو يريد الرجوع مكيدة في الحرب، والتحيز إلى الجماعة الحاضرة جائز. واختلف في التحيز إلى جماعة غائبة من المسلمين أو مدينة، ولا يجوز الانهزام إلا إذا زاد الكفار على ضعف المسلمين، والمعتبر العدد في ذلك على المشهور، وقيل: القوة. وقيل: إذا بلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفًا لم

---

(١) بعض العلماء كابن تيمية وابن القيم يرى جواز المهادنة من غير تقدير مدة، لكنهم يرون أنها عقد جائز، غير لازم، للمسلمين فَسْخُهُ إذا رأوا المصلحة في ذلك. **انظر:** الجواب الصحيح (٧٤/١)، وزاد المعاد (٧٠/٣).

(٢) المغني، لابن قدامة (٤٥٩/٨ ـ ٤٦١).

(٣) شرح السير الكبير، للسرخسي ص (١٦٨٩ ـ ١٦٩٢).

يحل الانهزام، ولو زاد الكفار على الضعف. وإن علم المسلمون أنهم مقتولون فالانصراف أولى، وإن علموا مع ذلك أنهم لا تأثير لهم في نكاية العدو وجب الفرار، وقال أبو المعالي: لا خلاف في ذلك»(١).

فهذه الأقوال التي سلفت من مذاهب الأئمة الأربعة وغيرهم تبين أن مقصود السلف بالنسخ في مراحل الجهاد ليس هو إزالة حكم المراحل حتى لا يجوز العمل بها مطلقًا، فإن هذا من التكليف بما لا يطاق في حال الاستضعاف، والله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

يقول ابن تيمية: «... فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين. وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»(٢).

وبهذا يتضح أنه لا خلاف بين الزركشي ومن نحا نحوه ـ كسيد قطب وغيره ـ وبين السلف في حكم مراحل الجهاد، وإنما الخلاف في مسمى النسخ؛ يقول سيد قطب: «والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت إليها الحركة الجهادية في الإسلام بأمر من الله لا بأوائل الدعوة ولا بأوسطها»(٣). ويقول ـ عليه رحمة الله ـ: «إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة، ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدد ـ عن طريق الاجتهاد المطلق ـ أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف،

---

(١) القوانين الفقهية، لابن جزي ص (١٢٨).
(٢) الصارم المسلول، لابن تيمية ص (٢٢١).
(٣) في ظلال القرآن (٣/١٤٣٦).

في زمان من الأزمنة، في مكان من الأمكنة، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يصار إليها متى أصبحت الأمة الإسلامية في الحال التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام، كما كان حالها عند نزول سورة التوبة، وما بعد ذلك أيام الفتوحات الإسلامية التي قامت على أساس من هذه الأحكام الأخيرة النهائية سواء في معاملة المشركين أو أهل الكتاب.

إن المهزومين في هذا الزمان أمام الواقع البائس لذراري المسلمين ـ الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان ـ وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على أهل الجهاد في الإسلام، يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية مهربًا من الحقيقة التي يقوم عليه الانطلاق الإسلامي في الأرض لتحرير الناس كافة من عبادة العباد وردهم جميعًا إلى عبادة اللَّه وحده وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التي تقهرهم على عبادة غير اللَّه والخضوع لسلطان غير سلطانه والتحاكم إلى شرع غير شرعه. ومن ثم نراهم يقولون مثلًا: إن اللَّه ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٦١]، ويقول: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ﴾ [الممتحنة: ٨]. فالإسلام إذن لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام في داخل حدود هذه الدار أو الذين يهددونها من الخارج. وإنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين، وإنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها، ومعنى ذلك في تصورهم المهزوم أن لا علاقة للإسلام إذن بسائر البشر في أنحاء الأرض، ولا عليه أن يتخذ الناس بعضهم بعضًا أربابًا من دون اللَّه في الأرض كلها ما دام هو آمنًا داخل حدوده الإقليمية. وهو سوء ظن بالإسلام، وسوء ظن باللَّه ـ سبحانه ـ تمليه الهزيمة أمام الواقع البائس النكد الذي يواجههم وأمام القوى العالمية المعادية التي لا طاقة لهم بها في اللحظة الحاضرة. وهان الأمر لو أنهم حين يهزمون روحيًا أمام هذه القوى لا يحيلون هزيمتهم إلى الإسلام ذاته ولا يحملونه على ضعف واقعهم الذي جاءهم من

بُعْدِهم عن الإسلام أصلًا، ولكنهم يأبون إلا أن يحملوا ضعفهم هم وهزيمتهم على دين اللَّه القوي المتين.

إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعًا معينًا، وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة، وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية؛ لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام. ولكن هنا ليس معناه أن هذه هي غاية المعنى وأن هذه نهاية خطوات هذا الدين.. إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قُدُمًا في تحسين ظروفها وفي إزالة العوائق من طريقها؛ حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في سورة التوبة، والتي كانت تواجه واقعًا غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية. إن النصوص الأخيرة تقول في شأن المشركين: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ .. وتقول في شأن أهل الكتاب: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾، فإذا كان المسلمون

اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام فهم ـ اللحظة ومؤقتًا ـ غير مكلفين بتحقيقها ـ ولا يكلف اللَّه نفسًا إلا وسعها، ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها.. ولكن عليهم ألا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية، وعليهم ألا يحملوا ضعفهم الحاضر على دين اللَّه القوي المتين، وعليهم أن يتقوا اللَّه في مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام.

إنه دين السلم والسلام فعلًا، ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلها من عبادة غير الله، وإدخال البشرية كافة في السلم كافة. إنه منهج اللَّه هذا الذي يريد البشر على الارتفاع إليه والاستمتاع بخيره، وليس منهج عبد من العبيد، ولا مذهب مفكر من البشر حتى يخجل الداعون إليه من إعلان إن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوى التي تقف في سبيله لإطلاق الحرية للناس أفرادًا في اختياره... إنه حين تكون المذاهب التي يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد، وحين تكون الأنظمة والشرائع التي تصرف حياتهم من وضع العبيد أيضًا فإنه في هذه الحالة يصبح لكل مذهب ولكل نظام الحق في أن يعيش داخل حدوده آمنًا ما دام أنه لا يعتدي على حدود الآخرين، ويصبح من حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفة أن تتعايش وألا يحاول أحدها إزالة الآخر. فأما حين يكون هناك منهج إلهي وشريعة ربانية، ووضع العبودية فيه لله وحده، وتكون إلى جانبه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر، العبودية فيها للعباد، فإن الأمر يختلف من أساسه، ويصبح من حق المنهج الإلهي أن يجتاز الحواجز البشرية ويحرر البشر من العبودية للعباد ويتركهم أحرارًا في اختيار العقيدة التي يختارونها في ظل الدينونة لله وحده. والمهزومون الذين يحاولون أن يلووا أعناق النصوص؛ ليخرجوا من الحرج الذي يتوهمونه في انطلاق الإسلام وراء حدوده الأولى؛ ليحرر البشر في الأرض كلها

من العبودية لغير اللَّه ينسون هذه الحقيقة الكبرى، وهي أن هناك منهجًا ربانيًّا، العبودية فيه لله وحده، يواجه مناهج بشرية، العبودية فيها للعبيد»[(١)].

١٩- قال - تعالَى -: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٠- ١٩٣].

قال ابن كثير: «عن أبي العالية في قوله - تعالَى -: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾، قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كفَّ عنه حتى نزلت سورة براءة.

وكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾.

وفي هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله؛ أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: فلتكن همتكم منبعثة على قتالهم كما أن همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها؛ قِصَاصًا.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ أي: وقاتلوا في

---

(١) أهمية الجهاد، للدكتور علي بن نفيع العلياني ص (١٤٨- ١٥٧) دار طيبة، وفقه الدعوة، لسيد قطب - اختيار أحمد حسن ص (٢١٧ - ٢٢٢).

سبيل الله، ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي - كما قاله الحسن البصري - من المثلة، والغلول، وقتل النساء، والصبيان، والشيوخ الذين لا رأي لهم، ولا قتال فيهم، والرهبان، وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وعمر بن عبدالعزيز، ومقاتل بن حيان وغيرهم، ولهذا جاء في «**صحيح مسلم**» عن بريدة أن رسول اللَّه ﷺ كان يقول: «**اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا أصحاب الصوامع**»[1].

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: «**وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول اللَّه ﷺ قتل النساء والصبيان**»[2].

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال نبه - تَعَالَى - على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر باللَّه والشرك به والصدِّ عن سبيله أبلغ وأشدُّ وأعظم، وأطمُّ من القتل، ولهذا قال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾؛ قال أبو مالك: ما أنتم مقيمون عليهِ أكبر من القتل.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

«ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدءوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم، وقتلهم؛ دفعًا للصيال»[3].

ثم أمر اللَّه - تَعَالَى - بقتال الكفار ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: شرك؛ قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع، ومقاتل بن حيان،

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأحمد في «المسند» (٣٥٢/٥).

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير - باب: قتل الصبيان في الحرب، وقتل النساء في الحرب برقم (٣٠١٤، ٣٠١٥)، ومسلم في الجهاد والسير برقم (٢٤) (١٧٤٤).

(٣) الصيال: القهر والعدوان.

والسدي، وزيد بن أسلم.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أن يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سُئل النبي ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويُقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

وفي الصحيحين: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»(٢).

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: يقول ـ تَعَالَى ـ: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك، وقتال المؤمنين فكفُّوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: لا يُقاتَل إلا من قاتل. أو يكون تقديره: فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم ـ وهو الشرك ـ فلا عدوان عليهم بعد ذلك. والمراد بالعدوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة؛ كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: ١٢٦]، ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم الذي أبى أن يقول: لا إله إلا الله.

عن ابن عمر قال: «**أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس ضُيِّعوا، وأنت ابن عمر، وصاحب النبي ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرَّم دم أخي، قالا: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٣٦) (٢٢) من حديث عبدالله بن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ.
(٣) تفسير ابن كثير (٢/٢١٤ ـ ٢١٨).

٢٠ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٤ـ ٧٧].

قال ابن كثير في قوله ـ تعالَى ـ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.... الآيات: «يحرض ـ تعالَى ـ عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها، ولهذا قال ـ تعالَى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ يعني: مكة، كقوله ـ تعالَى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣]، ثم وصفها بقوله: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾؛ أي: سخر لنا من عندك وليًا وناصرًا.

عن ابن عباس قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين[(١)].

وعن ابن أبي مُليكة، أن ابن عباس تلا: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ قال: كنت أنا وأمي ممن عذر اللَّه ﷻ.

ثم قال ـ تعالَى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ أي: المؤمنون يُقاتلون في طاعة اللَّه ورضوانه، والكافرون

(١) صحيح البخاري (٤٥٨٧، ٤٥٨٨).

يقاتلون في طاعة الشيطان.

ثم هيَّج المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1].

«خطاب للجماعة المسلمة كلها. يلتفت إليها لاستجاشة مروءة النفوس، وحساسية القلوب؛ تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؛ الذين كانوا يقاسون في مكة ما يقاسون على أيدي المشركين غير قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام والفرار بدينهم وعقيدتهم؛ وهم يتطلعون إلى الخلاص، ويدعون اللَّه أن يجعل لهم مخرجًا من دار الظلم والعدوان.. يلتفت هذه الالتفاتة؛ ليوحي إليهم بسمو المقصد، وشرف الغاية، ونبل الهدف في هذا القتال، الذين يدعوهم أن ينفروا إليه، غير متثاقلين ولا مبطئين. وذلك في أسلوب تحضيضي؛ يستنكر البطء والقعود:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾..

وكيف تقعدون عن القتال في سبيل الله؛ واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؟ هؤلاء الذين ترتسم صورهم في مشهد مثير لحمية المسلم، وكرامة المؤمن، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق؟ هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة؛ لأنهم يعانون المحنة في عقيدتهم، والفتنة في دينهم. والمحنة في العقيدة أشد من المحنة في المال والأرض والنفس والعرض؛ لأنها محنة في أخص خصائص الوجود الإنساني، الذي تتبعه كرامة النفس والعرض، وحق المال والأرض!

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٥٩، ١٦٠).

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف، مشهد مؤثر مثير، لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا - وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة -، وهذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد، وهو وحده يكفي. لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات.. وهو أسلوب عميق الوقع، بعيد الغور في مسارب الشعور والإحساس.

ولا بد من لفتة هنا إلى التصور الإسلامي للبلد والأرض والوطن: إن ﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ التي يعدها الإسلام - في موضعها ذاك - دار حرب، يجب أن يقاتل المسلمون؛ لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها، هي «**مكة**» وطن المهاجرين، الذين يُدعون هذه الدعوة الحارة إلى قتال المشركين فيها. ويدعو المسلمون المستضعفون هذه الدعوة الحادة للخروج منه!

إن كونها بلدهم لم يغير وضعها في نظر الإسلام - حين لم تقم فيها شريعة اللَّه ومنهجه؛ وحين فتن فيها المؤمنون عن دينهم، وعذبوا في عقيدتهم.. بل اعتبرت بالنسبة لهم هم أنفسهم «**دار حرب**».. دار حرب، هم لا يدافعون عنها، وليس هذا فحسب بل هم يحاربونها؛ لإنقاذ إخوانهم المسلمين منها.

إن راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته. ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلد الذي تقام شريعة اللَّه فيه. وأرضه التي يدفع عنها هي «**دار الإسلام**» التي تتخذ المنهج الإسلامي منهجًا للحياة.. وكل تصور آخر للوطن هو تصور غير إسلامي، تنضح به الجاهليات، ولا يعرفه الإسلام.

ثم لمسة نفسية أخرى؛ لاستنهاض الهمم، واستجاشة العزائم، وإنارة الطريق، وتحديد القيم والغايات والأهداف، التي يعمل لها كل فريق:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

وفي لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق. وفي لحظة ترتسم الأهداف،

وتتضح الخطوط. وينقسم الناس إلى فريقين اثنين؛ تحت رايتين متميزتين:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله؛ لتحقيق منهجه، وإقرار شريعته، وإقامة العدل «**بين الناس**» باسم الله. لا تحت أي عنوان آخر؛ اعترافًا بأن اللَّه وحده هو الإله، ومن ثم فهو الحاكم.

والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت؛ لتحقيق مناهج شتى - غير منهج اللَّه - وإقرار شرائع شتى - غير شريعة اللَّه - وإقامة قيم شتى - غير التي أذن بها اللَّه - ونصب موازين شتى غير ميزان الله!

ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية اللَّه وحمايته ورعايته.

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم، وشتى شرائعهم، وشتى طرائقهم، وشتى قيمهم، وشتى موازينهم... فكلهم أولياء الشيطان.

ويأمر اللَّه الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان؛ ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان؛ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد. مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله، ليس لأنفسهم منها نصيب، ولا لذواتهم منها حظ، وليست لقومهم، ولا لجنسهم، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء.. إنما هي لله وحده، ولمنهجه وشريعته. وأنهم يواجهون قومًا أهل باطل؛ يقاتلون لتغليب الباطل على الحق؛ لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية - على الله؛ ولتغليب ظلم البشر - وكل حكم للبشر من دون اللَّه ظلم - على عدل الله، الذي هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس.

كذلك يخوضون المعركة، وهم يوقنون أن اللَّه وليهم فيها، وأنهم يواجهون قومًا الشيطان وليهم، فهم إذن ضعاف... ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين، وتتحدد نهايتها قبل أن يدخلوها. وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة - فهو واثق من النتيجة - أم بقي حتى غلب، ورأى بعينيه النصر؛ فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل اللَّه في حياة الجماعة المسلمة الأولى؛ والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة. وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال؛ فهي كثيرة مشهورة.

ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب، في أقصر فترة عرفت في التاريخ؛ فقد كان هذا التصور جانبًا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة، على المعسكرات المعادية... وبناء هذا التصور ذاته كان طرفًا من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين، وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال؛ ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين؛ فأمسوا مهزومين!

وها نحن أولاء نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتثبيته، فلم يكن الأمر هينًا، ولم يكن مجرد كلمة تقال، ولكنه كان جهدًا موصولًا، لمعالجة شح النفس، وحرصها على الحياة - بأي ثمن - وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة.. وفي الدرس بقية من هذا العلاج، وذلك الجهد الموصول»[1].

قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ كان المؤمنون في ابتداء الإسلام مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النصب،

---

(١) الظلال (٢/٧٠٨ - ٧١٠) بتصرف.

لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرَّقون ويودون لو أُمِروا بالقتال؛ ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا؛ لأسباب كثيرة؛ منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها: كونهم كانوا في بلدهم، وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً لائقًا، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لمَّا صار لهم دار منعة وأنصار، ومع هذا لما أُمِروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفًا شديدًا، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ﴾ أي: لو ما أخَّرت فريضته إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويُتمْ الأبناء، وتأيم النساء.

وهذه الآية في معنى قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠] الآيات..

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابه أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزَّة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «**إني أُمرتُ بالعفو، فلا تقاتلوا القوم**»، فلما حوَّله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفُّوا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية[1].

وقوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ أي: آخرة المتقى خير من دنياه.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾؛ أي: من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء. وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد.

---

(١) **صحيح على شرط البخاري**: رواه النسائي في فاتحة كتاب الجهاد من «السنن الصغرى» (٦/ ٢، ٣) وفي «التفسير» من «الكبرى» (٦/)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٥٦٣٠)، وابن جرير (٨/ ٩٩٥١)، والحاكم (٢/ ٦٦، ٦٧، ٣٠٧)، وعنه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١١)، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. ووافقه الذهبي.

قرأ الحسن: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾؛ قال: رحم اللَّه عبدًا صحبها على حسب ذلك، وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه.

وقال ابن معين: كان أبو مُسْهَر ينشد:

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ... مِنَ اللَّهِ فِي دَارِ الْمُقَامِ نَصِيبُ

فَإِنْ تُعْجِبُ الدُّنْيَا رِجَالًا فَإِنَّهَا ... مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَالزَّوَالُ قَرِيبُ[1]

❑ **وقفات مهمة مع آية سورة النساء:**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

يعجب اللَّه ـ سبحانه ـ من أمر هؤلاء الناس؛ الذين كانوا يتدافعون حماسة إلى القتال ويستعجلونه وهم في مكة، يتلقون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين. حين لم يكن مأذونًا لهم في القتال؛ للحكمة التي يريدها الله. فلما أن جاء الوقت المناسب الذي قدره الله؛ وتهيأت الظروف المناسبة وكتب عليهم القتال ـ في سبيل اللَّه ـ إذا فريق منهم شديد الجزع، شديد الفزع، حتى ليخشى الناس الذين أُمروا بقتالهم ـ وهم ناس من البشر ـ كخشية الله؛ القهار الجبار، الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.. ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾!! وإذا هم يقولون ـ في حسرة وخوف وجزع ـ: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾؟ وهو سؤال غريب من مؤمن، وهو دلالة على عدم وضوح تصوره لتكاليف هذا الدين؛ ولوظيفة هذا الدين

(١) تفسير ابن كثير (٤/١٦١ ـ ١٦٣).

أيضًا(١). ويتبعون ذلك التساؤل، بأمنية حسرة مسكينة! ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، وأمهلتنا بعض الوقت، قبل ملاقاة هذا التكليف الثقيل المخيف!

إن أشد الناس حماسة واندفاعًا وتهورًا، قد يكونون هم أشد الناس جزعًا وانهيارًا وهزيمة عندما يجد الجد، وتقع الواقعة.. بل إن هذه قد تكون القاعدة! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالبًا ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف. لا عن شجاعة واحتمال وإصرار، كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال؛ قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة؛ فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأي شكل دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار.. حتى إذا وُوجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا، وأشق مما تصوروا، فكانوا أول الصف جزعًا ونكولًا وانهيارًا.. على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت؛ ويعدون للأمر عدته، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف. فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته.. والمتهورون المندفعون المستحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافًا، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور! وفي المعركة يتبين أي الفريقين أكثر احتمالًا؛ وأي الفريقين أبعد نظرًا كذلك!

وأغلب الظن أن هذا الفريق الذي تعنيه هذه الآيات كان من ذلك الصنف، الذي يلذعه الأذى في مكة فلا يطيقه؛ ولا يطيق الهوان وهو ذو عزة، فيندفع يطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بدفع الأذى، أو حفظ الكرامة. والرسول ﷺ يتبع في هذا أمر ربه بالتريث والانتظار، والتربية والإعداد، وارتقاب الأمر في الوقت المناسب. فلما أن أمن هذا الفريق في المدينة؛ ولم يعد هناك أذى ولا إذلال، وبعد لسع الحوادث عن الذوات والأشخاص؛ لم يعد يرى للقتال مبررًا؛ أو على الأقل لم

---

(١) أي: وقت نزول الآيات.. وإلا فالصحابة خير القرون، وكلهم عدول، وهم أفضل الأمة، ولا يُقاسون بغيرهم.

يعد يرى للمسارعة به ضرورة!

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾

وقد يكون هذا الفريق مؤمنًا فعلًا. بدليل اتجاههم إلى اللَّه في ضراعة وأسى! وهذه الصورة ينبغي أن تكون في حسابنا. فالإيمان الذي لم ينضج بعد؛ والتصور الذي لم تتضح معالمه؛ ولم يتبين صاحبه وظيفة هذا الدين في الأرض ـ وأنها أكبر من حماية الأشخاص، وحماية الأقوام، وحماية الأوطان، إذ إنها في صميمها قرار منهج اللَّه في الأرض، وإقامة نظامه العادل في ربوع العالم؛ وإنشاء قوة عليا في هذه الأرض ذات سلطان، يمنع أن تغلق الحدود دون دعوة الله؛ ويمنع أن يحال بين الأفراد والاستماع للدعوة في أي مكان على سطح الأرض؛ ويمنع أن يفتن أحد من الأفراد عن دينه إذا هو اختاره بكامل حريته ـ بأي لون من ألوان الفتنة ـ، ومنها أن يطارد في رزقه أو في نشاطه حيث هو ـ وهذه كلها مهام خارجة عن وقوع أذى على أشخاص بعينهم أو عدم وقوعه.. وإذن فلم يكن الأمن في المدينة ـ حتى على فرض وجوده كاملًا غير مهدد ـ لينهي مهمة المسلمين هناك؛ وينهى عن الجهاد!

الإيمان الذي لم ينضج بعد ليبلغ بالنفس إلى إخراج ذاتها من الأمر؛ والاستماع فقط إلى أمر اللَّه واعتباره هو العلة والمعلول، والسبب والمسبب، والكلمة الأخيرة ـ سواء عرف المكلف حكمتها أم لم تتضح له ـ والتصور الذي لم تتضح معالمه بعد ليعرف المؤمن مهمة هذا الدين في الأرض؛ ومهمته هو ـ المؤمن ـ بوصفه قدرًا من قدر الله، ينفذ به اللَّه ما يشاءه في هذه الحياة.. لا جرم ينشأ عنه مثل هذا الموقف، الذي يصوره السياق القرآني هذا التصوير؛ ويعجب منه هذا التعجب! وينفِّر منه هذا التنفير.

فأما لماذا لم يأذن اللَّه للمسلمين ـ في مكة ـ بالانتصار من الظلم؛ والرد على العدوان؛ ودفع الأذى بالقوة.. وكثيرون منهم كان يملك هذا؛ فلم يكن ضعيفًا ولا

مستضعفًا؛ ولم يكن عاجزًا عن رد الصاع صاعين.. مهما يكن المسلمون في ذلك الوقت قلة.

أما حكمة هذا، والأمر بالكف عن القتال، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والصبر والاحتمال.. حتى وبعض المسلمين يلقى من الأذى والعذاب ما لا يطاق، وبعضهم يتجاوز العذاب طاقته؛ فيفتن عن دينه. وبعضهم لا يحتمل الاستمرار في العذاب فيموت تحت وطأته.

أما حكمة هذا فلسنا في حل من الجزم بها؛ لأننا حينئذ نتألى على اللَّه ما لم يبين لنا من حكمة؛ ونفرض على أوامره أسبابًا وعللًا قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون، ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها، ويعلم ـ سبحانه ـ أن فيها الخير والمصلحة.. وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم في شريعة اللَّه ـ لم يبين اللَّه سببه محددًا جازمًا حاسمًا ـ فمهما خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف؛ أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم أو طريقة أداء ذلك التكليف، مما يدركه عقله ويحسن فيه.. فينبغي أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال. ولا يجزم ـ مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام اللَّه ـ بأن ما رآه من حكمة هو الحكمة التي أرادها الله.. نصًّا.. وليس وراءها شيء، وليس من دونها شيء! فذلك التحرير هي مقتضى الأدب الواجب مع الله. ومقتضى ما بين علم اللَّه ومعرفة الإنسان من اختلاف في الطبيعة والحقيقة.

وبهذا الأدب الواجب تتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفرضيته في المدينة.. نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب.. على أنه مجرد احتمال.. وندع ما وراءه لله. لا نفرض على أمره أسبابًا وعللًا، لا يعلمها إلا هو.. ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح!

إنها أسباب اجتهادية تخطئ وتصيب، وتنقص وتزيد، ولا نبغي بها إلا مجرد

تدبر أحكام اللَّه وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان:

أ ـ ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة.

ومن أهداف التربية والإعداد ـ في مثل هذه البيئة بالذات ـ تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به؛ ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره، ودافع الحركة في حياته.. وتربيته كذلك على ضبط أعصابه؛ فلا يندفع لأول مؤثر ـ كما هي طبيعته ـ ولا يهتاج لأول مهيج؛ ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته.. وتربيته على أن يتبع مجتمعًا منظمًا له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته؛ ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره ـ مهما يكن مخالفًا لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي؛ لإنشاء «**المجتمع المسلم**» الخاضع لقيادة موجهة؛ المترقي المتحضر، غير الهمجي أو القبلي.

ب ـ وربما كان ذلك ـ أيضًا ـ؛ لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش؛ ذات العنجهية والشرف؛ والتي قد يدفعها القتال معها ـ في مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة، كثارات العرب المعروفة، التي أثارت حرب داحس والغبراء، وحرب البسوس ـ أعوامًا طويلة، تفانت فيها قبائل برمتها ـ، وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام، فلا تهدأ بعد ذلك أبدًا. ويتحول الإسلام من دعوة، إلى ثارات وذحول تنسى معها فكرته الأساسية، وهو في مبدئه، فلا تذكر أبدًا!

ج ـ وربما كان ذلك ـ أيضًا ـ، اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت. فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم، إنما كان ذلك موكولًا إلى أولياء كل فرد، يعذبونه هم ويفتنونه و«**يؤدبونه**»!

ومعنى الإذن بالقتال ـ في مثل هذه البيئة ـ أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت..

ثم يقال: هذا هو الإسلام! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في الموسم، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة: إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده؛ فوق تفريقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي.. في كل بيت وكل محلة؟

د ـ وربما كان ذلك ـ أيضًا ـ؛ لما يعلمه اللَّه من أن كثير من المعاندين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم ويؤذونهم؛ هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته.. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟!

هـ ـ وربما كان ذلك ـ أيضًا ـ؛ لأن النخوة العربية في بيئة قبلية، من عادتها أن تثور للمظلوم، الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع! وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس فيهم.. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة ـ في هذه البيئة ـ فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر ـ وهو رجل كريم ـ يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته... وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب، بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة.

بينما في بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التي مردت على الذل، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة؛ وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي!

و ـ وربما كان ذلك ـ أيضًا ـ؛ لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة. حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت أخبارها متناثرة؛ حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف.. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشرك، وتنمحي الجماعة المسلمة، ولم يقم في الأرض للإسلام نظام، ولا

وجد له كيان واقعي.. وهو دين جاء ليكون منهج حياة، وليكون نظامًا واقعيًا عمليًا للحياة.

ز ـ في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال ودفع الأذى؛ لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائمًا ـ وقتها ـ ومحققًا.. هذا الأمر الأساسي هو **«وجود الدعوة»**.. وجودها في شخص الداعية ﷺ وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع! والنظام القبلي السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع في حرب مع بني هاشم، إذا هي امتدت يدها إلى محمد ﷺ فكان شخص الداعية من ثم محميًا حماية كافية.. وكان الداعية يبلغ دعوته ـ إذن ـ في حماية سيوف بني هاشم ومقتضيات النظام القبلي، ولا يكتمها، ولا يخفيها، ولا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغها وإعلانها، في ذوات قريش، في الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي اجتماعات عامة.. ولا يجرؤ أحد على سد فمه؛ ولا يجرؤ أحد على خطفه وسجنه أو قتله! ولا يجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلامًا بعينه يقوله؛ يلعن فيه بعض حقيقة دينه؛ ويسكت عن بعضها. وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف. وحين طلبوا إليه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم وكونهم في جهنم لم يسكت. وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا؛ أي: أن يجاملهم فيجاملوه؛ بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا هم بعض عبادته، لم يدهن... وعلى الجملة كان للدعوة **«وجودها»** الكامل، في شخص رسول اللَّه ﷺ محروسًا بسيوف بني هاشم ـ وفي إبلاغه لدعوة ربه كاملة في كل مكان وفي كل صورة.. ومن ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة، والتغاضي عن كل هذه الاعتبارات البيئية التي هي في مجموعها مساندة للدعوة، ومساعدة في مثل هذه البيئة.

هذه الاعتبارات ـ كلها ـ فيما نحسب ـ كانت بعض ما اقتضت حكمة اللَّه ـ

معه ـ أن يأمر المسلمين بكف أيديهم، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة.. لتتم تربيتهم وإعدادهم، ولينتفع بكل إمكانيات الخطة في هذه البيئة، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ؛ لتكون خالصة لله، وفي سبيل الله.. والدعوة لها «**وجودها**» وهي قائمة ومؤداة ومحمية ومحروسة..

وأيًّا ما كانت حكمة الله من وراء هذه الخطة، فقد كان هناك المتحمسون يبدون لهفتهم على اللحظة التي يؤذن لهم فيها بالقتال، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾.

وكان وجود هذه الطائفة في الصف المسلم ينشئ فيه حالة من الخلخلة وينشئ فيه حالة من عدم التناسق بين هذه الطائفة الجزوع الهلوع، وبين الرجال المؤمنين، ذوي القلوب الثابتة المطمئنة؛ المستقبلة لتكاليف الجهاد ـ على كل ما فيها من مشقة ـ بالطمأنينة والثقة والعزم والحماسة أيضًا. ولكن في موضعها المناسب. فالحماسة في تنفيذ الأمر حين يصدر هي الحماسة الحقيقة. أما الحماسة قبل الأمر، فقد تكون مجرد اندفاع وتهور؛ يتبخر عند مواجهة الخطر!

وكان القرآن يعالج هذه الحالة بمنهجه الرباني:

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾

إنهم يخشون الموت، ويريدون الحياة، ويتمنون ـ في حسرة مسكينة ـ لو كان الله قد أمهلهم بعض الوقت؛ ومد لهم ـ شيئًا ـ في المتاع بالحياة!

والقرآن يعالج هذه المشاعر في منابتها؛ ويجلو غبش التصور لحقيقة الموت والأجل.

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾...

متاع الدنيا كله، والدنيا كلها. فما بال أيام، أو أسابيع، أو شهور، أو سنين؟ ما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها في جملته قليلًا؟! ما الذي يملكون تحقيقه من المتاع في أيام، أو أسابيع، أو شهور، أو سنين. ومتاع الدنيا كله والدنيا بطولها قليل!؟

﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾...

فالدنيا ـ أولًا ـ ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة.. إنها مرحلة .. ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع ـ فضلًا على أن المتاع فيها طويل كثير ـ فهي ﴿خَيْرٌ﴾... ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾... وتذكر التقوى هنا والخشية والخوف في موضعها. التقوى لله. فهو الذي يُتَّقى، وهو الذي يُخْشَى. وليس الناس.. الناس الذين سبق أن قال: إنهم يخشونهم كخشية اللَّه ـ أو أشد خشية! ـ والذي يتقي اللَّه لا يتقي الناس. والذي يعمر قلبه الخوف من اللَّه لا يخاف أحدًا. فماذا يملك له إذا كان اللَّه لا يريد؟

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾...

فلا غبن، ولا ضير، ولا بخس، إذا فاتهم شيء من متاع الدنيا فهناك الآخرة، وهناك الجزاء الأوفى؛ الذي لا يبقى معه ظلم ولا بخس في الحساب الختامي للدنيا والآخرة جميعًا! (١)

٢١ـ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: ٨٤].

قال الحافظ ابن كثير: «يأمر ـ تَعَالَى ـ عبده ورسوله محمدًا ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه، ولهذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾

---

(١) الظلال (٢/٧١٢ ـ ٧١٦).

عن أبي إسحاق قال: سألت البراء بن عازب، عن الرجل يلقى مئة من العدو، فيقاتل، أيكون ممن قال الله فيه: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]؟ قال: قد قال الله ـ تعَالَى ـ لنبيه ﷺ: **﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾**(1).

وقوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: على القتال، ورغّبهم فيه وشجّعهم عنده، كما قال لهم ﷺ يوم بدر، وهو يسوي الصفوف: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**»(2).

وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك.

وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم.

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾؛ أي: هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة، كما قال ـ تعَالَى ـ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤] الآية»(3).

قمة التحضيض على القتال.. قمة التكليف الشخصي، الذي لا يُقعدُ الفردَ عنه تبطئةٌ ولا تخذيلٌ، ولا خللَ في الصف، ولا وعورةَ في الطريق، حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بأن يُقاتل ـ ولو كان وحيدًا ـ ليس عليه إلا نفسه؛ مع تحريض المؤمنين، غير متوقف مضيه في الجهاد على استجابتهم أو عدم استجابتهم، ولو أن عدم استجابتهم جملة أمر لا يكون، ولكن وضع المسألة في هذا الوضع

---

(1) **إسناده حسن**: أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٧٠٤/٣).

(2) جزء من حديث طويل رواه مسلم (١٤٥) (١٩٠١)، وأحمد (١٣٦/٣، ١٣٧) من حديث أنس بن مالك، وهو عند أبي داود (٢٦١٨) مختصرًا.

(3) تفسير ابن كثير (١٧٨/٤، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢).

يدل على ضرورة إبراز هذا التكليف على هذا النحو، واستجاشة النفوس له هذه الاستجاشة، وكذلك يوحي إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر، فاللَّه هو الذي يتولى المعركة، ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

وتبرز الآية مدى المخاوف والمتاعب في التعرُّض لقتال المشركين يومذاك.. حتى ليكون أقصى ما يعلق اللَّه به رجاء المؤمنين أن يتولى هو ـ سبحانه ـ كفَّ بأس الذين كفروا، مع إبراز قوة اللَّه ـ سبحانه ـ وأنه ﴿أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾، وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يومذاك، ربما كان هذا بين «**أُحُد**» و«**الخندق**»، فهذه أحرج الأوقات التي مرَّ بها المسلمون؛ بين المنافقين وكيد اليهود، وتحفُّز المشركين.

وتبرز الآية لنا حاجة النفس البشرية ـ وهي تُدفع إلى التكاليف التي تشق عليها ـ إلى شدة الارتباط باللَّه، وشدة الطمأنينة إليه، وشدة الاستعانة به، وشدة الثقة بقدرته وقوته.. فكل وسائل التقوية غير هذه لا تُجدي حين يبلغ الخطر قمته. وهذه كلها حقائق يستخدمها المنهج الرباني، واللَّه هو الذي خلق هذه النفوس، وهو الذي يعلم كيف تُربَّى، وكيف تُقوَّى، وكيف تستجاش، وكيف تستجيب[1].

ثم قال بعد هذه الآية: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [النساء: ٨٥]؛ فالذي يُشَجِّع ويحرِّض ويعاون على القتال في سبيل اللَّه يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها، والذي يبطئ ويثبط تكون له تبعة فيها وفي آثارها. وهذا عام في كل شفاعة خير أو شفاعة سوء.

٢٢ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ **[المائدة: ٣٥]**.

---

(١) **انظر**: الظلال (٢/٧٢٤، ٧٢٥).

قال ابن جرير في تفسيره (١٤٦/٦، ١٤٧): «يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب وأوعد من العقاب ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أجيبوا اللَّه فيما أمركم ونهاكم بالطاعة له في ذلك، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من أعمالكم.

﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: اطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه، ويعني بالوسيلة: القربة».

والوسيلة: هي القربة في الأعمال، وهو قول ابن عباس، وأبي وائل، وعطاء، ومجاهد، والحسن، وعبداللَّه بن كثير، والسدي.

قال ابن زيد: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: المحبة، قال: تحببوا إلى الله.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: «**جاهدوا أيها المؤمنون أعدائي وأعداءكم.** ﴿فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ يعني: في دينه وشريعته التي شرعها لعباده، وهي الإسلام. يقول: أتعبوا أنفسكم في قتالهم وحملهم على الدخول في الحنيفية المسلمة. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: كيما تنجحوا؛ فتدركوا البقاء الدائم والخلود في جناته».

وقال ابن كثير: «**وقوله:** ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ لما أمرهم بترك المحارم، وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين، الخارجين عن الصراط المستقيم، والتاركين للدين القويم، ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول، في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها ينعم ولا ييأس، ويحيى ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»[1].

٢٣ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [**الأنفال: ٢٤**].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٠٤/٥).

قال البخاري: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟﴾ : أجيبوا. ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ : لما يصلحكم. قال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: الحق.

عن عروة بن الزبير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزَّكم اللَّه ـ تَعَالَى ـ بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

ورجح الطبري في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أنه هو: الحق. وذلك أن ذلك إذا كان معناه كان داخلاً فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب، أما في الدنيا فيُقال: الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة، وأما في الآخرة فحياة الأبدان في الجنان والخلود فيها»(١).

٢٤ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ **[الأنفال: ٣٩، ٤٠]**.

عن نافع عن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أن رجلًا جاءه فقال: يا أبا عبدالرحمن، ألا تسمع ما ذكر اللَّه في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ الآية، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر اللَّه في كتابه؟ فقال: يابن أخي، أعيَّر بهذه الآية ولا أقاتل أحبُّ إليَّ من أن أُعيَّر بالآية التي يقول اللَّه ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣] إلى آخر الآية. قال: فإن اللَّه ـ تَعَالَى ـ يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾. قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول اللَّه ﷺ إذ كان الإسلام قليلًا، وكان الرجل يُفتن في دينه، إما أن يقتلوه، وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة...»(٢).

---

(١) الطبري (٩/١٤١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير برقم (٤٦٥٠).

عن ابن عباس: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ يعني: لا يكون شرك.

وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان، وزيد بن أسلم.

وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾: عن ابن عباس في هذه الآية، قال: يخلص التوحيد لله.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾: لا يكون مع دينكم كفر.

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾؛ أي: بقتالكم عما هم فيه من الكفر، فكُفُّوا عنهم، وإن لم تعلموا بواطنهم.

وفي الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ، قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال: لا إله إلا الله، فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول اللَّه ﷺ، فقال لأسامة: «**أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا اللَّه يوم القيامة؟**» فقال: يا رسول الله؛ إنما قالها تعوُّذًا. قال: «**هلا شققت عن قلبه؟**» وجعل يقول ويكرر عليه «**من لك بلا إله إلا اللَّه يوم القيامة؟**» قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا ذلك اليوم(١).

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾؛ أي: وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، فاعلموا أن اللَّه مولاكم وسيدكم وناصركم على أعدائكم، فنعم المولى ونعم النصير(٢).

قال ربعى بن عامر رضي الله عنه: إن اللَّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي (٤٢٦٩)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان برقم (٩٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٧٦، ٧٧، ٧٨).

الدنيا والآخرة.

جاء الإسلام لدفع الفتنة والأذى عمن يعتنقون هذا الدين، ويرجعون بعبوديتهم لله وحده، ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور والأشكال، جاء الإسلام لإزالة الشرك وعبودية البشر للبشر، وإزالة سلطان الطواغيت، وسلطانهم القاهر للأفراد حتى يدين العباد فقط لسلطان اللَّه القاهر.

إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة، وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى، وليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه، وإنما هو دين أتى ليزيل حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان..ويزيل حواجز الأوضاع المادية وسلطان الطواغيت بالجهاد؛ حتى يحرر الإنسان من العبودية لغير الله.

❑ **بُعِثَ النبي ﷺ بأربعة أسياف:**

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب، قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] هكذا رواه مختصرًا.

قال ابن كثير في تفسيره (٧/ ١٥٠): «وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب؛ في قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

والسيف الثالث: قتال المنافقين في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] الآية.

والرابع: قتال الباغين في قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩].

٢٥ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة: ٥]

هذه آية السيف.

قال ابن كثير: «اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هي؟

فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله ـ تعالَى ـ: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٣٦] الآية. قاله أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم.

وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضًا، وفيه نظر.

والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو بن شعيب، ومحمد بن إسحاق، وقتادة، والسدي، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢][1]. ثم قال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾؛ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر.

وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛ أي: من الأرض، وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٩١].

---

(١) من يوم النحر إلى عشرين خَلَوْنَ من ربيع الآخر، وبعد ذلك يضع فيهم السيف حتى يدخلوا في الإسلام، وهذا فيمن كان له عهد، أما من ليس له عهد أَمَرَ الله نبيه ﷺ إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف؛ يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، قاله الضحاك بن مزاحم.

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾؛ أي: وأسروهم، إن شئتم قتلًا، وإن شئتم أسرًا.

وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾؛ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم، حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد وكل مدة.

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين - قبل أن تنزل - أربعة أشهر من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.

وقال علي بن أبي طالب، عن ابن عباس في هذه الآية؛ قال: أمره اللَّه - تَعَالَى - أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام؛ ونقض ما كان سمَّى لهم من العهد والميثاق وأذهب الشرط الأول»(١).

قال القرطبي: قوله - تَعَالَى -: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ عام في كل مشرك، لكن السنة خصَّتْ منه ما تقدم بيانه في سورة البقرة(٢) من امرأة وراهب وصبي وغيرهم. وقال اللَّه - تَعَالَى - في أهل الكتاب: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾(٣). إلا أنه يجوز أن يكون لفظ «**المشركين**» لا يتناول أهل الكتاب، ويقتضي ذلك منع أخذ الجزية من عبدة الأوثان وغيرهم.

واعلم أن مطلق قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ يقتضي جواز قتلهم بأيِّ وجه

---

(١) تفسير ابن كثير (١٤٧/٧، ١٤٨).

(٢) **راجع**: تفسير القرطبي (٣٤٨/٢)، الطبعة الثانية.

(٣) التوبة: ٢٩.

كان؛ إلا أن الأخبار وردت بالنهي عن المُثلة. ومع هذا فيجوز أن يكون الصديق رضي الله عنه حين قتل أهل الردة بالإحراق بالنار، وبالحجارة وبالرمي من رءوس الجبال، والتنكيس في الآثار، تعلق بعموم الآية. وكذلك إحراق عليٍّ رضي الله عنه قومًا من أهل الردة يجوز أن يكون مَيْلًا إلى هذا المذهب، واعتمادًا على عموم اللفظ، والله أعلم.

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ عام في كل موضع. وخص أبو حنيفة المسجد الحرام؛ ثم اختلفوا؛ فقال الحسين بن الفضل: نسخت هذه كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على الأعداء.

وقال الضحاك، والسدِّيُّ، وعطاء: هي منسوخة بقوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وأنه لا يُقتل أسير صبرًا، إما أن يُمَنَّ عليه، وإما أن يفادَى. وقال مجاهد وقتادة: بل هي ناسخة لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وأنه لا يجوز في الأسارى من المشركين إلا القتل. وقال ابن زيد: الآيتان محكمتان. وهو الصحيح؛ لأن المنَّ والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله ﷺ فيهم من أول حرب حاربهم، وهو يوم بدر. ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ يدلُّ عليه. والأخذ هو الأسر. والأسر إنما يكون للقتل، أو الفداء، أو المنِّ، على ما يراه الإمام.

قوله ـ تَعَالَى ـ ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وفي هذا دليل على جواز اغتيالهم قبل الدعوة[١].

❑ ٢٦. يا ليت قومي يوقنون بكلام الله، فما بعد قول الله من أقوال:

كأن القرآن يُعنَى به غيرنا ولم ينزل إلينا.. كأنما لا نوقن بكلام ربنا وهو الفصل ليس بالهزل، وقد ضعنا يوم أن تركناه وبعدنا عنه، تاه منا الطريق يوم أعرضنا عنه، وهُنَّا على الناس بهوان ديننا..

قد بين الله موقف المشركين من المسلمين فقال ـ تَعَالَى ـ:

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٩١١، ٢٩١٢).

٢٦- ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝﴾ [التوبة: ٩، ١٠].

قال ابن كثير في تفسيره (١٥٤/٧): «يقول ـ تعَالَى ـ ذمًّا للمشركين وحثًّا للمؤمنين على قتالهم: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ يعني: أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات اللَّه بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة. ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾؛ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أ. هـ.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾

قال ابن جرير الطبري في تفسيره (٦١/١٠): «لا يتقي هؤلاء المشركون ـ الذين أمرتكم أيها المؤمنون بقتلهم حيث وجدتموهم ـ في قتل مؤمن لو قدروا عليه إلًّا ولا ذمَّةً. يقول: فلا تُبقوا عليهم ـ أيها المؤمنون ـ كما لا يبقون عليكم لو ظهروا عليكم. ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾: المتجاوزون فيكم إلى ما ليس لهم بالظلم والاعتداء».

وقال ـ رحمه اللَّه ـ (٥٩/١٠، ٦٠): «واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾؛ فقال بعضهم معناه: لا يرقبوا اللَّه فيكم ولا عهدًا.

قال مجاهد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا﴾ قال: الله.

وعن أبي مجلز قال: مثل قوله: جبرائيل، ميكائيل، إسرافيل كأنه يقول: يضاف جبر، وميكا، واسراف إلى إيل. يقول: عبدالله، لا يرقبون في مؤمن إلًّا كأنه يقول: لا يرقبون الله.

وعن مجاهد: ﴿إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾: لا يرقبون اللَّه ولا غيره.

وقال آخرون: الإل: القرابة.

ذكر من قال ذلك: عن علي عن ابن عباس قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا

ذِمَّةً﴾ يقول: قرابة ولا عهدًا.

وقال قتادة: لا يرقبون فيكم إلًّا ولا ذمة قال: الإلُّ: الحلف، والذمة: العهد.

وقال آخرون: الإل هو العهد. عن مجاهد إلًّا قال: عهدًا.

قال ابن جرير (١٠/ ٦٠): «والإل اسم يشتمل على معان ثلاثة؛ وهي: العهد، والعقد، والحلف والقرابة. وهو ـ أيضًا ـ بمعنى الله، فإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة ولم يكن اللَّه خصَّ من ذلك معنى دون معنى فالصواب أن يعمَّ ذلك، كما عمَّ بها ـ جلَّ ثناؤه ـ معانيها الثلاثة، فيُقال: لا يرقبون في مؤمن اللهَ ولا قرابةً ولا عهدًا ولا ميثاقًا. ومن الدلالة على أنه يكون بمعنى القرابة.

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا ... قَطَّعُوا الْإِلَّ وَأَعْرَاقَ الرَّحِمْ

وقول حسَّان بن ثابت:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ ... كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ[1]

وأما معناه إذا كان بمعنى العهد فقول القائل:

إن قلوب المشركين تنغل بالحقد على المسلمين في كل زمان ومكان، وتأبى أن تقيم على عهد، فما بهم وفاء للمسلمين ولا ود.. من أجل الإسلام يعادونهم.

«وهذا هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم، وإضمار عدم الوفاء بعهودكم، والانطلاق في التنكيل بكم ـ لو قدروا ـ من كل تحرج ومن كل تذمم.. إنه الفسوق عن دين الله، والخروج عن هداه. فلقد آثروا على آيات اللَّه التي جاءتهم ثمنًا قليلًا من عرض هذه الحياة الدنيا، يستمسكون به ويخافون فوته. وقد كانوا يخافون أن يُضَيِّع عليهم الإسلام شيئًا من مصالحهم؛ أو أن يكلفهم شيئًا من أموالهم؛ فصدوا عن سبيل اللَّه بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات الله. صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم «**فسيجيء أنهم أئمة الكفر**».. أما فعلهم هذا فهو الفعل

(١) السقب: ولد الناقة. والرَّال: ولد النعام.

السيئ الذي يقرر الله سوءه الأصيل؛ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾!..

ثم إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم؛ ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم.. إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن؛ ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم.. إنهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التي أنتم عليها؛ للإيمان ذاته.. كما هو المعهود في كل أعداء الصفوة الخالصة من أهل هذا الدين، على مدار التاريخ والقرون.. فكذلك قال السحرة لفرعون وهو يتوعدهم بأشد أنواع التعذيب والتنكيل والتقتيل: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦].. وكذلك قال رسول الله ﷺ لأهل الكتاب بتوجيه من ربه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩]؟ وقال ـ سبحانه ـ عن أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]. فالإيمان هو سبب النقمة، ومن ثم هم يضطغنون الحقد لكل مؤمن، ولا يراعون فيه عهدًا، ولا يتذممون من منكر؛ ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

فصفة الاعتداء أصيلة فيهم.. تبدأ من نقطة كرههم للإيمان ذاته وصدودهم عنه؛ وتنتهي بالوقوف في وجهه؛ وتربصهم بالمؤمنين؛ وعدم مراعاتهم لعهد معهم ولا صلة، إذا هم ظهروا عليهم؛ وأمنوا بأسهم وقوتهم. وعندئذ يفعلون بهم الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم. ولا متحرجين، ولا متذممين من منكر يأتونه معهم.. وهم آمنون..!

إن المسلمين يواجهون أعداء يتربصون بهم؛ ولا يُقعد هؤلاء الأعداء عن الفتك بالمسلمين بلا شفقة ولا رحمة إلا عجزهم عن ذلك، لا يقعدهم عهد معقود. ولا ذمة مرعية، ولا تحرج من مذمة، ولا إبقاء على صلة.. ووراء هذا التقرير تاريخ طويل، يشهد كله بأن هذا هو الخط الأصيل الذي لا ينحرف إلا لطارئ زائل، ثم يعود فيأخذ طريقه المرسوم!

هذا التاريخ من الواقع العملي؛ بالإضافة إلى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج اللَّه الذي يُخرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى عبادة اللَّه وحده، وبين مناهج الجاهلية التي تُعَبِّد الناس للعبيد.. يواجهه المنهج الحركي الإسلامي بتوجيه من اللَّه ـ سبحانه ـ، بهذا الحسم الصريح: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فإما دخول فيما دخل فيه المسلمون، وتوبة عما مضى من الشرك والاعتداء. وعندئذ يصفح الإسلام والمسلمون عن كل ما لقوا من هؤلاء المشركين المعتدين؛ وتقوم الوشيجة على أساس العقيدة؛ ويصبح المسلمون الجدد إخوانًا للمسلمين القدامى؛ ويسقط ذلك الماضي كله بمساءاته من الواقع ومن القلوب!

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

فهذه الأحكام إنما يدركها ويدرك حكمتها الذين يعلمون، وهم المؤمنون.

وإما نكث لما يبايعون عليه من الإيمان بعد الدخول فيه، وطعن في دين المسلمين. فهم إذن أئمة في الكفر، لا أيمان لهم ولا عهود. وعندئذ يكون القتال لهم؛ لعلهم حينئذ أن يثوبوا إلى الهدى.. كما سبق أن قلنا: إن قوة المعسكر المسلم وغلبته في الجهاد قد ترد قلوبًا كثيرة إلى الصواب؛ وتريهم الحق الغالب فيعرفونه؛ ويعلمون أنه إنما غلب لأنه الحق؛ ولأن وراءه قوة الله؛ وأن رسول اللَّه ﷺ صادق فيما أبلغهم من أن اللَّه غالب هو ورسله. فيقودهم هذا كله إلى التوبة والهدى. لا كرهًا وقهرًا، ولكن اقتناعًا بالقلب بعد رؤية واضحة للحق الغالب. كما وقع وكما يقع في كثير من الأحايين.

والتاريخ يشهد: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾:

وبعد.. فما المدى الذي تعمل فيه هذه النصوص؟ ما المدى التاريخي والبيئي؟

أهي خاصة بأهل الجزيرة العربية في ذلك الزمان المحدود؟ أم أن لها أبعادًا أخرى في الزمان والمكان؟

إن هذه النصوص كانت تواجه الواقع في الجزيرة العربية بين المعسكر الإسلامي ومعسكرات المشركين. وما من شك أن الأحكام الورادة بها مقصود بها هذا الواقع، وأن المشركين المعنيين فيها هم مشركو الجزيرة.

هذا حق في ذاته.. ولكن ترى هذا هو المدى النهائي لهذه النصوص؟

إن علينا أن نتتبع موقف المشركين ـ على مدى التاريخ ـ من المؤمنين؛ ليتكشف لنا المدى الحقيقي لهذه النصوص القرآنية، ولنرى الموقف بكامله على مدار التاريخ.

فأما في الجزيرة العربية فلعل ذلك معلوم من أحداث السيرة المشهورة، ولعل في هذا الجزء من الظلال وحده ما يكفي لتصوير مواقف المشركين من هذا الدين وأهله منذ الأيام الأولى للدعوة في مكة حتى هذه الفترة التي تواجهها نصوص هذه السورة.

وحقيقة إن المعركة الطويلة الأمد لم تكن بين الإسلام والشرك بقدر ما كانت بين الإسلام وأهل الكتاب من اليهود والنصارى. ولكن هذا لا ينفي أن موقف المشركين من المسلمين كان دائمًا هو الذي تصوره آيات هذا المقطع من السورة:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

لقد كان هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين؛ فأما أهل الكتاب فندع الحديث عنهم إلى موعده في المقطع الثاني من السورة؛ وأما المشركون فقد كان هذا دأبهم من المسلمين على مدار التاريخ.

وإذا نحن اعتبرنا أن الإسلام لم يبدأ برسالة محمد ﷺ إنما ختم بهذه الرسالة. وأن موقف المشركين من كل رسول ومن كل رسالة من قبل إنما يمثل موقف الشرك من دين

اللَّه على الإطلاق؛ فإن أبعاد المعركة تترامى؛ ويتجلى الموقف على حقيقته؛ كما تصوره تلك النصوص القرآنية الخالدة، على مدار التاريخ البشري كله بلا استثناء!

ماذا صنع المشركون مع نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وشعيب، وموسى، وعيسى - عليهم صلوات اللَّه وسلامه - والمؤمنين بهم في زمانهم؟ ثم ماذا صنع المشركون مع محمد ﷺ والمؤمنين به كذلك؟ إنهم لم يرقبوا فيهم إِلًّا ولا ذمة متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم.

وماذا صنع المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثاني للشرك على أيدي التتار؟ ثم ما يصنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة قرنًا بالمسلمين في كل مكان؟.. إنهم لا يرقبون فيهم إِلًّا ولا ذمة، كما يقرر النص القرآني الصادق الخالد.

عندما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين في بغداد وقعت المأساة الدامية التي سجلتها الروايات التاريخية والتي نكتفي فيها بمقتطفات سريعة من تاريخ «**البداية والنهاية**» لابن كثير فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦هـ[١]: «ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان. ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون. وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار، إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم، فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة - فإنا لله وإنا إليه راجعون - كذلك في المساجد والجوامع والربط. ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومَنْ التجأ إليهم[٢] وإلى دار الوزير ابن

---

(١) البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، (ج/١٣).

(٢) ذلك أن اليهود والنصارى - من أهل الذمة - كانوا ممن كاتب التتار لغزو عاصمة الخلافة والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها، وممن دلوا على عورات المدينة، وشاركوا مشاركةً فعليةً في هذه الكارثة، واستقبلوا التتار الوثنيين بالترحاب؛ ليقضوا لهم على المسلمين الذين أعطوهم ذمتهم ووفروا لهم الأمن والحماية!!.

العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا أمانًا بذلوا عليه أموالًا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة. فقيل: ثمان مئة ألف. وقيل: ألف ألف. وقيل: بلغت القتلى ألفي ألف نفس ـ فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم. وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا.. وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر، وعفي قبره، وكان عمره يومئذ ستًّا وأربعين سنة وأربعة أشهر. ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام. وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة. ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبدالرحمن وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر مبارك، وأسرت أخواته الثلاث: فاطمة، وخديجة، ومريم.

وقتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وكان عدو الوزير، وقتل أولاده الثلاثة: عبدالله، وعبدالرحمن، وعبدالكريم، وأكابر الدولة واحدًا بعد واحد؛ منهم: الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد.. وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهب إلى مقبرة الخلال، تجاه المنظرة، فيذبح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.. وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين علي ابن النيار. وقتل الخطباء، والأئمة، وحملة القرآن. وتعطلت المساجد والجامعات والجُمُعات مدة شهور ببغداد.

ولما انقضى الأمر المقدر، وانقضت الأربعون يومًا، بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول،

وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء، والوباء، والفناء، والطعن، والطاعون. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم؛ وقد أنكر بعضهم بعضًا، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد؛ فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى..» إلخ إلخ.

❏ وعبَّاد البقر الوثنيون الهنود:

هذه صورة من الواقع التاريخي، حينما ظهر المشركون على المسلمين فلم يرقبوا فيهم إِلًّا ولا ذمة. فهل كانت صورة تاريخية من الماضي البعيد الموغل في الظلمات، اختص بها التتار في ذلك الزمان؟

كلا! إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن هذه الصورة!.. إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد.. إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند - ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند، فآثروا الهجرة على البقاء - قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط! أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق.. طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة، المعروفة للدولة الهندية جيدًا، والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية، فذبحتهم كالخراف على طول الطريق، وتركت جثثهم نهبًا للطير والوحش، بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة، لا تقل - إن لم تزد - على ما صنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد!

أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين

المسلمين في أنحاء الهند إلى باكستان، حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان، واجتمع في هذا القطار خمسون ألف موظف، ودخل القطار بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانية يسمى «**ممر خيبر**».. وخرج من الناحية الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار!.. لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة القطار في النفق، ولم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء! وصدق قول اللّه ـ سبحانه ـ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

وما تزال هذه المذابح تتكرر في صور شتى.

❑ **والشيوعيون:**

ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك؟.. لقد أبادوا من المسلمين ـ في خلال ربع قرن ـ ستة وعشرين مليونًا.. بمعدل مليون في السنة.. وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق.. ذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لهولها الأبدان. وفي هذا العام وقع في القطاع الصيني من التركستان المسلمة ما يغطي على بشاعات التتار.. لقد جيء بأحد الزعماء المسلمين، فحفرت فله حفرة في الطريق العام، وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب، أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية (التي تتسلمها الدولة من الأهالي جميعًا لتستخدمها في السماد مقابل ما تصرفه لهم من الطعام!!!) فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته.. وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق في الحفرة على هذا النحو حتى مات!

كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها حتى أبادت منهم مليونًا منذ الفترة التي صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم.

وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشي ـ التي من أمثلتها البشعة إلقاء

المسلمين رجالًا ونساء في «**مفارم**» اللحوم التي تصنع لحوم «**البولوبيف**» ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء ـ ماضية إلى الآن!!!

وما يجري في يوغسلافيا يجري في جميع الدول الشيوعية والوثنية.. الآن.. في هذا الزمان.. ويصدق قول اللَّه ـ سبحانه ـ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

إنها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية في الجزيرة العربية، ولم تكن حالة طارئة ولا وقتية في بغداد.. إنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية؛ حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية لله وحده؛ ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير الله.

في كل زمان وفي كل مكان.

ومن ثم فإن تلك النصوص ـ وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة في الجزيرة، وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركي الجزيرة ـ إلا أنها أبعد مدى في الزمان والمكان؛ لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائمًا في كل زمان وفي كل مكان. والأمر في تنفيذها إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ في مثل الحالة التي نفذت فيها في الجزيرة العربية، ولا يتعلق بأصل الحكم، ولا بأصل الموقف الذي لا يتبدل على الزمان»[1].

٢٧ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: **١٢**].

قال ابن كثير (١٧/١٥٥): «﴿وَإِن نَّكَثُوا﴾: هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة. ﴿أَيْمَانَهُم﴾؛ أي: عهودهم ومواثيقهم. ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ أي: عابوه وانتقصوه. ومن هاهنا أُخِذ قَتْل من سب الرسول ـ صلوات اللَّه وسلامه عليه

(١) الظلال (٣/١٦٠٦ ـ ١٦١٠).

.، أو من طِعن في دين الإسلام، أو ذكره بتنقُّص، ولهذا قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾؛ أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال.

وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر: كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وعدَّد رجالًا.

وعن حذيفة أنه قال: ما قُوتِل أهل هذه الآية بعد. والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامة لهم ولغيرهم. والله أعلم.

وعن عبدالرحمن بن جبير بن نفير: أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام، قال: إنكم ستجدون قومًا مُحَوَّقة رءوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فوالله لأن أقتل رجلًا منهم أحب إليَّ من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾(١).

قال القرطبي: قوله: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ أي: بالاستنقاص والحرب وغير ذلك مما يفعله المشرك.

استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين إذ هو كافر، والطعن أن يُنسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين؛ لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله واستقامة فروعه. وقال ابن المنذر: أجمع عامة أهل العلم على أنَّ من سب النبي ﷺ عليه القتل. وممن قال ذلك مالك، والليث، وأحمد، وإسحاق، وهو مذهب الشافعي.

رُوي أن رجلًا قال في مجلس عليٍّ: ما قُتِل كعب بن الأشرف إلا غدرًا؛ فأمر عليٌّ بضرب عنقه. وقاله آخر في مجلس معاوية فقام محمد بن مسلمة فقال: أيُقال هذا في مجلس وتسكت؟! والله لا أساكنك تحت سقف أبدًا، ولئن خلوت به

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/١٥٥).

لأقتلنَّه.

قال علماؤنا: هذا يُقتل ولا يستتاب إنْ نسب الغدر للنبي ﷺ، وهو الذي فهمه عليٌّ ومحمد بن مسلمة ـ رضوان اللَّه عليهما ـ من قائل ذلك؛ لأن ذلك زندقة.

فأما إن نسبه للمباشرين لقتله بحيث يقول: إنهم أمَّنوه ثم غدروه لكانت هذه النسبة كذبًا محضًا؛ فإنه ليس في كلامهم معه ما يدل على أنهم أمَّنوه ولا صرَّحوا له بذلك، ولو فعلوا ذلك لما كان أمانًا؛ لأن النبي ﷺ إنما وجَّههم لقتله لا لتأمينه، وأذن لمحمد بن مسلمة في أن يقول. وعلى هذا فيكون في قتل من نسب ذلك لهم نظرٌ وتردُّدٌ. وسببه هل يلزم من نسبة الغدر لهم نسبته للنبي ﷺ، لأنه قد صوَّب فعلهم ورضي به، فيلزم منه أنه قد رضِي بالغدر، ومن صرَّح بذلك قُتِل؟ أو يلزم من نسبة الغدر لهم نسبته للنبي ﷺ فلا يُقتل؟ ولهذا قلنا: لا يُقتل، فلا بد من تنكيل ذلك القائل وعقوبته بالسجن، والضرب الشديد، والإهانة العظيمة.

فأما الذمي إذا طعن في الدين انتقض عهده في المشهور من مذهب مالك؛ لقوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ الآية. فأمر بقتلهم وقتالهم، وهو مذهب الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ.

وإذا حارب الذميُّ نُقض عهده.

أكثر العلماء على أن من سبَّ النبي ﷺ من أهل الذمَّة، أو عرَّض، أو استخفَّ بقدره، أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فإنه يُقتل، فإنا لم نعطه الذمة والعهد على هذا.

واستدل عليه بعضهم بأمره ﷺ بقتل كعب بن الأشرف وكان معاهدًا.

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾.

﴿أَئِمَّةَ﴾: جمع إمام، والمراد صناديد قريش ـ في قول بعض العلماء ـ؛ كأبي جهل، وعتبة، وشيبة، وأمية بن خلف، وهذا بعيد؛ فإن الآية في «**سورة براءة**» وحين نزلت وقُرئت على الناس كان اللَّه قد استأصل شأفة قريش، فلم يبق إلا

مسلم أو مسالِم، فيحتمل أن يكون المراد ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾؛ أي: من أقدم على نكث العهد والطعن في الدين يكون أصلًا ورأسًا في الكفر، فهو من أئمة الكفر على هذا، ويحتمل أن يعني به المقدمون والرؤساء منهم، وأن قتالهم قتال لأتباعهم، وأنهم لا حرمة لهم. والأصل: أَأْمِمَة؛ كمثال وأمثلة، ثم أدغمت الميم في الميم، وقُلبت الحركة على الهمزة، فاجتمعت همزتان، فأبدلت من الثانية ياء.

وقرأ ابن عامر: ﴿لَا إِيمَانَ لَهُمْ﴾ بكسر الهمزة؛ من الإيمان؛ أي: لا إسلام لهم.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾؛ أي: عن كفرهم وباطلهم وأذيتهم للمسلمين، وذلك يقتضي أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم؛ لينتهوا عن مقاتلتنا، ويدخلوا في ديننا»(١).

٢٨- قال ـ تعالَى ـ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التوبة: ١٣].

قال ابن كثير: «وهذا ـ أيضًا ـ تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين لأيمانهم، الذين همُّوا بإخراج الرسول من مكة، كما قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال ـ تعالَى ـ: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ [الممتحنة: ١] الآية

وقال ـ تعالَى ـ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء:٧٦].

وقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾؛ قيل: المراد بذلك يوم «**بدر**» حين خرجوا لنصر عيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم؛ طلبًا

---

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٩٢٠، ٢٩٢١، ٢٩٢٢، ٢٩٢٣، ٢٩٢٤).

للقتال؛ بغيًا وتكبُّرًا.

وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة (أحلاف رسول اللَّه ﷺ)، حتى سار إليهم رسول اللَّه ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد والمنَّة»[١].

قال القرطبي: «**قوله ـ تعَالَى ـ:** ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ توبيخ، وفيه معنى التحضيض.

﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ ؛ أي: تخافوا عقابه في ترك قتالهم، مِن أَن تخافوا أن ينالكم في قتالهم مكروه»[٢].

٢٩ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [**التوبة: ١٤، ١٥**].

قال ابن جرير في تفسيره (١٠/٦٤): «يقول ـ تعَالَى ذكره ـ: قاتلوا أيها المؤمنون باللَّه ورسوله هؤلاء المشركين الذين نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم بينكم وبينهم وأخرجوا رسول اللَّه ﷺ من بين أظهرهم؛ ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ ؛ يقول: يقتلهم اللَّه بأيديكم. ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ يقول: ويذلهم بالأسر والقهر. ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فيعطيكم الظفر عليهم والغلبة. ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ؛ يقول: ويبرئ داء صدور قوم مؤمنين باللَّه ورسوله بقتل هؤلاء المشركين بأيديكم وإذلالكم وقهركم إياهم، وذلك الداء هو ما كان في قلوبهم عليهم من الموجدة بما كانوا ينالونهم به من الأذى والمكروه». اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير (٧/١٥٦): «قال ـ تعَالَى ـ عزيمة على المؤمنين، وبيانًا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده:

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/١٥٦).

(٢) القرطبي (٤/٢٩٢٥).

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾، وهذا عام في المؤمنين كلهم.

وقال مجاهد، وعكرمة، والسدي في هذه الآية: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: خزاعة».

«﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾.

قاتلوهم يجعلكم اللَّه ستار قدرته، وأداة مشيئته، فيعذبهم بأيديكم، ويخزهم بالهزيمة وهم يتخايلون بالقوة، وينصركم عليهم، ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون. يَشْفِهَا من غيظها المكظوم، بانتصار الحق كاملًا، وهزيمة الباطل، وتشريد المبطلين.

وليس هذا وحده، ولكن خيرًا آخر يُنتظر، وثوابًا آخر يُنال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين يُنصرون، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم - وهذا ما كان فعلًا - وعندئذٍ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم، وأجر هداية الضالين بأيديهم؛ وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات. حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات.

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها؛ ليستهوي قلوبًا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ. وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة، مرهوبة الجانب، عزيزة الجناب.

على أن اللَّه ـ سبحانه ـ وهو يربي الجماعة المسلمة بالمنهج القرآني الفريد لم يكن يعدها ـ وهي في مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة ـ إلا وعدًا واحدًا؛ هو الجنة. ولم يكن يأمرها إلا أمرًا واحدًا؛ هو الصبر.. فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب، آتاها اللَّه النصر؛ وجعل يحرضها عليه ويشفي صدورها به. ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها، ولكن لدينه وكلمته، وإن هي إلا ستار لقدرته[1].

٣٠ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١٧٥/٧ـ ١٧٧): «وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، فلما استقرَّت جزيرة العرب، أمر اللَّه رسوله بقتال أهل الكتابيْن، اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول اللَّه ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا[2] معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفًا، وتخلَّف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحرٍّ، وخرج رسول اللَّه ﷺ يريد الشام، لقتال الروم، فبلغ «تبوك»، فنزل بها وأقام على مائها قريبًا من عشرين يومًا، ثم استخار اللَّه في الرجوع، فرجع عامه ذلك؛ لضيق الحال وضعف الناس.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة مَن يرى أنه لا تُؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس، كما صحَّ فيهم الحديث أن رسول اللَّه ﷺ أخذها من مجوس هجر، وهذا مذهب الشافعي، وأحمد في المشهور عنه. وقال أبو حنيفة ـ

---

(١) الظلال (١٦١٢/٣).

(٢) أوعب القوم: خرجوا جميعًا.

رحمه الله ـ: بل تُؤخذ من جميع الأعاجم، سواءً كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تُؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب.

وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تُضرَب الجزيةِ على جميع الكفار، من كتابي، ومجوس، ووثني، وغير ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾؛ أي: إن لم يسلموا. ﴿عَن يَدٍ﴾؛ أي: عن قهر لهم وغلبة. ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ أي: ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء، كما جاء في «**صحيح مسلم**» عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه**»[(١)]؛ ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفَّاظ من رواية عبدالرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب ﷺ حين صالح نصارى من أهل الشام:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا، ولا كنيسة، ولا قلاية[(٢)]، ولا صومعة راهب، ولا نجدِّد ما خرب منها، ولا نحيي منها ما كان خِططا[(٣)] للمسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسِّع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من مرَّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا، ولا نكتم

---

(١) صحيح مسلم، كتاب السلام (٣/٢١٦٧).

(٢) القلية: كالصومعة، هكذا وردت، واسمها عند النصارى: القلَّاية، وهو تعريب كلَّادة؛ وهي: من بيوت عبادتهم.

(٣) الخطيط: جمع خطَّة؛ وهي: الأرض يختطها الإنسان لنفسه، بأن يُعَلِّم عليها علامةً ويخطَّ عليها خطًّا؛ ليعلم أنه قد احتازها.

غشًّا للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركًا، ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعليْن، ولا فرْق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكُناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجزَّ مقاديم رءوسنا، وأن نلزم زيّنا حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألَّا نُظهر صُلُبَنَا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربًا خفيفًا، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج سعانين[١] ولا باعوثا[٢]، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم».

قال: فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه: ولا نضرب أحدًا من المسلمين، وشرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم، ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حلَّ لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق»[٣].

قال القرطبي: «أمر ـ سبحانه وتعالى ـ بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم على هذا الوصف، وخصَّ أهل الكتاب بالذكر؛ إكرامًا لكتابهم، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل والشرائع والملل، وخصوصًا ذكر محمد ﷺ وملته وأمته. فلما أنكروه

---

(١) سعانين: عيد للنصارى معروف، قبل عيدهم الكبير بأسبوع.

(٢) الباعوث للنصارى: كالاستسقاء للمسلمين، وهو اسم سرياني.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢/١٧٦، ١٧٧).

تأكَّدت عليهم الحجَّة وعظمت منهم الجريمة، فنبَّه على محلهم، ثم جعل للقتال غاية، وهي إعطاء الجزية بدلًا عن القتل. وهو الصحيح.

قال ابن العربي: سمعت أبا الوفاء علي بن عقيل في مجلس النظر يتلوها ويحتج بها، فقال: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ وذلك أمر بالعقوبة، ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وذلك بيان للذنب الذي أوجب العقوبة، وقوله: ﴿وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ تأكيد للذنب في جانب الاعتقاد، ثم قال: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ زيادة للذنب مع مخالفة الأعمال، ثم قال: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ إشارة إلى تأكيد المعصية بالانحراف والمعاندة والأنفة عن الاستسلام. ثم قال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تأكيد للحجة؛ لأنهم كانوا يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾ فبيَّن الغاية التي تمتد إليها العقوبة، وبين البدل الذي ترتفع به.

● وقد اختلف العلماء فيمن تُؤخذ منه الجزية، فقال الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ: لا تُقبل الجزية إلَّا من أهل الكتاب خاصة، عربًا كانوا أو عجمًا؛ لهذه الآية؛ فإنهم هم الذين خصُّوا بالذكر فتوجَّه الحكم إليهم دون من سواهم؛ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ ولم يقل: حتى يعطوا الجزية، كما قال في أهل الكتاب. وقال: وتُقبل من المجوس بالسُّنَّة؛ وبه قال أحمد، وأبو ثور، وهو مذهب الثوري، وأبي حنيفة وأصحابه.

وقال الأوزاعي: تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحدٍ أو مكذِّب. وكذلك مذهب مالك؛ فإنه رأى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد، عربيًّا أو أعجميًّا، تغلبيًّا أو قرشيًّا، كائنًا من كان إلا المرتد.

وأما المجوس فقال ابن المنذر: لا أعلم خلافًا أن الجزية تُؤخذ منهم.

وفي «**الموطأ**»: مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر أمر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال عبدالرحمن بن عوف: أشهدُ

لسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**سُنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب**». قال أبو عمر: يعني في الجزية خاصة.

● إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين، وهم الذين يُقاتلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفاني، واختُلف في الرهبان، فروى ابن وهب عن مالك أنها لا تُؤخذ منهم.

قال مطرف وابن الماجشون: هذا إذا لم يترهَّب بعد فرضها، فإن فُرِضت ثم ترهَّب لم يُسقطها ترهُّبه.

● **وقد اختلف العلماء في مقدار الجزية.**

فقال عطاء بن أبي رباح لا توقيت فيها، وإنما هو على ما صُولحوا عليه، وكذلك قال يحيى بن آدم وأبو عبيد والطبري؛ إلا أن الطبري قال: أقله دينار لأكثره لا حدّ له. واحتجوا بما رواه أهل الصحيح عن عمرو بن عوف أن رسول اللَّه ﷺ صالح أهل البحرين على الجزية. وقال الشافعي: دينار على الغني والفقير من الأحرار البالغين، لا يُنقص منه شيء، واحتج بما رواه أبو داود وغيره عن معاذ: أن رسول اللَّه ﷺ بعثه إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كل حالم دينارًا في الجزية. قال الشافعي: وهو المبيِّن عن اللَّه ـ تَعَالَى ـ مراده، وهو قول أبي ثور. قال الشافعي: وإن صولحوا على أكثر من دينار جاز، وقال مالك: إنها أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهمًا على أهل الوَرق، الغني والفقير سواء.

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿عَن يَدٍ﴾؛ قال ابن عباس: يدفعها بنفسه غير مستنيب فيها أحدًا.

وقال سلمان: مذمومين. وقال قتادةٍ: عن قهر، وقال عكرمة: يدفعها وهو قائم والآخذ جالس؛ وقاله سعيد بن جبير.

عن عبداللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى،**

واليد العُليا هي المنفقة، واليد السفلى هي السائلة»(١)، فجعل يد المعطي في الصدقة عُليا، وجعل يد المُعطي في الجزية سُفْلى. ويد الآخذ عُليا؛ ذلك بأنه الرافع الخافض، يرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، لا إله غيره»(٢).

□ **يا ليت قومي يعلمون:**

إن المراجعة الموضوعية للتقريرات القرآنية ـ المكية والمدنية ـ عن أهل الكتاب، تظهر بجلاء موقف الإسلام إلى عقائد أهل الكتاب التي جاء الإسلام فوجدهم عليها، وانحرافها وبطلانهم وكفرهم بدين اللَّه الصحيح ـ حتى بما أنزل عليهم منه، وبالنصيب الذي أوتوه من قبل، حتى لا يَدَّع مدع ويفتري كذَّابٌ مفتري أن الإسلام يدعو إلى احترام الأديان، ويعني بها الأديان الموجودة الآن؛ أي: المحرَّفة، أما قبل التحريف فهو دين واحد، وهو الإسلام.

لقد حكم اللَّه بكفرهم وتحريفهم، وهذا معلوم من الدين بالضرورة لا ينكره إلا خارج من ملة الإسلام.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢- ٨٥].

وهذه الآيات نزلت في النجاشي ومن معه بعد إسلامه وإسلامهم. فيأتي الدجَّالون من علماء السوء ويجعلونها في مديح النصارى، وهذا تحريف بَيِّنٌ لكلام

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أبي هريرة.
(٢) تفسير القرطبي (٤/٢٩٤٨ ـ ٢٩٥٤) مُلَخَّصًا.

الله.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ [الزخرف: ٦٣- ٦٥].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: ١٤].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وتضمَّن القرآن المدني الكلمة الأخيرة في حقيقة ما عليه أهل الكتاب، كما حكى عنهم أشنع الوسائل وأبشع الطرق في حرب هذا الدين وأهله في قطاعات طويلة من سور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، وغيرها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٥- ٧٩].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٨٧ - ٩١].

وقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩].

وقال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ

بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٢- ٧٥].

إن اللَّه ـ سبحانه ـ يقرِّر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين في عدة مواضع من كتابه الكريم. وهو ـ سبحانه ـ تارة يتحدث عنهم وحدهم، وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين؛ باعتبار أن هناك وحدة هدف ـ تجاه الإسلام والمسلمين ـ تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين. وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع الحركي لمواجهة الإسلام والمسلمين.. والنصوص التي تقرِّر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لا تحتاج منا إلى تعليق؛ وهذه نماذج منها:

- **قال ـ تعالى ـ:** ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ **[البقرة: ١٠٥]**.
- وقال ـ **تعالى** ـ: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾

[البقرة: ١٠٩].

- وقالى - تعَالَى -: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].
- وقال - تعَالَى -: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].
- وقال - تعَالَى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ [النساء: ٤٤، ٤٥].
- وقال - تعَالَى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين كما يقررها اللَّه - سبحانه - في قوله - تعَالَى -: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة: ٢].

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين، وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين هي بعينها - وتكاد تكون بألفاظها - هي الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك.. مما يجعل طبيعة موقفهم مع الإسلام والمسلمين هي ذاتها طبيعة موقف المشركين.

هذه التقريرات القرآنية الواردة في هؤلاء وهؤلاء ترد في صيغ نهائية تدل

بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة.

فإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخي لهذه العلاقات، متمثلة في مواقف أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ من الإسلام وأهله، على مدار التاريخ، تبيَّن لنا تمامًا ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة، وتقرَّر لدينا أنها كانت تقرِّر طبيعة مطردة ثابتة.

تاريخ من العداء العنيد، والكيد الناصب، والحرب الدائبة التي لم تفتر على مدار التاريخ ضد المسلمين.

❑ **كيد اليهود وحربهم للمسلمين:**

فأما اليهود فقد تحدثت شتى سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم؛ وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذي واجههم الإسلام في المدينة حتى اللحظة الحاضرة!

وسنشير هنا فقط إلى قليل من كثير من تلك الحرب المسعورة التي شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ.

لقد استقبل اليهود رسول اللَّه ﷺ ودينه في المدينة شر ما يستقبل أهل دين سماوي رسولًا يعرفون صدقه، ودينًا يعرفون أنه الحق.

استقبلوه بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن، يلقونها في الصف المسلم في المدينة بكافة الطرق الملتوية الماكرة التي يتقنها اليهود.. شككوا في رسالة رسول اللَّه ﷺ وهم يعرفونه، واحتضنوا المنافقين، وأمدُّوهم بالشبهات التي ينشرونها في الجو، وبالتُّهم والأكاذيب، وما فعلوه في حادث تحويل القبلة، وما فعلوه في حادث الإفك، وما فعلوه في كل مناسبة، ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم.. وفي مثل هذه الأفاعيل كان يتنزل القرآن الكريم، وسور: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والحشر، والأحزاب، والتوبة، وغيرها تضمنت من هذا الكثير؛ قال ـ تعالى ـ:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾ [**البقرة: ٨٩، ٩٠**].
- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [**البقرة: ١٠١**].
- ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [**البقرة: ١٤٢**].
- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [**آل عمران: ٧٠، ٧١**].
- ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾ [**آل عمران: ٧٢**].
- ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨﴾ [**آل عمران: ٧٨**].
- ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٩﴾ [**آل عمران: ٩٨، ٩٩**].
- ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ

أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ [النساء: ١٥٣].

- ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

كذلك شهد التاريخ نقض اليهود لعهودهم مرة بعد مرة، وتحرشهم بالمسلمين، مما أدى إلى وقائع بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وخيبر. كما شهد تأليب اليهود للمشركين في الأحزاب، مما هو معروف مشهور.

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله منذ ذلك التاريخ؛ كانوا عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه وانتثر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير، وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك بين علي رضي الله عنه ومعاوية، وقادوا حملة الوضع في الحديث والسيرة وروايات التفسير، وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية..

فأما في التاريخ الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين في كل مكان على وجه الأرض؛ وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامي؛ وهم حماة كل وضع من الأوضاع التي تتولى هذه المحاولة في كل أرجاء العالم الإسلامي!

ذلك شأن اليهود.

• فأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب، فهو لا يقل إصرارًا على العداوة والحرب من شأن اليهود!

لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون.. ولكن ما إن ظهر الإسلام في الجزيرة؛ وأحست الكنيسة بخطورة هذا الدين الحق على ما صنعته هي بأيديها وسمته «**المسيحية**» وهو ركام من الوثنيات القديمة، والأضاليل الكنسية،

متلبسًا ببقايا من كلمات المسيح ﷺ وتاريخه[١].. حتى رأينا الرومان والفرس ينسون ما بينهم من نزاعات تاريخية قديمة، وعداوات وثارات عميقة؛ ليواجهوا هذا الدين الجديد.

ولقد أخذ الروم يتجمعون في الشمال، هم وعمالهم من الغساسنة؛ لِيَنْقَضُّوا على هذا الدين. وذلك بعد أن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسولَ رسولِ اللَّه ﷺ إلى عامل بصرى من قبل الروم ـ وكان المسلمون يؤمنون الرسل، ولكن النصارى غدروا برسول النبي ﷺ وقتلوه ـ مما جعل رسول اللَّه ﷺ يبعث بجيش الأمراء الشهداء الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبداللَّه بن رواحة في غزوة «**مؤتة**»، فوجدوا تجمعًا للروم تقول الروايات عنه: إنه مئة ألف من الروم ومعه من عملائهم في الشام من القبائل العربية النصرانية مئة ألف أخرى؛ وكان جيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل، وكان ذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

ثم كانت غزوة «**تبوك**» التي يدور عليها معظم هذه السورة ـ وسيجيء تفصيل القول فيها في موضعه إن شاء اللَّه ـ تَعَالَى ـ، ثم كان جيش أسامة بن زيد الذي أعده رسول اللَّه ﷺ قبيل وفاته، ثم أنفذه الخليفة الراشد أبو بكر رضي الله عنه إلى أطراف الشام؛ لمواجهة تلك التجمعات الرومانية التي تستهدف القضاء على هذا الدين!

ثم اشتعل مِرْجَلُ الحقد الصليبي منذ موقعة «**اليرموك**» الظافرة، التي أعقبها انطلاق الإسلام لتحرير المستعمرات الإمبراطورية الرومانية في الشام، ومصر، وشمال إفريقيا، وجزر البحر الأبيض، ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة في الأندلس في النهاية.

إن «**الحروب الصليبية**» ـ المعروفة بهذا الاسم في التاريخ ـ لم تكن هي وحدها

---

(١) **راجع**: فصل «الفصام النكد» في كتاب «المستقبل لهذا الدين»، «دار الشروق».

التي شنتها الكنيسة على الإسلام.

لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير. لقد بدأت في الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد منذ أن نسي الرومان عداواتهم مع الفرس، وأخذ النصارى يُعِينُون الفرس ضد الإسلام في جنوب الجزيرة، ثم بعد ذلك في «**مؤتة**»، ثم فيما تلا موقعة «**اليرموك**» الظافرة.. ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها في الأندلس عندما زحفت الصليبية على القاعدة الإسلامية في أوربة، وارتكبت من الوحشية في تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يَعْرِف التاريخ له نظيرًا من قبل.

وكذلك تجلت في الحروب الصليبية في الشرق مثل هذه البشاعة التي لا تتحرج، ولا تتذمم؛ ولا تراعي في المسلمين إلًّا ولا ذمة.

ومما جاء في كتاب «**حضارة العرب**» لجوستاف لوبون ـ وهو فرنسي مسيحي ـ: «كان أول ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزي أنه قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه، بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم. ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب، مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل، الذي رحم نصارى القدس، فلم يمسهم بأذى، والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد، أثناء مرضهما»(١).

كذلك كتب كاتب مسيحي آخر (اسمه يورجا)(٢) يقول: «ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء في القصور التي استولوا عليها. وقد أسرفوا في القسوة فكانوا يبقرون البطون، ويبحثون عن الدنانير في الأمعاء!

أما صلاح الدين، فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين، ووفى لهم بجميع عهوده، وجاد المسلمون على أعدائهم، ووطئوهم مهاد رأفتهم، حتى إن

---

(١)، (٢) نقلًا عن كتاب «الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام»، للأستاذ علي علي منصور.

الملك العادل، شقيق السلطان، أطلق ألف رقيق من الأسرى، ومَنَّ على جميع الأرمن، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة، وأُبيح للأميرات والملكة زيارة أزواجهن».

ولا يتسع المجال ـ في الظلال ـ لاستعراض ذلك الخط الطويل للحروب الصليبية على مدار التاريخ، ولكن يكفي أن نقول: إن هذه الحرب لم تضع أوزارها قط من جانب الصليبية. ويكفي أن نذكر ماذا حدث في زنجبار حديثًا؛ حيث أبيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم، فقتل منهم اثنا عشر ألفًا، وألقي الأربعة الآلاف الباقون في البحر منفيين من الجزيرة. ويكفي أن نذكر ماذا وقع في قبرص؛ حيث منع الطعام والماء عن الجهات التي يقطنها بقايا المسلمين هناك؛ ليموتوا جوعًا وعطشًا، فوق ما سلط عليهم من التقتيل والتذبيح والتشريد. ويكفي أن نذكر ما تزاوله الحبشة في إريترية وفي قلب الحبشة، وما تزاوله كينيا مع المئة ألف مسلم الذين ينتمون إلى أصل صومالي، ويريدون أن ينضموا إلى قومهم المسلمين في الصومال. ويكفي أن نعلم ماذا تحاوله الصليبية في السودان الجنوبي!

ويكفي لتصوير نظرة الصليبيين إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربي صدر سنة ١٩٤٤م يقول فيه: «لقد كنا نخوَّف بشعوب مختلفة، ولكننا ـ بعد اختبار ـ لم نجد مبررًا لمثل هذا الخوف.. لقد كنا نخوَّف من قبل بالخطر اليهودي، والخطر الأصفر، وبالخطر البلشفي، إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه. إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد! ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا. أما الشعوب الصفراء فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها. ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قوته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته.. إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي»[1].

(١) من كتاب جورج براون نقلًا عن كتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية»، للدكتور مصطفى خالدي، والدكتور عمر فروخ.

ولا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك في استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية التي أعلنتها الصليبية على الإسلام وما تزال.. وقد تحدثنا من قبل مرارًا في أجزاء الظلال السابقة ـ بمناسبة النصوص القرآنية الكثيرة ـ عن طبيعة هذه المعركة، ومسائلها وأشكالها.

فحسبنا هذه الإشارات السريعة هنا بالإحالة على بعض المراجع الأخرى القريبة (١).

وهكذا نرى من هذا الاستعراض السريع ـ بالإضافة إلى ما قلناه من قبل عن طبيعة الإعلان الإسلامي العام بتحرير الإنسان، وتحفز الجاهلية في الأرض كلها لسحق الحركة الأخيرة الواردة في هذه السورة هي المقتضى الطبيعي لهذه الحقائق كلها مجتمعة؛ وأنها ليست أحكامًا محدودة بزمان، ولا مقيدة بحالة. وإن كان هذا في الوقت ذاته لا ينسخ الأحكام المرحلية السابقة النسخ الشرعي الذي يمنع العمل بها في الظروف والملابسات التي تشابه الظروف والملابسات التي تَنَزَّلَتْ فيها. فهناك دائمًا طبيعة المنهج الإسلامي الحركية، التي تواجه الواقع البشري مواجهة واقعية، بوسائل متجددة، في المراحل المتعددة (٢).

٣١ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: ٣٦].

قال القرطبي في تفسيره (٤/٢٩٧٥): «﴿قَـٰتِلُوا۟﴾ أمر بالقتال. و﴿كَآفَّةً﴾

---

(١) راجع: كتاب «الاستعمار والتبشير»، للدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ، وكتاب «الغارة على العالم الإسلامي»، للأستاذين اليافي ومحب الدين الخطيب، وكتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، للدكتور محمد محمد حسين، وكتاب «هل نحن مسلمون»، لمحمد قطب، «دار الشروق».

(٢) الظلال (٣/١٦٢٣، ١٦٣١).

معناه جميعًا، وهو مصدر في موضع الحال؛ أي: محيطين بهم ومجتمعين. لا يثنَّى ولا يجمع؛ مثل: عامَّة، وخاصَّة.

معنى هذه الآية الحضُّ على قتالهم، والتحزُّب عليهم، وجمع الكلمة».

وقال ابن كثير في تفسيره (٧/١٩٨، ١٩٩): «﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾؛ أي: جميعكم. ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾؛ أي: جميعهم. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين:

أحدهما: وهو الأشهر أنه منسوخ؛ لأنه ـ تعَالَى ـ قال هاهنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مُشعِر بأنه أمر بذلك أمرًا عامًّا، فلو كان محرمًا في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها، ولأن رسول اللَّه ﷺ حاصر أهل «**الطائف**» في شهر حرام وهو ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى «**هوازن**» في شوال، فلما كسرهم، واستفاء أموالهم، ورجع فَلُّهم، فلجئوا إلى «**الطائف**» ـ عمد إلى «**الطائف**» فحاصرهم أربعين يومًا، وانصرف ولم يفتحها. فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام؛ لقوله ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، وقال: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] الآية، وقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] الآية.

وأما قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحضيض؛ أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم، فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم

إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون. ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٩١] الآية.

وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدَّم ـ فلما تحصَّنوا بالطائف ذهب إليهم؛ لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار ـ بالمجانيق وغيرها ـ قريبًا من أربعين يومًا، وكان ابتداؤه في شهرٍ حلالٍ، ودخل الشهر الحرام فاستمرَّ فيه أيامًا، ثم قفل عنهم؛ لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء. وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة. والله أعلم».

قال الأستاذ سيد قطب: «﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةًۚ﴾: قاتلوهم جميعًا بلا استثناء أحد منهم ولا جماعة، فهم يقاتلونكم جميعًا لا يستثنون منكم أحدًا، ولا يبقون منكم على جماعة.

والمعركة في حقيقتها إنما هي معركة بين الشرك والتوحيد، وبين الكفر والإيمان، وبين الهدى والضلال. معركة بين معسكرين متميزين، لا يمكن أن يقوم بينهما سلام دائم، ولا أن يتم بينهما اتفاق كامل؛ لأن الخلاف بينهما ليس عرضيًّا ولا جزئيًّا. ليس خلافًا على مصالح يمكن التوفيق بينها، ولا على حدود يمكن أن يعاد تخطيطها.

وإن الأمة المسلمة لتخدع عن حقيقة المعركة بينها وبين المشركين ـ وثنيين وأهل كتاب ـ إذا هي فهمت أو أفهمت أنها معركة اقتصادية، أو معركة قومية، أو معركة وطنية، أو معركة استراتيجية.. كلا، إنها قبل كل شيء معركة العقيدة، والمنهج

الذي ينبثق من هذه العقيدة؛ أي: الدين. وهذه لا تجدي فيها أنصاف الحلول، ولا تعالجها الاتفاقات والمناورات، ولا علاج لها إلا الجهاد والكفاح؛ الجهاد الشامل، والكفاح الكامل. سنة اللَّه التي لا تتخلف، وناموسه الذي تقوم عليه السماوات والأرض، وتقوم عليه العقائد والأديان، وتقوم عليه الضمائر والقلوب. في كتاب اللَّه يوم خلق اللَّه السماوات والأرض.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

فالنصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات الله، وأن يحلوا ما حرم الله، وأن يحرفوا نواميس الله. فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة، ولا يتخوفوا من الجهاد الشامل؛ فهو جهاد في سبيل اللَّه يقفون فيه عند حدوده وآدابه، ويتوجهون به إلى اللَّه يراقبونه في السر والعلانية. فلهم النصر؛ لأن اللَّه معهم، ومن كان اللَّه معه فهو المنصور بلا جدال»[(١)].

٣٢ـ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١].

قال الحافظ ابن كثير: «**أمر اللَّه ـ تَعَالَى ـ بالنفير العام مع الرسول** ﷺ عام غزوة «**تبوك**»؛ لقتال أعداء اللَّه من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾؛ عن أبي طلحة: كهولًا وشبانًا، ما أسمعُ اللهَ عَذَرَ أحدًا، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتِل.

وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا؛ شيوخًا وشبانًا، جهزوني يا بني. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول

---

(١) الظلال (٣/١٦٥٢، ١٦٥٣).

اللَّه ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمـر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه بها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغيَّر، فدفنوه بها.

وهكذا روي عن ابن عباس، وعكرمة، وأبي صالح، والحسن البصري، وشمر بن عطية، والشعبي، وزيد بن أسلم أنهم قالوا في تفسير هذه الآية ﴿ٱنفِـرُواْ خِفَافًا وَثِقَـالًا﴾؛ قالوا: كهولًا وشبانًا، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وغير واحد.

وقال مجاهد: شبانًا وشيوخًا، وأغنياء ومساكين،وكذا قال أبو صالح و غيره.

وقال الحكم بن عتبة: مشاغيل وغير مشاغيل.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ـ تَعَالَى ـ ﴿ٱنفِـرُواْ خِفَافًا وَثِقَـالًا﴾ يقول: انفروا نُشَّاطًا وغير نُشَّاطٍ، وكذا قال قتادة.

عن مجاهد: ﴿ٱنفِـرُواْ خِفَافًا وَثِقَـالًا﴾؛ قالوا: فإن فينا الثقيل، وذا الحاجة، والضيعة، والشغل، والمتيسر به أمره، فأنزل اللَّه وأبى أن يعذرهم ـ دون أن ينفروا ـ: ﴿خِفَافًا وَثِقَـالًا﴾؛ أي: على ما كان منهم.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري ـ أيضًا ـ: في العسر واليسر، وهذا كله من مقتضيات العموم [في الآية]، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها؛ خفافًا وركبانًا، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافًا وثقالًا، وركبانًا ومشاةً، وهذا تفصيل في المسألة.

وقال ابن جرير(١): عن أيوب عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول اللَّه ﷺ بدرًا، ثم لم يتخلَّف عن غزاة للمسلمين إلا عامًا واحدًا، قال: وكان أبو أيوب يقول: قال اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱنفِـرُواْ خِفَافًا وَثِقَـالًا﴾ فلا أجدني إلا خفيفًا أو

---

(١) تفسير الطبري (١٤/٢٦٧) رقم (١٦٧٥٤).

ثقيلًا.

وعن أبي راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارسَ رسول اللَّه ﷺ جالسًا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عِظمه - يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر اللَّه إليك. فقال: أتت علينا سورة البحوث[1] ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وعن حبان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان واليًا على حمص، قبل الأفسوس[2] إلى الجراجمة[3] فلقيت شيخًا كبيرًا هِمًّا[4] قد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فأقبلت إليه فقلت: يا عم، لقد أعذر اللَّه إليك. قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي، استنفرنا اللهُ خفافًا وثقالًا، إنه من يحبه اللَّه يَبْتلِه، ثم يعيده اللَّه فيُبقيه، وإنما يبتلي اللَّه من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا اللَّه ﷻ.

ثم رغَّب - تَعَالَى - في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة؛ لأنكم تعزمون في النفقة قليلًا، فيغنمكم اللَّه أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة»[5].

انفروا في كل حال، وجاهدوا بالنفوس والأموال، ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير، ولا تخضعوا للعوائق والتَّعِلَّات ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

---

(١) وفي رواية: سورة البعوث. يعني: سورة التوبة؛ سميت بها لِمَا تضمنت عليه من البحث في أسرار المنافقين، وهو إثارتها والتفتيش عنها. تفسير الطبري (٢٦٨/١٤) رقم (١٦٧٥٦).

(٢) الأفسوس: بلدة بثغور طرسوس بالشام. ويقال: إنها بلدة أصحاب الكهف.

(٣) الجراجمة: قوم من العجم بالجزيرة أو نبط الشام.

(٤) هِمًّا؛ أي: فانيًا.

(٥) تفسير ابن كثير (٢٠٦/٧ - ٢٠٩).

تَعۡلَمُونَ﴾، وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير، فنفروا والعوائق في طريقهم، والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار، ففتح اللَّه عليهم القلوب والأرضين، وأعزَّ بهم كلمة الله، وأعزَّهم بكلمة الله، وحقق على أيديهم ما يُعدُّ خارقة في تاريخ الفتوح.

وبمثل هذا الجد في أخذ كلمات اللَّه انطلق الإسلام في الأرض، يُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوح الفريدة(١).

قال القرطبي: «اخْتُلِف في هذه الآية؛ فقيل: إنها منسوخة بقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١]، وقيل: الناسخ لها قوله: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ [التوبة: ١٢٢]. والصحيح أنها ليست بمنسوخة.

ولقد قال ابن أم مكتوم رضي الله عنه واسمه عمرو ـ يوم «أحد»: أنا رجل أعمى، فسلِّموا لي اللواء؛ فإنه إذا انهزم حامل اللواء انهزم الجيش، وأنا ما أدري من يقصدني بسيفه فما أبرح.

قلنا: إن النسخ لا يصح. وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل، وهي:

وذلك إذا تعينَّ الجهاد بغلبة العدوِّ على قطر من الأقطار، أو بحلوله بالعُقْر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه؛ خفافًا وثقالًا، شبابًا وشيوخًا، كل على قدر طاقته، من كان له أب بغير إذنه، ومن لا أب له، ولا يتخلَّف أحد يقدر على الخروج، من مقاتل أو مكثر. فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوِّهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة، حتى يعلموا أن بهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم. وكذلك كل من

---

(١) **انظر**: الظلال (٣/١٦٥٧).

علم بضعفهم عن عدوِّهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزم ـ أيضًا ـ الخروج إليهم؛ فالمسلمون كلهم يد على من سواهم؛ حتى إذا قام بدفع العدوِّ أهل الناحية التي نزل العدو عليها واحتلَّ بها، سقط الفرض عن الآخرين. ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها؛ لزم ـ أيضًا ـ الخروج إليه، حتى يظهر دين الله، وتُحمى البيْضة، وتُحفظ الحوزة، ويُخزى العدو، ولا خلاف في هذا.

وقسم ثان من واجب الجهاد: فرض ـ أيضًا ـ على الإمام إغزاء طائفة إلى العدو كل سنة مرَّة، يخرج معهم بنفسه، أو يخرج من يثق به؛ ليدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم، ويكف أذاهم، ويظهر دين اللَّه عليهم، حتى يدخلوا في الإسلام، أو يُعطوا الجزية عن يد.

ومن الجهاد ـ أيضًا ـ ما هو نافلة، وهو إخراج الإمام طائفة بعد طائفة، وبعث السرايا في أوقات الغِرَّة وعند إمكان الفرصة، والإرصاد لهم بالرباط في موضع الخوف، وإظهار القوة. فإن قيل: كيف يصنع الواحد إذا قصَّر الجميع؟

قيل له: يعمد إلى أسير واحد فيفديه؛ فإنه إذا فدى الواحد فقد أدَّى في الواحد أكثر مما كان يلزمه في الجماعة، فإن الأغنياء لو اقتسموا فداء الأسرى ما أدَّى كل واحد منهم إلا أقلَّ من درهم، ويغزو بنفسه إن قدر، وإلا جهز غازيًا؛ قال ﷺ: «**من جهز غازيًا فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا**»؛ وذلك لأن مكانه لا يغني، وماله لا يكفي.

روي أن بعض الملوك عاهد كفارًا على ألا يحبسوا أسيرًا، فدخل رجل من المسلمين جهة بلادهم فمرَّ على بيت مغلق، فنادته امرأة إني أسيرة فأبلغ صاحبك خبري، فلما اجتمع به واستطعمه عنده تجاذبا ذيل الحديث، انتهى الخبر إلى هذه المعذَّبة، فما أكمل حديثه حتى قام الأمير على قدميه وخرج غازيًا من فوره، ومشى إلى الثغر حتى أخرج الأسيرة واستولى على الموضع، رضي الله عنه. ذكره ابن العربي وقال: «ولقد نزل بنا العدو ـ قصمه اللَّه ـ سنة سبع وعشرين وخمس مئة، فجاس ديارنا،

وأسر خيرتنا، وتوسط بلادنا في عددٍ هال الناس عدده، وكان كثيرًا وإن لم يبلغ ما حدَّدوه. فقلت للوالي والمولى عليه: هذا عدوُّ اللَّه قد حصل في الشَّرَك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيُحاط به، فإنه هالك لا محالة إن يسَّركم اللَّه له، فغلبت الذنوب ورجفت القلوب بالمعاصي، وصار كل أحد من الناس ثعلبًا يأوي إلى وجاره وإن رأى المكيدة بجاره. فإنا لله وإنا إليه راجعون، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل».

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ روى أبو داود عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**» وهذا وصف لأكمل ما يكون من الجهاد وأنفعه عند اللَّه ـ تَعَالَى ـ. فحضَّ على كمال الأوصاف، وقدَّم الأموال في الذكر إذْ هي أول مصرف وقت التجهيز، فرتَّب الأمر كما هو»[1].

٣٣ـ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٧٣﴾ [التوبة: **٧٣**، التحريم: **٩**].

«**أمر ـ تَعَالَى ـ رسوله** ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، كما أمره أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين.

وقد تقدم قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: بُعِثَ رسول اللَّه ﷺ بأربعة أسياف: ... وسيف للمنافقين: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

وهذا يقتضي أنهم يُجاهَدُون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾؛ قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٢٩٨٩ - ٢٩٩٢).

وقال ابن عباس: أمره اللَّه ـ تَعَالَى ـ بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم.

وقال الضَّحاك: جَاهِد الكفَّار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم؛ وعن الربيع مثله.

وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم.

وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال؛ لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا، بحسب الأحوال. واللَّه أعلم»[(١)].

قال القرطبي: «قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ وتدخل فيه أمته من بعده.

قيل: المراد جاهد بالمؤمنين الكفار. وقال الحسن: جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، وباللسان واختاره قتادة، وكانوا أكثر من يصيب الحدود. ابن العربي: «أما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة، وأما بالحدود؛ لأن أكثر إصابة الحدود، وكانت عندهم، فدعوى لا برهان عليها، وليس العاصي بمنافق، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامنًا، لا بما تتلبَّس به الجوارح ظاهرًا، وأخبار المحدودين يشهد سياقُها أنهم لم يكونوا منافقين.

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾؛ الغِلظ: نقيض الرأفة، وهي شدة القلب على إحلال الأمر بصاحبه. وليس ذلك في اللسان.

ومعنى الغلظ خشونة الجانب، فهي ضد قوله ـ تَعَالَى ـ:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥].

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٣٧/٧).

وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح[1]، فرحم اللَّه رجلًا جاهد المنافقين في هذا الزمان (وهم الزنادقة الذين يطعنون في ثوابت الإسلام بعلم منهم بها)، رحم اللَّه من جاهدهم جهادًا عنيفًا غليظًا لا رحمة فيه ولا هوادة، وعرَّاهم وأبطل شبههم، وكشف خبيئاتهم للنظار.

٣٤ـ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٣].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (٧/٣١٩ـ ٣٢١): «أمر اللَّه ـ تَعَالَى ـ المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولًا فأولًا، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسـول اللَّه ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم، وفتح اللَّه عليه مكة، والمدينة، والطائف واليمن، واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين اللَّه أفواجًا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهَّز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام؛ لكونهم أهل الكتاب، فبلغ «**تبوك**» ثم رجع؛ لأجل جهد الناس، وجدب البلاد، وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته ﷺ.

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع، ثم عاجلته المنية، صلوات اللَّه وسلامه عليه، بعد حجته بأحد وثمانين يومًا، فاختاره اللَّه لما عنده.

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل[2] فثبته اللَّه ـ تَعَالَى ـ به، فوطد القواعد، وثبت الدعائم، وردَّ

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٣٠٤٣، ٣٠٤٤).
(٢) انجفل ـ جفله؛ بمعنى: جرفه وأبعده.

شارد الدين وهو راغم، وردَّ أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام، وبيَّن الجهل لمن جهله، وأدَّى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدةِ الصلبان، وإلى الفرس عبدةِ النيران، ففتح اللَّه ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله.

وكان تمام الأمر على يدي وصيِّه من بعده، ووليِّ عهده الفاروق الأوَّاب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ، فأرغم اللَّه به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك، شرقًا وغربًا، وحُمِلت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم، بُعدًا وقربًا، ففرَّقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيدًا، وقد عاش حميدًا، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ، شهيد الدار، فكسا الإسلام رياسة حلة سابغة، وامتدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجةُ اللَّه البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلَتْ كلمة الله، وظهر دينه، وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء اللَّه غاية مآربها، فكلما عَلَوْا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجّار؛ امتثالًا لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾». اهـ.

«قال قتادة: الآية على العموم في قتال الأقرب فالأقرب، والأدنى فالأدنى.

قلت ـ أي القرطبي ـ: قول قتادة هو ظاهر الآية.

واختار ابن العربي أن يُبدأ بالروم قبل الدَّيلم؛ على ما قاله ابن عمر؛ لثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم أهل كتاب، فالحجة عليهم أكثر وآكد.

والثاني: أنهم إلينا أقرب، وأعني أهل المدينة.

الثالث: أن بلاد الأنبياء في بلادهم أكثر فاستنقاذها منهم أوجب. والله

أعلم»[١].

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقًا لأخيه المؤمن، غليظًا على عدوه الكافر، كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

وفي الحديث أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أنا الضحوك القتَّال**»؛ يعني: أنه ضحوك في وجه وليِّه، قتال لهامة عدوه». اهـ من تفسير ابن كثير.

قال القرطبي: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ أي: شدة وقوة وحَمية.

«**قوله:** ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: قاتلوا الكفَّار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن اللَّه معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة،في غاية الاستقامة والقيام بطاعة اللَّه ـ تَعَالَى ـ لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدَّموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانًا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله ـ سبحانه ـ الأمر من قبل ومن بعد!! فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر اللَّه وتوكل على الله، فتح اللَّه عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله، واللَّه المسئول المأمول أن يمكنَّ المسلمين من نواصي أعدائه

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٣١٣٦، ٣١٣٧).

الكافرين، وأن يُعليَ كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم»(١).

● **وقفة مهمة مع الآية:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾.

سارت الفتوح الإسلامية، تواجه من يلون «**دار الإسلام**» ويجاورونها، مرحلة فمرحلة. فلما أسلمت الجزيرة العربية ـ أو كادت ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يُخشَى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة ـ كانت غزوة «**تبوك**» على أطراف بلاد الروم. ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الروم وفي بلاد فارس، فلم يتركوا وراءهم جيوبًا؛ ووحدت الرقعة الإسلامية، ووصلت حدودها، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، متماسكة الأطراف؛ ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس البيوت، أو على أساس القوميات! وهي خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم، وما يزالون يعملون.

وستظل هذه الشعوب التي جعل منها الإسلام «**أمة واحدة**» في «**دار الإسلام**» المتصلة الحدود ـ وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان ـ ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها، وإلى رايته الواحدة؛ وإلا أن تتبع خطى رسول الله ﷺ، وتدرك أسرار القيادة الربانية التي كفلت لها النصر والعز والتمكين.

ونقف مرة أخرى أمام قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾.

فنجد أمرًا بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار. لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين، ولا على ديارهم. وندرك أن هذا هو الأمر الأخير، الذي

(١) تفسير ابن كثير (٣٢١/٧).

يجعل «**الانطلاق**» بهذا الدين هو الأصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد، وليس هو مجرد «**الدفاع**» كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة في المدينة. ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام، وعن أحكام الجهاد في الإسلام، وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن - أن يتلمسوا لهذا النص النهائي الأخير قيدًا من النصوص المرحلية السابقة؛ فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء! والنص القرآني بذاته مطلق، وهو النص الأخير! وقد عودنا البيان القرآني، عند إيراد الأحكام، أن يكون دقيقًا في كل موضع، وألا يحيل في موضع على موضع؛ بل يتخير اللفظ المحدد؛ ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات في ذات النص. إن كان هناك تحفظ، أو استثناء، أو تقييد، أو تخصيص.

إن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام، وعن أحكام الجهاد في الإسلام، والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام، يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام، وأن يكون الله - سبحانه - قد أمر الذين آمنوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار، كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار!.. ويتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهي هكذا، فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة؛ ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة!

إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو.

إنهم ينسون أن الجهادَ في الإسلام جهادٌ في «**سبيل الله**»، جهادٌ لتقرير ألوهية الله في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله، جهادٌ لتحرير «**الإنسان**» من العبودية لغير الله، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده، والانطلاق من العبودية للعباد.. ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، وأنه ليس جهادًا لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله، إنما هو جهاد لتغليب منهج

اللَّه على مناهج العبيد! وليس جهادًا لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم، إنما هو جهاد لتغليب سلطان اللَّه على سلطان العبيد! وليس جهادًا لإقامة مملكة لعبد، إنما هو جهاد لإقامة مملكة اللَّه في الأرض. ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في «**الأرض**» كلها، لتحرير «**الإنسان**» كله، بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها، فكلها «**أرض**» يسكنها «**الإنسان**»، وكلها فيها طواغيت تُعَبِّدُ العباد للعباد!

وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم ـ طبعًا ـ أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم.. إنها في هذا الوضع لا تستساغ! وهي فعلًا لا تستاغ!.. لولا أن الأمر ليس كذلك. وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية. فليس لواحد منها أن يقول: إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجه أنظمة بشرية؛ ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعًا من ذلة العبودية للعباد؛ ويرفع البشر جميعًا إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك!

ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم؛ لأنهم يواجهون هجومًا صليبيًا منظمًا لئيمًا ماكرًا خبيثًا يقول لهم: إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية؛ وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد!

إن الإسلام يقوم على قاعدة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].. ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهدًا؟ ولماذا اشترى اللَّه من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١]؟.. إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد.. بل لأمر مناقض تمامًا للإكراه على العقيدة.. إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد! لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير «**الإنسان**» في «**الأرض**» من العبودية للعباد؛ يواجه دائمًا طواغيت في الأرض يخضعون العباد للعباد. ويواجه

دائمًا أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد؛ كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم، أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل. وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله. وانطلق الإسلام بالسيف ليحطم الكفر.. إما الإسلام، وإما الجزية، وإما السيف.

إن لم يرضوا بالإسلام أو الجزية ـ فالسيف هو الحكم، وبعد السيف إما الإسلام وإما الجزية.

أين الإسلام من الصليبية التي انطلقت على مدار التاريخ تذبح وتبيد شعوبًا بأسرها؛ كشعب الأندلس قديمًا، وشعب زنجبار حديثًا؛ لتكرههم على التنصر. وأحيانًا لا تقبل منهم حتى التنصر، فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون.. وأحيانًا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية.. وقد ذهب مثلًا اثنا عشر ألفًا من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة؛ إذ أُحرقوا أحياءً على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما.

وأخيرًا فإن صورة الانطلاق في الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحيًا في هذا الزمان وتتعاظمهم؛ لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر.. وهو يهول فعلًا مسلمي اليوم البعيدين عن ربهم..

هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعًا بالقتال، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله؟! إنه لأمر لا يتصور عقلًا.. ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر اللَّه فعلًا!

ولكن فات هؤلاء جميعًا أن يروا متى كان هذا الأمر؟ وفي أي ظرف؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله؛ دانت لها الجزيرة العربية ودخلت في هذا الدين، ونظمت على أساسه. وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التي باعت أنفسها لله بيعة صدق، فنصرها اللَّه يومًا بعد يوم، وغزوة بعد

غزوة، ومرحلة بعد مرحلة(١).

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ أي: بلا هوادة، ولا تميُّع، ولا تراجع؛ حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعًا أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم ـ وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين ـ، وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب!

إنه قتال يسبقه إعلان، وتخيير بين: قبول الإسلام، أو أداء الجزية، أو القتال.. ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد ـ في حالة الخوف من الخيانة ـ «والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية؛ ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها».

- **وهذه آداب المعركة كلها، من وصية رسول الله ﷺ:**

«عن بريدة ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّرَ الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ـ تَعَالَى ـ ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله. وقاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدًا. فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله ـ تَعَالَى ـ الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع

---

(١) الظلال (١٧٣٦ ـ ١٧٣٩) باختصار وتنقيح.

المسلمين. وإن هم أبوا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن أبوا فاستعن بالله - تَعَالَى - عليهم وقاتلهم...»[١].

وعن ابن عمر ﵁ قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان»[٢].

«ونهى النبي ﷺ عن المُثْلَة»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما بال أقوام جاوز بهم القتل اليوم حتى قتلوا الذُّرِّية؟ ألا إن خياركم أبناء المشركين، ألا لا تقتلوا ذرية.. ألا لا تقتلوا ذرية، كل نسمة تولد على الفطرة، فما يزالُ عليها حتى يُعرب[٤] عنها لسان، فأبواها يهوِّدانها، أو ينصِّرانها**»[٥].

● **هذه التعليمات النبوية هي التي سار عليها الخلفاء بعده:**

روى مالك عن أبي بكر الصديق ﵁ أنه قال: «ستجدون قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، ولا تَقْتُلُنَّ امرأة ولا صبيًّا ولا كبيرًا هرمًا».

وقال زيد بن وهب: أتانا كتاب عمر ﵁ وفيه: «لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدًا، واتقوا الله في الفلاحين».

ومن وصاياه: «ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا، وتوقوا قتلهم إذا التقى

---

(١) أخرجه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) **صحيح**: أخرجه الحاكم عن عمران، والطبراني في «الكبير» عن ابن عمر وعن المغيرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» (٢٢٣٠)، و«صحيح الجامع» (٦٨٩٩).

(٤) يُعْرِبُ: يوضح.

(٥) **صحيح**: أخرجه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك» عن الأسود بن سريع، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (٤٠١)، و«الإرواء» (١٢٢٠)، و«صحيح الجامع» رقم (٥٥٧١).

الزحفان، وعند شن الغارات»(١).

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المنهج الإسلامي في قتاله لأعدائه، وفي آدابه الرفيعة، وفي الرعاية لكرامة الإنسان. وفي قصر القتال على القوى المادية التي تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده. وفي اليسر الذي يعامل به حتى أعداءه.

أما الغلظة فهي الخشونة في القتال والشدة؛ وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة، غير المحاربين أصلًا؛ وليست تمثيلًا بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان. وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين، ولاحترام بشرية المحاربين. إنما المقصود هو الخشونة التي لا تميع المعركة؛ وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالرحمة والرأفة في توكيد وتكرار، فوجب استثناء حالة الحرب، بقدر ما تقتضي حالة الحرب، دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل.

❑ دعوة إلى الثبات

٣٥ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ **[الأنفال: ٤٥ـ ٤٧]**.

قال ابن كثير: «هذا تعليم من اللَّه ـ تعَالَى ـ لعباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾.

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٣٣، ٢٩٦٦، ٣٠٢٤، ٤١١٥، ٦٣٩٢، ٧٤٨٩)، وصحيح مسلم (١٧٤٢).

عن عبدالله بن أبي أوفى عن رسول الله ﷺ أنه انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس، قام فيهم فقال: «**يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»، ثم قام النبي ﷺ وقال: «**اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم**»(١).

وقال سعيد بن أبي عروبة: عن قتادة في هذه الآية قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون؛ عند الضرب بالسيوف.

عن عطاء قال: وجب الإنصات وذكر الله عند الزحف، ثم تلا هذه الآية. قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم(٢).

عن كعب الأحبار قال: ما من شيء أحب إلى الله ـ تَعَالَى ـ من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

فأمر الله ـ تَعَالَى ـ بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا، ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال، ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك؛ فما أمرهم الله ـ تَعَالَى ـ به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم ـ أيضًا ـ فيختلفوا، فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم».

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ أي: قوتكم وحدَّتُكم وما كنتم فيه من الإقبال، ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وقد كان للصحابة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ في باب الشجاعة، والائتمار بما أمرهم

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٥/٩١٣٣).

اللَّه ورسوله، وامتثال ما أرشدهم إليه، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم، والفرس، والترك، والصقالبة، والبربر، والحبوش، وأصناف السودان، والقبط، وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة اللَّه وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي اللَّه عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهَّاب»(١).

قال القرطبي: قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾؛ أي: جماعة. ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ أمر بالثبات عند قتال الكفار، كما في الآية قبلها النهي عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنهي على سواء. وهذا تأكيد على الوقوف للعدو والتجلُّد له.

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ للعلماء في هذا الذكر ثلاثة أقوال:

الأول: اذكروا اللَّه عند جزع قلوبكم؛ فإن ذكره يعين على الثبات في الشدائد.

الثاني: اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم، فإن القلب لا يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان؛ فأمر بالذكر حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس.

الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد اللَّه لكم في ابتياعه أنفسكم ومُثامنته لكم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٩٦ - ٩٨).

قلت: والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان. قال محمد بن كعب القرظي: لو رُخِّص لأحد في ترك الذكر لرُخِّص لزكريا؛ يقول اللَّه ﷻ: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٤١]، ولرخص للرجل يكون في الحرب؛ يقول اللَّه ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وحكم هذا الذكر أن يكون خفيًّا؛ لأن رفع الصوت في مواطن القتال رديء مكروه إذا كان الذاكر واحدًا. فأما إذا كان من الجميع عند الحملة فحسن؛ لأنه يفُتُّ في أعضاء العدو.

وروى أبو داود عن قيس بن عباد قال: كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يكرهون الصوت عند القتال.

وروى أبو بردة عن أبيه عن النبي ﷺ مثل ذلك.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ أي: قوتكم ونصركم، كما تقول: الريح لفلان، إذا كان غالبًا في الأمر. قال الشاعر:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحٌ فَاغْتَنِمْهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وقال قتادة وابن زيد: إنه لم يكن نصر قط إلا بريح، فتضرب في وجوه الكفار، ومنه قوله عليه السلام: «**نُصِرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور**».

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أمر بالصبر، وهو محمود في كل المواطن وخاصة موطن الحرب[1].

❑ عوامل النصر وأسبابه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓا۟

---

(١) تفسير القرطبي (٢٨٦٢/٤ - ٢٨٦٤).

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

فهذه هي عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله بالذكر، والطاعة لله والرسول، وتجنب النزاع والشقاق، والصبر على تكاليف المعركة، والحذر من البطر والرئاء والبغي.

فأما **الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر.** فأثبتُ الفريقين أغلبُهما. وما يُدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون، وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون؛ فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه. وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار؛ وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين؛ الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا؛ وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها، ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها؟!

وأما **ذكر الله كثيرًا عند لقاء الأعداء** فهو التوجيه الدائم للمؤمن؛ كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة، وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي.

ومما حكاه القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عندما استسلمت قلوبهم للإيمان فجأة، فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغي؛ قولهم: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦].

ومما حكاه كذلك عن الفئة المؤمنة من بني إسرائيل، وهي تواجه جالوت وجنوده: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ومما حكاه عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ في مواجهة المعركة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن

نَبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ولقد استقر هذا التعليم في نفوس العصبة المسلمة؛ فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدوًا. وقد حكى اللَّه ـ فيما بعد ـ عن العصبة التي أصابها القرح في «**أحد**»؛ فلما دعيت إلى الخروج ثاني يوم، كان هذا التعليم حاضرًا في نفوسها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

إن ذكر اللَّه عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى؛ إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب؛ والثقة باللَّه الذي ينصر أولياءه.. وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها، فهي معركة لله، لتقرير ألوهيته في الأرض، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية؛ وإذن فهي معركة لتكون كلمة اللَّه هي العليا؛ لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي.. كما أنه توكيد لهذا الواجب ـ واجب ذكر اللَّه ـ في أحرج الساعات وأشد المواقف.. إيحاءات ذات قيمة في المعركة؛ يحققها هذا التعليم الرباني.

وأما **طاعة اللَّه ورسوله**، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء؛ فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾.. فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار. فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيس للنزاع بينهم ـ مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة ـ فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع

«**الذات**» في كفة، والحق في كفة؛ وترجيح الذات على الحق ابتداء!.. ومن هذا التعليم بطاعة اللَّه ورسوله عند المعركة.. إنه من عمليات «**الضبط**» التي لا بد منها في المعركة.. إنها طاعة القيادة العليا فيها، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها. وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلًا.. والمسافة كبيرة كبيرة.

وأما **الصبر** فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة.. أية معركة.. في ميدان النفس أم في ميدان القتال.

﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

وهذه المعية من اللَّه هي الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح..

ويبقى التعليم الأخير:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

يبقى هذا التعليم ليحمي العصبة المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية، تتعاجب بقوتها، وتستخدم نعمة القوة التي أعطاها اللَّه لها في غير ما أرادها.. والعصبة المؤمنة إنما تخرج للقتال في سبيل الله.

ولقد كانت صورة الخروج بطرًا ورئاء الناس وصدًّا عن سبيل اللَّه حاضرة أمام العصبة المسلمة؛ يرونها في خروج قريش بالصورة التي خرجت بها؛ كما كانت صورة العاقبة لهذا الخروج حاضرة فيما أصاب قريشًا التي خرجت في ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبريائها تحاد اللَّه ورسوله، وعادت في آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة.. وكأن اللَّه ـ سبحانه ـ يذكر العصبة المسلمة بشيء حاضر له وقعة وله إيحاؤه:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

والبطر في اللغة: التقوية بنعم الله عَزَّ وَجَلَّ وما ألبسه من العافية على المعاصي.
والبطر والمراءاة والصد عن سبيل الله تتجلى في قولة أبي جهل، وقد جاءه رسول أبي سفيان ـ بعد أن ساحل بالعير فنجت من رصد المسلمين ـ يطلب إليه الرجوع بالنفير، إذ لم تعد بهم حاجة لقتال محمد وأصحابه. وكانت قريش قد خرجت بالقيان والدفوف يغنون وينحرون الجزر على مراحل الطريق. فقال أبو جهل: لا والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم ثلاثًا، ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا، فلن تزال العرب تهابنا أبدًا».. فلما عاد الرسول إلى أبي سفيان برد أبي جهل قال: «وا قوماه! هذا عمل عمرو بن هشام (يعني أبا جهل) كره أن يرجع؛ لأنه ترأس على الناس فبغى، والبغي منقصة وشؤم، إن أصاب محمد النصر ذللنا».. وصحَّت فراسة أبي سفيان، وأصاب محمد ﷺ النفير؛ وذل المشركون بالبطر والبغي والرياء والصد عن سبيل الله؛ وكانت بدر قاصمة الظهر لهم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يفوته منهم شيء، ولا يعجزه من قوتهم شيء، وهو محيط بهم وبما يعملون»[١].

٣٦ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

قال ابن كثير: «يقول ـ تعَالَى ـ متوعدًا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾ ؛ أي: تقاربتم منهم ودنوتم منهم. ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ ؛ أي: تفروا وتتركوا أصحابكم. ﴿وَمَن

---

(١) **انظر:** الظلال (١٥٢٨/٣ ـ ١٥٣٠).

﴿يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾؛ أي: يفرُّ بين يدي قرنه مكيدةً؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكرُّ عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، نصَّ عليه سعيد بن جبير والسدي.

وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غِرَّة من العدو فيصيبها.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾؛ أي: فرَّ من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية، ففرَّ إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة لما قُتِل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو انحاز إليَّ كنت له فئة.

وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم.

وقال الضحاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾: المتحيز الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فرَّ اليوم إلى أميره أو أصحابه.

فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب؛ فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قيل: يا رسول الله، وما هُنَّ؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم اللَّه إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[1]، ولهذا قال - تَعَالَى - ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾؛ أي: رجع. ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ﴾؛ أي: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده. ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

عن السدوسي - يعني ابن الخصاصية - وهو بشير بن معبد رضي الله عنه قال: «**أتيت النبي** ﷺ لأبايعه، فاشترط عليَّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله،

---

(١) رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩).

وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان فواللَّه لا أطيقهما؛ الجهاد؛ فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر، فقد باء بغضب من الله؛ فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت، والصدقة؛ فواللَّه مالي إلا غنيمة وعشر ذَوْد هن رَسَل أهلي وحمولتهم، فقبض رسول اللَّه ﷺ يده، ثم حرَّك يده، ثم قال: «**فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذًا؟**» فقلت: يا رسول الله: أنا أبايعك فبايعته عليهن كلهن[1].

وعن بلال بن يسار بن زيد مولى رسول اللَّه ﷺ قال: سمعت أبي يحدث عن جدي، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قال: أستغفر اللَّه الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه، غُفِر له وإن كان قد فرَّ من الزحف**»[2].

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حرامًا على الصحابة؛ لأنه (يعني: الجهاد) كان فرض عين عليهم، وقيل: على الأنصار خاصة؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة، يروى هذا عن عمر، وابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي نضرة، ونافع مولى ابن عمر، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

---

(١) **رجاله موثقون**: أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٢٢٤/٥) (٢٢٠٤٧)، ورواه الطبراني في «الكبير» (٤٤/٢، ٤٥) رقم (١٢٣٣، ١٢٣٤)، وفي «الأوسط»، كما في «مجمع البحرين» (٨٤/١) رقم (٤٠)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٢/١)، وقال: رواه أحمد والطبراني في «الكبير والأوسط»، واللفظ للطبراني، ورجال أحمد موثقون.

(٢) **إسناده جيد**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٩/٥) (٤٦٧٠)، وهو في سنن أبي داود (١٥١٧)، والترمذي (٣٥٧٧)، وقال المنذري: إسناده جيد متصل؛ فقد ذكر البخاري في «التاريخ الكبير»: أن بلالًا سمع من أبيه يسار، وأن يسار سمع من أبيه زيد مولى رسول الله ﷺ. ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود، وقال: صحيح على شرطهما إلا أنه قالها ثلاثًا. ورواه الطبراني في «الصغير» (٩١/٢) عن البراء بن عازب.

وحجتهم في هذا: أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها سوى عصابتهم تلك، كما قال النبي ﷺ: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**»[١].

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر فلا بأس عليه.

وعن يزيد بن أبي حبيب قال: أوجب اللَّه - تعالَى - لمن فرَّ يوم بدر النار، قال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] * ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٧].

وعن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ قال: إنما أنزلت في أهل بدر»[٢].

وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حرامًا على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم، من أن الفرار من الزحف من الموبقات، كما هو مذهب الجماهير. واللَّه أعلم»[٣].

قال القرطبي: قوله - تعالَى -: ﴿زَحْفًا﴾ الزحف الدنو قليلًا قليلًا. وأصله الاندفاع على الألْيَة، ثم سُمِّي كل ماش في الحرب إلى آخر زاحفًا. والتزاحف: التداني والتقارب؛ يُقال: زحف إلى العدو زحفًا. وازدحف القوم؛ أي: مشى

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣)، والترمذي (٣٠٨١)، وأحمد (٢٢١) عن ابن عمر.
(٢) رواه أبو داود (٢٦٤٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٧)، وابن جرير (١٣/ ١٥٨٠٠).
(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٥ - ٤٠).

بعضهم إلى بعض.

يقول: إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفرُّوا عنهم ولا تعطوهم أدباركم. حرَّم اللَّه ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار.

قال ابن عطية: والأدبار جمع دُبُر. والعبارة بالدُّبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة؛ لأنها بشيعة على الفارِّ، ذامَّة له.

أمر اللَّه ﷻ في هذه الآية ألا يُولِّي المؤمنون أمام الكفار. وهذا الأمر مُقَيد بالشريطة المنصوصة في مِثْلي المؤمنين، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضِعف المؤمنين من المشركين فالفرض ألا يفرُّوا أمامهم. فمن فرَّ من اثنين فهو فارٌّ من الزحف. ومن فرَّ من ثلاثة فليس بفارٍّ من الزحف، ولا يتوجَّه عليه الوعيد.

والفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة.

على قول الجمهور لا يحلُّ فرار مئة إلا مما زاد على المئتين؛ فمهما كان في مقابلة مسلم أكثر من اثنين فيجوز الانهزام، والصبر أحسن.

وقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف في مقابل مئتي ألف، منهم مئة ألف من الروم، ومئة ألف من المستعربة من لخْم وجُذَام.

قلت: ووقع في تاريخ الأندلس، أن طارقًا مَوْلى موسى بن نصير سار في ألف وسبع مئة رجل إلى الأندلس، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، فالتقى وملك الأندلس «**لذريق**» وكان في سبعين ألف عنان؛ فزحف إليه طارق وصبر له فهزم اللَّه الطاغية لذريق، وكان الفتح. قال ابن وهب: سمعت مالكًا يسأل عن القوم يَلْقون العدو ويكونون في مَحْرس يحرسون فيأتيهم العدو وهم يسير، أيقاتلون أو ينصرفون فيؤذنون أصحابهم؟

قال: إن كانوا يقوون على قتالهم قاتلوهم، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فآذنوهم.

واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أم عامٌّ في الزُّحوف كلها إلى يوم القيامة؟ فرُوِي عن أبي سعيد الخدري أن ذلك مخصوص بيوم بدر، وبه قال نافع، والحسن، وقتادة، ويزيد بن أبي حبيب والضحاك، وبه قال أبو حنيفة.

وأن ذلك خاص بأهل بدر، فلم يكن لهم أن ينحازوا، ولو انحازوا لانحازوا للمشركين، ولم يكن في الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا للمسلمين فئة إلا النبي ﷺ.

قال الكِيَا: وهذا فيه نظر؛ لأنه كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبي ﷺ بالخروج ولم يكونوا يروْن أنه قتال، وإنما ظنوا أنها العِير، فخرج رسول اللَّه ﷺ فيمن خفَّ معه.

ويَروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة.

احتج الأولون بما ذكرنا، وبقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فقالوا: هو إشارة إلى يوم بدر، وأنه نسخ حكم الآية بآية الضِّعف. وبقي حكم الفرار من الزحف ليس بكبيرة. وقد فرَّ الناس يوم «**أُحُد**» فعفا عنهم، وقال اللَّه فيهم يوم حُنَيْنْ: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ولم يقع على ذلك تعنيف.

وقال الجمهور من العلماء: إنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف الذي يتضمنه قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾، وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضِّعف الذي بيَّنه اللَّه ـ تَعَالَى ـ في آية أخرى، وليس في الآية نسخ.

والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه. وإلى هذا ذهب مالك، والشافعي، وأكثر العلماء.

وفي «**صحيح مسلم**» عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»... ـ وفيه ـ «**والتولي يوم الزحف**»، وهذا نص في المسألة.

وأما يوم «**أحد**» فإنما فرَّ الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عُنِّفوا.

وأما يوم «**حنين**» فكذلك من فرَّ إنما انكشف عن الكثرة.

قال ابن القاسم: لا تجوز شهادة من فرَّ من الزحف، ولا يجوز لهم الفِرار من أكثر من ضِعفهم، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفًا؛ فإن بلغ اثني عشر ألفًا لم يحلَّ لهم الفرار، وإن زاد عدد المشركين على الضِّعف؛ لقول رسول اللَّه ﷺ: «**ولن يُغلب اثنا عشر ألفًا من قلة**»، فإن أكثر أهل العلم خصَّصوا هذا العدد بهذا الحديث من عموم الآية»(١).

«عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربع مئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا تُهزَم اثنا عشر ألفًا من قلّة**»(٢).

قال القرطبي: «وروي عن مالك ما يدل على ذلك من مذهبه، وهو قوله للعمري العابد إذ سأله: هل لك سعة في ترك مجاهدة من غيَّر الأحكام وبدَّلها؟ فقال: إذا كان معك اثنا عشر ألفًا فلا سعة لك في ذلك.

وقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ التَّحرُّف: الزوال عن جهة الاستواء. فالمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب، غير منهزم، وكذلك المتحيِّز إذا نوى التحيُّز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضًا.

قال محمد بن سيرين: لما قُتِل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إليَّ لكنتُ له فئة، فأنا فئة كل مسلم.

وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفِرار كبيرة؛ لأن الفئة هنا المدنية والإمام

---

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٨١٦ ـ ٢٨١٨).

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم في «المستدرك»، وكذا رواه أحمد، وعبد بن حميد، والدارمي، وابن خزيمة، وابن حبان، وابن عدي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٩٨٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٢٧٨)، و«الإرواء» (١٩٨٢).

وجماعة المسلمين حين كانوا. وعلى القول الآخر كبيرة؛ لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب. هذا على قول الجمهور أن الفِرار من الزحف كبيرة. قالوا: وإنما كان ذلك القول من النبي ﷺ وعمر على جهة الحيطة على المؤمنين، إذ كانوا في ذلك الزمان يثبتون لأضعافهم مِرارًا. والله أعلم.

وفي قوله: «**والتولي يوم الزحف**» ما يكفي»[1].

«يبدو في التعبير القرآني شدة في التحذير، وتغليظ في العقوبة، وتهديد بغضب من الله ومأوى في النار.

إن قلب المؤمن ينبغي أن يكون راسخًا ثابتًا لا تهزمه في الأرض قوة، وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده.. وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة - وهو يواجه الخطر - فإن هذه الهزة لا يجوز أن تبلغ أن تكون هزيمة وفرارًا، والآجال بيد الله، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفًا على الحياة. وليس في هذا تكليف للنفس فوق طاقتها، فالمؤمن إنسان يواجه عدوه إنسانًا. فهما من هذه الناحية يقفان على أرض واحدة، ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة الكبرى التي لا غالب لها، ثم إنه إلى الله إن كان حيًّا، وإلى الله إن كُتبت له الشهادة، فهو في كل حالة أقوى من خصمه الذي يواجهه وهو يشاق الله ورسوله.

انظر إلى التعبير ذاته، وما فيه من إيماءات عجيبة ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ فهو تعبير عن الهزيمة في صورتها الحسية، مع التقبيح والتشنيع، والتعريض بإعطاء الأدبار للأعداء!.. ثم ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فالمهزوم مولٍّ ومعه (غضب من الله) يذهب به إلى مأواه ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وهو يثير في الوجدان شعور الاستقباح والاستنكار للتولي يوم الزحف والفرار.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٨١٩/٤، ٢٨٢٠).

قال رسول اللَّه ﷺ: «**اجتنبوا الكبائر السبع: الشرك بالله، وقتل النفس، والفِرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وقذف المحصنة، والتعرُّب**[١] **بعد الهجرة**»[٢].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**الكبائر الإشراك بالله، وقذفُ المحصنة، وقتلُ النفس المؤمنة، والفِرارُ يوم الزحف، وأكلُ مال اليتيم، وعقوق الوالدين المسلمَيْن، وإلحادٌ بالبيت، قبلتكم أحياءً وأمواتًا**»[٣].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**خمس ليس لهن كفارة: الشرك بالله، وقتلُ النفس بغير حق، وبُهتُ**[٤] **المؤمن، والفِرارُ من الزحف، ويمين صابرة يقتطع بها مالًا بغير حق**»[٥].

وقال ﷺ: «**الكبائر تسع، أعظمهن إشراك بالله، وقتل النفس بغير حق، وأكلُ الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار يوم الزحف وعقوق الوالدين، واستحلال البيت الحرام، قبلتكم أحياءً وأمواتًا**»[٦].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**الكبائر سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق، وقذف المُحصنة، والفرار من الزحف، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة**»[٧].

---

(١) أي: العودة للبادية للحياة مع الأعراب.

(٢) **حسن**: رواه الطبراني في «الكبير» عن سهل بن أبي حثمة، وَحَسَّنَهُ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٣)، والألباني في «صحيح الجامع» (١٤٥).

(٣) **حسن**: أخرجه البيهقي في «سننه» عن ابن عمر، وَحَسَّنَهُ الألباني في «الإرواء» (٦٩٠)، و«صحيح الجامع» (٤٦٠٢).

(٤) المراد: الافتراء والكذب عليه المؤدي لشحوب لونه.

(٥) **حسن**: أخرجه أحمد، وأبو الشيخ في «التوبيخ» عن أبي هريرة، وَحَسَّنَهُ الألباني في «الإرواء» (١٢٠٢) و«صحيح الجامع» (٣٢٤٧).

(٦) **حسن**: أخرجه النسائي، وأبو داود عن عمير، وكذا أخرجه الطحاوي، والحاكم، والبيهقي في «سننه»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «الإرواء» (٦٩٠) و«صحيح الجامع» رقم (٤٦٠٥).

(٧) **حسن**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» عن أبي سعيد، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٦٠٦).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**من جاء يعبد اللَّه لا يشرك به شيئًا، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويتقي الكبائر فإن له الجنة**» قالوا: ما الكبائر؟ قال: «**الإشراك بالله، وقتل النفس المسلمة، وفرار يوم الزحف**»(١).

٣٧- قال - تعالَى -: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [**الأنفال: ٦٠**].

قال ابن كثير (٧/١٠٩، ١١٠): «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾؛ أي: مهما أمكنكم، ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»(٢).

قال القرطبي (٤/٢٨٧٤، ٢٨٧٥): «قوله - تعَالَى -: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ أمر - سبحانه - المؤمنين بإعداد القوة للأعداء بعد أن أكدَّ تقدمة التقوي، فإن اللَّه - سبحانه - لو شاء لهزمهم بالكلام والتَّفْل في وجوههم وبحَفْنة من تراب، كما فعل رسول اللَّه ﷺ، ولكنه أراد أن يبتلي بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ. وكلما تعدُّه لصديقك من خير أو لعدوك من شرٍّ فهو داخل في عدتك.

قال ابن عباس: القوة هاهنا السلاح والقسي.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم عن أبي أيوب، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» (١٢٠٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٦١٨٥).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٤/١٥٦) رقم (١٧٤٧٩)، ومسلم (١٩١٧)، وأبو داود (٢٥١٤)، وابن ماجه (٢/٩٤٠) حديث (٢٨١٣)، والدارمي (٢/٢٠٤)، وأبو داود الطيالسي في «مسنده» (١١٨٢).

وفضل الرمي عظيم، ومنفعته عظيمة للمسلمين، ونكايته شديدة على الكافرين». اهـ.

قال رسول اللَّه ﷺ «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا**»[١].

وقال ﷺ «**رميًا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا**»[٢].

وقال القرطبي: «**وتعلُّم الفروسية واستعمال الأسلحة فرض كفاية، وقد يتعيَّن**».

قال أبو جعفر ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللَّه أمر المؤمنين بإعداد الجهاد، وآلة الحرب، وما يتقوَّون به على جهاد عدوِّه وعدوِّهم من المشركين من السلاح، والرمي، وغير ذلك، ورباط الخيل. ولا وجه أن يُقال: عنى بالقوة معنى دون معنى من معاني القوة، وقد عمَّ اللَّه الأمر بها. فإنْ قال قائل: فإن رسول اللَّه ﷺ قد بيَّن أن ذلك مراد به الخصوص بقوله: «**ألا إن القوة الرمي**». قيل له: إن الخبر إن كان قد جاء بذلك فليس في الخبر ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة دون سائر معاني القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة؛ لأنه إنما قيل في الخبر: ألا إن القوة الرمي ولم يقل دون غيرها. ومن القوة ـ أيضًا ـ السيف والرمح والحربة وكل ما كان معونة على قتال المشركين كمعونة الرمي، أو وأبلغ من الرمي فيهم، وفي النكاية منهم»[٣].

وقال رسول اللَّه ﷺ «**ستُفتح عليكم أرضون[٤]، ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بسهمه**»[٥].

---

(١) رواه أحمد والبخاري عن سلمة بن الأكوع، والحاكم عن أبي هريرة وعن سلمة، وابن حبان عن أبي هريرة، وأحمد، وابن ماجه، والحاكم عن ابن عباس.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه، والحاكم عن ابن عباس، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٥٢٠).

(٣) تفسير الطبري (١٠/٢٣).

(٤) أرضون: جمع أرض.

(٥) رواه أحمد، ومسلم عن عقبة بن عامر.

وقال ﷺ: «**ألا إن اللَّه سيفتح لكم الأرض وستُكْفَوْن المؤنة**[١] **؟ فلا يعجزنَّ أحدكم أن يلهوَ بأسهمه**»[٢].

وقال ﷺ: «**عليكم بالرمي، فإنه من خير لعبكم**»[٣].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**عليكم بالرمي، فإنه من خير لهوكم**»[٤].

وقال ﷺ: «**من أحسن الرمي ثم تركه، فقد ترك نعمة من النعم**»[٥].

وقال ﷺ: «**من ترك الرمي بعد ما علمه، رغبة عنه، فإنها نعمة كفرها**»[٦].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**من علم الرمي ثم تركه فليس منا**»[٧].

«وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك رضي الله عنه إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى؛ للحديث. واللَّه أعلم»[٨].

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾

قال ابن زيد: الرباط من الخيل الخَمسُ فما فوقها، وجماعته رُبُط. وهي التي ترتبط، يُقال: ربط يرْبطِ رَبْطًا. وارتبط يرتبط ارتباطًا. ومربط الخيل ومرابطها وهي

---

(١) المؤنة: القوت.

(٢) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي واللفظ له عن عقبة بن عامر.

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط» عن سعد، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٢٩)، و«صحيح الجامع» (٤٠٦٥).

(٤) **صحيح**: رواه البزار عن سعد، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٦٢٩)، و«صحيح الجامع» (٤٠٦٦).

(٥) **صحيح**: أخرجه القراب في «الرمي» عن يحيى بن سعيد مرسلًا، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٩٧٢). **انظر**: الترغيب (٢/١٧٢).

(٦) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير»، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، والدارمي، وابن خزيمة، والحاكم، والبيهقي في «سننه»، والطيالسي عن عقبة، ورواه البزار والطبراني في «الصغير والأوسط» عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦١٤٢)، **وانظر**: الترغيب (٢/١٧٢).

(٧) رواه مسلم عن عقبة بن عامر.

(٨) تفسير ابن كثير (٧/١١١).

ارتباطها بإزاء العدو؛ قال الشاعر:

أَمَـرَ الإِلَـهُ بِـرَبْـطِـهَـا لِـعَـدُوِّهِ   فِي الْحَرْبِ إِنَّ اللَّهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ

وقال مكحول بن عبدالله:

تَلُومُ عَلَى رَبْطِ الْجِيَادِ وَحَبْسِهَا   وَقَدْ أَوْصَى بِهَا اللهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا

ورباط الخيل فضل عظيم ومنزلة شريفة. وكان لعُروة البارقي ﷺ سبعون فرسًا مُعَدَّة للجهاد.

قال القرطبي: «**فإنْ قيل: إن قوله:** ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ كان يكفي، فلم خصَّ الرمي والخيل بالذكر؟ قيل له: إن الخيل لما كانت أصل الحروب وأوزارها[1] التي عُقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوة وأشد العُدَّة وحصون الفرسان، وبها يُجال في الميدان، خصَّها بالذكر؛ تشريفًا، وأقسم بغبارها تكريمًا، فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ①﴾ [العاديات: ١] الآية، ولما كانت السهام من أنجح ما يُتعاطى في الحروب والنكاية في العدو وأقربها تناولًا للأرواح خصها رسول اللَّه ﷺ بالذكر لها والتنبيه عليها. ونظير هذا في التنزيل: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ونظيره كثير»[2]. ولله ما أحلى إضافة الخيل إلى اللَّه فيقال: «**يا خيل اللَّه اركبي**»

❑ **والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة:**

عن عروة بن أبي الجعد البارقي ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم**»[3] وفي رواية: بنواصيها.

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**البركة في نواصي الخيل**»[4].

---

(١) أوزار الحرب: أثقالها من آلة حرب وسلاح وغيره.

(٢) تفسير القرطبي (٢٨٧٦/٤).

(٣) رواه البخاري برقم (٢٨٥٠) وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن عروة، وأحمد ومسلم والنسائي عن جرير.

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي.

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الخيل ثلاثة: ففرس للرحمن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن، فالذي يُرتبط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله في ميزانه، وأما فرس الشيطان فالذي يُقامَر أو يُراهَن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها**[١]**، فهي ستر من الفقر**»[٢].

وعن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الخيلُ في نواصي شُقرِها الخيرُ**»[٣].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة، والمنفق على الخيل كالباسط كفَّه بالنفقة لا يقبضها**»[٤].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الخيل لثلاثة: هي لرجل أجر، ولرجل سِتر، وعلى رجل وِزر؛ فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل اللَّه فأطال لها في مرْج أو روضة**[٥]**، فما أصابت في طيلها**[٦] **من المرج والروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت**[٧] **شرفًا أو شرفين**[٨] **كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرَّت بنَهر فشربت ولم يُرد أن يسقيها كان ذلك له حسنات. ورجل ربطها تغنِّيًا، وسِترًا، وتعففًا، ثم لم ينس حق اللَّه في رقابها وظهورها**

---

(١) أي: يطلب ما في بطنها للنسل.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» (٣٩٥/١)، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» برقم (١٥٠٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٣٥٠).

(٣) **حسن**: رواه الخطيب في «تاريخ بغداد»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٣٥١). **انظر**: الترغيب والترهيب (١٦٢/٢، ١٦٣).

(٤) **صحيح**: رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٣٤٩)، **انظر**: الترغيب (١٦٠/٢).

(٥) المرج: هو الأرض الواسعة ذات النبات. والروضة: البستان.

(٦) هو: الحبل تُربط به.

(٧) أي: عَدَت نشيطة من غير راكب عليها.

(٨) شوطًا أو شوطين.

فهي له سِتر، ورجل ربطها فخرًا ورياءً ونواءً[١] **لأهل الإسلام فهي له وزر»**[٢].

وقال ﷺ: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[٣].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، فامسحوا بنواصيها، وادعوا لها بالبركة، وقلدوها، وتقلدوها الأوتار**[٤]»[٥].

وقال ﷺ: «**الخيل معقود في نواصيها الخير واليُمْنُ**[٦] **إلى يوم القيامة، وأهلها مُعَانون عليها، قلِّدوها، ولا تقلدوها الأوتار**»[٧].

وقال ﷺ: «**من ارتبط فرسًا في سبيل الله، ثم عالج**[٨] **علفه بيده كان له بكل حبة حسنة**»[٩].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من امرئ مسلم يُنَقي لفرسه شعيرًا، ثم يُعَلِّقُه عليه إلا**

---

(١) عداء.

(٢) رواه مالك في «الموطإ» (٢/٤١٤) ومن طريقه البخاري (٢٣٧١)، ورواه مسلم (٩٨٧)، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٣) رواه مالك وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر، وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن عروة بن الجعد، ورواه البخاري عن أنس، ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه أحمد عن أبي ذر وعن أبي سعيد، ورواه الطبراني في «الكبير» عن سوادة ابن الربيع، وعن النعمان بن بشير، وعن أبي كبشة.

(٤) قلدوها؛ أي: ألزموها الخير والدفاع عن المسلمين.
الأوتار: الدم وطلب الثأر.

(٥) **حسن**: أخرجه أحمد في «مسنده»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٥٥).

(٦) البركة.

(٧) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» عن جابر، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٥٦).

(٨) عالج؛ أي: زاول إطعامه بيده.

(٩) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وابن حبان عن تميم الداري، وكذا رواه الطبراني في «الأوسط»، والدولابي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٠٠٨).

كتب الله له بكل حبة حسنة»[١].

وقال رسول الله ﷺ: **«من احتبس فرسًا في سبيل الله، إيمانًا بالله، وتصديقًا بوعده، كان شبعه، ورِيُّه، حسناتٍ في ميزانه يوم القيامة»**[٢].

وقال ﷺ: **«إن المنفق على الخيل في سبيل اللَّه كالباسط يديه بالصدقة لا يقبضها»**[٣].

وقال ﷺ: **«المنفق على الخيل في سبيل اللَّه كباسط يديه بالصدقة لا يقبضها»**[٤].

وقال رسول اللَّه ﷺ: **«عليك بالخيل، فإن الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»**[٥].

ونختم بهذا الحديث العجيب الجميل، الجميل الرقيق.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إنه ليس من فرس عربي إلا يُؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين، يقول: «اللهم إنك خوَّلتني[٦] من خوَّلتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه»**[٧].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن تميم، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٢٦٩)، و«صحيح الجامع» رقم (٥٦٨٨).

(٢) رواه أحمد، والبخاري، والنسائي عن أبي هريرة.

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن سهل بن الحنظلية، ورواه أبو داود، والحاكم، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٩٦٤)، **وانظر**: الترغيب (١٦١/٢).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم في «المستدرك» عن ابن الحنظلية، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٧٣٣).

(٥) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، والضياء في «المختارة» عن الصحابي سوادة بن الربيع، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٣٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٠٤٠).

(٦) أعطيتني إياه متفضِّلًا.

(٧) **صحيح**: رواه أحمد (١٦٢/٥) (٢١٥٢٣) (١٧٠/٥) (٢١٥٧٨)، والنسائي (٢٢٣/٦)، والحاكم، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٤١٤)، **وانظر**: الترغيب (١٦١/٢).

ولله ما أحلى قول القائل:

جَوَادُ دِينِكَ فِي الْمَيْدَانِ مُنْطَلِقُ ... وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ مِنْ إِصْرَارِهِ أَلَقُ
صَهِيلُهُ نَغَمٌ يُصْغِي الزَّمَانُ لَهُ ... ونَقْعُهُ لِحِجَابِ الشَّمْسِ يَخْتَرِقُ
تَشْدُو حَوَافِرُهُ لَحْنًا يَهَشُّ لَهُ ... قَلْبُ التُّرَابِ وتَسْتَرْخِي لَهُ الطُّرُقُ
يُسَابِقُ الرِّيحَ فِي دَرْبِ الإِبَاءِ وَكَمْ ... خَيْلٌ سِوَاهُ إِلَى الأَهْوَاءِ تَسْتَبِقُ
جَوَادُ دِينِكَ يَجْرِي النُّورُ فِي دَمِهِ ... وتَشْرَئِبُّ إِلَى غَارَاتِهِ العُنُقُ
تَكُفُّ عَنْ وَجْهِهِ الصَّحْرَاءُ مَا حَمَلَتْ ... مِنْ سَفْيِهَا وَيُنَاغِي رَكْضَهُ الشَّفَقُ
يَقُضُّ مَضْجَعَ كُلِّ الصَّافِنَاتِ إِذَا ... ثَارَ الْغُبَارُ وَطَارَتْ نَحْوَهُ الحَدَقُ
مُجَاهِدٌ وَالأَمَانِي الْبِيضُ لاهِثَةٌ ... وَرَاءَهُ وَبِحَارُ الشَّوْقِ تَصْطَفِقُ
إِذا تَلَفَّتَ غَنَّى فجرُ غُرَّتِهِ ... لَحْنَ الضِّيَاءِ وَأَرْخَى طَرْفَهُ الغَسَقُ
وَسَافَرَ اللَّيْلُ مَبْهُورًا وَأَعْقَبَهُ ... فَجْرٌ تَحَفَّزَ لِاسْتِقْبَالِهِ الأُفُقُ

● ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

قال القرطبي: «وقد استدل بعض علمائنا بهذه الآية على جواز وقف الخيل والسلاح، واتخاذ الخزائن والخزان لها عُدَّةً للأعداء.

وقد اختلف العلماء في جواز وقف الحيوان كالخيل والإبل على قولين: المنع، وبه قال أبو حنيفة. والصحة، وبه قال الشافعي ﷺ، وهو أصح؛ لهذه الآية، ولحديث ابن عمر في الفرس الذي حمل عليه في سبيل الله، وقوله ﷺ في حق خالد: «**وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا فإنه قد احتبس أدراعه وأَعْتَادَهُ**[1] **في سبيل الله**» الحديث»[2].

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: تخزون به عدو الله

(۱) أعتاده: آلات الحرب من السلاح والدواب وغيرها.
(۲) تفسير القرطبي (٢٨٧٦/٤، ٢٨٧٧).

وعدوكم﴾[1].

وقال ابن كثير (١١٢/٧): أي: تخوفون به.

﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ من الكفار.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: «**هم الشياطين التي في الدور**». وقيل: الجن، وهو اختيار الطبري.

وقيل: المراد بذلك كل من لا تُعرف عداوته.

قال القرطبي (٢٨٧٧/٤): «ولا ينبغي أن يقال فيهم شيء، لأن اللَّه ـ سبحانه ـ قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ؛ فكيف يدَّعي أحد علمًا بهم، إلا أن يصح حديث جاء في ذلك عن رسول اللَّهﷺ وهو قوله في هذه الآية: «**هم الجن**».

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

قال الطبري (٢٣/١٠): «وما أنفقتم أيها المؤمنون من نفقة في شراء آلة حرب من سلاح أو حرب أو كراع أو غير ذلك من النفقات في جهاد أعداء اللَّه من المشركين يخلفه اللَّه عليكم في الدنيا ويدَّخر لكم أجوركم على ذلك عنده حتى يوفيكموها يوم القيامة.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا يضيع أجوركم عليه.

قال ابن إسحاق: لا يضيع لكم عند اللَّه أجره في الآخرة، وعاجل خلفه في الدنيا».

وقال ابن كثير: «مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفي إليكم على التمام والكمال، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي

(١) تفسير الطبري ٢٢/١٠.

كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ﷺ للذي وقف ناقة مخطومة في سبيل اللَّه ﷻ: «**لك بها سبع مئة ناقة في الجنة**»[١]، وقال ﷺ: «**لك بها يوم القيامة سبع مئة ناقة مخطومة**»[٢].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**من أظل رأس غازٍ أظله اللَّه يوم القيامة، ومن جهز غازيًا في سبيل الله، فله مثل أجره حتى يموت أو يرجع، ومن بنى لله مسجدًا يذكر فيه اسم اللَّه بنى اللَّه له بيتًا في الجنة**»[٣].

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾.

«**إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في «الأرض»** لتحرير «**الإنسان**».. وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة أن تُؤَمِّنَ الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها؛ فلا يُصَدُّوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.. والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين، فلا يفكروا في الاعتداء على «**دار الإسلام**» التي تحميها تلك القوة.. والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير «**الإنسان**» كله في «**الأرض**» كلها.. والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها؛ ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده؛ ومن ثم فالحاكمية له وحده ـ سبحانه ..

---

(١) **صحيح**: رواه أبو نعيم في «الحلية» عن ابن مسعود، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠٣٠)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٦٣٤).

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن ابن مسعود، ويحتمل أن يكون الحديث على ظاهره، ويكون له بها في الجنة سبع مئة ناقة كلها مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه. قال الثوري: وهذا الاحتمال أظهر.

(٣) **صحيح**: رواه ابن أبي شيبة (١/ ٣١٠)، وابن ماجه (٢٧٥٨)، وابن حبان (٤٦٢٨)، والبيهقي (٩/ ١٧٢)، والحاكم (٢/ ٨٩)، وأحمد (١/ ٢٠): وقال شعيب الأرناءوط في «الإحسان»: رجاله ثقات، رجال الصحيح.

إن الإسلام ليس نظامًا لاهوتيًا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب، وتنظيمًا للشعائر، ثم تنتهي مهمته.

إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة؛ يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية. فلا مفر للإسلام - لإقرار منهجه الرباني - من تحطيم تلك القوى المادية، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى، وتقاوم المنهج الرباني.

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة.. ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني.

ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية اللَّه وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر؛ ولا لتقرير سلطان زعيم، أو دولة، أو طبقة، أو جنس! إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان؛ ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية؛ ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية.

إنما ينطلق بمنهج من صنع اللَّه العليم الحكيم الخبير البصير؛ ولتقرير ألوهية اللَّه وحده وسلطانه؛ لتحرير «**الإنسان**» في «**الأرض**» من العبودية للعبيد.

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع؛ وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي[١].

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة. فالنص يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن

فهي حدود الطاقة إلى أقصاها. بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها.

كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء اللَّه الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض. الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون؛ ومَنْ وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة، واللَّه يعلم سرائرهم وحقائقهم. وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم. والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة؛ ليكونوا مرهوبين في الأرض؛ ولتكون كلمة اللَّه هي العليا، وليكون الدين كله لله.

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالًا، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله؛ ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله، من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصي؛ ومن كل شعور قومي أو طبقي؛ ليتمحض خالصًا لله ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لتحقيق كلمة الله، وابتغاء رضوان الله.

ومن ثم ينفي الإسلام من حسابه - منذ الوهلة الأولى - كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول، وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق، وكل حرب تقوم للقهر والإذلال، وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن، أو قوم على قوم، أو جنس على جنس، أو طبقة على طبقة.. ويستبقي نوعًا واحدًا من الحركة.. حركة الجهاد في سبيل الله.

واللَّه - سبحانه - لا يريد تسويد جنس، ولا وطن، ولا قوم، ولا طبقة، ولا فرد، ولا شعب. إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته. وهو غني عن

العالمين، ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين.

﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾: تخزون به عدو الله وعدوكم؛ إما الإسلام، وإما الجزية، وإما السيف.

يا لها من هزيمة روحية وعقلية.. وأي هزيمة.. الهزيمة الروحية والعقلية يعانيها الكثيرون ممن يكتبون عن «الجهاد في الإسلام»؛ فيثقل ضغط الواقع الحاضر على أرواحهم وعقولهم؛ ويستكثرون على دينهم ـ الذي لا يدركون حقيقته ـ أن يكون منهجه الثابت هو مواجهة البشرية كلها بواحدة من ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو القتال، وهم يرون القوى الجاهلية كلها تحارب الإسلام وتناهضه؛ وأهله ـ الذين ينتسبون إليه وهم لا يدركون حقيقته ولا يشعرون بها شعورًا جديًّا ـ ضعاف أمام جحافل أتباع الديانات والمذاهب الأخرى؛ كما يرون طلائع العصبة المسلمة الحقة قلة بل ندرة؛ ولا حول لهم في الأرض ولا قوة.. وعندئذ يعمد أولئك الكتاب إلى لَيِّ أعناق النصوص؛ ليؤولوها تأويلًا يتمشى مع ضغط الواقع وثقله؛ ويستكثرون على دينهم أن يكون هذا منهجه وخطته!

إنهم يعمدون إلى النصوص المرحلية، فيجعلون منها نصوصًا نهائية؛ وإلى النصوص المقيدة بحالات خاصة، فيجعلون منها نصوصًا مطلقة الدلالة؛ حتى إذا وصلوا إلى النصوص النهائية المطلقة أوَّلوها وفق النصوص المقيدة المرحلية! وذلك كله كي يصلوا إلى أن الجهاد في الإسلام هو مجرد عملية دفاع عن أشخاص المسلمين، وعن دار الإسلام عندما تهاجم! وأن الإسلام يتهالك على أي عرض للمسالمة. والمسالمة معناها مجرد الكف عن مهاجمة دار الإسلام!

إن الإسلام ـ في حسهم ـ يتقوقع، أو يجب أن يتقوقع داخل حدوده ـ في كل وقت ـ، وليس له الحق أن يطالب الآخرين باعتناقه، ولا بالخضوع لمنهج الله، اللهم إلا بكلمة أو نشرة أو بيان، أما القوة المادية ـ الممثلة في سلطان الجاهلية على الناس ـ

فليس للإسلام أن يهاجمها إلا أن تهاجمه، فيتحرك حينئذ للدفاع!

ولو أراد هؤلاء المهزومون روحيًا وعقليًا أمام ضغط الواقع الحاضر، أن يلتمسوا في أحكام دينهم ما يواجه هذا الواقع ـ دون ليٍّ لأعناق النصوص ـ لوجدوا فيه هذه الواقعية الحركية في أحكامه وتصرفاته المرحلية التي كان يواجه بها ضغط الواقع المشابه لما نواجهه نحن اليوم؛ ولاستطاعوا أن يقولوا: إنه في مثل هذه الحال كان الإسلام يتصرف على هذا النحو، ولكن هذه ليست هي القواعد الدائمة؛ إنما هي الأحكام والتصرفات التي تواجه الضرورة.

ليست خيولهم بالعاديات صبحًا، ولا هي الموريات قدحًا، ولا المغيرات صبحًا؛ الخيل التي أقسم اللَّه بها وبما تثيره من الغبار ليست هي خيولنا، إنما هي خيل أبي سليمان خالد.. هي فرس أبي قتادة فارس رسول اللَّه ﷺ.. إنما خيلنا خيل المعلم متقال.. خيول رقص.. عوَّدُوها على الرقص والمزمار، بل ـ واللَّه ـ وأطعموها القات والسيجار، وجعلوها تنفس هذا التبغ والدخان.

أين فرس خالد، وطارق؟!.. أين فرس أبي قتادة؟!..

سَعَيْتُ إِلَيْكِ كَطَيْفٍ جَرِيحٍ كَسِيرَ الْفُؤَادِ حَزِينًا عَلِيلَا
سَعَيْتُ يُمَزِّقُ خَطْوِي الضَّيَاعُ وَمَا غَيْرُ شَوْقِي إِلَيْكِ الدَّلِيلَا
لِكَيْمَا أُعَانِقَ فِيكِ الْإِبَاءَ وَأَتْلُوَ سِفْرَ عُلَاكِ الْجَلِيلَا
وَأَسْتَنْشِقَ العَبَقَ اليَعْرُبِيَّ وعَزْمًا عنيدًا ومجدًا أثيلَا
فَيَنْدَاحُ يَأْسِي وَيَذْوِي أَسَايَ وَلَكِنَّنِي لَمْ أَجِدْكِ الْخُيُولَا
وَلَكِنْ بَقَايَا نِعاجٍ عِجَافٍ مُفَكَّكَةِ الْعَزْمِ تَحْكِي الطُّلُولَا
وَفِي مُقْلَتَيْكِ ذُبَابٌ مُقِيمٌ لِيَمْتَصَّ مِنْكِ الْبَرِيقَ الْأَصِيلَا
وَمِضْمَارُكِ الْفَذُّ أَضْحَى حَلَالًا لِمَنْ يَبْتَغِيهِ وَقَدْ كَانَ غِيلَا
أُشَاهِدُ كَلْبًا عَقُورًا بِهِ وَذِئْبًا حَقِيرًا وَضَبْعًا هَزِيلَا
فَنَامِي وَنَامِي فَلَا الْفَجْرُ لَاحَ وَلَيْلُكِ يَبْدُو طَوِيلًا طَوِيلَا

وَفِي سَاحَةِ الْهَوْلِ لَا النَّقْعُ ثَارَ ... وَلَا «خَالِدٌ» جَاءَ يَحْمِي الْقَبِيلَا
وَلَا «سَعْدُ» قَامَ يَشُقُّ الصُّفُوفَ ... لِيَجْعَلَ جَيْشَ الْأَعَادِي فُلُولَا
وَلَا الرُّمْحُ سُدِّدَ نَحْوَ النُّحُورِ ... وَلَا السَّيْفُ عَادَ حُسَامًا صَقِيلَا
فَلَنْ تَسْمَعِي قَعْقَعَاتِ الرِّمَاحِ ... وَلَنْ تَسْمَعِي لِسُيُوفٍ صَلِيلَا
وَلَا تَعْجَبِي فَهُمُ كَفَّنُوهَا ... بِأَغْمَادِ ذُلٍّ أَبَى أَنْ يَزُولَا
وَأَنَّى لَكِ الْيَوْمَ أَنْ تَنْهَضِي ... وَإِنِّي أَرَاكِ كَثِيبًا مَهِيلًا؟
وَلَوْ قَدْ نَهَضْتِ فَمَا مِنْ غَنَاءٍ ... وَسَعْيُكِ مَا عَادَ يُجْدِي فَتِيلَا
وَمَا قِيمَةُ السَّعْيِ إِنْ لَمْ يُحَقِّقْ ... إِبَاءً وَضَرْبًا يُرَوِّي الْغَلِيلَا

* * *

فَنَامِي فَلَيْسَ سِوَى أَنْ تَنَامِي ... وَمَا عُدْتِ تَمْتَلِكِينَ الْبَدِيلَا
وَلَا تَحْلُمِي بِانْطِلَاقٍ جَلِيلٍ ... يَرُودُ السَّنَا وَالذُّرَا وَالسُّهُولَا
تَعِيشِينَ فِيهِ ابْتِسَامَ الصَّبَاحِ ... وَشَمْسُ الْأَصِيلِ تُنَاجِي الْخَمِيلَا
وَعُشْبًا نَدِيًّا لَذِيذَ الْمَذَاقِ ... وَرِيحًا رَخِيًّا وَظِلًّا ظَلِيلَا
وَلَحْنًا يَجُودُ بِهِ فِي الرَّبِيعِ ... خَرِيرُ مِيَاهٍ جَرَتْ سَلْسَبِيلَا
يُجَاوِبُ فِيهِ حَفِيفَ الْغُصُونِ ... وَتَغْرِيدَ حُسُونِهَا وَالْهَدِيلَا

* * *

وَإِيَّاكِ أَنْ تَصْهَلِي فَالصَّهِيلُ ... سَيَحْرِمُكِ الْعُشْبَ عَرْضًا وَطُولَا
وَلَا تَضْبَحِي فَالضُّبَاحُ سَيَغْدُو ... إِذَا مَا ضَبَحْتِ دَمًا أَوْ عَوِيلَا
هُوَ الصَّمْتُ أَصْبَحَ أَعْلَى مَقَامًا ... وَأَجْدَى مَرَامًا وَأَقْوَمَ قِيلَا
وَإِيَّاكِ أَنْ تَحْلُمِي بِالْإِبَاءِ ... فَإِنَّ الْإِبَاءَ غَدَا مُسْتَحِيلَا
فَنَامِي وَشُدِّي عَلَيْكِ الْغِطَاءَ ... كَثِيفًا كَثِيفًا ثَقِيلًا ثَقِيلَا
فَمَنْ لَمْ يَنَمْ تَاهَ مِنْهُ الطَّرِيقُ ... وَنَالَ مِنَ الْكَرْبِ حَظًّا وَبِيلَا
وَلَا تَسْأَلِينِيَ أَيْنَ الدَّلِيلُ؟ ... فَقَدْ خَدَعَ الْقَوْمُ عَنْكِ الدَّلِيلَا
وَلَا تَسْأَلِينِيَ أَيْنَ السَّبِيلُ؟ ... فَإِنِّي أَيْضًا ضَلَلْتُ السَّبِيلَا

فَهَذَا زَمَانُ الدَّعِيِّ الَّذِي ... بِهِ حَرِمُوا الْحُرَّ حَتَّى الرَّحِيلَا
وَفِيهِ اخْتَفَتْ مَكْرُمَاتُ الرِّجَالِ ... وَأَنْكَرَ كُلُّ خَلِيلٍ خَلِيلَا
وَعَاشَ بِهِ الْحُرُّ يَخْشَى الْحَيَاةَ ... وَيَخْشَى الْمَمَاتَ وَيَخْشَى الْمَقِيلَا
وَيَخْشَى أَنَامِلَهُ إِنْ سَهَا ... فَتُرْدِيهِ غَدْرًا بِخَنْقٍ قَتِيلَا
حَنَانَيْكِ نَامِي وَشُدِّي الْغِطَاءَ ... وَلَوْ كَانَ نَسجُ الْغِطَاءِ الْوُحُولَا
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْخَزَايَا تَسُودُ ... وَشَاهَدْتُ «عَنْتَرَ» عَبْدًا ذَلِيلَا
وَقَدْ مَاتَ فِي شَفَتَيْهِ الْقَصِيدُ ... عَلَى جِلْدِهِ السَّوْطُ يَهْوِي مَهُولَا
يُنَادَى عَلَيْهِ «أَمَنْ يَشْتَرِيهِ» ... وَيَدْفَعُ فِيهِ الْبَخِيسَ الْقَلِيلَا؟
وَ«طَارِقَ» شُدَّ عَلَيْهِ الْوَثَاقُ ... يُعَذَّبُ فِي السِّجْنِ حَتَّى يَمِيلَا
وَيُنْكِرَ مَا صَاغَهُ مِنْ فُتُوحٍ ... وَحَقَّقَ فِيهَا انْتِصَارًا جَلِيلَا
وَيُحْنِيَ قَامَتَهُ لِلدَّعِيِّ ... وَيَتْرُكَ «لِلْذرِيقَ» كَيْمَا يَصُولَا[1]

* * *

٣٨ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ **[الأنفال: ٦٥، ٦٦]**.

قال القرطبي: «قوله ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾؛ أي: حُثَّهم وحضَّهم. يقال: حارض على الأمر وواظب وواصب وأكبَّ بمعنى واحد»[2].

---

(١) زيارة فوق العادة للخيول العربية، للدكتور جابر قميحة، «مجلة القدس» العدد «١٣» «رمضان ـ شوال ١٤٢٠هـ ـ يناير ٢٠٠٠م» ص (٨٠، ٨١).

(٢) القرطبي (٤/٢١٨٣).

قال ابن جرير (١٠/٢٧، ٢٨): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ حُثَّ متبعيك ومصدقيك على ما جئتهم به من الحق على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين. إن يكن منكم عشرون رجلًا صابرون عند لقاء العدو، يحتسبون أنفسهم، ويثبتوا لعدوهم، يغلبوا مئتين من عدوهم ويقهروهم، وإن يكن منكم مئة عند ذلك يغلبوا ألفًا. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ من أجل أن المشركين قوم يقاتلون على غير رجاء وثواب، ولا لطلب أجر ولا احتساب؛ لأنهم لم يفقهوا أن اللَّه موجب لمن قاتل احتسابًا وطلب موعود اللَّه في المعاد ما وعد المجاهدين في سبيله، فهم لا يثبتون إذا صدقوا في اللقاء؛ خشية أن يُقتلوا فتذهب دنياهم.

ثم خفف ـ تَعَالَى ذكره ـ عن المؤمنين، إذ علم ضعفهم، فقال لهم: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ؛ يعني: أن في الواحد منهم عن لقاء العشرة من عدوهم ضعفًا، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ عند لقائهم للثبات لهم ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم، ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ منهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ؛ يعني: بتخلية اللَّه إياهم؛ لغلبتهم ومعونته إياهم. ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ لعدوهم وعدوِّ الله؛ احتسابًا في صبره، وطلبًا لجزيل الثواب من ربه بالعون منه له والنصر عليه.

قال عطاء: كان الواحد لعشرة، ثم جُعِل الواحد باثنين لا ينبغي له أن يفرَّ منهما.

وقال ابن عباس: أمر اللَّه الرجل من المؤمنين أن يقاتل عشرة من الكفار، فشق ذلك على المؤمنين، ورحمهم اللَّه فقال: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فأمر اللَّه الرجل من المؤمنين أن يقاتل رجلين من الكفار». وقال: «كان جعل على رجل من المسلمين عشرة من العدو يؤشبهم (يعني: يغريهم) بذلك؛ ليوطنوا أنفسهم على الغزو وأن اللَّه ناصرهم على العدو».

قال ابن جرير: «وهذه الآية: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ وإن كان مخرجها مخرج الخبر فإن معناها الأمر، يدل على ذلك قوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل، ولو كان ثبوت العشرة منهم للمئة من عدوهم كان غير فرض عليهم قبل التخفيف وكان ندبًا لم يكن للتخفيف وجه؛ لأن التخفيف إنما هو ترخيص في ترك الواحد من المسلمين الثبوت للعشرة من العدو.

وعن ابن عباس - رضي اللّه عنهما - قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مئتين، ومئة ألفًا، فخفف اللّه عنهم، فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدو لهم لم يَنْبَغِ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم».

عن ابن عباس - رضي اللّه عنهما -: «**كان فرض على المؤمنين أن يقاتل الرجل منهم عشرة من المشركين، فشق ذلك عليهم، فأنزل اللّه التخفيف. وبمثل قوله قال قتادة، وابن أبي نجيح، ومجاهد، والضحاك.**

● ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾

قال ابن إسحاق: أي: لا يقاتلون على نية، ولا حق فيه، ولا معرفة لخير ولا شر».

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا﴾ قراءة بعض المدنيين وبعض البصريين بضم الضاد، ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ بفتح الضاد قراءة عامة قرَّاء الكوفة، وهما قراءتان معروفتان، ولغتان مشهورتان بمعنى واحد، فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب».

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

«حرضهم. وهم لعدوهم وعدو اللّه كفء، وإن قل عددهم وكثر أعداؤهم وأعداء اللّه حولهم:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل مفاجئ عجيب، ولكنه صادق عميق؛ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾..

فما صلة الفقه بالغلب في ظاهر الأمر؟ ولكنها صلة حقيقية، وصلة قوية..إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها، وتفقه منهجها، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها.. إنها تفقه حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية؛ فتفقه أن الألوهية لا بد أن تنفرد وتستعلي، وأن العبودية يجب أن تكون لله وحده بلا شريك. وتفقه أنها هي - الأمة المسلمة - المهتدية بهدى الله، المنطلقة في الأرض بإذن الله؛ لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده؛ وأنها هي المستخلفة عن اللَّه في الأرض؛ الممكنة فيها لا لتستعلي هي وتستمتع، ولكن لتعلي كلمة اللَّه وتجاهد في سبيل الله، ولتعمر الأرض بالحق، وتحكم بين الناس بالقسط، وتقيم في الأرض مملكة اللَّه التي تقوم على العدل بين الناس.. وكل ذلك فقه يسكب في قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين؛ ويدفع بها إلى الجهاد في سبيل اللَّه في قوة وفي طمأنينة للعاقبة تضاعف القوة. بينما أعداؤها ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾. قلوبهم مغلقة. وبصائرهم مطموسة؛ وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرة. إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير!

وهذه النسبة .. (واحد لعشرة).. هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لا يفقهون.. وحتى في أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هي: واحد لاثنين». اهـ. من الظلال.

* * *

٣٩ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨].

قال الطبري: «قال بعضهم معناه: وجاهدوا المشركين في سبيل اللَّه حق جهاده.

قال ابن عباس: وجاهدوا في اللَّه حق جهاده كما جاهدتم أول مرة.

وقال ابن عباس: ﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ﴾: لا تخافوا في اللَّه لومة لائم.

قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك قول من قال: عنى به الجهاد في سبيل الله؛ لأن المعروف من الجهاد ذلك، وهو الأغلب على قول القائل: جاهدت في الله. وحق الجهاد: هو استفراغ الطاقة فيه»(١).

قال ابن كثير في تفسيره (١٠/٩٩): «أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال ـ تعالَى ـ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال القرطبي (٧/٤٤٩١): «قيل: عنى به جهاد الكفار. وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر اللَّه به، والانتهاء عن كل ما نهى اللَّه عنه؛ أي: جاهدوا أنفسكم في طاعة اللَّه وردُّوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في ردِّ وسوسته، والظلمةَ في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم».

قال ابن عطية: وقال مقاتل: وهذه الآية منسوخة بقوله ـ تعالَى ـ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وكذا قال هبة الله: إن قوله: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ﴾،

---

(١) تفسير الطبري (١٧/١٤٢).

وقوله في الآية: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر.
ولا حاجة إلى تقدير النسخ، فإن هذا هو المراد من أول الحكم؛ لأن ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ ما ارتفع عنه الحرج.

وقال أبو جعفر النحَّاس: وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ؛ لأنه واجب على الإنسان».

قال رسول اللَّه ﷺ: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه»(١).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»(٢).

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: قال الطبري: «هو اختاركم لدينه، واصطفاكم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله».

قال ابن زيد: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: هو هداكم.

وقال القرطبي (٧/٤٤٩٢): «أي: اختاركم للذب عن دينه والتزام أمره، وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة؛ أي: وجب عليكم أن تجاهدوا؛ لأن اللَّه اختاركم له».

«يجمع اللَّه في هذه الآية والآية السابقة لها المُنهاجَ الذي رسمه اللَّه لهذه الأمة، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها، ويقرر مكانها الذي قدَّره لها، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل متى استقامت على النهج الذي أراده لها الله؛ يبدأ بالركوع والسجود، وهما ركنا الصلاة، ويثني بالأمر العام وهو العبادة، ويختم بفعل الخير عامة، فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدَّة من الصلة باللَّه واستقامة الحياة، فاستقام ضميرها، واستقامت حياتها نهضت بالتبعة الشاقة.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ وهو تعبير شامل جامع دقيق، يصور

---

(١) **صحيح**: رواه ابن النجار عن أبي ذر، ورواه أبو نعيم، والديلمي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٩٦)، و«صحيح الجامع» رقم (١٠٩٩).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، وابن حبان، وأحمد عن فضالة بن عُبيد، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٤٩)، و«صحيح الجامع» رقم (٦٦٧٩)، **انظر**: الترغيب (٢/١٥٠).

تكليفًا ضخمًا يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ .. فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة، واختاركم لها من بين عباده، ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ .. وإن هذا الاختيار يضخم التبعة، ولا يجعل هنالك مجالًا للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من اللَّه لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء»[١].

❑ الترهيب من النكوص عن الجهاد وتركه وذمُّ من يتشاغل عنه

٤٠ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [**التوبة: ٢٤**].

قال ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/٦٩): «يقول ـ تبارك وتعالى ـ لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للمتخلفين عن الهجرة إلى دار الإسلام، المقيمين بدار الشرك: إن كان المقام مع آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وكانت أموال ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ يقول: اكتسبتموها، ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بفراقكم بلدكم، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ فسكنتموها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ من الهجرة إلى اللَّه ورسوله من دار الشرك، ومن ﴿جهاد في سبيله﴾؛ يعني: في نصرة دين اللَّه الذي ارتضاه، ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ﴾ بفتح مكة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ واللَّه لا يوفق للخير الخارجين عن طاعته وفي معصيته».

قال الحافظ ابن كثير (٧/١٦٤، ١٦٥): «**أمر ـ تعَالَى ـ رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على اللَّه ورسوله وجهاد في سبيله، فقال:** ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ أي: اكتسبتموها

---

(١) الظلال (٤/٢٤٤٦).

وحصَّلتموها. ﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾ ؛ أي تحبونها؛ لطيبها وحسنها؛ أي: إن كانت هذه الأشياء﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾ ؛ أي: فانتظروا ما يحلُّ بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ .

قال القرطبي (٢٩٣٤/٤، ٢٩٣٥): ﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ يقول: اكتسبتموها بمكة. وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره.

﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ قال ابن المبارك: هي البنات والأخوات إذا كسدت في البيت لا يجدن لهن خاطبًا. قال الشاعر:

كَسَدْنَ مِنَ الْفَقْرِ فِي قَوْمِهِنَّ وَقَدْ زَادَهُنَّ مَقَامِي كُسُوذَا

﴿وَمَسَـٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ﴾ ؛ أي: تعجبكم الإقامة فيها.

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ صيغة أمر، ومعناه التهديد؛ يقول: انتظروا.

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ ؛ قال الحسن: بعقوبة آجلة أو عاجلة.

﴿وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ دليل على فضل الجهاد، وإيثاره على راحة النفس وعلاقتها بالأهل والمال».

قال ابن عطية: «**في ضمن قوله:** ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ وعيد بيِّن.

﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾ بيِّنٌ في أنواع المال.

وقال ابن المبارك: الإشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن لا يوجد لهن خاطب»[١].

وقال ابن الجوزي: «فأما العشيرة، فهم الأقارب الأدنون. وروى أبو بكر عن عاصم: ﴿وَعَشِيرَاتُكُمۡ﴾ على الجمع. قال أبو علي: وجهه أن كل واحد من المخاطبين له عشيرة، فإذا اجمعت قلت: عشيراتكم. وحجة من أفرد أن العشيرة

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (١٥٢/٨، ١٥٣) مكتبة ابن تيمية.

واقعة على الجمع، فاسْتُغْنِيَ بذلك عن جمعها.

وقال الأخفش: لا تكاد العرب تجمع عشيرة: عشيرات، إنما يجمعونها عشائر.

● **وفي قوله:** ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ **قولان:**

أحدها: أنه فتح مكة، قاله مجاهد والأكثرون، ومعنى الآية: إن كان المُقام في أهاليكم، وكانت الأموال التي اكتسبتموها، ﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ لفراقكم بلدكم، ﴿وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ من الهجرة، فأقيموا غير مُثابين حتى تفتح مكة، فيسقط فرض الهجرة.

والثاني: أنه العقاب؛ قاله الحسن»[1].

هنا في هذه الآية «استعرض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ؛ ليضعها كلها في كفة، ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج)، والأموال، والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها)، والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها).. وفي الكفة الأخرى: حب اللَّه ورسوله، وحب الجهاد في سبيله.. الجهاد بكل مقتضايته وبكل مشقاته.. الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من تضييق وحرمان، وما يتبعه من ألم وتضحية، وما يتبعه من جراح واستشهاد، وهو ـ بعد هذا كله ـ «**الجهاد في سبيل الله**» مجردًا من الصيت والذكر والظهور.. مجردًا من المباهاة، والفخر والخيلاء، مجردًا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه، وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب.

وهذا التجرد لا يُطالب به الفرد وحده، إنما تُطالب به الجماعة المسلمة والدولة المسلمة، فما يجوز أن يكون هناك اعتبار ـ لعلاقة أو مصلحة ـ يرتفع على مقتضيات العقيدة في اللَّه ومقتضيات الجهاد في سبيل الله.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٣/٤١٢، ٤١٣)، المكتب الإسلامي.

وما يكلف اللَّه الفئة المؤمنة هذا التكليف إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه ـ فاللَّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها ـ وإنه لمن رحمة اللَّه بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال؛ وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد، لا تعدلها لذائذ الأرض كلها.. لذة الشعور بالاتصال بالله، ولذة الرجاء في رضوان الله، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط، والخلاص من ثقلة اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء، فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففي التطلع إلى الأفق، مما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك»[1].

قال ابن القيم في هذه الآية: «وأما تقديمهم الأموال في تينك الآيتين فلحكمة باهرة، وهي أن «**براءة**» متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله، ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقته ماله، فإنْ تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر، ولا يكاد ـ عند هذا التصور ـ يخطر له مفارقة ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال.

وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدَّم، وتأخير ما أخَّر يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته، فبدأ أولا بذكر أصول العبد، وهم: آباؤهم المتقدمون طبعًا وشرفًا ورتبة، وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتُهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم وحتى عن أبنائهم، ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية ـ ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة ويرغبون عن دينهم؛ لما في ذلك من ازرائهم بهم. ثم ذكر الفروع، وهم: الأبناء؛ لأنهم يتلونهم في الرتبة، وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم، وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة. ثم ذكر الإخوان، وهم:

---

(١) الظلال (٣/١٦١٥، ١٦١٦).

الكلالة، وحواشي النسب، فذكر الأصول أولًا، ثم الفروع ثانيًا، ثم الفطرة ثالثًا، ثم الأزواج رابعًا؛ لأن الزوجة أجنبية عنده، ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة، وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم، ويرادون للنصرة والدفاع، وذلك مقدم على مجرد الشهوة. ثم ذكر القرابة البعيدة «**خامسًا**»، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائرهم كانوا بني عمتهم غالبًا، وإن كانوا أجانب فأولى بالتأخير. ثم انتقل إلى ذكر الأموال بعد الأقارب «**سادسًا**»، ووصفها بكونها مقترفة؛ أي: مكتسبة؛ لأن القلوب إلى ما اكتسبته من المال أميل، وله أحب، وبقدره أعرف؛ لما حصل له فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفوًا بلا كسب، من ميراث، أو هبة، أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه على بقائه أعظم من الثاني، والحس شاهد بهذا، وحسبك به. ثم ذكر التجارة «**سابعًا**»؛ لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها، فالتجارة عنده وسيلة إلى المال المقترف، فقدَّم المال على التجارة تقديم الغايات على وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشى كسادها، وهذا يدل على شرفها وخطرها، وأنه قد بلغ قدرها إلا أنها مخوفة الكساد. ثم ذكر الأوطان «**ثامنًا**» آخر المراتب؛ لأن تعلق القلب بها دون تعلُّقه بسائر ما تقدم، فإن الأوطان تتشابه، وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه، ويكون خيرًا منه، فمنها عوض، وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوَّض منها بغيرها، فالقلب وإن كان يحنُّ إلى وطنه الأول فحنينه إلى آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم، فمحبة الوطن آخر المراتب، وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إيثار البعيد على القريب فذلك جزئي لا كلي، فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع»[1].

قال القشيري في هذه الآية: «**ليس هذا تخييرًا لهم، ولا إذنًا في إيثار الحظوظ**

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (١/٧٥، ٧٦).

على الحقوق، ولكنه غاية التحذير والزجر عن إيثار شيء من الحظوظ على الدين، ومرور الأيام حكم عدل يكشِف في العاقبة عن أسرار التقدير، قال قائلهم:

سَوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الْغُبَارُ أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارْ؟

ويقال: علامة الصدق في التوحيد قطع العلاقات، ومفارقة العادات، وهجران المعهودات، والاكتفاء بالله في دوام الحالات.

ويقال: مَنْ كسدت سوقُ دينه كَسَتْ أسواق حظوظه، وما لم تَخْلُ منك منازل الحظوظ لا تعمرُ بك مَشَاهِدُ الحقوق»[1].

٤١- وقال - تعالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

مصائر الكانزين للذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، والسياق يمهد لغزوة العسرة حينذاك.

تنتهي الآية بإجمال وإبهام في العذاب، ثم يأخذ في التفصيل بعد الإجمال: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، ثم هاهي ذي حميت واحمرت، وها هي ذي مُعدَّة مهيأة، ويبدأ العذاب الأليم، ها هي ذي الجباه تُكوى.. لقد انتهت عملية الكي في الجباه، فليُداروا على الجنوب.. ها هي ذي الجنوب تُكوَى.. لقد انتهت هذه، فليداروا على الظهور.. ها هي ذي الظهور تُكوى - لقد انتهى هذا اللون من العذاب، فليتبعه الترذيل والتأنيب: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ هذا هو بذاته

---

(١) لطائف الإشارات، للقشيري (١٨/٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الذي كنزتموه للذة، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾!.

ذوقوه بذاته، فهو هو الذي تذوقون منه مسَّه للجنوب والظهور والجباه! ألا إنه مشهد مفزع مروع، يعرض في تفصيل وتطويل وأناة.

قال القرطبي (٢٩٦٧/٥): «ظاهر الآيةِ تعليق الوعيد على من كنز ولا ينفق في سبيل الله، ويتعرَّض للواجب وغيره؛ غير أن صفة الكنز لا ينبغي أن تكون معتبرة؛ فإن من لم يكنز ومنع الإنفاق في سبيل اللَّه فلا بد وأن يكون كذلك، إلا أن الذي يخبأ تحت الأرض هو الذي يُمنع إنفاقه في الواجبات عُرْفًا، فلذلك خُصَّ الوعيد به. واللَّه أعلم» اهـ.

٤٢- قال - تعالَى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

﴿ٱنفِرُواْ﴾؛ أي: اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم. وأصل النفر: مفارقة مكان إلى مكان آخر لأمرٍ هاجه على ذلك، ومنه: نفور الدابة. غير أنه يُقال: من النفر إلى الغزو. ونفر فلان إلى ثغر كذا ينفر نفْرًا ونفيرًا».

قال ابن جرير (٩٤/١٠): «فمعنى الكلام: ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا غزاة في جهاد أعداء اللَّه تثاقلتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾؟ أرضيتم بحظ الدنيا والدعة فيها عوضًا من نعيم الآخرة وما عند اللَّه للمتقين في جناته. ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: فما الذي يتمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي عند اللَّه لأوليائه وأهل طاعته إلا قليل

يسير؛ يقول لهم: فاطلبوا أيها المؤمنون نعيم الآخرة وترف الكرامة التي عند اللَّه لأوليائه بطاعته والمسارعة إلى الإجابة إلى أمره بالنفير لمجاهدة عدوه.

قال مجاهد: أمروا بغزوة «**تبوك**» بعد الفتح، وبعد الطائف، وبعد حُنين أُمِروا بالنفير في الصيف حين خرفت النخل وطابت الثمار واشتهوا الظلال، وشق عليهم المخرج فقالوا: منا الثقيل وذو الحاجة والضيعة والشغل والمنتشر به أمره في ذلك كله، فأنزل الله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾». اهـ.

قال القرطبي: «﴿مَا لَكُمْ﴾: «**ما**» حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ، التقدير: أي شيء يمنعكم عن كذا؛ ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتابًا على تخلُّف مَن تخلَّف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة «**تبوك**».

قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: اثاقلتم إلى نعيم الأرض، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وهو نحو من أخلد إلى الأرض. وأصله: تثاقلتم، أُدغمت التاء في الثاء؛ لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل؛ لتصل إلى النطق بالساكن، ومثله: ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ [الأعراف: ٣٨]، و﴿ادَّارأتم﴾ [البقرة: ٧٢]، و﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ [النمل: ٤٧]، و﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤].

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: بدلًا؛ لتقدير: أرضيتم بنعيم الدنيا بدلًا من نعيم الآخرة. فـ«**مِن**» تتضمن معنى البدل؛ كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾ [الزخرف: ٦٠]؛ أي: بدلًا منكم.

عاتبهم اللَّه على إيثار الراحة في الدنيا على الراحة في الآخرة؛ إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنَصَبِ الدنيا. قال ﷺ لعائشة وقد طافت راكبة: «**أجرك على قدر نَصَبِكِ**» [خرَّجه البخاري].

قال ابن كثير في تفسيره (٧/٢٠٣، ٢٠٤): «هذا شروع في عتاب مَن تخلَّف

عن رسول الله ﷺ في غزوة «تبوك»، حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر حمَّارَة القيظ [١]، فقال ـ تعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا دُعيتم إلى الجهاد في سبيل الله. ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى المُقام في الدعة والخفض وطيب الثمار. ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا؟ أرضىً منكم بالدنيا بدلًا من الآخرة؟

ثم زهَّد ـ تبارك وتعالى ـ في الدنيا ورغَّب في الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟**» وأشار بالسبابة [٢].

فالدنيا ما مضى منها، وما بقي منها عند الله قليل.

عن الأعمش في الآية: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب. لما حضرت عبدالعزيز بن مروان الوفاة قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أَمَا لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولَّي ظهره فبكى وهو يقول: أُفٍ لك من دار، إنْ كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لفي غرور».

ثم توعد على ترك الجهاد، فقال: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حيًّا من العرب فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ أي: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال ـ تعَالَى ـ:

---

(١) حمَّارَة القيظ: شدة الحر.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/٢٢٨)، ومسلم (٢٨٥٨).

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٠].

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: ولا تضرُّوا اللَّه شيئًا بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتثاقلكم عنه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

وقد قيل: إن هذه الآية، وقوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾: إنهن منسوخات بقوله ـ تعالَى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾؛ روي هذا عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وردَّه ابن جرير وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول اللَّه ﷺ إلى الجهاد، فتعيَّن عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه، وهذا له اتجاه، واللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالصواب». اهـ.

قال القرطبي: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾: هذا تهديد شديد، ووعيد مؤكد في ترك النفير.

والتثاقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد. فأما من غير كراهة فمن عيَّنه النبي ﷺ حَرُم عليه التثاقل، وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية؛ ذكره القشيري.

وقد قيل: إن المراد بهذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم.

وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء، فعلى هذا لا يتَّجه الحمل على وقت ظهور المشركين؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء؛ لأنه متعيِّن. وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفار يبعد أن يكون موجبًا شيئًا لم يجب من قبل، إلا أن الإمام إذا عيَّن قومًا وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتثاقلوا عند التعيين،

ويصير بتعيينه فرضًا على من عيَّنه، لا لمكان الجهاد، ولكن لطاعة الإمام. والله أعلم[١].

ثم قال اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية.

قال القرطبي: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ يقول: تُعينوه بالنفر معه في غزوة «**تبوك**»، عاتبهم اللَّه بعد انصراف نبيه ﷺ من «**تبوك**»، والمعنى: إن تركتم نصره فاللَّه يتكفَّل به، إذ قد نصره اللَّه في مواطن القلة، وأظهره على عدوه بالغلبة والعزَّة.

«أرضيتم نزر الدنيا على خطير الآخرة وحظها الأسعد؟ ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾ شرط وجواب. وقوله: ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ لفظ عام يدخل تحته أنواع عذاب الدنيا والآخرة، والتهديد بعمومه أشد تخويفًا»[٢].

قال القشيري في هاتين الآيتين: «عاتبهم على ترك البدار عند توجيه الأمر، وانتهاز فرصة الرخصة. وأمرهم بالجد في العزم، والقصد في الفعل، فالجنوح إلى التكاسل، والاسترواح إلى التثاقل أمارات ضعف الإيمان، إذ الإيمان غريم مُلازِم لا يرضى من العبد بغير ممارسة الأشق، وملابسة الأحق.

قوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهل يجمُل بالعابد أن يختار دنياه على عُقباه؟

وهل يحسن بالعارف أن يُؤثر هواه على رضا مولاه؟

أَيَجْمُلُ بِالْأَحْبَابِ مَا قَدْ فَعَلُوا   مَضَوا وَانْصَرَفُوا يا لَيتَهُمْ قَفَلُوا

إن غيبة الزاهد عن الباب تعدلِ شهورًا، وغيبة لحظةٍ للعارف عن البساط تعدل دهورًا.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

العذاب الأليم: إذا أعرض العبد عن الطاعة ألا يبعث وراءه من جنود التوفيق ما

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٢٩٨٠، ٢٩٨١).

(٢) المحرر الوجيز (٨/١٨٤).

يَرُدُّه إلى الباب.

العذاب الأليم: أن يسلبه حلاوة النجوى إذا آب.

العذاب الأليم: الصدود يوم الورود.

العذاب الأليم: الوعيد بالفِراق، فأما نفس الفِراق فهو تمام التلف.

وَزَعَمْتَ أَنَّ الْبَيْنَ مِنْكَ غَدًا هَدِّدْ بِذَلِكَ مَنْ يَعِيشُ غَدَا

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يصرف ما كان من إقبال عليه إلى غيره من أشكاله، وليس كل من حفر بئرًا يشرب من معينها.

تَسْقِي رَيَاحِينَ الْحِفَاظِ مَدَامِعِي وَسِوَايَ فِي رَوْضِ التَّوَاصُلِ يَرْتَعُ[١]

عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «**من لم يَغْزُ، أو يجهز غازيًا، أو يَخْلُف غازيًا في أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة**»[٢].

وهل يعدل عاقل عن الجهاد وقد روى أبو فاطمة ﷺ قال: يا رسول الله! أخبرني بعمل أستقيم عليه وأعْمله. قال: «**عليك بالجهاد في سبيل الله فإنه لا مِثْل له**»[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

إنها ثقلة الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض.. ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع.. ثقلة الدعة

---

(١) لطائف الإشارات (٢/٢٥، ٢٦).

(٢) **إسناده حسن**: أخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» واللفظ له (٣١٢/١) (٩٩)، وشمس الدين المقدسي في «فضل الجهاد والمجاهدين»، والطبراني في «مسند الشاميين» وفي «المعجم الكبير» (٨/ ٢١١) (٧٧٤٧)، وأخرجه أبو داود (٢٥٠٣)، وابن ماجه (٢٧٦٢)، والدارمي في «مسنده» (٢٤٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤٨/٩).

(٣) **إسناده حسن لغيره**: أخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» (١٩٩/١) حديث (٤١)، والطبراني في «مسند الشاميين» (ق/٦٧٠)، وفي «المعجم الكبير» (٣٢١/٢٢) (٨٠٩).

والراحة والاستقرار. ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب... ثقلة اللحم والدم والتراب.. والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل. ويلقيها بمعنى ألفاظ: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.. وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق.

إن النفرة للجهاد في سبيل اللَّه انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة؛ وتطلع إلى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وما يحجم ذو عقيدة في اللَّه عن النفرة للجهاد في سبيله، إلا وفي هذه العقيدة دخن، وفي إيمان صاحبها بها وهن. لذلك يقول الرسول ﷺ: «**من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق**». فالنفاق ـ وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال ـ هو الذي يقعد ـ بمن يزعم أنه على عقيدة ـ عن الجهاد في سبيل الله؛ خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله، والرزق من عند الله. وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

والخطاب لقوم معينين في موقف معين. ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله. والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا. عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم

للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين؛ وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد؛ ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء.

وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب اللَّه عليها الذل، فدفعت - مرغمة صاغرة لأعدائها - أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

يقومون على العقيدة، ويؤدون ثمن العزة، ويستعلون على أعداء الله.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾.

ولا يقام لكم وزن، ولا تقدمون أو تؤخرون في الحساب.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يعجزه أن يذهب بكم، ويستبدل قومًا غيركم، ويغفلكم من التقدير والحساب!

إن الاستعلاء على ثقلة الأرض وعلى ضعف النفس، إثبات للوجود الإنساني الكريم، فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة.

وإن التثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنساني الكريم، فهو فناء في ميزان اللَّه وفي حساب الروح المميزة للإنسان.

ويضرب اللَّه لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه، على نصرة اللَّه لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء، والنصر من اللَّه يؤتيه من يشاء:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

ذلك مثل على نصرة اللَّه لرسوله ولكلمته؛ واللَّه قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتثاقلون ويتباطئون. وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول اللَّه إلى دليل[1].

٤٣ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

قال ابن كثير في تفسيره (٧/٢١٠): «**يقول ـ تعَالَى ـ موبخًا للذين تخلَّفوا عن النبي ﷺ** في غزوة «**تبوك**»، وقعدوا عن النبي ﷺ بعدما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك، فقال ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾؛ قال ابن عباس: غنيمة قريبة. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾؛ أي: قريبًا أيضًا. ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾؛ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك. ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾؛ أي: المسافة إلى الشام. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: لكم إذا رجعتم إليهم. ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾؛ أي: لو لم تكن لنا أعذار لخرجنا معكم. ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

قال القرطبي: (الشُّقة): حكى أبو عبيدة وغيره أن الشقة: السفر إلى أرض بعيدة. يقال: منه شُقَّة شاقة، والمراد بذلك كله غزوة «**تبوك**»، وحكى الكسائي أنه يُقال شُقَّة وشِقَّة. وقال الجوهري: الشُّقة بالضم: من الثياب، والشقة أيضًا السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾؛ أي: لو كان لنا سعة في الظهر والمال[2].

قال الطبري (١٠/٩٩): «قال قتادة: إنهم يستطيعون الخروج، ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم والشيطان، وزهادة في الخير». اهـ.

---

(١) الظلال (٣/١٦٥٥، ١٦٥٦، ١٦٥٧).

(٢) تفسير القرطبي (٥/٢٩٩٣).

إذا رأيت الرجل يتبع الرخص ويجنح إلى الكسل، ويتعلل بالتأويلات، فاعلم أنه منصرف عن الطريق، متخلف عن السلوك، وأنشدوا:

وَكَـذَا الْمُلُولُ إِذَا أَرَادَ قَطِـيعَـةً ... مَلَّ الْوِصَـالَ وَقَالَ كَـانَ وَكَـانَا

ومَن جَدَّ في الطلب لم يُعرِّج في أوطان الفشل، ويواصل السير والسُّرَى، ولا يحتشم من مقاساة الكد والعناء.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾:

يوجبون لأنفسهم الهلاك والعطب بحلفهم بالله كاذبين، ويورثونها سخط الله، ويكسبونها أليم عقابه.

يمين المتعلل والمتأول يمين فاجرة تشهد بكذبها عيون الفراسة، وتنفر منها القلوب، فلا تجد من القلوب محلًّا.

قالوا هذا وعندهم الأموال مما يحتاجه الغازي في غزوه، وصحة الأبدان وقوى الأجسام، ولكنها الدعة والراحة.

«لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض، أو سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك، ولكنها الشقة البعيدة، التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة. ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة، ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة.

وإنه لنموذج مكروه في البشرية ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾، فكثيرون هم أولئك الذي يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة.. كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق، فيتخلفون عن الركب، ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص. كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان ومكان، فما هي قلة عارضة، إنما هي النموذج المكرور، وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة، وإن خُيِّل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب، واجتنبوا الثمن الغالي، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه

الرخيص.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ فهو الكذب المصاحب للضعف أبدًا.

وما يكذب إلا الضعفاء ـ أجل ما يكذب إلا ضعيف، ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحايين. فالقوي يواجه والضعيف يحاور ـ وما تتخلَّف هذه القاعدة في موقف من المواقف ولا في يوم من الأيام.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ : بهذا الحلف وبهذا الكذب، الذي يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس، واللَّه يعلم الحق، ويكشفه للناس، فيهلك الكاذب في الدنيا بكذبه، ويهلك في الآخرة يوم لا يُجدي النكران.

* * *

٤٤ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

قال ابن جرير الطبري: «هذا إعلام من اللَّه نبيه ﷺ سيما المنافقين؛ أن من علاماتهم التي يُعرفـون بها تخلفهـم عن الجهاد في سبيل اللَّه باستئذانهم رسول اللَّه ﷺ في تركهم الخروج معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة، فأما الذي يصدق باللَّه ويقرُّ بوحدانيته وبالبعث والدار الآخرة والثواب والعقاب فإنه لا يستأذنك في ترك الغزو وجهاد أعداء اللَّه بماله ونفسه». اهـ.

«هذه هي القاعدة التي لا تُخطئ. فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء، لا ينتظرون أن يُؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد، ولا يتلكئون في تلبية داعي النفرة في سبيل اللَّه بالأموال والأرواح، بل يسارعون إليها خفافًا وثقالًا كما أمرهم الله؛

طاعةً لأمره، ويقينًا بلقائه، وثقة بجزائه، وابتغاءً لرضاه، وإنهم ليتطوعون تطوعًا فلا يحتاجون إلى من يستحثهم، فضلًا عن الإذن لهم، إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكئون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقًا من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون.

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق، أو الذي يعرفها ويتنكبها؛ اتقاءً لمتاعب الطريق».

هؤلاء الذين يُقال لهم: ﴿ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ ، وتخلَّفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون الغزو ولا ينبعثون للجهاد، فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية من اليقين.

قلوب حائرة تبث الخور والضعف في الصفوف لو خرجت للقتال.

ولله در القائل: «المخلص في عقده غيرُ مؤثرٍ شيئًا على أمره، ولا يدِّخر مستطاعًا في استفراغ وُسْعِه، وبذل جهده، ومقاساة كَدِّه، واستعمال جِدِّه».

أما «من رام عن عهدة الإلزام خروجًا انتهز للتأخير والتخلف فرصة لعدم إيمانه وتصديقه، ولاستمكان الريبة من قلبه وسره. أولئك الذين يتقلَّبون في ريبهم، ويترددون في شكهم.

لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة، ولكن سقمت إرادتهم، فحصلت دون الخروج بلادتهم، وكذلك قيل: لو صحَّ منك الهوى أُرشِدتَ للحيل.

﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾

٤٥ـ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

قال ابن كثير (٧/٢١٣، ٢١٤): «يقول اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿ٱئْذَن لِّي﴾ في القعود، ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾؛ أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، كما قال محمد بن إسحاق، والزهري، ويزيد بن رومان[1] قالوا: قال رسول اللَّه ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: «**هل لك ياجد العام في جلاد بني الأصفر؟**» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فواللَّه لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول اللَّه ﷺ وقال: «**قد أَذِنت لك**».

ففي الجد بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

قال ابن عباس، مجاهد، وغير واحد: وإنه إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول اللَّه ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم، بيِّنَ اللَّه أن الذي هربوا منه ـ بزعمهم ـ سقطوا فيه بفعلهم، وكذلك المتجلد بما يهواه متطوِّح في وادي بلواه، وسيلقى في الآخرة من الهوان ما يغني عن الحاجة والبرهان.

وعلى الطرف الآخر التقى قول المؤمنين الموقنين الصادقين: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/٢٨٧).

٤٦- قال - تعالَى -: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: ٥١، ٥٢].

قال ابن جرير (١٠/١٠٥): «قل يا محمد لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عنك: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ أيها المرتابون في ربهم ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ في اللوح المحفوظ، وقضاه علينا. ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾: هو ناصرنا على أعدائه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم إن يتوكلوا عليه، ولم يرجوا النصر من عند غيره، ولم يخالفوا شيئًا غيره - يكفهم أمورهم، وينصرهم على من بغاهم وكادهم».

هذه مقالة الذين امتلأت قلوبهم بالتسليم لله، والرضا بقدره. والمسلم الصادق يبذل جهده، ويُقْدِمُ لا يخشى؛ اعتقادًا بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله، وأن اللَّه ناصر له ومعين.

والمؤمن لا تلحقه شماتة عدوه؛ لأنه ليس يرى إلا مراد وليه، فهو يتحقق أن ما يناله مراد مولاه، فيسقط عن قلبه ما يهواه، ويستقبله بروْح رضاه، فَيَعْذُب عنده ما كان يصعبُ من بلواه.

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا ... فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمُ

وشهود جريان التقدير يُخفِّف على العبد كل عسير. واللَّه مولاهم، وله - سبحانه - أن يفعل ما يريد؛ لأنه تصرفُ مالكِ الأعيان في مُلْكِه، فهو يُبدي ويُجري ما يريد بحق حكمه. وعباده يتوكلون عليه، وأول التوكل الثقة بوعده، ثم الرضا باختياره، ثم نسيان أمورك بما يغلب على قلبك من أذكاره.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾:

«قل: هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخلَّتين اللتين هما أحسن من غيرهما؛ إما ظفرًا بالعدو وفتحًا لنا بغَلَبِنَا لهم، ففيها الأجر والغنيمة والسلامة، وإمَّا قتلًا من عدونا لنا،

ففيه الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار، وكلتاهما مما يُحَبُّ ولا يُكْرَهُ»[١].

إن كان من شأن المؤمنين وقوع الدائرة عليهم في القتال، أو أن القتل ينالهم، فأي واحد من الأمريْن ينالهم فهو لهم من اللَّه نعمة؛ لأنهم إن ظفروا بعدوهم فنصر وغنيمة، وعزٌّ للدين ورفعة، وإنْ قُتِلوا فشهادة ورحمة، ورضوان من اللَّه وزلفى. وإن كان الذي يصيبهم في الدنيا هزيمة ونكبة، فذلك موجب للأجر والمثوبة، فإذًا لن يستقبلهم إلا ما هو حُسنى ونعمة».

في كلا الحالتين يصاحبهم رضا اللَّه عنهم ورضاهم عنهم. رضاهم باللَّه حظًّا ونصيبًا، ربًا وإلهاً ومعبودهم. إن لحظةَ اتصالٍ باللَّه لحظةُ شهودِ لجلاله، لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة، لحظة تنبثق فيها في أعماق القلب البشري شعاعة من ذلك النور الذي لا تدركه الأبصار، لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله.

إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع، وكل رجاء. فكيف برضوان من اللَّه يغمر هذه الأرواح، وتستشعره بدون انقطاع.

- **فَرَحُ المخلفين بمقعدهم خلاف رسول الله، وفَرح المؤمنين بالجهاد والشهادة في سبيل الله:**

أَفمن رغِب إلى اللَّه كمن رغب عن الله؟ أفمن بقي مع اللَّه كمن بقي عن الله؟ لا يستويان، ولا يلتقيان.

٤٧ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة: ٨١].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/١٠٥).

قال ابن جرير (١٠/١٣٩): «فرح الذين خلَّفهم اللَّه عن الغزو ـ مع رسوله والمؤمنين به وجهاد أعدائه ـ بمقعدهم على الخلاف لرسول اللَّه ﷺ، وكره هؤلاء المُخَلَّفون أن يغزو الكفار بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ لينصروه؛ ميلًا إلى الدعة والخفض، وإيثارًا للراحة على التعب والمشقة، وشحًّا بالمال أن ينفقوه في طاعة الله. وقال المنافقون بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرِّ. قل: نار جهنم ـ التي أعدها اللَّه ـ أشد حرًّا من هذا الحرِّ الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه، لو كانوا يفقهون عن اللَّه وعظه، ويتدبرون آي كتابه».

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

«فليضحكوا فرحين قليلًا في هذه الدنيا الفانية بمقعدهم خلاف رسول اللَّه ولهوهم عن طاعة ربهم، فإنهم سيبكون طويلًا في جهنم مكان ضحكهم القليل؛ جزاءً على معصيتهم، وبما كانوا يجترحون من الذنوب».

إذا صاروا إلى الآخرة بكوا بكاءً لا ينقطع.

فليضحكوا قليلًا في الدنيا، وليبكوا كثيرًا في الآخرة؛ قاله الربيع بن خيثم، والحسن، وقتادة.

﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛ أي: بقعودهم. قَعَدَ قُعُودًا ومَقْعَدًا؛ أي: جلس. والمخلَّف: المتروك. أي: خلفهم اللَّه وثبطهم، أو خلفهم رسول اللَّه والمؤمنون لما علموا تثاقلهم عن الجهاد.

﴿خِلَٰفَ﴾: مصدر من قول القائل: خَالَفَ فُلَانٌ فُلَانًا فهو يخالفه خِلَافًا، وليس مصدرًا من خَلَفَهُ؛ لأن مصدر خَلَفَهُ خَلْف لا خِلَاف.

«استحوذ عليهم سرورهم بتخلفهم، ولم يعلموا أن ثبورهم في تأخرهم، فنزع اللَّه الراحة بما عاقبهم، وسيصلون سعيرًا في الآخرة بما قدَّموه من نفاقهم، وسوف يتحسرون، وَلَاتَ حِينَ تَحَسُّرٍ.

بدَّل اللَّه مسرَّتهم بحسرة، وفرحتهم بترْحة، وراحتهم بعَبْرَة، حتى يكثر

بكاؤهم في العتبى كما كثر ضحكهم في الدنيا.

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض.. ثقلة الحرص على الراحة، والشح بالنفقة، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة، وخواء القلب من الإيمان.

هؤلاء المخلفون. والتعبير يلقي ظل الإهمال، كما لو كانوا متاعًا يُخلَّف أو هَمَلًا يُترك. فرحوا بالسلامة والراحة خلاف رسول الله، وتركوا المجاهدين يلاقون الحرَّ والجهد، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال!

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾: وهي قولة المسترخي الناعم، الذي لا يصلح لشيء مما يصلح الرجال.

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، وطراوة الإرادة، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الجهاد، ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك؛ لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنه ألذُّ وأجمل من القعود والتخلُّف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال.

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ﴾: إن كانوا يشفقون من حرِّ الأرض، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال، فكيف بهم في حر جهنم وهي أشد حرًّا وأطول أمدًا؟

إما جهاد في سبيل اللّه فترة محدودة في حرِّ الأرض، وإما انصراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله.

هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد، وتخلَّفوا عن الرَّكب أول مرة. هؤلاء لا يصلحون لكفاح، ولا يُرْجون لجهاد.. بل ولا يصلحون لشَرَفِهِ.

إن الجهاد يحتاج إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة، تصمد في الطريق

الشاق الطويل.. إن الجهاد عبء لا ينهض به إلَّا من هم له أهل، لا هؤلاء الذين تعلَّلوا إلى السَّعة، وركنوا إلى اختيار الدَّعة، واحتالوا في موجبات التخلُّف، الذين خصَّهم اللَّه بخذلانه، وصرف قلوبهم عن ابتغاء رضوانه.

بعدوا عن بساط العبادة فاستطابوا الدَّعة، ورضوا بالتعريج في منازل الفرقة، ولو أنهم رجعوا إلى اللَّه بصدق التوبة والندم لقابلهم بالفضل والكرم.

٤٨ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾: أهل الغنى.

﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: من يقعد في منزله مع النساء، وضعفاء الناس، ومرضاهم، والصبيان، وأصحاب الأعذار.

والخوالف جمع خَالِفَة، وقد يُقال للرجل: خَالِفَةٌ وخَالِفٌ ـ أيضًا ـ إذا كان غير نجيب. يُقال: فُلَانٌ خَالِفَةُ أَهْلِهِ، إذا كان دونهم.

قال النحاس: وأصله من: خَلَفَ اللبنُ يخْلُفُ إذا حَمُض من طول مكثه. وخَلَفَ فمُ الصائمِ إذا تغيَّر ريحه.

«إذا قيل لهم: آمنوا بالله، وجاهدوا مع رسوله استأذنك أهل الغنى منهم في التخلف عن الغزو والخروج معك، ورضوا أن يكونوا في منازلهم؛ كالنساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد، فهن قعود في منازلهن وبيوتهن».

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة: ٨٦ ـ ٨٩].

إنهما طبيعتان.. طبيعة النفاق والضعف والاستخدام، وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء. وإنهما خطتان.. خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون، وخطة الاستقامة والبذل والكرامة.

فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولوا الطول، الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل، جاءوا لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التي وهبها اللَّه لهم، وشكر النعمة التي أعطاها اللَّه إياهم، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء، لا يذودون عن حرمة، ولا يدفعون عن سكن. دون أن يستشعروا ما في هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان، ما دام فيها السلامة، وطلاب السلامة لا يحسون العار، فالسلامة هدف الراضين بالدون.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾.

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

ولو كانوا يفقهون لأدركوا ما في الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم، وما في التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم.

«إن للذل ضريبة، كما أن للكرامة ضريبة. وإن ضريبة الذل لأفدح في كثير من الأحايين. وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة؛ هربًا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة رخيصة، مفزعة قلقة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها، يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة.. هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة. إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة. يؤدونها من نفوسهم، ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سمعتهم، ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيرًا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم، وهم لا يشعرون».

ومن هؤلاء.. أولئك الذين ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ .. وهم طراز آخر غير ذلك الطراز.. ﴿جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ .. فنهضوا بتكاليف العقيدة، وأدوا واجب الإيمان؛ وعملوا للعزة التي لا تنال بالقعود ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ .. خيرات الدنيا والآخرة؛ في الدنيا لهم العزة، ولهم الكرامة، ولهم المغنم، ولهم الكلمة العالية، وفي الآخرة لهم الجزاء الأوفى، ولهم رضوان اللَّه الكريم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ..

الفلاح في الدنيا بالعيش الكريم القويم، والفلاح في الآخرة بالأجر العظيم: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ .. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

❑ **لا يستويان ولا يلتقيان:**

ليس من أقبل كمن أعرض وصُدَّ، ولا من قُبِل أمره كمن رُدَّ، ولا من وحَّد كمن جحد، ولا مَن عَبَد كَمَن عَنَد، ولا من أتى كَمَن أبى، فلا جرم رَبحت تجارتهم وجَلَّت رتبتهم. راحاتهم موعودة، وإن كانت مشقاتهم في الحال موجودة مشهودة، وصادق يقينهم بالثواب يُهوِّن عليهم مقاساة ما يلقونه من الأتعاب، صدقوا في الولاء وما احتشموا من مقاساة العناء.

وغيرهم في الولاء مماذِق، وللصدق مفارق، يتعلَّل بما لا أصل له؛ لأنه حُرِم الخلوص فيما هو أهل له.

استوطنوا مركب الكسل، واكتسوْا لباس الفشل، وركنوا إلى مخاريق الحيل، حُرموا استحقاق القُربة، أراد اللَّه هوانهم، وأذاقهم خذلانه.

❑ **بكاء الرجال.. حزنًا على حِرمانهم من الجهاد:**

٤٩ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢].

قال مجاهد: نزلت في بني مقرن من مزينة.

قال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر؛ من بني عمرو بن عوف: سالم بن عوف، ومن بني واقف: هرمي بن عمرو؛ ومن بني مازن بن النجار: عبدالرحمن بن كعب، ويكنى أبا ليلى؛ ومن بني المعلى: سلمان بن صخر، ومن بني حارثة: عبدالرحمن بن يزيد، أبو عيلة، وهو الذي تصدَّق بعرضه فقبله اللَّه منه، ومن بني سلمة: عمرو بن عَنَمة وعبداللَّه بن عمرو المزني.

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة «**تبوك**»: ثم إن رجالًا من المسلمين أتوْا رسول اللَّه ﷺ وهم البَكَّاءُون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعَلْبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبدالرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبداللَّه بن المغفل المزني، وبعض الناس يقول: بل هو عبداللَّه بن عمرو المزني، وهَرَميُّ بن عبداللَّه أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول اللَّه ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾»[1].

قَالَ لِي مَنْ أُحِبُّ وَالْبَيْنُ قَدْ ... حَلَّ وَدَمْعِي مُرَافِقٌ لِشَهِيقِي
مَا تُرَى فِي الطَّرِيقِ تَصْنَعُ بَعْدِي؟ ... قُلْتُ أَبْكِي عَلَيْكَ طُولَ الطَّرِيقِ

هذا واللَّه بكاء الرجال.. بكاؤهم على موطن تندر فيه الرءوس.

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٢٦٥، ٢٦٦)، والسيرة النبوية، لابن هشام (٢/٥١٨).

❑ فرحهم بالجهاد:

قال حاتم الأصم: كنا مع شقيق البلخي، ونحن مصافُّو الترك، في يوم لا أرى فيه إلا رءوسًا تندر[١]، وسيوفًا تقْطع. فقال لي شقيق، ونحن بين الصفين: يا حاتم، كيف ترى نفسك في هذا اليوم؟ تراها مثلها في الليلة التي زُفَّتْ إليك امرأتك؟ فقلت: لا والله.

فقال: لكني ـ والله ـ أرى نفسي في هذا اليوم مثلها في الليلة التي زُفَّت فيها امرأتي.

قال: ثم نام بين الصفين ودَرَقته[٢] تحت رأسه، حتى سمعت غطيطه[٣]»[٤].

❑ قصة أخرى من فرحهم بالجهاد والشهادة:

قال أبو قدامة الشامي: كنت أميرًا على الجيش في بعض الغزوات، فدخلتُ بعض البلدان، فدعوت الناس إلى الجهاد، ورغبتهم في الثواب، وذكرت فضل الشهادة، ثم تفرق الناس، وسرت إلى منزلي فإذا بامرأة من أحسن الناس تنادي: يا أبا قدامة، فقلت: هذه مكيدة من الشيطان، فلم أجبها، فعادت فنادتني، فلم أجبها، فقالت: هكذا يفعل أرباب الصلاح بأهل الإرادة؟! فوقفت لها، فجاءت ودفعت إليَّ رقعة وحزمة مشدودة، ثم انصرفت وهي تبكي، قال: فنظرت إلى الورقة، وإذا مكتوب فيها: دعوتَ الناس إلى الجهاد، وحرَّضتهم على الثواب، وأنا امرأة ولا قدرة لي على الجهاد، وقد قطعت أحسن ما فيَّ وهما ضفيرتاي، وقد أتيت بهما، لتجعلهما قيدًا لفرسك، لعل اللَّه يرى ذلك فيغفر لي.

فلما كانت ليلة القتال أخرجتُ الضفيرتين فقيدتُ بهما فرسي، فلما طلع

---

(١) تندر: تزول.

(٢) الدرقة: الترس من جلد ليس فيها خشب ولا عقب.

(٣) الغطيط: الشخير.

(٤) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٤/ ١٦٠).

الفجر ووقع القتال، فإذا أنا بغلام حسن الوجه صبور على الشدائد فتقدمت إليه، يا بني أنت راجل، ولا آمن أن تجول الخيل فتطؤك بأرجلها، فارجع إلى موضعك، قال: فالتفتَ إليَّ وقال: كيف أرجع وقد قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥]؟ قال: فأعطيته قوسًا كان معي، فقال: يا أبا قدامة أقرضني ثلاثة أسهم، فقلت: ما هذا وقت قرض، فقال: باللَّه عليك أقرضني. قال: فأعطيته سهمًا، فوضعه في قوسه فقتل، فقلت: أنا شريكك في الثواب؟ فقال: نعم، فأعطيته سهمًا آخر فقتل به روميًّا آخر، ثم ناولته الثالث فرمى به وقال: السلام عليك، سلام مودع، فجاءه سهم بين عينيه، فخر صريعًا، فوقفت عليه وقلت: يا ولدي لا تنسني، فإنك عاهدتني، فقال: نعم. ثم قال: يا أبا قدامة لي إليك حاجة إذا دخلت المدينة فائت والدتي وسلم عليها عني، وناولها هذا الخرج، فقلت: ومن والدتك؟ قال: التي قطعت شعرها وقالت: اجعله قيدًا لفرسك، قال: فاشتغلت بالبكاء، فقضى نحبه رحمه الله، فدفنته، فلما انقضى القتال وعدت إلى قبره، رأيته على وجه الأرض قد قذفته الأرض، فحفرت له حفرة أخرى فدفنته، فقذفته ثانيًا، فقال أصحابنا: دعه فهو غلام، ولعله خرج من غير إذن والدته، قال: فوقعت في حيرة، فأذن مؤذن العشاء فقمت فصليت، وجعلت أتضرع إلى اللَّه وأبكي وأقول: يا رب ما أدري ما أصنع به، قال: فسمعت صوتًا: يا أبا قدامة دع ولي اللَّه واذهب، قال: فتركته فنزلت طيور فأكلته، وأتت السباع فابتلعت العظام.

فلما أتيت المدينة ذهبت إلى بيت والدته فطرقت الباب، فخرجت طفلة صغيرة، فلما رأت الخرج رجعت ونادت: يا أماه، جاء أبو قدامة بخرج أخي، وما أرى أخي معه، واحسرتاه! في العام الأول أصبنا بأبي، وفي الثاني بأخي، وفي هذا بأخي الآخر، قال: فكدت أتلف من البكاء.

فخرجت تلك المرأة وهي تقول: أمهنيًا جئت أم معزيًا؟ إن كان ولدي قد مات

فعزني، وإن كان قد استشهد فهنني. فقلت: لا والله، بل استشهد، فقالت: وما علامة ذلك؟ قلت: قتل، قالت: قبلته الأرض أم لا؟ قلت: لا والله. قالت: الحمد لله. ثم فتحت صندوقًا وأخرجتْ مسحًا أسود وغلًّا من حديد وقالت: إنه كان إذا جنَّه الليل يلبس هذا المسح، ويغلُّ يده بهذا الغل ويقول: إلهي، احشرنيْ من حواصل الطير وبطون السباع، فما لي عين تراك. وقد استجاب اللَّه منه ذلك[1].

مَنْ أَنْتَ؟ وَانْبَهَرَتْ حُرُوفِي وَالْتَوى ... وَجْهُ السُّؤَالِ وَأَثْبَتَتْنِي الأَسْهُمُ
وَوَقَفْتُ حِينَ رَأَيْتُ طِفْلًا شَامِخًا ... قَامَاتُنَا مِنْ حَوْلِهِ تَتَقَزَّمُ
طِفْلٌ صَغِيرٌ غَيْرَ أَنَّ شُمُوخَهُ ... أَوْحَى إِلَيَّ بِأَنَّهُ لا يَهْرَمُ
أَنَا مِنْ غِرَاسِ اللَّهِ طِفْلٌ فَارِسٌ ... أَنَا مُؤْمِنٌ بِمَبَادِئِي أَنَا مُسْلِمُ
لُغَةُ الْبُطُولَةِ مِنْ خَصَائِصِ أُمَّتِي ... عَنَّا رَوَاهَا الآخَرُونَ وَتَرْجَمُوا
مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي انْتَفَضَتْ بِهِ ... بَطْحَاءُ مَكَّةَ وَالْحَطِيمُ وَزَمْزَمُ
مُنْذُ الْتَقَى جِبْرِيلُ فَوْقَ رُبُوعِهَا ... بِمُحَمَّدٍ يَتْلُو لَهُ وَيُعَلِّمُ

٥٠ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: **١٧٢- ١٧٤**].

«هذا كان يوم «**حمراء الأسد**»، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم ندموا لِمَ لا تمَّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ رسول اللَّه ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم؛ ليرعبهم، وليريهم أن بهم قوةً وجلدًا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم «**أحد**» سوى جابر بن عبداللَّه رضي الله عنه لما سنذكره، فانتدب المسلمون على

(١) فضائل الجهاد، لابن النحّاس (٢/٦٩١، ٦٩٢).

ما بهم من الجراح والإثخان؛ طاعة لله ولرسوله ﷺ»[1].

وقذف الله في قلب أبي سفيان الرعب، وقال له معبد الخزاعي: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرُّقًا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتًا من شعر.

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي	إِذْ سَالَتِ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ
تَرْدَى بِأُسْدٍ كِرَامٍ لَا تَنَابِلَةً	عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَازِيلُ
فَظَلْتُ عَدْوًا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً	لَمَّا سَمَوْا بِرَئِيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْتُ وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمُ	إذا تغطمطت البطحاءُ بالجيل
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسْلِ ضَاحِيَةً	لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخْشٌ تَنَابِلَةٌ	وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقِيلِ

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾.

«إنهم أولئك الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة، وهم مثخنون بالجراح، وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة، وهم لم ينسوا بَعْدُ هولَ الدعكة، ومرارة الهزيمة، وشدة الكرب. وقد فقدوا من أعزائهم من فقدوا، فقل عددهم، فوق ما هم مثخنون بالجراح!

ولكن رسول الله ﷺ دعاهم، ودعاهم وحدهم، ولم يأذن لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم - ليقويهم ويكثر عددهم كما كان يمكن أن يقال! -

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٦٥).

فاستجابوا .. استجابوا لدعوة الرسول ﷺ وهي دعوة الله ـ كما يقرر السياق، وكما هي في حقيقتها وفي مفهومهم كذلك ـ فاستجابوا بهذا لله والرسول ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾، ونزل بهم الضر، وأثخنتهم الجراح.

ولقد دعاهم رسول اللَّه ﷺ ودعاهم وحدهم. وكانت هذه الدعوة وما تلاها من استجابة تحمل إيحاءات شتى، وتومئ إلى حقائق كبرى، نشير إلى شيء منها:

فلعل رسول اللَّه ﷺ شاء ألا يكون آخر ما تنضم عليه جوانح المسلمين ومشاعرهم، هو شعور الهزيمة، وآلام البرح والقرح؛ فاستنهضهم لمتابعة قريش، وتعقبها، كي يقر في أخلادهم أنها تجربة وابتلاء، وليست نهاية المطاف.. وأنهم بعد ذلك أقوياء، وأن خصومهم المنتصرين ضعفاء، إنما هي واحدة وتمضي، ولهم الكرة عليهم، متى نفضوا عنهم الضعف والفشل، واستجابوا لدعوة اللَّه والرسول.

ولعل رسول اللَّه ﷺ شاء في الجانب الآخر ألا تمضي قريش، وفي جوانحها ومشاعرها أخيلة النصر ومذاقاته. فمضى خلف قريش بالبقية ممن حضروا المعركة أمس؛ يشعر قريشًا أنها لم تنل من المسلمين منالًا، وأنه بقي لها منهم من يتعقبها ويكر عليها.

وقد تحققت هذه وتلك، كما ذكرت روايات السيرة.

ولعل رسول اللَّه ﷺ شاء أن يشعر المسلمين، وأن يشعر الدنيا كلها من ورائهم، بقيام هذه الحقيقة الجديدة التي وجدت في هذه الأرض.. حقيقة أن هناك عقيدة هي كل شيء في نفوس أصحابها. ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها. عقيدة يعيشون لها وحدها، فلا يبقى لهم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستبقون هم لأنفسهم بقية في أنفسهم لا يبذلونها لها، ولا يقدمونها فداها.

لقد كان هذا أمرًا جديدًا في هذه الأرض في ذلك الحين. ولم يكن بد أن تشعر الأرض كلها ـ بعد أن يشعر المؤمنون ـ بقيام هذا الأمر الجديد، وبوجود هذه الحقيقة

الكبيرة.

ولم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة من خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، ومن خروجهم بهذه الصورة الناصعة الرائعة الهائلة؛ صورة التوكل على اللَّه وحده، وعدم المبالاة بمقالة الناس وتخويفهم لهم من جمع قريش لهم ـ كما أبلغهم رسل أبي سفيان ـ وكما هوَّل المنافقون في أمر قريش، وهو ما لا بد أن يفعلوا ـ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾..

هذه الصورة الرائعة الهائلة كانت إعلانًا قويًّا عن ميلاد هذه الحقيقة الكبيرة، وكان هذا بعض ما تشير إليه الخطة النبوية الحكيمة.

وتحدثنا بعض روايات السيرة عن صور من ذلك القرح ومن تلك الاستجابة:

قال محمد بن إسحاق: حدثني عبداللَّه بن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان أن رجلًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ من بني عبدالأشهل كان قد شهد أحدًا قال: شهدنا أحدًا مع رسول اللَّه ﷺ أنا وأخي، فرجعنا جريحين. فلما أذَّن مؤذن رسول اللَّه ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي ـ أو قال لي ـ: أتفوتنا غزوة مع رسول اللَّه ﷺ؟ واللَّه ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل. فخرجنا مع رسول اللَّه ﷺ وكنت أيسر جراحًا منه، فكان إذا غلب حملته عقبة.. حتى انتهيا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

وقال محمد بن إسحاق: كان يوم «**أحد**» يوم السبت النصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول اللَّه ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبداللَّه بن عمرو بن حرام. فقال: يا رسول اللَّه إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع. وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك

هؤلاء النسوة ولا رجل فيهن. ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول اللَّه ﷺ على نفسي، فتخلف على إخوتك، فتخلفت عليهن.. فأذن له رسول اللَّه ﷺ، فخرج معه.

وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة في تلك النفوس الكبيرة. النفوس التي لا تعرف إلا اللَّه وكيلًا، وترضى به وحده وتكتفي، وتزداد إيمانًا به في ساعة الشدة، وتقول في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾..

ثم تكون العاقبة كما هو المنتظر من وعد اللَّه للمتوكلين عليه، المكتفين به، المتجردين له: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

فأصابوا النجاة ـ لم يمسسهم سوء ـ، ونالوا رضوان الله، وعادوا بالنجاة والرضى.

﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾..

فهنا يردهم إلى السبب الأول في العطاء: نعمة اللَّه وفضله على من يشاء. ومع التنويه بموقفهم الرائع، فإنه يرد الأمر إلى نعمة اللَّه وفضله؛ لأن هذا هو الأصل الكبير، الذي يرجع إليه كل فضل، وما موقفهم ذاك إلا طرف من هذا الفضل الجزيل!

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾..

بهذا يسجل اللَّه لهم في كتابه الخالد، وفي كلامه الذي تتجاوب له جوانب الكون كله، وصورتهم هذه وموقفهم هذا، وهي صورة رفيعة، وهو موقف كريم»[(١)].

---

(١) الظلال (١/٥١٩ ـ ٥٢١).

❑ صورة أخرى وضيئة للموقنين الصادقين:

في يوم الأحزاب، الذي قال الله فيه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

قال محمد بن مسلمة: كان ليلنا بالخندق نهارًا، وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يومًا، ويغدو خالد بن الوليد يومًا، ويغدو عمرو بن العاص يومًا، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يومًا، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يومًا، ويغدو ضرار بن الخطاب يومًا، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفًا شديدًا..

إنها صورة الهول الذي روَّع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب؛ من أعلاها ومن أسفلها، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج، ومن ثَمَّ كان الابتلاء كاملًا، والامتحان دقيقًا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسمًا لا تردد فيه.

٥١ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: **٢٢، ٢٣**].

«صورة الإيمان الواثق المطمئن؛ وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة، في مواجهة الهول، وفي لقاء الخطر.. الخطر الذي يزلزل القلوب المؤمنة، فتتخذ من هذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا

مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة؛ وكان الكرب الذي واجهوه من الشدة؛ وكان الفزع الذي لقوه من العنف، بحيث زلزلهم زلزالًا شديدًا، كما قال عنهم أصدق القائلين: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

لقد كانوا ناسًا من البشر. وللبشر طاقة. لا يكلفهم اللَّه ما فوقها. وعلى الرغم من ثقتهم بنصر اللَّه في النهاية؛ وبشارة الرسول ﷺ لهم، تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق. على الرغم من هذا كله، فإن الهول الذي كان حاضرًا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم.

ومما يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبر حذيفة. والرسول ﷺ يحسن حالة أصحابه، ويرى نفوسهم من داخلها، فيقول: «**مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟**» يشرط له رسول اللَّه ﷺ الرجعة؛ «**أسأل اللَّه ـ تَعالَى ـ أن يكون رفيقي في الجنة**»... ومع هذا الشرط بالرجعة، ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول اللَّه في الجنة، فإن أحدًا لا يلبي النداء. فإذا عين بالاسم حذيفة؛ قال: فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني!.. ألا إن هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة.

ولكن كان إلى جانب الزلزلة، وزوغان الأبصار، وكرب الأنفاس.. كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله؛ وإدراك الذي لا يضل عن سنن الله؛ والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن؛ وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها.

ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببًا في انتظار النصر. ذلك أنهم صدقوا قول اللَّه ـ سبحانه ـ من قبل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾. وها هم أولاء يزلزلوا. فنصر اللَّه إذن منهم قريب! ومن ثم قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ

وَرَسُولُهُۥ﴾.. ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.. هذا الهول، وهذا الكرب، وهذه الزلزلة، وهذا الضيق، وَعَدَنا عليه النصر.. فلا بد أن يجيء النصر.

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.. صدق الله ورسوله في الأمارة وصدق الله ورسوله في دلالتها.. ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

لقد كانوا ناسًا من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر. وليس مطلوبًا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ويفقدوا خصائصه ومميزاته. فلهذا خلقهم الله؛ خلقهم ليبقوا بشرًا، ولا يتحولوا جنسًا آخر. لا ملائكة، ولا شياطين، ولا بهيمة، ولا حجرًا.. كانوا ناسًا من البشر يفزعون، ويضيقون بالشدة، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة. ولكنهم كانوا ـ مع هذا ـ مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله، وتمنعهم من السقوط، وتجدد فيهم الأمل، وتحرسهم من القنوط.. وكانوا بهذا وذاك نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير.

وعلينا أن ندرك هذا، لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور. علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرًا، لم يتخلوا عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف، وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قيمة مهيأة لبني الإنسان في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة، أو زلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق.. فعلينا ألا نيأس من أنفسنا، وألا نهلع ونحسب أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدًا. ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا؛ لأنه من فطرتنا البشرية! ونصر عليه؛ لأنه يقع لمن هم خير منا! هنالك العروة الوثقى؛ عروة السماء، وعلينا أن نستمسك بها؛ لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة،

ونتخذ من الزلزال بشيرًا بالنصر. فنثبت ونستقر، ونقود ونطمئن، ونسير في الطريق..

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام. النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله، فمنهم من لقيه، ومنهم من ينتظر أن يلقاه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾..

هذا في مقابل ذلك النموذج الكريه.. نموذج الذين عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، ثم لم يوفوا بعهد الله، ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

روى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن ثابت قال: «**عمي أنس بن النضر** ﷺ سميت به ـ لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه! لئن أراني الله ـ تَعَالَى ـ مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ﷻ ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها. فشهد مع رسول الله ﷺ يوم «**أحد**». فاستقبل سعد بن معاذ ﷺ فقال له أنس ﷺ: يا أبا عمرو، أين واهًا لريح الجنة! إني أجده دون «**أحد**». قال: فقاتلهم حتى قتل ﷺ قال: فوُجِدَ في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية. فقالت أخته ـ عمتي الرُّبِّيع ابنة النضر ـ: فما عرفت أخي إلا ببنانه. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ إلخ. قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ. [ورواه مسلم، والترمذي، والنسائي من حديث سليمان بن المغيرة].

وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان، في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق؛ لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن.

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء، وعاقبة النقض والوفاء؛ وتفويض الأمر في

هذا كله لمشيئة الله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ـ إن شاء الله ـ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد ـ؛ ليرد الأمر كله إلى الله، ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع. فليس شيء منها عبثًا ولا مصادفة، إنما تقع وفق حكمة مقدرة، وتدبير قاصد. وتنتهي إلى ما شاء اللَّه من العواقب.

وفيها تتجلى رحمة اللَّه بعباده، ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ويختم الحديث عن الحدث الضخم بعاقبته التي تصدق ظن المؤمنين بربهم؛ وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم؛ وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

وقد بدأت المعركة، وسارت في طريقها، وانتهت إلى نهايتها. وزمامُها في يد الله، يصرفها كيف يشاء. وأثبت النص القرآني هذه الحقيقة بطريقة تعبيره، فأسند إلى اللَّه ـ تَعَالَى ـ إسنادًا مباشرًا كل ما تم من الأحداث والعواقب؛ تقريرًا لهذه الحقيقة، وتثبيتًا لها في القلوب، وإيضاحًا للتصور الإسلامي الصحيح[1].

---

[1] الظلال (٥/٢٨٤٣ ـ ٢٨٤٥).

الجهاد اختبار وتمحيص لشرف أهله عند الله

❑ الجهاد منهج عجيب في التربية على التفويض والرضا باختيار اللَّه ﷻ

٥٢ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

إن القتال في سبيل اللَّه فريضة شاقة، ولكنها فريضة واجبة الأداء. واجبة الأداء؛ لأن فيها خيرًا كثيرًا للفرد المسلم، وللجماعة المسلمة، وللبشرية كلها، وللحق والخير والصلاح.

والإسلام يحسب حساب الفطرة؛ فلا ينكر مشقة هذه الفريضة، ولا يهون من أمرها، ولا ينكر على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها وثقلها. فالإسلام لا يماري في الفطرة، ولا يصادمها، ولا يحرم عليها المشاعر الفطرية التي ليس إلى إنكارها من سبيل.. ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر، ويسلط عليه نورًا جديدًا. إنه يقرر أن من الفرائض ما هو شاق مرير كريه المذاق؛ ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتسيغ مرارته، وتحقق به خيرًا مخبوءًا قد لا يراه النظر الإنساني القصير.. عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر، ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها. نافذة تهب منها ريح رخية عندما تحيط الكروب بالنفس وتشق عليها الأمور.. إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيرًا، ووراء المحبوب شرًّا. إن العليم بالغايات البعيدة، المطلع على العواقب المستورة، هو الذي يعلم وحده، حيث لا يعلم الناس شيئًا من الحقيقة.

وعند تنسم تلك النسمة الرخية على النفس البشرية تهون المشقة، وتتفتح منافذ الرجاء، ويستروح القلب في الهاجرة، ويجنح إلى الطاعة والأداء في يقين وفي رضاء.

هكذا يواجه الإسلام الفطرة، لا منكرًا عليها ما يطوف من المشاعر الطبيعية، ولا مريدًا لها على الأمر الصعب بمجرد التكليف، ولكن مربيًا لها على الطاقة، ومفسحًا لها في الرجاء؛ لتبذل الذي هو أدنى في سبيل الذي هو خير، ولترتفع على ذاتها متطوعة لا مجبرة، ولتحس بالعطف الإلهي الذي يعرف مواضع ضعفها، ويعترف بمشقة ما كتب عليها، ويعذرها ويقدرها، ويحدو لها بالتسامي والتطلع والرجاء.

وهكذا يربي الإسلام الفطرة، فلا تمل التكليف، ولا تجزع عند الصدمة الأولى، ولا تخور عند المشقة البادية، ولا تخجل وتتهاوى عند انكشاف ضعفها أمام الشدة. ولكن تثبت وهي تعلم أن اللَّه يعذرها ويمدها بعونه ويقويها، وتصمم عل المضي في وجه المحنة، فقد يكمن فيها الخير بعد الضرر، واليسر بعد العسر، والراحة الكبرى بعد الضنى والعناء. ولا تتهالك على ما تحب وتلتذ، فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة! وقد يكون المكروه مختبئًا خلف المحبوب، وقد يكون الهلاك متربصًا وراء المطمع البرَّاق.

إنه منهج في التربية عجيب. منهج عميق بسيط. منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة بالحق وبالصدق، لا بالإيحاء الكاذب، والتمويه الخادع.. فهو حق أن تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمرًا ويكون فيه الخير كل الخير. وهو حق كذلك أن تحب النفس أمرًا وتتهالك عليه وفيه الشر كل الشر. وهو الحق كل الحق أن اللَّه يعلم والناس لا يعلمون! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ وماذا يعلم الناس مما وراء الستر المسدل؟ وماذا يعلم الناس من الحقائق التي لا تخضع للهوى والجهل والقصور؟!».

إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشري لتفتح أمامه عالمًا آخر غير العالم المحدود الذي تبصره عيناه. وتبرز أمامه عوامل أخرى تعمل في صميم الكون، وتقلب الأمور، وترتب العواقب على غير ما كان يظنه ويتمناه. وإنها لتتركه حين يستجيب

لها طَيِّعًا في يد القدر، يعمل ويرجو ويطمع ويخاف، ولكن يرد الأمر كله لليد الحكيمة والعلم الشامل، وهو راض قرير.. إنه الدخول في السلم من بابه الواسع.. فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله. وأن الخير في طاعة اللَّه دون محاولة منها أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان!

إن الإذعان الواثق، والرجاء الهادئ، والسعي المطمئن هي أبواب السلم الذي يدعو اللَّه عباده الذين آمنوا ليدخلوا فيه كافة.. وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العجيب العميق البسيط في يسر وفي هوادة وفي رخاء. يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال، فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال.

وإن هذا الإيحاء الذي يحمله ذلك النص القرآني، لا يقف عند حد القتال، فالقتال ليس إلا مثلًا لما تكرهه النفس، ويكون من ورائه الخير.. إن هذا الإيحاء ينطلق في حياة المؤمن كلها، ويلقي ظلاله على أحداث الحياة جميعها.. إن الإنسان لا يدري أين يكون الخير وأين يكون الشر.. لقد كان المؤمنون الذين خرجوا يوم «**بدر**» يطلبون عير قريش وتجارتها، ويرجون أن تكون الفئة التي وعدهم اللَّه إياها هي فئة العير والتجارة، لا فئة الحامية المقاتلة من قريش. ولكن اللَّه جعل القافلة تفلت، ولقاهم المقاتلة من قريش! وكان النصر الذي دوى في الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام. فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذي أراده اللَّه للمسلمين! وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار اللَّه لهم؟ واللَّه يعلم، والناس لا يعلمون!

ولقد نسي فتى موسى ما كانا قد أعداه لطعامهما ـ وهو الحوت ـ فتسرب في البحر عند الصخرة. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا

عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبۡدًا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٢ - ٦٥]، وكان هذا هو الذي خرج له موسى. ولو لم يقع حادث الحوت ما ارتدا، ولفاتهما ما خرجا لأجله في الرحلة كلها!

وكل إنسان - في تجاربه الخاصة - يستطيع - حين يتأمل - أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم. وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذًا من اللَّه أن فوَّت عليه هذا المطلوب في حينه. وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثًا يكاد يتقطع لفظاعتها ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل.

إن الإنسان لا يعلم. واللَّه وحده يعلم. فماذا على الإنسان لو يستسلم؟

إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية؛ لتؤمن، وتسلم، وتستسلم في أمر الغيب المخبوء، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف»[1].

قال الإمام ابن القيم - رحمه اللَّه -: «في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه؛ لم يأمن أن توافيه المضرَّة من جانب المسرَّة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرَّة، لعدم علمه بالعواقب، فإن اللَّه يعلم منها ما لا يعلمه العبد - أوجب له ذلك أمورًا:

منها: أنه لا أنفع له من امتثال أمر ربه، وإن شقَّ عليه في الابتداء؛ لأن عواقبه كلها خيرات ومسرَّات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها، وأنفع، وكذلك لا شيء أضرُّ عليه من ارتكاب المنهي، وإن هوته نفسه، ومالت إليه، وإن

---

(١) الظلال (١/٢٢٣ - ٢٢٥).

عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب. وخاصية العاقل تحمل الألم اليسير؛ لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة؛ لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل.

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غايتها، والعاقل الكيِّس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مباديها؛ فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة؛ فيرى المناهي لطعام لذيذ قد خُلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه عنه ما فيه من السمِّ، ويرى الأوامر كدواء مُرِّ المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهته مرارة مذاقه عن تناوله، أمره نفعه بالتناول، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم، تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لم يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره؛ هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم، واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية أنها: تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له، ويقتضيه له؛ لما يرجو من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعلَّ مضرته وهلاكه فيه، وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئًا، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوَّض إلى ربه، ورضي بما يختاره له؛ أمده فيما يختاره له بالقوة عليه، والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أن يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرِّغ قلبه من التقديرات والتدبيرات، التي يصعد منها في عقبة، وينزل في أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله؛ أصابه القدر وهو محمود مشكور

ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر، وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه، مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه؛ اكتنفه في المقدور العطفُ عليه، واللطف به، فيصير بين عطفه ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره، ولطفه يهوِّن عليه ما قدَّره.

إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيُّله في ردِّه، فلا أنفع له من الاستسلام، وإلقاء نفسه بين يديْ القدر طريحًا كالميت. فإن السبع لا يرضى أن يأكل الجيف»[1].

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «بَيَّنَ ـ سبحانه ـ أن ما أمرهم به يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به، وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم، وإما لنفور الطبع. فهذا علمه بما في عواقب أمره مما لا يعلمونه، وذلك علمه بما في اختياره من خلقه بما لا يعلمونه.

فهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر اللَّه وإن شقَّ على النفوس، وعلى الرضا بقضائه وإنْ كرهته النفوس»[2].

٥٣ ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾: شدة الحاجة. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: هي العلل والأوصاب. ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾: شبه الذين مضوا.

قال ابن جرير (٢/١٩٨): «أم حسبتم أنكم أيها المؤمنون باللَّه ورسله تدخلون الجنة ولم يصبكم مثل ما أصاب مَنْ قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد

---

(١) الفوائد، لابن القيم ص (١٣٤، ١٣٥).

(٢) شفاء العليل، لابن القيم ص (٣٣).

والمحن والاختبار، فتبتلوا بما ابتلوا واختبروا به من شدة الحاجة والفاقة والعلل والأوصاب، ولم تزلزلوا زلزالهم؛ يعني: ولم يصبهم من أعدائهم من الخوف والرعب شدة وجهد حتى يستبطئ القوم نصر الله إياهم فيقولون: متى الله ناصرنا؟ ثم أخبرهم الله أن نصره منهم قريب وأنه مُعْلِيهِمْ على عدوهم، ومظهرهم عليه، ومنجز لهم ما وعدهم، ويعلي كلمتهم، ويُطفئ نار حرب الذين كفروا.

قال قتادة: نزلت في يوم «**الأحزاب**»؛ أصاب رسولَ الله ﷺ وأصحابَه بلاءٌ وحصرٌ، فكانوا كما قال الله ﷻ: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]».

«هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى، وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها، وإلى سنته ـ سبحانه ـ في تربية عباده المختارين الذين يكل إليهم رايته، وينوط بهم أمانته في الأرض، ومنهجه وشريعته. وهو خطاب مطرد لكل من يُختار لهذا الدور العظيم..

وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة.. إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه ـ من الرسول ـ وهو خير الناس وأعلمهم بالله.. الموصول بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله، إن سؤالهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة، ولن تكون إلا محنة فوق الوصف، تُلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾»؟

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة.. عندئذ تتم كلمة الله، ويجيء النصر من الله.

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾: إنه مُدَّخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية.. الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة، الذين لا يحنون رءوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله. وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها، فهم يتطلعون فحسب إلى «**نصر الله**»، لا إلى أي حل آخر، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلا من

عند الله. بهذا يدخل المؤمنون الجنة، مستحقين لها، جديرين بها، بعد الجهاد والامتحان، والصبر والثبات، والتجرد لله وحده، والشعور به وحده، وإغفال كل ما سواه وكل من سواه.

إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة، ويرفعها على ذواتها، ويطهرها في بوتقة الألم، فيصفو عنصرها ويضيء، ويهب العقيدة عمقًا وحيوية، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها، وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجًا كما وقع، وكما يقع في كل قضية حق، يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين.

على أنه - حتى إذا لم يقع هذا - يقع ما هو أعظم منه في حقيقته.. ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها، وتنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة، والحرص على الحياة نفسها في النهاية.. وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها، وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء.. كسب يرجح جميع الآلام، وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون المؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته.

وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة في نهاية المطاف.. وهذا هو الطريق. إيمان وجهاد.. ومحنة وابتلاء.. وصبر وثبات.. وتوجه إلى الله وحده.. ثم يجيء النصر.. ثم يجيء النعيم». اهـ. من الظلال (١/٢١٨، ٢١٩).

٥٤- قال - تعالى -: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ﴾: قال ابن عباس: إن يصبكم.

﴿قَرْحٌ﴾: قال مجاهد جراح وقتل. وقال قتادة: القرح: الجراحة، وهو قول ابن

إسحاق. قال الربيع: «**إن كان أصابكم قرح فقد أصاب عدوكم مثله**» يعزِّي أصحاب محمد ﷺ ويحثهم على القتال.

قال الحسن: إن يقتلوا منكم يوم «**أحد**» فقد قتلتم منهم يوم «**بدر**».

عن ابن عباس قال: نام المسلمون وبهم الكلوم يوم «**أحد**». قال عكرمة: وفيهم أُنزلت: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ وفيهم أنزلت: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نجعلها دولًا بين الناس، ويعني بالناس: المسلمين والمشركين، وذلك أن اللَّه ﷻ أدال المسلمين من المشركين ببدر، فقتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين، وأدال المشركين من المسلمين بأحد، فقتلوا منهم سبعين سوى من جرحوا منهم.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وليعلم اللَّه الذين آمنوا منكم - أيها القوم - من الذين نافقوا. وليتخذ منكم شهداء؛ أي: ليكرم منكم بالشهادة من أراد أن يكرمه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، وطبائع القلوب، ودرجة الغبش فيها والصفاء، ودرجة الهلع فيها والصبر، ودرجة الثقة فيها باللَّه أو القنوط، ودرجة الاستسلام فيها لقدر اللَّه أو البرم به والجموح!

ومداولة الأيام، وتعاقب الشدة والرخاء، محك لا يُخطئ، وميزان لا يظلم. والرخاء في هذا كالشدة، وكم من نفوس تصبر للشدة والتماسك، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل. والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء، ولا تستخفها السراء، وتتجه إلى اللَّه في الحالين وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فبإذن الله.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

وليمحص اللَّه الذين آمنوا؛ قال ابن عباس: يبتليهم، وهو قول مجاهد، والسدي.

قال ابن إسحاق: يختبر الذين آمنوا؛ حتى يخلصهم بالبلاء الذي نزل بهم. وكيف صَبْرُهم ويَقِينُهم.

﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: ينقصهم ويفنيهم. يقال منه: محق فلان هذا الطعام إذا نقصه أو أفناه. قال ابن عباس: ينقصهم.

قال ابن زيد: يمحق من محق في الدنيا، وكان بقية من يمحق في الآخرة في النار.

«والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز. والتمحيص عملية تتم في داخل النفس، وفي مكنون الضمير.. إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية وتسليط الضوء على هذه المكنونات؛ تمهيدًا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق بلا غبش ولا ضباب.

وكثيرًا ما يجهل الإنسان نفسه، ومخابئها ودروبها ومنحنياتها، وكثيرًا ما يجهل ضعفها وقوتها، وحقيقة ما استكنَّ فيها من رواسب لا تظهر إلا بمثير!

وفي هذا التمحيص الذي يتولاه اللَّه ـ سبحانه ـ بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير.. محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية.

ولقد يظن الإنسان في نفسه القدرة والشجاعة والتجرد والخلاص من الشح والحرص.. ثم إذا هو يكتشف ـ على ضوء التجربة العملية وفي مواجهة الأحداث الواقعية ـ أن في نفسه عقابيل لم تمحص، وأنه لم يتهيأ لمثل هذا المستوى من الضغوط! ومن الخير أن يعلم هذا من نفسه ليعاود المحاولة في سبكها من جديد على مستوى الضغوط التي تقتضيها طبيعة هذه الدعوة، وعلى مستوى التكاليف التي تقتضيها هذه العقيدة!».

محص اللَّه هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية، ورباها ومحَّصها هذا التمحيص الذي تكشَّفت عنه الأحداث في «**أُحُد**»؛ لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لها، وليتحقق على يديها قدر اللَّه الذي ناطه بها.

﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ تحقيقًا لسنته في دمغ الباطل بالحق متى استعلن الحق، وخلص من الشوائب بالتمحيص.

٥٤ـ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [**آل عمران: ١٤٢**].

قال ابن كثير (٣/٢٠٠): «أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد. كما قال ـ تعَالَى ـ في سورة البقرة: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢١٤] الآية.

وقال ـ تعَالَى ـ: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾ [العنكبوت: ١، ٢] الآية. ولهذا قال هاهنا: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ أي: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى اللَّه منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء» اهـ.

وقال الطبري (٤/٧٠، ٧١): «أظننتم أن تدخلوا الجنة، وتنالوا كرامة ربكم وشرف المنازل عنده. ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾: ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهد منكم في سبيل اللَّه على ما أمره به، ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: عند البأس على ما ينالهم في ذات اللَّه من جرح وألم ومكروه».

قال ابن إسحاق: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتصيبوا من ثوابي الكرامة ولم أختبركم بالشدة وأبتليكم بالمكارة؛ حتى أعلم صدق ذلك منكم الإيمان بي

والصبر على ما أصابكم فيَّ.

«في سؤال استنكاري يصحح القرآن تصورات المسلمين عن سنة اللَّه في الدعوات وفي النصر والهزيمة، وفي العمل والجزاء، ويبينٌ لهم أن طريق الجنة محفوف بالمكاره، وزاده الصبر على مشاق الطريق، وليس زاده التمني والأماني الطائرة التي لا تثبت على المعاناة والتمحيص.

إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها التنبيه بشدة إلى خطإ هذا التصور: تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان: أسلمت وأنا على استعداد للموت، فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان، وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان! إنما هو الجهاد وملاقاة البلاء، ثم الصبر على تكاليف الجهاد، وعلى معاناة البلاء.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

ربما كان الجهاد في الميدان أخف من تكاليف الدعوة التي يطلب لها الصبر ويختبر بها الإيمان.. الصبر على الاستقامة على أفق الإيمان، والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك.. الصبر في أثناء ذلك على الضعف الإنساني في النفس وفي الغير.. فمن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية... والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتعش ويبدو كالمنتصر.. والصبر على طول الطريق وبُعد الشقة وكثرة العقبات.. الصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال.. والصبر على أشياء كثيرة ليس الجهاد في الميدان إلا واحدًا منها، في الطريق المحفوف بالمكاره ـ طريق الجنة التي لا تنال بالأماني وكلمات اللسان!

أخي: من صبر ظفر، ومن ضجر في حَمْل ما لقي خَسِر.. ومن ظن أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألقته أمانيه في مهواة الهلاك، ومن عرف مطلوبه سهل عليه بذل مجهوده.

إِذَا شَامَ الْفَتَى بَرَقَ الْمَعَانِي ... فَأَهْوَنُ فَائِتٍ طِيبُ الرُّقَادِ

٥٥ـ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

«أي: قد كنتم أيها المؤمنون، قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو، وتتحرقون عليه، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا اللَّه العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»[(١)].

ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾؛ يعني: الموت، شاهدتموه في لمعان السيوف، وحدِّ الأسنة، واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال»[(٢)].

إِذَا انْسَكَبَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ ... تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

وزن الحقيقة تُواجه في العيان:

يعلمهم اللَّه بهذا أن يحسبوا حسابًا لكل كلمة تطلقها ألسنتهم، ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعي في نفوسهم، على ضوء ما واجهوه من حقيقتها حين واجهتهم! وبذلك يقدِّرون قيمة الكلمة، وقيمة الأمنية، وقيمة الوعد، في ضوء الواقع الثقيل! ثم يعلمهم أن ليست الكلمات الطائرة، والأماني المرفوفة هي التي تبلغهم الجنة، إنما هو تحقيق الكلمة وتجسم الأمنية، والجهاد الحقيقي، والصبر على المعاناة، حتى يعلم اللَّه منهم ذلك كله واقعًا كائنًا في دنيا الناس!

لقد كان اللَّه ـ سبحانه ـ قادرًا على أن يمنح النصر لنبيه، ولدعوته، ولدينه، ولمنهجه منذ اللحظة الأولى، وبلا كدٍّ من المؤمنين ولا عناء، وكان قادرًا على أن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٨، ٢٨٣٣، ٢٩٦٦، ٣٠٢٤، ٣٠٢٥، ٧٢٢٧)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٢٠٠).

ينزل الملائكة تقاتل معهم - أو بدونهم - وتدمر على المشركين، كما دمرت على عاد، وثمود، وقوم لوط.

ولكن المسألة ليست هي النصر - إنما هي تربية الجماعة المسلمة التي تُعَدُّ لتتسلم قيادة البشرية.. البشرية بكل ضعفها ونقصها، وبكل شهواتها ونزواتها، وبكل جاهليتها وانحرافها.. وقيادتها قيادة راشدة تقتضي استعدادًا عاليًا من القادة. وأول ما تقتضيه صلابة في الخُلُقُ، وثبات على الحق، وصبر على المعاناة، ومعرفة بمواطن الضعف ومواطن القوة في النفس البشرية، وخبرة بمواطن الزلل ودواعي الانحراف، ووسائل العلاج. ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة، وصبر على الشدة بعد الرخاء، وطعمها يومئذ لاذع مرير.

وقَدَرُ اللَّه في إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضي في طريقه بشتى الأسباب والوسائل، وشتى الملابسات والوقائع.. يمضي أحيانًا في طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة فتستبشر، وترتفع ثقتها بنفسها - في ظل العون الإلهي - وتجرِّب لذة النصر، وتصبر على نشوته، وتجرِّب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء، وعلى التزام التواضع والشكر لله.. وتمضي أحيانًا عن طريق الهزيمة والكرب والشدة، فتلجأ إلى الله، وتعرف حقيقة قوتها الذاتية، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله، وتُجرِّب مرارة الهزيمة، وتستعلي - مع ذلك - على الباطل بما عندها من الحق المجرد، وتعرف مواضع نقصها وضعفها، ومداخل شهواتها، ومزالق أقدامها، فتحاول أن تصلح من هذا كله في الجولة القادمة.. وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد.. ويمضي قدر اللَّه وفق سنته، لا يتخلف، ولا يحيد..

وقد كان هذا كله طرفًا من رصيد معركة «**أُحُد**»، الذي يحشده السياق القرآني للجماعة المسلمة - على نحو ما نرى في هذه الآيات - وهو رصيد مُدَّخر لكل جماعة مسلمة ولكل جيل من أجيال المسلمين»[1].

---

(١) الظلال (٤٨٣/١، ٤٨٤).

❑ **ودرس قبل ذلك من حياة بني إسرائيل وآيات عالية المقام بعيدة الغايات:**

٥٦- قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦- ٢٥١].

يقص اللَّه علينا في القرآن - كتاب هذه الأمة ورائدها الناصح، ومدرستها التي تلَّقت فيها دروس تربيتها وإعدادها لقيادة الخليفة، وسنجد في القرآن عجائب لا تخطر على البال الساهي.. سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك

وتشير إلى معالم الطريق.. وهو دعوة للحياة.. الحياة الدائمة المتجددة.. لا الحياة التاريخية المحدودة في صفحة عابرة من صفحات التاريخ.. وهذا درس من بني إسرائيل لأمة محمد ﷺ بصفتها وارثة العقيدة، ووارثة التجارب في هذا الحقل الخصب.

والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن انتفاضة العقيدة على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلى للقوم عنها فوجًا بعد فوج في مراحل الطريق - على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدًّا.. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين، ولقد جاءت لهم بمُلك داود، ثم ملك سليمان -، وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدهم الذهبي.

وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضه العقيدة من تحت الركام، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت.

وفي خلال التجربة تبرز عظات أخرى جزئية؛ كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين؛ من ذلك:

أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها.. فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.. فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل - من ذوي الرأي والمكانة فيهم - إلى نبيهم في ذلك الزمان، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكًا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم، فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال وثبات نيتهم قال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ إنها الكلمة اللائقة بنبي، والتأكد اللائق بنبي، فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ.

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة إلى الذروة، وذكر الملأ أن هناك من

الأسباب الحافزة للقتال في سبيل اللَّه ما يجعل القتال هو الأمر المتعينَّ الذي لا تردد فيه. ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ ؟

ونجد أن الأمر واضح في حسِّهم، مقرر في نفوسهم.. إن أعداءهم أعداء لله ولدين الله، وقد أخرجوهم من ديارهم، وسبوا أبناءهم .. فقتالهم واجب، والطريق الواحدة التي أمامهم هي القتال، ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدل.

ولكن هذه الحماسة الفائرة البالغة في ساعة الرخاء ما لبثت أن انطفأت شعلتها ولم تدم، وتهاوت على مراحل الطريق.. وهذه ظاهرة بشرية، وسمة كل جماعة لا تنضج تربتها الإيمانية، ولا تبلغ مبلغًا غاليًا في التدريب.

سمة بشرية عامة لا تُغَيِّر منها إلا التربية الإيمانية العالية، الطويلة الأمد، العميقة التأثير. وهي سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر، كي لا تفاجأ بها؛ فيتعاظمها الأمر! فهي متوقعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب، ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقابيل.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصم للكثرة التي تولَّت عن هذه الفريضة - بعد طلبها - وقبل أن تواجه الجهاد مواجهة عملية.. وصمها بالظلم - فهي ظالمة لنفسها، وظالمة لنبيها، وظالمة للحق الذي خذلته وهي تعرف أنه الحق، ثم تتخلى عنه للمبطلين!

ودرس آخر هو أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول.. فمع كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كُتب عليهم القتال استجابةً لطلبهم، ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها.. وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد اللجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة واختيار اللَّه له.

هاهم أولاء ينغضون رءوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون في اختيار اللَّه لطالوت ملكًا عليهم - ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية، وعن حكمة اللَّه

في اختياره.

إنه رجل قد اختاره اللَّه ـ فهذه واحدة.. وزاده بسطة في العلم والجسم ـ وهذه أخرى.. ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ فهو ملكه، وهو وحده صاحب التصرف فيه، وهو يختار من عباده من يشاء.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ليس لفضله خازن، وليس لعطائه حد.. وهو الذي يعلم الخير، ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها.

ثم آية أخرى خارقة «**الإتيان بالتابوت**» فانتهى القوم إلى اليقين.

وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت.. تبرز منها خبرته بالنفوس، وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة.

إن طالوت ـ الذي اصطفاه اللَّه ـ مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه جيش أمة غالبة، فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة.. هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة.. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلى على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء.. فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره؛ صموده أولًا للرغبات والشهوات، وصبره ثانيًا على الحرمان والمتاعب..

واختار هذه التجربة، وهم ـ كما تقول الروايات ـ عطاش؛ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ويؤثر العافية .. وصحت فراسته.

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم، وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنهم

بذرة ضعف وخذلان وهزيمة.. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم.

ودلَّت هذه التجربة على أن النيَّة الكامنة وحدها لا تكفي، ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها، ودلت كذلك على صلابة عُود القائد المختار الذي لم يهزه تخلُّف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى.. بل مضى في طريقه.

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت ـ إلى حد ـ، ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

لقد صاروا قلة وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته، إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم، ولكنهم أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهة.. إنها التجربة الحاسمة.. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور.. وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم.. فاتصلت قلوبهم بالله، وأصبحت لهم موازين يستمدونها من واقع إيمانهم غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة.. القليلة المختارة.. الفئة ذات الموازين الربانية.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

«ظَنَّ» إذا أتت بعدها «أَنَّ» تفيد اليقين ـ أي: أنهم متأكدون.

هكذا.. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾.. بهذا التكثير ـ فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله. القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة؛ لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء

والاختبار، ولكنها تكون الغالبة؛ لأنها تتصل بمصدر القوى، ولأنها تُمثِّل القوة الغالبة؛ قوة اللّه الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين، وقاهر المتكبرين.

وهم يكلون هذا النصر لله؛ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ .. ويعلِّلونه بعلته الحقيقية: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ .. فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من اللّه لمعركة الحق، الفاصلة بين الحق والباطل.

ونمضي مع القصة فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء، وتستمد قواتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله، وإنه مع الصابرين.. إذًا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة الثابتة ـ التي لم تزلزها كثرة العدو وقوته.. مع ضعفها وقلتها.. إذًا هذه الفئة المؤمنة هي التي تقرر مصير المعركة، بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه.. وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول الرعيب.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ الآية.

هكذا.. ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضًا من اللّه يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينةً وطمأنينةً واحتمالًا للهول والمشقة. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فهي في يده ـ سبحانه ـ يثبتها فلا تترحزح، ولا تتزلزل، ولا تميد. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

فقد وضح الموقف.. إيمانٌ تجاه كفر.. وحقٌّ إزاء باطل، ودعوةٌ إلى اللّه لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين، فلا تلجلج في الضمير، ولا غبش في التصور، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها. ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

يؤكد النص هذه الحقيقة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ ليعلمها المؤمنون، أو ليزدادوا بها علمًا، وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تجريه.

إن المؤمنين ستار القدرة، يفعل اللَّه بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار .. بإذنه .. ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة.. ولكن اللَّه يختارهم لتنفيذ مشيئته .. فيكون منهم ما يريده بإذنه.. وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين.. إنه عبد اللَّه .. اختاره اللَّه لدوره .. وهذه منة من اللَّه وفضل.. وهو يؤدي هذا الدور المختار، ويحقق قدر اللَّه النافذ، ثم يكرمه اللَّه - بعد كرامة الاختيار - بفضل الثواب، ولولا فضل اللَّه ما فعل، ولولا فضل اللَّه ما أُهيب.. ثم إنه مستيقن من نبل الغاية، وطهارة القصد، ونظافة الطريق.. فليس له في شيء من هذا كله أَرَبٌ ذاتي، إنما هو منفِّذ لمشيئة اللَّه الخيِّرة، قائم بما يريد - استحق هذا كله بالنيَّة الطيبة، والعزم على الطاعة، والتوجه إلى اللَّه في خلوص.

العبرة الأخيرة - التي تكمن في مصير المعركة - أن القلب الذي يتصل باللَّه تتغيَّر موازينه وتصوراته؛ لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود.

يوقن القلب المتصل باللَّه أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد اللَّه وحده، فيطلب منه النصر، ويناله من اليد التي تملكه وتعطيه.

هكذا تتغير التصورات والموازين عند الاتصال باللَّه حقًّا، وعندما يتحقق في القلب اليقين، وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد اللَّه الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون.

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾:

كان داود عليه السلام فتى صغيرًا من بني إسرائيل، وجالوت كان ملكًا قويًّا وقائدًا مخوفًا، ولكن شاء اللَّه أن يرى القوم أن الأمور لا تجري بظواهرها.. إنما تجري بحقائقها.. وحقائقها يعلمها هو.. ومقاديرها في يده وحده.. فليس عليهم إلا أن

ينهضوا هم بواجبهم، ويفوا لله بعهدهم، ثم يكون ما يريده اللَّه بالشكل الذي يريده.. واللَّه ما أحلى الإشارة في قول الشاعر:

لَا تُـدَبِّـرْ لَـكَ أَمْـرًا فَـأُولُـو الـتَّـدْبِـيرِ هَـلْـكَـى
سَـلِّـمِ الأَمْـرَ تَجِـدْنَـا نَـحْـنُ أَوْلَـى بِـكَ مِـنْـكَـا

ولقد أراد اللَّه أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير؛ ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف، يغلبهم الفتية الصغار، حين يشاء اللَّه أن يقتلهم.

ويكون النصر الأخير للعقيدة الواثقة، لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية، لا للكثرة العددية.. حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى.. إنها ليست المغانم والأسلاب، وليست الأمجاد والهالات.. إنما هو الصلاح في الأرض، والتمكين للخير بالجهاد مع الشر.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

لقد كانت الحياة تأسن وتتعفَّن لولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض.

قال ابن جرير: (٢/٤٠٣، ٤٠٤): «لولا أن اللَّه يدفع ببعض الناس ـ وهم أهل الطاعة له والإيمان به ـ بعضًا ـ وهم أهل المعصية لله والشرك به ـ كما دفع عن المتخلفين عن طالوت يوم جالوت بمن جاهد معه من أهل الإيمان باللَّه واليقين والصبر جالوت وجنوده ـ ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ لهلك أهلها بعقوبة اللَّه إياهم، ولكن اللَّه ذو مَنٍّ على خلقه وتطوُّل عليهم بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي منهم، وبالمؤمن عن الكافر.

وهذه الآية إعلام من اللَّه ـ تَعَالَى ذكره ـ أهل النفاق الذين كانوا على عهد رسول اللَّه ﷺ المتخلفين عن مشاهده والجهاد معه؛ للشك الذي في نفوسهم، ومرض قلوبهم، والمشركين وأهل الكفر منهم، وأنه إنما يدفع عنهم معالجتهم العقوبة على كفرهم ونفاقهم بإيمان المؤمنين به وبرسوله الذين هم أهل البصائر والجد في

أمر الله، وذو اليقين بإنجاز اللَّه إياهم وعده على جهاد أعدائه وأعداء رسوله من النصر العاجل والفوز بجنانه في الآخرة.

قال مجاهد: «**ولولا دفع اللَّه بالبار عن الفاجر، ودفعه ببقية أخلاف الناس بعضهم عن بعض لفسدت الأرض بهلاك أهلها**».

● **قراءتان: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ﴾:**

قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب: ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾.

واحتج أصحاب القراءة الأولى بأنه مصدر من قول القائل: دافع اللَّه عن خلقه، فهو يدافع مدافعة ودفاعًا، واحتجت لاختيارها بأن كثيرًا من خلقه يعادون أهل دين اللَّه وولايته والمؤمنين به، فهم بمحاربتهم إياهم ومعاداتهم لله مدافعون بباطلهم ومغلوبون بجهلهم، واللَّه مدافعهم عن أوليائه وأهل طاعته والإيمان به.

ومن قرأ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ فهو على وجه المصدر من قول القائل: دفع اللَّه عن خلقه، فهو يدافع دفعًا، واحتجت لاختيارها بأن اللَّه ـ تَعَالَى ذكره ـ هو المتفرد بالدفع عن خلقه، ولا أحد يدافعه فيغالبه.

قال ابن جرير: «وليس في القراءة بأحد الحرفين إحالة معنى الآخر، وذلك أن من دافع غيره عن شيء فدافعه عنه دافع، ومتى امتنع المدفوع عن الاندفاع فهو لمدافعة مدافع، ولا شك أن جالوت وجنوده كانوا بقتالهم طالوت وجنوده محاولين مغالبة حزب اللَّه وجنده، وكان في محاولتهم ذلك محاولة مغالبة الله، ودفاعه عما قد تضمن لهم من النصر، وذلك هو معنى مدافعة اللَّه عن الذين دافع اللَّه عنهم بمن قاتل جالوت وجنوده من أوليائه».

وتنتصر الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله، فهي الفئة الخيرة البانية، التي استجاش الجهاد أنبل ما فيها وأكرمه، وأبلغَها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة، فهي تمثل أغلى وأعلى غاية.

٥٧ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٠ ـ ٢٣].

قال ابن كثير في «**تفسيره**» (١٣/ ٧٤):

«يقول ـ تَعَالَى ـ مخبرًا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عَزَّوَجَلَّ وأمر به، نكل عنه كثير من الناس؛ كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾. وقال هاهنا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾؛ أي: مشتملة على حكم القتال؛ فلهذا قال: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء».

ويقول الطبري:

«يقول الذين صدقوا اللهَ ورسولَهُ: هَلَّا نزلت سورة من اللَّه تأمرنا بجهاد أعداء اللَّه من الكفار، ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾؛ يعني: أنها محكمة بالبيان والفرائض وَذُكِرَ فيها الأمر بقتال المشركين.

قال قتادة: كل سورة ذُكِرَ فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين.

فإذا أنزلت رأيت الذين في قلوبهم شك في دين اللَّه وضعف ينظرون إليك نظر

المغشي عليه من الموت؛ خوفًا أن تغريهم وتأمرهم بالجهاد مع المسلمين فهم ـ خوفًا من ذلك وتجبنًا على لقاء العدو ـ ينظرون إليك نظر المغشي عليه الذي قد صُرِعَ من خوف الموت».

وهو تعبير لا يمكن محاكاته ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى، وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع، والضعف إلى حد الرعشة، والتخاذل إلى حد الغشية!!

وهي صورة لكل نفس خوَّارة لا تعتصم بإيمان، ولا بفطرة صادقة، ولا بحياء تتجمَّل به أمام الخطر..

وهي هي طبيعة المرض والنفاق..

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ :

قال ابن جرير: «﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ : وعيد تَوَعَّدَ اللَّه به هؤلاء المنافقين.

عن قتادة قال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ قال: هذه وعيد فأولى لهم، ثم انقطع الكلام؛ فقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قبل وجوب الفرض عليكم، فإذا عزم الأمر كرهتموه وشق عليكم، وقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ مرفوع بمضمر؛ وهو: قولكم قبل نزول فرض القتال: طاعة وقول معروف.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ : فإذا جدَّ الأمر، وهو قول مجاهد والحسن.

﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ : فلو صدقوا اللَّه ما وعدوه قبل نزول القتال فوفوا له بذلك، لكان خيرًا لهم في عاجل دنياهم وآجل معادهم.

وقال قتادة: طاعة اللَّه وقول بالمعروف عند حقائق الأمور خير لهم».

وقال ابن الجوزي:

«﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ :

قال الأصمعي: معنى قولهم في التهديد: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ ؛ أي: وَلِيَكَ وَقَارَبَكَ ما تكره.

وقال ابن قتيبة: هذا وعيد وتهديد؛ تقول للرجل - إذا أردت به سوءًا ففاتك -: أولى لك. ثم ابتدأ، فقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

وقال سيبويه والخليل: المعنى: طاعة وقول معروف أمثل.

وقال الفرَّاء: الطاعة معروفة في كلام العرب؛ إذا قيل لهم: افعلوا كذلك، قالوا: سمع وطاعة. فوصف اللَّه قولهم قبل أن تنزل السورة أنهم يقولون: سمع وطاعة. فإذا نزل الأمر كرهوا.

قوله - تَعَالَى -: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾:

قال الحسن: جَدَّ الأمر. وقال غيره: جَدَّ رسول اللَّه ﷺ وأصحابه في الجهاد، ولزم فرض القتال، وصار الأمر معروفًا عليه. وجواب «**إذا**» محذوف، تقديره: فإذ عزم الأمر نكلوا؛ يدل على المحذوف ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في إيمانهم وجهادهم، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية»[1].

قال ابن كثير (٧٤/١٣): «قال مشجعًا لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا؛ أي: في الحال الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: جَدَّ الحال وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أخلصوا له النيَّة، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾».

«أولى من هذه الفضيحة، ومن هذا الخور، ومن هذا الهلع، ومن هذا النفاق.. أولى لهم ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾... طاعة تستسلم لأمر اللَّه عن طمأنينة، وتنهض بأمره عن ثقة، وقول معروف يشي بنظافة الحس، واستقامة القلب، وطهارة الضمير. وأولى لهم إذا عزم الأمر، وَجَدَّ الجدُّ، وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله؛ يصدقوه عزيمةً، ويصدقوه شعورًا؛ فيربط على قلوبهم، ويشد من عزائمهم، ويثبت أقدامهم، وييسر المشقة عليهم، ويهون الخطر، ويكتب لهم إحدى الحسنيين: النجاة

---

(١) زاد المسير (٤٠٦/٧).

والنصر، أو الاستشهاد والجنة، هذا هو الأولى، وهذا هو الزاد الذي يقدمه الإيمان؛ فيقوي العزائم، ويشد القوائم، ويذهب بالفزع، ويحل محله الثبات والاطمئنان» اهـ. من الظلال. ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾:

قال ابن كثير: «**فهل عسيتم إن توليتم عن الجهاد ونكلتم عنه** ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾؛ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء؛ تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام» اهـ.

٥٨- قال - تعالى -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [**محمد: ٣١**].

قرأ شعبة: ﴿**وليبلونكم**﴾ و﴿يَعْلَمُ﴾، و﴿يبلو﴾.

وقرأ رويس: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ و﴿نَعْلَمُ﴾، و﴿نبلوْ﴾.

وقرأ الباقون: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، و﴿نَعْلَمُ﴾، و﴿نبلوَ﴾.

قال ابن جرير: «**ولنبلونكم أيها المؤمنون بالقتل وجهاد أعداء الله**؛ ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ يقول: حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد في الله منكم وأهل الصبر على قتال أعدائه؛ فيظهر ذلك لهم، ويُعْرَف ذَوُو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه، وأهل الإيمان من أهل النفاق، ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ فنعرف الصادق منكم من الكاذب».

نبلونكم: نختبركم. والبلوى: الاختبار.

وقال ابن الجوزي: «﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾؛ أي: ولنعاملنكم معاملة المُخْتَبِرِ بأن نأمركم بالجهاد؛ ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ العلم الذي هو علم وجود وبه يقع الجزاء.

قال أبو عبيدة: فَلَيُميزن؛ لأنه قد علم ذلك من قبل.

وقال الثعلبي: فليظهرن ذلك حتى يوجد معلومًا.

واللَّه ـ سبحانه ـ يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أهل السنة والجماعة.

﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ أي: نظهرها ونكشفها بإباء من يأبى القتال ويصبر على الجهاد»[1].

وقال ابن كثير (١٣/ ٨٠):

« ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾؛ أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي؛ ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾، وليس في تقدم علم اللَّه ـ تَعَالَى ـ بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب؛ فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس في مثل هذا: إلا لنعلم؛ أي: لنرى».

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾...

هذا وعد من اللَّه بالابتلاء... ابتلاء الأمة الإسلامية كلها؛ لينكشف المجاهدون والصابرين، ويتميزوا، وتصبح أخبارهم معروفة، ولا يقع الالتباس في الصفوف، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولا أمر الضعاف والجزعين.

واللَّه يعلم حقائق النفوس معادنها، ويطلع على خفاياها وخباياها، ويعلم ما يكون من أمرها، علمه بما هو كائن فعلًا فما هذا الابتلاء؟ ولمن يكون العلم من ورائه بما ينكشف عنه؟

إن اللَّه ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ يأخذ البشر بما هو في طوقهم، وما هو من طبيعتهم واستعدادهم، وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكنة ما يعلمه، فلا بد لهم من تكشُّف الحقائق؛ ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ثم ينتفعوا بها.

والابتلاء بالسراء والضراء، وبالنعماء والبأساء، وبالسعة والضيق، وبالفرج والكرب، كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من

---

(١) **انظر**: زاد المسير (٦/ ٢٥٥، ٧/ ٤١١).

أمرها حتى لأصحابها.

اللهم سترك، اللهم إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا، فاسترنا بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ما تحب، فربما سترت على ما تكره.

٥٩ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد: ٤٠].

قال ابن كثير: «يقول ـ تعَالَى ـ مرشدًا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾؛ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف؛ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾؛ أي: أهلكتموهم قتلًا، ﴿فَشُدُّوا﴾ الأُسَارَى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيَّرون في أمرهم؛ إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أُسَارَاهُمْ مجانًا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه.

والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر؛ فإن اللَّه ـ سبحانه ـ عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأُسَارَى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء، والتقلل من القتل يومئذ؛ فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية المخيِّرة بين مفاداة الأسير والمن عليه منسوخة بقوله ـ تعَالَى ـ: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية، رواه العوفي عن ابن عباس، وقاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج.

وقال الآخرون - وهم الأكثرون -: ليست منسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مُخَيَّر بين المَنِّ على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله.

وقال آخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء؛ لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط من أُسَارَى بدر.

وقال ثمامة بن أثال لرسول اللَّه ﷺ حين قال له: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تمنن تمنن على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تُعْطَ منه ما شئت [(١)].

وزاد الشافعي - رَحِمَهُ اللَّهُ - فقال: الإمام مخيَّر بين قتله، أو المنِّ عليه، أو مُفَادَاتِهِ، أو اسْتِرْقَاقِهِ» [(٢)].

«**الوثاق**» اسم من الإيثاق؛ تقول: أوثقته إيثاقًا ووثاقًا، إذا شددت أسره؛ لئلا يفلت.

وهذه الآية محكمة عند عامة العلماء، وممن ذهب إلى أن حكم المنِّ والفداء باقٍ لم يُنْسَخْ: ابن عمر، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، وأحمد، والشافعي.

قال ابن جرير الطبري (٢٦/٢٧):

«والصواب من القول عندنا في ذلك أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول ﷺ وإلى القائمين من بعده بأمر الأمة، وإن لم يكن القتل مذكورًا في هذه الآية؛ لأنه قد أذن بقتلهم في آية أخرى؛ وذلك قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية، بل ذلك كذلك؛ لأن رسول اللَّه ﷺ كذلك كان يفعل فيمن صار أسيرًا في يده من أهل

---

(١) حديث ثمامة رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤)، واختصره البخاري في مواضع من «صحيحه» (٤٦٢، ٤٦٩، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١٣/٥٩، ٦٠).

الحرب؛ فيقتل بعضًا، ويفادي ببعض، ويمنُّ على بعض؛ مثل يوم بدر؛ قتل عقبة بن أبي معيط وقد أُتِيَ به أسيرًا، وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد وصاروا في يده سلمًا، وهو على فدائهم والمنِّ عليهم قادر، وفادى بجماعة أُسَارَى المشركين الذين أُسِرُوا ببدر، وَمَنَّ على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده، ولم يزل ذلك ثابتًا في سيره في أهل الحرب من لدن أَذِنَ اللَّه له بحربهم إلى أن قبضه إليه ﷺ دائمًا ذلك فيهم، وإنما ذكر - جل ثناؤه - في هذه الآية المنَّ والفداء في الأُسَارَى، فخصَّ ذكرهما فيها؛ لأن الأمر بقتلهما والإذن منه بذلك قد كان تقدم في سائر آي تنزيله مكررًا؛ فأعلم نبيه ﷺ بما ذكر في هذه الآية من المنِّ والفداء ما له فيهم مع القتل» اهـ.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتى تضع آثامها وأثقال أهلها المشركين باللَّه بأن يتوبوا إلى اللَّه من شركهم، فيؤمنوا به وبرسوله ﷺ.

وقيل: حتى تضع الحرب أوزار أهلها، وقيل: حتى يضع المحارب أوزاره.

قال مجاهد: ذلك ظهور للإسلام على الدين كله.

وقال قتادة: حتى لا يكون شرك.

وقالوا: عنى بالحرب مَنْ كان يقاتلهم سماهم حربًا:

عن قتادة ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الحرب: من كان يقاتلهم، سماهم حربًا.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾: «ولو يشاء ربكم لانتصر من هؤلاء المشركين بعقوبة منهم لهم عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه - تعَالَى - كره الانتصار منهم وعقوبتهم عاجلًا إلَّا بأيديكم أيها المؤمنون.

قال قتادة: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: واللَّه بجنوده الكثيرة، كل خلقه له جند، ولو سلط أضعف خلقه لكان جندًا.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: ليختبركم بهم؛ فيعلم المجاهدين منكم

والصابرين، ويبلوهم بكم؛ فيعاقب بأيديكم من شاء منهم، ويتعظ من شاء منهم بمن أهلك بأيديكم من يشاء منهم حتى ينيب إلى الحق.

قال ابن الجوزي في «**زاد المسير**» (٣٩٧/٧):

«﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال ابن عباس: حتى لا يبقى أحد من المشركين.

وقال مجاهد: حتى لا يكون دين إلا دين الإسلام. وقال سعيد بن جبير: حتى يخرج المسيح. وقال الفراء: حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم» اهـ.

وهي مثل قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾؛ والفتنة هي الشرك.

﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

قال ابن كثير (٦٢/١٣): «أي هذا ولو شاء اللَّه لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده، ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء؛ ليختبركم، ويبلو أخباركم».

«إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وأمثالهم في الأرض كلها في كل زمان من البغاة الطغاة المفسدين، الذين يَظْهَرُونَ في ثوب البطش والاستكبار، وَيَتَرَاءَوْنَ لأنفسهم وللضالين من أتباعهم قادرين أقوياء، إن هؤلاء جميعًا حفنة من الخلق تعيش على ظهر هذه الهباءة الصغيرة المسماة بالأرض، بين هذه الكواكب والنجوم والمجموعات الفلكية والمجرات والعوالم التي لا يعلم عددها ولا مداها إلا اللَّه في هذا الفضاء الذي تبدو فيه هذه المجرات والعوالم نُقَطًا متناثرة، تكاد تكون ضائعة، لا يمسكها ولا يجمعها ولا ينسقها إلا الله، فلا يبلغ هؤلاء ومن وراءهم من الأتباع - بل لا يبلغ أهل هذه الأرض كلها - أن يكونوا نمالًا صغيرة، لا بل إنهم لا يبلغون أن يكونوا هباءً تتقاذفه النسمات، لا بل إنهم لا يبلغون شيئًا أصلًا حين يقفون أمام قوة الله.

إنما يتخذ اللَّه المؤمنين حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد

إثخانهم، إنما يتخذهم ـ سبحانه ـ ستارًا لقدرته، ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة؛ كما انتصر من بعضهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم، بل لانتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير، وهو يبتليهم، ويربيهم، ويصلحهم، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار.

يريد ليبتليهم، وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النفس البشرية من طاقات واتجاهات، فليس أكرم في النفس من أن يعزَّ عليها الحق الذي تؤمن به حتى تجاهد في سبيله، فَتَقتل وتُقتل، ولا تُسَلِّمُ في هذا الحق الذي تعيش له وبه، ولا تستطيع الحياة بدونه، ولا تحب هذه الحياة في غير ظله.

ويريد ليربيهم؛ فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة من أعراض هذه الأرض الفانية مما يعزُّ عليهم أن يتخلَّوا عنه، ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص، وينفي كل زغل ودخل، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة اللَّه للجهاد والتطلع إلى وجه اللَّه ورضاه، فترجح هذه وتشيل تلك.

ويعلم اللَّه من هذه النفوس أنها خُيِّرتْ فاختارت، وأنها تربَّتْ فعرفت، وأنها لا تندفع بلا وعي، ولكنها تقدِّر وتختار.

ويريد ليصلحهم، ففي معاناة الجهاد في سبيل الله، والتعرض للموت في كل جولة، ما يعوِّد النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه، وهو هين هين عند من يعتاد ملاقاته، سواء سلم منه أو لاقاه، والتوجه به لله في كل مرة يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئًا يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام!! وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح.

ثم هي الأسباب الظاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلها، عن طريق قيادتها بأيدي المجاهدين الذي فرغت نفوسهم من كل أعراض الدنيا وكل زخارفها،

وهانت عليهم الحياة وهم يخوضون غمار الموت في سبيل الله، ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن اللَّه والتطلع إلى رضاه... وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلها، ويصلح العباد، ويصبح عزيزًا على هذه الأيدي أن تسلم راية القيادة للكفر والضلال والفساد، وهي قد اشترتها بالدماء والأرواح، وكل عزيز وغال أرخصته لتتسلم هذه الراية لا لنفسها ولكن لله!!

ثم هو بعد ذلك كله تيسير الوسيلة لمن يريد اللهُ بهم الحسن؛ لينالوا رضاه وجزاءه بغير حساب، وتيسير الوسيلة لمن يريد اللهُ بهم السوء؛ ليكسبوا ما يستحقون عليه غضبه وعذابه وفق ما يعلمه من سره ودخيلته»[1] اهـ.

٦٠ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦].

قال ابن جرير الطبري (٢٠/٨٤): «ومن جاهد عدوه من المشركين فإنما يجاهد لنفسه؛ لأنه يفعل ذلك ابتغاء الثواب من اللَّه على جهاده والهرب من العقاب، فليس باللَّه إلى فعله ذلك حاجة؛ وذلك أن اللَّه غني عن جميع خلقه، له الملك والخلق والأمر».

«لا يقفن أحد في وسط الطريق، وقد مضى في الجهاد شوطًا، يطلب من اللَّه ثمن جهاده، ويمنُّ عليه وعلى دعوته، ويستبطئ المكافأة على ما ناله؛ فإن اللَّه لا يناله من جهاده شيء، وليس في حاجة إلى جهد بشر ضعيف هزيل؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وإنما هو فضل من اللَّه أن يعينه في جهاده، وأن يأجره في الآخرة بثوابه».

«من أحسن فنجاة نفسه طلبها وسعادة حاله حصَّلها، ومن أساء فعقوبة نفسه جلبها وشقاوة جدِّه اكتسبها؛ ثواب المطيعين إليهم مصروف، وعذاب العاصين

---

(١) الظلال (٦/٣٢٨٦).

عليهم موقوف، والحق عزيز لا يلحقه بالوفاق زَيْن، ولا يمسه من الشقاق شين».

قال ابن القيم: «جهادهم فيه، إنما هو لأنفسهم، وثمرته عائدة عليهم، وأنه غني عن العالمين، ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم، لا إليه ـ سبحانه ـ، ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين»[1].

٦١ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [**الفرقان: ٥٢**].

قال ابن جرير الطبري (١٩/١٥): «فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من أن تعبد آلهتهم؛ فنذيقك ضِعف الحياة وضِعف الممات، ولكن جاهدهم بهذا القرآن جهادًا كبيرًا حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به، ويذعنوا للعمل بجميعه طوعًا وكرهًا؛ قال ابن عباس: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ قال: بالقرآن. وقال ابن زيد: الإسلام، وقرأ: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وقرأ: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وقال: هذا الجهاد الكبير».

- ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾:

قال القرطبي (٧/٧٤٧٤): لا يخالطه فتور.

وقال ابن الجوزي: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾؛ أي: تامًّا شديدًا.

قال ابن القيم: «فهذه سورة مكية، أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة، والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين، إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام»[2].

«إن في هذا القرآن من القوة، والسلطان، والتأثير العميق، والجاذبية التي لا تُقَاوَمُ ما كان يهز قلوبهم هزًّا، ويزلزل أرواحهم زلزالًا شديدًا، فيغالبون أثره بكل وسيلة

---

(١) زاد المعاد، لابن قيم الجوزية (١٧/٣).

(٢) زاد المعاد، لابن القيم (٥/٣).

فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلًا.

ولقد كان كبراء قريش يقولون للجماهير: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وكانت هذه المقالة تدل على الذعر الذي تضطرب به نفوسهم ونفوس أتباعهم من تأثير هذا القرآن، وهم يرون هؤلاء الأتباع كأنما يُسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوهما محمد بن عبدالله ﷺ فتنقاد إليه النفوس، وتهوي إليه الأفئدة، ولم يقل رؤساء قريش لأتباعهم وأشياعهم هذه المقالة وهم في نجوة من تأثير هذا القرآن، فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم هزة روَّعتهم ما أمروا هذا الأمر، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير!!

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حُدِّثَ: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمر بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺوهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم، لأوقعتم في نفسه شيئًا!! ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة!! ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود!! فتعاهدوا على ذلك ثم تفرَّقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما

عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ واللَّه لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه!! قال: فقام عنه الأخنس وتركه».

فهكذا كانوا يغالبون أنفسهم أن تهفوا إلى هذا القرآن فتغلبهم، لولا أن يتعاهدوا وهم يحسون ما يتهدَّد زعامتهم، لو اطلع عليهم الناس، وهم مأخوذون شبه مسحورين!!

وإن في هذا القرآن من الحق الفطري البسيط لَمَا يصل القلبَ مباشرة بالنبع الأصيل؛ فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوّار، وأن يصدَّ عنه تدفق التيار، وأن فيه من مشاهد القيامة، ومن القصص، ومن مشاهد الكون الناطقة، ومن مصارع الغابرين، ومن قوة التشخيص والتمثيل لَمَا يهز القلوب هزًّا لا تملك معه قرارًا، وإن السورة الواحدة لتهز الكيان الإنساني في بعض الأحيان، وتأخذ على النفس أقطارها ما لا يأخذه جيش ذو عدة وعتاد!!

فلا عجب مع ذلك أن يأمر اللَّه نبيه ألا يطيع الكافرين، وألا يتزحزح عن دعوته، وأن يجاهدهم بهذا القرآن، فإنما يجاهدهم بقوة لا يقف لها كيان البشر ولا يثبت لها جدال أو محال»[1].

ولله در الإمام الصنعاني وهو يقول:

تلا «فُصِّلَتْ» لما أتاه مجادل[2] فأبلس حتى ما يكون جواب

أقرَّ بأن القول فيه طلاوة ويعلو ولا يعلو عليه خطاب

---

(١) الظلال (٥/٢٥٧١، ٢٥٧٢).

(٢) هو: الوليد بن المغيرة المخزومي.

وقام عتبة بن ربيعة لما تَلَا عليه رسول اللَّه ﷺ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فأمسك عتبة على فيه[1] وناشده الرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، واحتبس عنهم.

وفي رواية أنه رجع لقومه فقال: «**خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فواللَّه ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ**».

لقد غلب القرآن عقولهم، وعجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم، وفرَّق بين الوالد وولده، والزوج وزوجه، لقد كان القرآن يفرِّق نَعَمْ؛ ولكن بفرقان اللَّه بين الكفر والإيمان، والهدى والضلال، كان يستخلص القلوب له، فلا تحفل بوشيجة غير وشيجته؛ فكان هو الفرقان.

عجزوا عن مواجهته بالحجة والمقارعة بالبرهان، كانوا يلغون بالسجع والرجز، ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح وغلب القرآن؛ لأنه يحمل سر الغلب، إنه الحق.. والحق غالب مهما جهد المبطلون!!

٦٢ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [**محمد**: ٧].

قال ابن جرير الطبري في «**تفسيره**» (٢٦/٢٩):

«يقول ـ تعَالَى ذِكْرُهُ ـ: يأيها الذين صدَّقوا اللَّه ورسوله، إن تنصروا اللَّه بنصركم رسوله محمدًا ﷺ على أعدائه من أهل الكفر به وجهادكم إياهم معه لتكون كلمته العليا، ينصركم عليهم ويظفركم بهم؛ فإنه ناصِرُ دينِهِ وأوليائِهِ.

قال قتادة: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾؛ لأنه حَقٌّ على اللَّه أن يعطي من سأله وينصر من نصره.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ يقول: ويقوِّكم عليهم ويجرئكم حتى لا تولوا عنهم وإن

---

(١) فم رسول الله ﷺ.

كثر عددهم وَقَلَّ عددكم» اهـ.

«كيف ينصرُ المؤمنون اللهَ، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟ إن لله في نفوسهم أن تتجرد له، وألا تشرك به شيئًا، شركًا ظاهرًا أو خفيًّا، وألا تستبقي فيها معه أحدًا ولا شيئًا، وأن يكون اللَّه أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها، وسرها وعلانيتها، ونشاطها كله وخلجاتها.. فهذا نصر اللَّه في ذوات النفوس.

وإن لله شريعةً ومنهاجًا للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة، ونصر اللَّه يتحقق بنصر شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء، فهذا نصر اللَّه في واقع الحياة، ونقف لحظة أمام قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾، وفي كلتا الحالتين ـ حالة القتل وحالة النصرة ـ يشترط أن يكون هذا لله وفي سبيل الله، وهي لفتة بديهية، ولكن كثيرًا من الغبش يغطي عليها عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال، وعندما تمتهن كلمات الشهادة والجهاد وترخص، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم، إنه لا جهاد، ولا شهادة، ولا جنة، إلا حين يكون الجهاد في سبيل اللَّه وحده، والموت في سبيله وحده، والنصرة له وحده، في ذات النفس وفي منهج الحياة، لا جهاد ولا استشهاد ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة اللَّه هي العليا.

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سُئِلَ رسول اللَّه ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء.. أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

ليس هنالك راية أخرى أو هدف آخر يجاهد في سبيله من يجاهد، ويُستشهد

---

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي.

دونه من يُستشهد، فيحق له وعد اللَّه بالجنة إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف من كل ما يرّوج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات!!

وَبَعْدُ، فهذا شرط اللَّه على الذين آمنوا؛ فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام وعد اللَّه لا يخلفه، فإذا تخلَّف فترة، فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والتثبيت، ذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم - فترة - نصر الله.

ثم نقف لحظة أمام لفتة خاصة في التعبير: ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر، ويكون سببًا فيه، وهذا صحيح، ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت، معنى التثبيت على النصر وتكاليفه؛ فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان، وبين الحق والضلال، فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة.. للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر، وفي عدم التراخي بعده والتهاون، وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء، ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء، وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر، ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن، واللَّه أعلم»[1].

نصرة اللَّه للعبد بإعلاء كلمته، وقمع أعداء الدين ببركات سَعْيِهِ وَهِمَّتِهِ.

﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ بإدامة التوفيق؛ لئلا ينهزم من صولة أعداء الدين.

٦٣- قال - تعَالَى -: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: **٢٤٤**].

لا يقعدن بكم حب الحياة وحذر الموت عن الجهاد في سبيل الله.

قاتلوا في سبيل اللَّه لا في سبيل غاية أخرى، وتحت راية اللَّه لا تحت راية أخرى.

---

(١) الظلال (٦/٣٢٨٩).

واللَّه يسمع ويعلم..

قاتلوا في سبيل الله، وليس هناك عمل ضائع عند اللَّه واهب الحياة وآخذ الحياة.

ومن اللفتة الجميلة أن اللَّه أفرد للجهاد سورة سماها سورة القتال أو سورة محمد؛ فهو نبي الملاحم ﷺ، وسورة أخرى هي الأنفال، وثالثة هي التوبة.. وفيها من الإشارة ما فيها، فليتعظ امرؤ ويثامن بنفسه ويبذلها في أعلى الغايات وأسمى الأمنيات؛ عساه يلحق بالركب والقافلة.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣].

لقد جاءت هذه العقيدة في صورتها الأخيرة التي جاء بها الإسلام؛ لتكون قاعدة للحياة البشرية في الأرض من بعدها، ولتكون منهجًا عامًّا للبشرية جميعها، ولتقوم الأمة المسلمة بقيادة البشرية في طريق اللَّه وفق هذا المنهج المنبثق من التصور الكامل الشامل لغاية الوجود كله ولغاية الوجود الإنساني، كما أوضحهما القرآن الكريم المنزل من عند الله؛ قيادتها إلى هذا الخير الذي لا خير غيره في مناهج الجاهلية جميعًا، ورفعها إلى هذا المستوى الذي لا تبلغه إلا في ظل هذا المنهج، وتمتيعها بهذه النعمة التي لا تعدلها نعمة، والتي تفقد البشرية كل نجاح وكل فلاح حين تحرم منها، ولا يعتدي عليها معتد بأكثر من حرمانها من هذا الخير والحيلولة بينها وبين ما أراده لها خالقها من الرفعة والنظافة والسعادة والكمال.

ومن ثَمَّ كان من حق البشرية أن تبلغ إليها الدعوة إلى هذا المنهج الإلهي الشامل، وألا تقف عقبة أو سلطة في وجه التبليغ بأي حال من الأحوال.

ثم كان من حق البشرية كذلك أن يُتْرَكَ الناسُ بعد وصول الدعوة إليهم أحرارًا في اعتناق هذا الدين؛ لا تصدهم عن اعتناقه عقبة أو سلطة، فإذا أبى فريق منهم أن يعتنقه بعد البيان، لم يكن له أن يصد الدعوة عن المضي في طريقها، وكان عليه أن يعطي من العهود ما يكفل لها الحرية والاطمئنان وما يضمن للجماعة المسلمة المضي في طريق التبليغ بلا عدوان.

فإذا اعتنقها من هداهم اللَّه إليها كان من حقهم ألا يُفتنوا عنها بأي وسيلة من وسائل الفتنة؛ لا بالأذى، ولا بالإغراء، ولا بإقامة أوضاع من شأنها صد الناس عن الهدى وتعويقهم عن الاستجابة، وكان من واجب الجماعة المسلمة أن تدفع عنهم بالقوة من يتعرض لهم بالأذى والفتنة؛ ضمانًا لحرية العقيدة، وكفالةً لأمن الذين هداهم الله، وإقرارًا لمنهج اللَّه في الحياة، وحمايةً للبشرية من الحرمان من ذلك الخير العام.

وينشأ عن تلك الحقوق الثلاثة واجبٌ آخرُ على الجماعة المسلمة؛ وهو: أن تحطم كل قوة تعترض طريق الدعوة وإبلاغها للناس في حرية، أو تهدد حرية اعتناق العقيدة، وتفتن الناس عنها، وأن تظل تجاهد حتى تصبح الفتنة للمؤمنين باللَّه غير ممكنة لقوة في الأرض، ويكون الدين لله، لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان، ولكن بمعنى استعلاء دين اللَّه في الأرض؛ بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدخول، ولا يخاف قوة في الأرض تصده عن دين اللَّه أن يبلغه، وأن يستجيب له، وأن يبقى عليه، وبحيث لا يكون في الأرض وضع أو نظام يحجب نور اللَّه وهداه عن أهله، ويضلهم عن سبيل اللَّه بأية وسيلة وبأية أداة.

وفي حدود هذه المبادئ العامة كان الجهاد في الإسلام.. وكان لهذه الأهداف العليا وحدها غير متلبسة بأي هدف آخر، ولا بأي شارة أخرى.

إنه الجهاد للعقيدة؛ لحمايتها من الحصار، وحمايتها من الفتنة، وحماية منهجها وشريعتها في الحياة، وإقرار رايتها في الأرض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها

قبل الاعتداء، وبحيث يلجأ إليها كل راغب فيها لا يخشى قوة أخرى في الأرض تتعرض له أو تمنعه أو تفتنه.

وهذا هو الجهاد الوحيد الذي يأمر به الإسلام، ويقره، ويثيب عليه، وَيَعتبر الذين يُقتلون فيه شهداء، والذين يحتملون أعباءه أولياء»[(١)].

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾.

إنه القتال لله، لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة.

القتال في سبيل الله، لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض، ولا في سبيل المغانم والمكاسب، ولا في سبيل الأسواق والخامات، ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس..

إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شُرِعَ الجهاد في الإسلام.

القتال لإعلاء كلمة اللَّه في الأرض، وإقرار منهجه في الحياة، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند اللَّه ولا مقام.

ومع تحديد الهدف تهديد المدى.

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾..

والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين المسالمين الذين لا يشكلون خطرًا على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة؛ كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين.. كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شَرَعَهَا الإسلام وَوَضَعَ بها حدًّا للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء.. تلك الشناعات التي ينفر منها

---

(١) الظلال (١/١٨٦، ١٨٧).

حس الإسلام، وتأباها تقوى الإسلام.

● **وهذه طائفة من أحاديث الرسول ﷺ ووصايا أصحابه، تكشف عن طبيعة هذه الآداب، التي عرفتها البشرية أول مرة على يد الإسلام.**

عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: «**وُجِدَتْ امرأةٌ مقتولة في بعض مغازي رسول اللَّه ﷺ ؛ فنهى رسول اللَّه ﷺ عن قتل النساء والصبيان**»(١)...

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه**»(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «**بعثنا رسول اللَّه ﷺ فقال: إن وجدتم فلانًا وفلانًا - رجلين من قريش - فأحرقوهما بالنار. فلما أردنا الخروج قال: كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا، وإن النار لا يعذب بها إلا اللَّه - تَعَالَى -؛ فإن وجدتموهما فاقتلوهما**»(٣).

وعن عبداللَّه بن يزيد الأنصاري ﷺ قال: «**نهى رسول اللَّه ﷺ عن النُّهْبَى والمثلة**»(٤).

وعن بريدة قال: «**كان رسول اللَّه ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه - تَعَالَى -، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال له: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا**»(٥).

وروى مالك عن أبي بكر الصديق ﷺ: أنه قال في وصيته لجنده: «ستجدون قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، ولا تَقْتُلُنَّ

---

(١) أخرجه مالك والشيخان وأبو داود والترمذي.
(٢) أخرجه الشيخان.
(٣) أخرجه الشيخان، وأبو داود، والترمذي.
(٤) أخرجه البخاري.
(٥) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.

امرأة ولا صبيًّا ولا كبيرًا هرمًا».

فهذه هي الحرب التي يخوضها الإسلام.. وهذه هي آدابه فيها.. وهذه هي أهدافه منها.. وهي تنبثق من ذلك التوجيه القرآني الجليل.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

وقد كان المسلمون يعلمون أنهم لا يُنصرون بعددهم - فعددهم قليل -، ولا يُنصرون بعدتهم وعتادهم - فما معهم منه أقل مما مع أعدائهم -؛ إنما هم يُنصرون بإيمانهم وطاعتهم وعون اللّه لهم، فإذا هم تخلوا عن توجيه اللّه لهم وتوجيه رسول اللّه ﷺ فقد تخلوا عن سبب النصر الوحيد الذي يرتكنون إليه؛ ومن ثَمَّ كانت تلك الآداب مرعية حتى مع أعدائهم الذين فتنوهم ومثلوا ببعضهم أشنع التمثيل.. ولما فَارَ الغضب برسول اللّه ﷺ؛ فأمر بحرق فلان وفلان - رجلين من قريش -، عاد فنهى عن حرقهما؛ لأنه لا يحرق بالنار إلا اللهُ.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾.

إن الفتنة عن الدين اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية؛ ومن ثَمَّ فهي أشد من القتل، أشد من قتل النفس وإزهاق الروح وإعدام الحياة، ويستوي أن تكون هذه الفتنة بالتهديد والأذى الفعلي، أو بإقامة أوضاع فاسدة من شأنها أن تضل الناس وتفسدهم وتبعدهم عن منهج الله، وتزين لهم الكفر به أو الإعراض عنه.

وأقرب الأمثلة على هذا هو النظام الشيوعي الذي يحرم تعليم الدين ويبيح تعليم الإلحاد، ويسن تشريعات تبيح المحرمات؛ كالزنا والخمر، ويحسنها للناس بوسائل التوجيه، بينما يُقَبِّحُ لهم اتباع الفضائل المشروعة في منهج الله، ويجعل من هذه الأوضاع فروضًا حتمية لا يملك الناس التفلت منها.

وهذه النظرة الإسلامية لحرية العقيدة، وإعطاؤها هذه القيمة الكبرى في حياة البشرية.. هي التي تتفق مع طبيعة الإسلام، ونظرته إلى غاية الوجود الإنساني؛ فغاية الوجود الإنساني هي العبادة ـ ويدخل في نطاقها كل نشاط خير يتجه به صاحبه إلى اللَّه ـ، وأكرم ما في الإنسان حرية الاعتقاد؛ فالذي يسلبه هذه الحرية، ويفتنه عن دينه فتنة مباشرة أو بالواسطة يجني عليه ما لا يجني عليه قاتل حياته؛ ومن ثَمَّ يدفعه بالقتل..

لذلك لم يقل: وقاتلوهم، إنما قال: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾.. ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: حيث وجدتموهم في أية حالة كانوا عليها، وبأية وسيلة تملكونها، مع مراعاة أدب الإسلام في عدم المثلة أو الحرق بالنار.

ولا قتال عند المسجد الحرام، الذي كتب اللَّه له الأمن، وجعل جواره آمنًا؛ استجابة لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام، وجعله مثابة يثوب إليها الناس؛ فينالون فيه الأمن والحرمة والسلام..

لا قتال عنه المسجد الحرام إلا للكافرين الذين لا يرعون حرمته، فيبدءون بقتال المسلمين عنده؛ وعند ذلك يقاتلهم المسلمون ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم؛ فذلك هو الجزاء اللائق بالكافرين، الذين يفتنون الناس عن دينهم، ولا يرعون حرمة للمسجد الحرام، الذي عاشوا في جواره آمنين.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾.

والانتهاء الذي يستأهل غفران اللَّه ورحمته هو الانتهاء عن الكفر، لا مجرد الانتهاء عن قتال المسلمين أو فتنتهم عن الدين؛ فالانتهاء عن قتال المسلمين وفتنتهم قصاراه أن يهادنهم المسلمون، ولكنه لا يؤهل لمغفرة اللَّه ورحمته؛ فالتلويح بالمغفرة والرحمة هنا يقصد به إطماع الكفار في الإيمان؛ لينالوا المغفرة والرحمة بعد الكفر والعدوان.

وما أعظم الإسلام، وهو يلوح للكفار بالمغفرة والرحمة، ويسقط عنهم

القصاص والدية بمجرد دخولهم في الصف المسلم، الذي قتلوا منه وفتنوا، وفعلوا بأهله الأفاعيل!!!

وغاية القتال هي ضمانة ألا يُفتن الناس عن دين الله، وألا يُصرفوا عنه بالقوة أو ما يشبهها؛ كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عام، وتُسلط عليهم فيه المغريات والمضللات والمفسدات؛ وذلك بأن يعز دين الله، ويقوي جانبه، ويهابه أعداؤه؛ فلا يجرءوا على التعرض للناس بالأذى والفتنة، ولا يخشى أحدٌ يريد الإيمان أن تصده عنه قوة أو أن تُلْحِقَ به الأذى والفتنة..

والجماعة المسلمة مكلفة ـ إِذَنْ ـ أن تظل تقاتل حتى تقضي على هذه القوى المعتدية الظالمة، وحتى تصبح الغلبة لدين اللّه والمنعة..

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾.

وإذا كان النص ـ عند نزوله ـ يواجه قوة المشركين في شبه الجزيرة، وهي التي كانت تفتن الناس، وتمنع أن يكون الدين لله، فإن النص عام الدلالة، مستمر التوجيه، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة؛ ففي كل يوم تقوم قوة ظالمة تصد الناس عن الدين، وتحول بينهم وبين سماع الدعوة إلى الله، والاستجابة لها عند الاقتناع، والاحتفاظ بها في أمان.. والجماعة المسلمة مكلفة في كل حين أن تحطم هذه القوة الظالمة، وتطلق الناس أحرارًا من قهرها، يستمعون ويختارون ويهتدون إلى الله.

وهذا التكرار في الحديث عن منع الفتنة بعد تفظيعها واعتبارها أشد من القتل.. هذا التكرار يوحي بأهمية هذا الأمر في اعتبار الإسلام؛ وينشئ مبدأ عظيمًا، يعني في حقيقته ميلادًا جديدًا للإنسان على يد الإسلام، ميلادًا تتقرر فيه قيمة الإنسان بقيمة عقيدته، وتوضع حياته في كفة وعقيدته في كفة؛ فترجح كفة العقيدة.

كذلك يتقرر في هذا المبدأ من هم أعداء الإنسان... إنهم أولئك الذين يفتنون مؤمنًا عن دينه، ويؤذون مسلمًا بسبب إسلامه.. أولئك الذين يحرمون البشرية

أكبر عنصر للخير ويحولون بينها وبين منهج الله.. وهؤلاء على الجماعة المسلمة أن تقاتلهم وأن تقتلهم حيث وجدتهم؛ ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾.

وهذا المبدأ العظيم الذي سَنَّهُ الإسلام في أوائل ما نزل من القرآن عن القتال ما يزال قائمًا، وما تزال العقيدة تواجه مَن يعتدون عليها وعلى أهلها في شتى الصور، وما يزال الأذى والفتنة تلم بالمؤمنين أفرادًا وجماعات وشعوبًا كاملة في بعض الأحيان.. وكل من يتعرض للفتنة في دينه والأذى في عقيدته في أية صورة من الصور، وفي أي شكل من الأشكال مفروض عليه أن يقاتل، وأن يحقق المبدأ العظيم الذي سَنَّهُ الإسلام؛ فكان ميلادًا جديدًا للإنسان..

فإذا انتهى الظالمون عن ظلمهم؛ وكفوا عن الحيلولة بين الناس وربهم، فلا عدوان عليهم ـ أي: لا مناجزة لهم ـ؛ لأن الجهاد إنما يُوَجَّهُ إلى الظلم والظالمين.. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ويسمى دفع الظالمين ومناجزتهم عدوانًا من باب المشاكلة اللفظية، وإلا فهو العدل والقسط ودفع العدوان عن المظلومين»[2].

٦٤ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [**آل عمران: ١٣**].

قرأ نافع، ويعقوب، وأبو جعفر: ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾.

وقرأ الباقون: ﴿يَرَوْنَهُم﴾.

قال ابن جرير في «**تفسيره**» (٣/١٢٩ ـ ١٣٣):

«قل: يا محمد للذين كفروا من اليهود الذين بين ظهراني بلدك: قد كان لكم

---

(١) نزل فيما بعد في سورة براءة الأمرُ بقتال المشركين كافة.

(٢) الظلال (١/١٨٩ ـ ١٩١).

علامة ودلالة على صدق ما أقول أنكم ستغلبون وعبرة».

«قد كان لكم آيةٌ يا معشر اليهود في فئتين التقتا؛ إحداهما تقاتل في سبيل اللَّه وأخرى كافرة يراهم المسلمون مثليهم رأي أعينهم، فأيدنا المسلمة ـ وهم قليلٌ عددُهُمْ ـ على الكافرة ـ وهم كثيرٌ عددُهُمْ ـ حتى ظفروا بهم، مُعْتَبَرٌ وَمُتَفَكَّرٌ، واللَّه يقوي بنصره من يشاء.

﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ قال ابن عباس: أصحاب رسول اللَّه ﷺ ببدر ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ فئة قريش الكفار. وبمثل هذا القول قال الربيع ومجاهد وعكرمة.

وعلى قراءة من قرأ: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرى المسلمون الذين يقاتلون في سبيل اللَّه الجماعةَ الكافرةَ مثليْ المسلمين في القدر».

قال عبداللَّه بن مسعود: «نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحدًا، وذلك قول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ فهذا أحد معنيي التقليل، والمعنى الآخر منه التقليل الثاني، على ما قاله ابن مسعود، وهو أن أراهم عدد المشركين مثل عددهم لا يزيدون عليهم».

فالنصر راجع إلى تأييد اللَّه وتدبيره.. وفي هذا تخذيل للذين كفروا وتهديد، كما أن فيه تثبيتًا للذين آمنوا، وتهوينًا من شأن أعدائهم، فلا يرهبونهم.

وما يزال القرآن يعمل بحقيقته الكبيرة، وبما يتضمنه من مثل هذه الحقيقة.. إن وعد اللَّه بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج اللَّه قائم في كل لحظة، ووعد اللَّه بنصر الفئة المؤمنة ـ ولو قلَّ عددها ـ قائم في كل لحظة، وتوقف النصر على تأييد اللَّه الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تُنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف.

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة، وتثق في ذلك الوعد،

وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة، وتصبر حتى يأذن الله، ولا تستعجل، ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده.

٦٥ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء: ٧٦].

يقول ابن جرير في تفسيره: «الذين صدقوا الله ورسوله وأيقنوا بموعود الله لأهل الإيمان به ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ في طاعة الله ومنهاج دينه وشريعته التي شرعها لعباده. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: والذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا رسوله وما جاءهم به من عند ربهم ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ يعني: في طاعة الشيطان وطريقه ومنهجه الذي شرعه لأوليائه من الله الكفر بالله.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: يقول الله مقوِّيًا عزم المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ ومحرِّضهم على أعدائه وأعداء دينه من أهل الشرك به: فقاتلوا أيها المؤمنون أولياءَ الشيطان الذين يتولونه، ويطيعون أمره في خلاف طاعة الله والتكذيب به، وينصرونه.

﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾؛ يعني: بكيده ما كاد به المؤمنين من تحزيبه أولياءه ـ من الكفار بالله ـ على رسوله. وأولياؤه: أهل الإيمان به.

يقول: فلا تهابوا أولياء الشيطان، فإنما هم حزبه وأنصاره، وحزب الشيطان أهل وهن وضعف، وإنما وصفهم الله ـ جل ثناؤه ـ بالضعف؛ لأنهم لا يقاتلون رجاء ثواب، ولا يتركون القتال خوف عقاب، وإنما يقاتلون حمية، أو حسدًا للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. والمؤمنون يقاتلُ مَنْ قَاتَلَ منهم رجاء العظيم من ثواب الله، ويترك القتال إن تركه على خوف من وعيد الله في تركه، فهو يقاتل على بصيرة بماله عند الله إنْ قُتل، وبما له من الغنيمة والظفر إنْ سلم. والكافر يُقاتل على

حذر من القتل، وإياس من معاد، فهو ذو ضعف وخوف»[١].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لتحقيق منهجه، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾؛ لتحقيق مناهج شتى، وإقرار شرائع شتى غير منهج اللَّه وشريعته، وإقامة قيم شتى غير التي أذن اللَّه بها، ونصب موازين شتى غير ميزان الله!

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد، مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله، ليس لأنفسهم منها نصيب، ولا لذواتهم منها حظ، وليست لقومهم، ولا لجنسهم، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء، إنما هي لله وحده، وأنهم يواجهون قومًا أهلَ باطل، يقاتلون لتغليب الباطل على الحق، ولتغليب شرائع البشر على شرع الله، ولتغليب ظلم البشر على عدل الله.

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين، وتتحدد نهايتها قبل أن يدخلوها، سواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة ـ فهو واثق من النتيجة ـ أم بقي حتى غلب، ورأى بعينيه النصر، فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل اللَّه في حياة الجماعة المسلمة الأولى، والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة.. ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب في أقصر فترة عُرفت في التاريخ، فقد كان هذا التصور جانبًا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة ـ وبناء هذا التصور ذاته كان طرفًا من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال، ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين، فأمسوا مهزومين.

---

(١) تفسير الطبري (٥/١٠٧، ١٠٨).

٦٦ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ [**الفتح: ٢٩**].

قال ابن جرير: «يقول ـ تعالَى ذكره ـ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ ﷺ، وأتباعه من أصحابه الذين هم على دينه ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾؛ غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾؛ يقول: رقيقة قلوب بعضهم لبعض، لينة أنفسهم لهم، هينة عليهم، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا﴾ أحيانًا لله في صلاتهم، ﴿سُجَّدًا﴾ أحيانًا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ يقول: يلتمسون ـ بركوعهم وسجودهم وشدتهم على الكفار ورحمة بعضهم بعضًا ـ ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وذلك رحمته إياهم بأن يتفضل عليهم فيدخلهم جنته».

هذه نقاط ارتكاز أصيلة في حياة المؤمنين، تبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة.. وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها.. التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.

إرادة التكريم واضحة، وهو يسجِّل لهم في اللقطة الأولى أنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾. ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وفيهم آباؤهم، وإخوانهم، وذو قرابتهم وصحبتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعًا.

﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وهم ـ فقط ـ إخوة دين.. فهي الشدة لله، والرحمة لله.. وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة، فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها، يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها. قد تجردوا من الأنانية، ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله.

٦٧ـ قال ـ تعالَى ـ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [**محمد: ٣٥**].

قال ابن جرير: «يقول ـ تعالَى ذكره ـ: فلا تضعفوا ـ أيها المؤمنون بالله ـ عن

جهاد المشركين وتجبنوا عن لقائهم.

عن مجاهد ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾؛ قال: لا تضعفوا. قال ابن زيد: لا تضعف أنت.

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ يقول: لا تضعفوا عنهم، وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم. ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾: والله معكم بالنصر لكم عليهم.

قال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾؛ قال: لا تكونوا أولى الطائفتين صرعت لصاحبتها ودعتها إلى الموادعة، وأنتم أولى بالله منهم، والله معكم.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ قال قتادة: أنتم أولى بالله منهم.

وقال مجاهد: الغالبون.

قال ابن زيد في قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: هذا منسوخ، قال: نسخه القتال والجهاد. يقول: لا تضعف أنت، وتدعوهم أنت إلى السلم وأنت الأعلى. قال: وهذا حين كانت العهود والهدنة فيما بينه وبين المشركين قبل أن يكون القتال.. يقول: لا تهن فتضعف، فيرى أنك تدعو إلى السلم، وأنت فوقه وأعزُّ منه، ثم جاء القتال بعد فنسخ هذا أجمع، فأمره بجهادهم والغلظة عليهم.

وقد قيل: عنى بقوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: وأنتم الغالبون آخر الأمر وإن غلبوكم في بعض الأوقات وقهروكم في بعض الحروب.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾؛ قال ابن عباس: لن يظلمكم أجور أعمالكم.

وقال مجاهد: لن ينقصكم، وعن قتادة مثله.

من قولهم: وترت الرجل إذا قتلت له قتيلًا، فأخذت له مالًا غصبًا»[1].

---

(١) تفسير ابن جرير (٤٠/٢٦).

❏ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم:**

هذا الذي يحذر المؤمنين إياه. وهذا التحذير يشي بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة؛ وتهن عزائمهم دونه، ويرغبون في السلم والمهادنة؛ ليستريحوا من مشقة الحروب، وربما كان بعضهم ذوي قرابة - في المشركين - ورحم، أو ذوي مصالح وأموال؛ وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة، فالنفس البشرية هي؛ والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها، وقد نجحت نجاحًا خارقًا. ولكن هذا لا ينفي أن تكون هناك رواسب في بعض النفوس، وهذه الآية بعض العلاج لهذه الرواسب، فلننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس، فنحن في حاجة إلى تحري خطوات القرآن في التربية، والنفوس هي النفوس.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

أنتم الأعلون اعتقادًا وتصورًا للحياة، وأنتم الأعلون ارتباطًا وصلةً بالعلي الأعلى، وأنتم الأعلون منهجًا وهدفًا وغايةً، وأنتم الأعلون شعورًا وخلقًا وسلوكًا.. ثم أنتم الأعلون قوةً ومكانةً ونصرةً، فمعكم قوة اللَّه ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.. فلستم وحدكم.. إنكم في صحبة العليّ الجبار، القادر القهّار، وهو لكم نصير، حاضر معكم، يدافع عنكم، فما يكون أعداؤكم هؤلاء واللَّه معكم؟ وكل ما تبذلون، وكل ما تفعلون، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم، لا يضيع منه شيء عليكم.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾.. لن يقطع منها شيئًا لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه.

فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم مَن يُقرِّر اللَّه - سبحانه - له أنه الأعلى، وأنه معه، وأنه لن يفقد شيئًا من عمله، فهو مكرم منصور مأجور؟

﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

وخذ معها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

إلى الذين يثقل ضغط الواقع الحاضر على أرواحهم وعقولهم، ويستكثرون على دينهم ـ الذي لا يدركون حقيقته ـ أن يكون منهجه الثابت في مواجهة البشرية كلها بواحدة من ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو القتال، وهم يرون جمع الكافرين كلهم يحاربون الإسلام ويناهضونه.

إلى الذين ينتسبون إلى الإسلام، وهم لا يدركون حقيقته، ولا يشعرون بها شعورًا جدِّيًّا، وهم ضعاف أمام جحافل أتباع الديانات الأخرى.

إلى أولئك الكتاب الذين يعمدون إلى ليِّ أعناق النصوص؛ ليؤولوها تأويلًا يتمشى مع ضغط الواقع وثقله.

إلى الذين يعمدون إلى النصوص المرحلية، فيجعلون منها نصوصًا نهائية، وإلى النصوص المقيدة بحالات خاصة، فيجعلون منها نصوصًا مطلقة الدلالة، حتى إذا وصلوا إلى النصوص النهائية المطلقة أوَّلوها وفق النصوص المقيدة المرحلية! وذلك كله كي يصلوا إلى أن الجهاد في الإسلام هو مجرد دفاع عن أشخاص المسلمين وعن دار الإسلام عندما تُهاجم! وأن الإسلام يتهالك على أيِّ عَرْضٍ للمسالمة.. والمسالمة معناها مجرد الكف عن مهاجمة دار الإسلام!

إن الإسلام في حسهم يتقوقع، أو يجب أن يتقوقع داخل حدوده ـ في كل وقت.

إلى الذين نسوا أن رسولنا بعث بالسيف.. وجعل رزقه تحت ظل رمحه.

إلى الذين نَسَوْا صوت المعركة؛ لميلهم إلى ظل الدعة الرقيق.. نذكرهم بهذا الصوت.. بالصهيل، والصليل، وغبار الحرب، و«**صوت المعركة**» الذي قال فيه الشاعر:

سَمِعْتُكَ تُوقِظُ الْمَوْتَى،

وَترعشُهُمْ..،
وتَنُشُرهُمْ..،
علَى خلَدِي!!
وتَقرَعُ رَاحَتَاكَ الْبَابَ
حوْل سكينةِ الأبَد!!
تَدُقُّ. تَدُقّ،
حتَّى تُورق الأكفانُ بين يَدَيْكْ!
وتنْزَعُ صَمْتَها أبديَّةٌ خرساءُ،
ساحَتُها تَطيرُ إليْكْ!
وتزرَعُ نفْسَها الأرواحُ،
فوق جُذوع رابيةٍ بلا أغصانْ
حدائقُها مسحرةٌ،
تفوحُ بعطرِها النِّيرانْ!
.. يُطلُّ بزَهْرها الشُّهداءُ،
مِن ظمإٍ لنار صداكْ،
وتصرُخُ آهةٌ للصبر
هالعةٌ ليوم لقَاكْ!!

* * *

أنا قبلَ أنْ أطَأَ الترابَ...،
.. سمِعْتُ صوتكَ هادِرًا،
كالموج، يصْرُخ في عروقي

.. وسمعتُ نَهْشَ صداكَ،
وهْو يَشُبُّ كالإعصار،
في أعماق ذاتي.. للتفجُّر والشُّروقِ!
.. وسمعتُ دَقَّ يديكَ،
في بابي المصفَّدِ بالْقيود،
وبالسُّدود الضاربات على رحيقي!
... وسمعتُ خطَوكَ كالرياح،
تُذيقُ صمتَ الذلِّ ما شاءَتْ،
من الندم العميقِ!
.. وسمعتُ كفَّكَ،
تلطِمُ الوجهَ المكفَّن بالهدوء،
على سفينٍ في سلاسله غريقْ!
... وسمعتُ نارك في الفضاءِ،
تذيق كلَّ صدىً سِوَاكَ،
مجازرَ العدم السَّحيقِ؛
.. وسمعْتُ زجْرَكَ لِلْهديلِ،
يَقُصُّ نَوْحَ حمامَة،
لسكينةِ الأقفاصِ جاثية الخُفوقِ!
... وسمعتُ جمرَكَ يلْسَعُ الأيَّامَ،
وهي تَسيرُ في خلَدي،
مُطَفَأةَ البَريقِ!
شوهاءَ.. ثاكلةَ الوجود..،

تئنُّ ضاحكة..،
وترتعُ في الطريق.. بلا طريق!
بكْمَاءَ، غافلَةَ السكونِ،
تموت بين يديهِ،
وهي تعبُّ زمْزَمَةَ الحريقِ!!

* * *

.. زمجرْ على كبِدي،
على جَسَدِي،
على روحي المزنَّر ي خيالِكْ!
.. واعصف على قلبي،
على دربي،
على وتري المصَفَّد في حِبالِك!
.. وانْزِفْ لهيبَك،
في دمي، وعلى فَمي،
واصْهَر وجوديَ في اشتعالِك!!

* * *

... ...
من الله، أنت!
من الروح، أنت!
ومن كل صمتٍ يُنادي صَداكْ
وفي كل صوتٍ أبيٍّ أراكْ

وأسمع في كل شيءٍ مَداكْ..
فأسمعه في دمي ثورةً للضياءْ
من النار والثار تشعلُ فجرَ الإِباءْ
وفي خَلَدي نَبْضُهُ كاحتدام الرياحْ
وكالعاصف المنْبِري لاختراق الْبِطاح
.. وفي كبد، ماردٌ عبقريُّ الجناح
يشدُّ من الليل نور الصَّباحْ
.. ويزأر بالثَّأر تحت العروقْ
ليَسْتَلَّ منها ضياء الشروقْ
.. وفي خطوتي درب عمر جديدْ
وفي نظرتي صحوة للوجودْ..
تُنفِّضُ عنه غبارَ الليالي السحيقَهْ
وتمضي به في هدير الحقيقةْ
جبيني جديدْ
ووجهي جديدْ
وإيماء عيني.. جديدْ
وإصغاء سمعي.. جديدْ
وذاتي شواظٌ على جلدها المستضام القديمْ
وكِبْرٌ من النور يسطع تحت الأديمْ
ينوِّر ليل الكهوف الضريرَهْ
ويلسعُ كلَّ بقايا الكرَى في السَّريرَهْ
ويُوقظُها كي تشُقَّ المصيرْ

وتوغلَ صامدةً في المسيرْ
وأسمعُهُ طارقًا من حديث السماءْ
يدقُّ على كل بابِ بأعتى النداء..

... ...

فمن صوت جبْريلَ وهو يناجي «محمَّد»
ومن رعشة الوحي وهو لهيبٌ ومَوْقِدْ
ونار مجلْجلةٌ من سماء الغيوبْ
لمعركة الحق جاءت تشق الدروبْ
وتزأر في كل ليلٍ يتيم شليل الضياءْ
وفي كل يأس ذبيح الأمانِ جريح الرجاءْ..
وفي كل قيْد.. على الذلِّ أغفى وغنى حديدُهْ
وفي كل غُلٍّ. من القهر صلَّى عليه عبيدُهْ..
ومن عنكبوتٍ على الغار أرخى الستُورَا
بأوْهَى خيوطٍ، أدار الزمان، وأحْيا الدهورا..
.. ومن (بدْر).. وهْي تميمة كلِّ المعاركَ
وصوْتُكَ فيها من الحق.. نارٌ تُشارِكَ..
.. ومن كل خطو النبيِّنَ فوق الصحارى
وهُمْ يحصُدون الدجى، من وجوه الحيارَى..
مِن اللَّه أنت!
مِن الروح أنت!
ترنَّمْ.. وجلجِلْ
وبالنور.. أقبلْ..

ولِلَمْ زئيرَكَ من كلِّ ليلٍ توارَى بأرضِكْ
ومن كل كأسٍ سَقَتها الضحايا.. فداءً لعرضِكْ
ومن كل سيفٍ وضعنا مع البيد أنها شمسةْ
ودرنا نَشاوَى بهالات شِعْرٍ تُغَنِّي لبأسِهْ
ترَنَّمْ.. وجلجل
وبالنور.. أقبِلْ
وهاتِ الطبولَ، وهاتِ الخُيولَ
وهات البيارقْ
وهات الصدَى من مزامير «طارقْ»
وأيقظْ عموريَّةَ من كراها
وذق نارها، واسقني من لظاها
بقايا ضحاها
وخذ نغمةً من سماوات حِطِّينَ،
واخضِبْ نداءَكْ..
وأوغلْ مع الريح في كل أُفْقٍ،
وفَجِّرْ إباءكْ..
ودُرْ بالعصور، وبوق النشور،
على الهامِدين..
وأنشِبْ هديرك في كل كهفٍ على الشَّامِتِينْ
ولا تخْشَ ليْلًا بغَفْلاتنا في نسَجنا ظلامهْ
ورُحنا من الوهْم نشكو دجاه ونَبكي خيامهْ
ونحن الذين افترقنا فتُهنا ضياعًا بدربِهْ

وَدُسْنا بأقدامنا كل نورٍ هدانا بركبهْ..
فكم صَحْوة للشعوب تردُّ من الموت صحو الحياةَ!
وكم يقظة من رمادِ الزوال!
هي الفجر تخْضَرُّ منهْا رُباهُ!
.. صَحَونا. ولا بد نسحق بالنور ليل الطريقْ
ونصمد، حتى نردَّ من الليل ضوءَ الشروقْ
فزمجرْ كما كنتَ،
حتَّى تردَّ إباء السِّنينْ!
وشُقَّ الصدورَ،
وأضرمْ بها غفلَةَ الواقفِينْ!
وغَيِّرْ هوانا..
وغَيِّرْ رؤانا..
وأشعلْ منا ثورة لليقينْ
ولن يغسلَ العارَ،..
.. إلَّا امتدادك في كل شَي!
ولن يُرْجعَ الثارْ!..
.. إلا انتفاضك في كل حَي!
ولن يرجعَ الدارَ
.. إلَّا اقتحامكَ ذلَّ الخليَّهْ!
ومحْوُكَ لليأسِ من كل روع غبيَّهْ؛
فصوتُك في كل روح حياه
وصوتكَ للنصر أتْقَى صلاه

فقاتلْ به في العروق دم اليائسينْ
وأيْقظ به في الدماء رؤى الهامِدينْ
وأعجِلْ به النصرَ للصامِدينْ
ويوم نردُّ الترابَ الحبيب لأقدامنا
وصوتك بالنصر يجري نشيدًا لأيَّامِنا
ستسمع من كل أفقٍ أذانا يهز الشهُبْ
ويخضرُّ في الأرض لحن البطوله..
نحن العربْ!![1]

❑ **ومن الملائكة مقاتلون:**

٦٨ـ **قال ـ تعَالَى ـ:** ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ [**آل عمران: ١٢٤ـ ١٢٧**].

قال ابن كثير في تفسيره: «**اختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم** «**بدر**» أو يوم «**أحد**»؟

على قولين:

أحدهما: أن قوله: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وروي هذا عن الحسن البصري، وعامر الشعبي،

---

(١) قصيدة «صوت المعركة»، لمحمود حسن إسماعيل من ديوانه «صلاة ورفض» ص (١٥٤١ ـ ١٥٥٤) من الأعمال الكاملة، لمحمود حسن إسماعيل ـ دار سعاد الصباح.

والربيع بن أنس، وغيرهم، واختاره ابن جرير.

قال الحسن: هذا يوم بدر(١).

عن عامر الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمدُّ المشركين، فشَقَّ ذلك عليهم، فأنزل اللّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾. قال: فبلغت كرزًا الهزيمة، فلم يمد المشركين، ولم يمد اللّه المسلمين بالخمسة.

وقال الربيع بن أنس: أمد اللَّه المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول، وبين قوله في قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]؟

فالجواب أن: التنصيص على الأَلْفِ هاهنا لا ينافي الثلاثة آلاف فما فوقها؛ لقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾؛ بمعنى: يردفهم غيرهم، ويتبعهم ألوف أخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم «**بدر**»، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم «**بدر**». واللّه أعلم.

وقال قتادة: أمدَّ اللَّه المسلمين يوم «**بدر**» بخمسة آلاف.

القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، وذلك يوم «**أحد**»؛ وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهري، وموسى بن عقبة، وغيرهم، لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فروا يومئذ. زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾، فلم يصبروا، بل فرّوا؛ فلم يمدوا بملك

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٥١٩/٢) رقم (١٣٤٧)، وابن جرير (١٧٤/٧) رقم (١٧٤٥).

واحد.

﴿مُسَوِّمِينَ﴾ ؛ أي: معلمين - بالسيما.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان سيما الملائكة يوم «**بدر**» الصوف الأبيض؛ وكان سيماهم - أيضًا - في نواصي خيولهم(١).

وقال مجاهد: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ ؛ أي: محدقة أعرافها، معلمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل.

وقال قتادة وعكرمة: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ ؛ أي: بسيما القتال. وقال مكحول: مسوِّمين بالعمائم.

قال ابن عباس: كانت سيما الملائكة يوم «**بدر**» عمائم بيض، قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم «**حنين**» عمائم حمر، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم «**بدر**»، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددًا ومددًا لا يضربون(٢).

وعن يحيى بن عباد: أن الزبير رضي الله عنه ، كان عليه يوم «**بدر**» عمامة صفراء معتجرًا بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر(٣).

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ ؛ أي: وما أنزل اللَّه الملائكة، وأعلمكم بإنزالهم، إلا بشارة لكم، وتطييبًا لقلوبكم وتطمينًا، وإلا فإنما النصر من عند اللَّه الذي لو شاء لانتصر من أعدائكم بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ؛ أي: هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قَدَرِهِ والأحكام.

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٢٠/٢) رقم (١٣٥٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٨٩/١١) رقم (٢٠٨٥).

(٣) **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٢٨/٢) رقم (١٣٧٤)، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (١٨٨/٧) رقم (٧٧٨٩) بإسناد حسن.

ثم قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ أي: أمركم بالجهاد؛ لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار، فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾؛ أي: ليهلك أمة من الذين كفروا. ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾؛ أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم لما لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ﴾؛ أي: يرجعوا. ﴿خَآئِبِينَ﴾؛ أي: لم يحصلوا على ما أمَّلوا». اهـ(١).

٦٩ـ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ **[الأنفال: ٩، ١٠]**.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «**لما كان يوم «بدر»** نظر النبي ﷺ إلى **أصحابه،** وهم ثلاث مئة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «**اللهم، أين ما وعدتني. اللهم، أنجز لي ما وعدتني. اللهم، إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا**». قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فردَّاه، فألبسه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله؛ كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾. فلما كان يومئذ التقوا، فهزم الله المشركين، فقُتِل منهم سبعون رجلًا، وأُسِر منهم سبعون رجلًا...»(٢) الحديث.

دَعَا فَمَاجَتْ سَمَاءُ اللَّهِ وَانْطَلَقَتْ ... كَتَائِبُ النَّصْرِ مِلءَ الْجَوِّ تَنْتَظِمُ
لَاهُمَّ غَوْثَكَ إِنَّ الْحَقَّ مَطْلَبُنَا ... وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْقَوْمِ الْأُلَى ظَلَمُوا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/١٧٤ ـ ١٧٨).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١/٣٠)، ومسلم برقم (١٧٦٣)، وأبو داود برقم (٢٦٩٠)، والترمذي برقم (٣٠٨١)، وابن جرير (١٣/١٥٧٣٤).

تِلْكَ الْعِصَابَةُ مَا لِلَّهِ إِنْ هَلَكَتْ ... فِي الأَرْضِ مِنْ عَابِدٍ لِلْحَقِّ يَلْتَزِمُ
جَاءَ الْغِيَاثُ فَدِينُ اللَّهِ مُنْتَصِرٌ ... عَالِي اللِّوَاءِ وَدِينُ الشِّرْكِ مُنْهَزِمُ

ولله در القائل:

وَضَجَّ رَسُولُ اللَّهِ يَدْعُو إِلَهَهُ ... فَيَالَكَ مِنْ جُنْدٍ طَوَى الْجَوَّ جَافِلُهْ
تَنَزَّلَ يُزْجِي النَّصْرَ تَنْسَابُ مِنْ عَلٍ ... شَآبِيبُهُ نُورًا وَيَنْهَلُّ وَابِلُهْ[1]
أَحَيْزُومُ أَقْدِمْ إِنَّهُ الْجِدُّ لَنْ يُرَى ... سِوَاهُ عَدُوٌّ كَاذِبُ الْبَأْسِ هَازِلُهْ
هُوَ اللَّهُ يَحْمِي دِينَهُ وَيُعِزُّهُ ... فَمَنْ ذَا يُنَاوِيهِ[2]؟ وَمَنْ ذَا يُصَاوِلُهْ؟

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ أي: يردف بعضهم بعضًا.

قال ابن عباس: متتابعين.

ويحتمل أن المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم؛ أي: نجدة لكم، كما قال العوفي عن ابن عباس: ﴿مُرْدِفِينَ﴾: المدد. كذا قال مجاهد، وابن كثير القارئ، وابن زيد عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس؛ قال: وأمد اللَّه نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمس مئة من الملائكة مُجَنِّبة، وميكائيل في خمس مئة مجنبة.

عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: «**أقدم حيزوم**». إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخرَّ مستلقيًا، قال: فنظر إليه، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدَّث ذلك رسول اللَّه ﷺ، فقال: «**صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة**». فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين»[3].

---

(١) الشآبيب: الدفعات من المطر، جمع شؤبوب. والوابل: المطر الشديد.

(٢) ناوأه: عاداه.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٢/١٥٧٣٤)، وهو عند مسلم في الجهاد والسير برقم (١٧٦٣).

عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل «**بدر**» ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «**ما تعدون أهل بدر فيكم؟**» قال: «**من أفضل المسلمين**»، أو كلمة نحوها، قال: «**وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة**»(١).

وبلفظ آخر: «**جاء جبريل فقال: ما تعدون من شهد بدرًا فيكم؟ قلت: خيارُنا، قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة**»(٢).

حَيُّوا الْمَلَائِكَـةَ الْأَبْـرَارَ يَـقْـدُمُـهُـمْ ... جِبْرِيلُ فِي غَمَرَاتِ الْهَوْلِ يَقْتَحِمُ
الْأَرْضُ تَرْجُفُ رُعْبًا وَالسَّمَاءُ بِهَا ... غَيْظٌ يَظَلُّ عَلَى الْكُفَّارِ يَحْتَدِمُ

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، وإلا فهو ـ تعَالَى ـ قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، كما قال ـ تعَالَى ـ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٤ ـ ٦].

وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

فهذه حِكَمٌ شَرَعَ اللهُ جهادَ الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها. وقد كان ـ تعَالَى ـ إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادًا الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب المغازي ـ باب شهود الملائكة بدرًا رقم (٣٩٩٢).

(٢) رواه أحمد والبخاري وابن ماجه عن رفاعة بن رافع الزرقي، وأخرجه أحمد وابن ماجه وابن حبان عن رافع بن خديج.

بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث اللَّه ـ تَعَالَى ـ موسى، وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ﴾ [القصص: ٤٣].

وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال ـ تَعَالَى ـ للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤].

ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، فقتْل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من أن يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب بالعَدَسة[1]، بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسَّلوه بالماء قذفًا من بعيد، ورجموه حتى دفنوه، ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما، في الدنيا والآخرة، كما قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

﴿حَكِيمٌ﴾: فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقدرته ـ سبحانه وتعالى ـ»[2].

---

(١) العدسة: هي بثرة تشبه العدسة تخرج في مواضع من الجسد، من جنس الطاعون، تقتل صاحبها غالبًا. انظر: النهاية، لابن الأثير (٣/١٩٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٢٤ ـ ٢٩).

٧٠- قال - تعَالَى -: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

قال الإمام ابن كثير: «هذه نعمة خفية، أظهرها اللَّه - تعَالَى - لهم؛ ليشكروه عليها، وهو أنه - تعَالَى وتقدَّس وتبارك وتمجَّد - أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

قال ابن إسحاق: وازروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثِّروا سوارهم. وقيل: كان ذلك بأن الملَك كان يأتي الرجل من أصحاب النبيﷺ يقول: سمعتُ هؤلاء القوم - يعني: المشركين - يقولون: واللَّه لئن حملوا علينا لننكشفن، فيحدث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك، فتقوى أنفسهم. حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ ؛ أي: ثبتوا أنتم المسلمين، وقووا أنفسهم على أعدائهم، عن أمري لكم بذلك، سألقي الرعب والمذلة والصغار على من خالف أمري، وكذَّب رسولي، ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ؛ أي: اضربوا الهام فافلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ ؛ فقيل: معناه اضربوا الرءوس. قاله عكرمة.

وقيل: معناه: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ ؛ أي: على الأعناق، وهي الرقاب، قاله الضحاك، ويشهد لهذا المعنى أن اللَّه - تعَالَى - أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله - تعَالَى -: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

واختار ابن جرير أنها تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام.

وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم «**بدر**» يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم، بضرب فوق الأعناق وعلى البنان، مثل سمة النار قد أُحرق به.

وقوله: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾؛ قال ابن جرير: معناه: واضربوا من عدوكم - أيها المؤمنون - كل طرف ومفصل، من أطراف أيديهم وأرجلهم.

والبنان: جمع بنانة.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾، يعني بالبنان: الأطراف، وكذا قال الضحاك، وابن جريج.

وقال عكرمة، وعطية العوفي، والضحاك: كل مفصل.

وقال الأوزاعي: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك.

وقال العوفي عن ابن عباس، فذكر قصة «**بدر**» إلى أن قال: فقال أبو جهل: لا تقتلوهم قتلًا، ولكن خذوهم أخذًا، حتى تعرفوهم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم، ورغبتهم عن اللات والعزى. فأوحى اللَّه إلى الملائكة: ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾. فقُتل أبو جهل - لعنه اللَّه - في تسعة وستين رجلًا، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبرًا، فوفَّى ذلك سبعين، يعني: قتيلًا»[1].

ولله در القائل:

اللَّه أَرْسَلَ فِي السَّحَابِ كَتِيبَةً ... تَهْفُو كَمَا هَفَتِ الْبُرُوقُ اللُّمَّحُ[2]

تَهوِي مُجَلْجِلَةً تَلَهَّبُ أَعْيُنٌ ... مِنْهَا وتَقْذِفُ بِالْعَوَاصِفِ أَجْنُحُ[3]

لِلْخَيْلِ حَمْحَمَةٌ تُرَاعُ لِهَوْلِهَا ... صِيدُ الفَوَارِسِ والعِتَاقُ القُرَّحُ[4]

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٢/٧ - ٣٤).

(٢) الكتيبة: القطعة من الجيش. تهفو: تسرع.

(٣) مجلجلة: مرعدة. أجنح: جمع جناح.

(٤) القارح من الخيل: الذي شق نابه وطلع.

حَـيْـزُومُ أَقْـدِمْ إِنَّمَـا هِـيَ كَـرَّةٌ ... عَجْلَى تُجَاذِبُكَ الْعِنَانَ فَتَمْرَحُ[١]
جِبْرِيلُ يَضْـرِبُ وَالْمَلاَئِكُ حَوْلَـهُ ... صَفٌّ تُرَضُّ بِهِ الصُّفُوفُ وَتُرْضَحُ[٢]
تِلْكَ الْحُصُـونُ الْمَانِعَاتُ بِمِثْلِهَا ... تذري المعاقل والحصون وتذرح[٣]
للقوم من أعناقهم وبنائهم ... نَارٌ تُرِيكَ الدَّاءُ كَيْفَ يُبَرِّحُ[٤]
جَفَّتْ جُذُورُ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْتَوَى ... هَذَا النَّبَاتُ النَّاضِرُ الْمُسْتَرْشِحُ[٥]
طَفِقَ الثَّرَى مِنْ حَوْلِهَا لَمَّا ارْتَوَى ... مِنْ ذَوْبِ مُهْجَتِهَا يَجِفُّ وَيَيْلَحُ[٦]
وَمِنَ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ رِجْسٌ مُوبِقٌ ... وَمُـطَـهَّرٌ يَـلِـدُ الْحَيَـاةَ وَيَـلْـقَـحُ[٧]

❏ **النصر من عند اللَّه والمنة والفضل له:**

٧١ـ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: **١٢٣**].

﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾؛ أي: قليل عددكم؛ لتعلموا أن النصر إنما هو عند الله، لا بكثرة العَدد والعُدد، ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ إلى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

عن عياض الأشعري قال: شهدت «**اليرموك**» وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض ـ وليس عياض هذا الذي حدث ـ قال: وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا كان قتالًا فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه أنه: قد جاش إلينا الموت.

---

(١) حيزوم: اسم فرس جبريل.
(٢) ترضح: تكسر.
(٣) تذري وتذرح بمعنًى.
(٤) المبرح: المؤلم.
(٥) استرشح النبات: طال.
(٦) يبلح: ييبس.
(٧) موبق: مهلك.

واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني، وإني لأدلكم على من هو أعزُّ نصرًا، وأحصن جندًا، اللَّه عَزَّوَجَلَّ، فاستنصروه، فإن محمدًا ﷺ قد نُصِر في يوم «بدر» في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم، ولا تراجعوني.

قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ...»[1].

❑ **وما رميت إذ رميت:**

٧٢- قال - تعالَى -: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [**الأنفال: ١٧، ١٨**].

قال الإمام ابن كثير - رحمه اللَّه -: «**يبين - تعالَى - أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفَّقهم لذلك، وأعانهم عليه، ولهذا قال:** ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾؛ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم، مع كثرة عددهم وقلة عددكم؛ أي: بل هو الذي أظفركم عليهم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال - تعالَى -: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥]، يُعلم - تبارك وتعالى - أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعُدَد، وإنما النصر من عند اللَّه - تعَالَى -، كما قال - تعَالَى -: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

---

(١) **إسناده حسن:** أخرجه أحمد في «مسنده» (١/٤٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١١/٨٣: ٨٥/ الإحسان) رقم (٤٧٦٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٢١٦): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

ثم قال ـ تَعَالَى ـ لنبيه ﷺ أيضًا ـ في شأن القبضة من التراب، التي حصب بها وجوه المشركين يوم «**بدر**»، حين خرج من التراب ـ التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر ـ حين خرج من العريش، بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها، وقال: «**شاهت الوجوه**»، ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل اللَّه تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله! ولهذا قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ أي: هو الذي بلَّغ ذلك إليهم وكبتهم بها، لا أنت.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول اللَّه ﷺ يديه ـ يعني يوم بدر ـ فقال: «**يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدًا**». فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب، فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

وقد روى في هذه القصة عن عروة بن الزبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم «**حنين**» أيضًا.

عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم «**بدر**» سمعنا صوتًا من السماء، كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول اللَّه ﷺ تلك الرمية، فانهزمنا[1].

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

قال عروة بن الزبير: أي: ليعرِّف المؤمنين من نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم، مع كثرة عدوهم وقلة عددهم؛ ليعرفوا بلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته. وهكذا فسَّر ذلك ابن جرير أيضًا.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير والأوسط»، وإسناده كما قال الهيثمي في «المجمع» (٦/٨٤) حسن.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر الغلب.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾: هذه بشارة أخرى مع ما وصل من النصر، أنه أعلمهم ـ تَعَالَى ـ بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغِّر أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة»[١].

هِيَ حِفْنَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ الْحَصَى ... خَفَّ الْوَقُورُ بِهَا وَطَاشَ الْمِرْجَحُ[٢]
مِثْلُ الثَّمِيلَةِ مِنْ مُجَاجَةِ نَافِثٍ ... وَكَأَنَّمَا هِيَ صَيِّبٌ يَتَبَذَّحُ[٣]

قال الإمام ابن القيم: «اعتقد جماعة أن المراد بالآية: سَلْب فعل الرسول ﷺ، وإضافته إلى الرب ـ تَعَالَى ـ..

وجعلوا ذلك أصلًا في الجبر، وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد، وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده. وهذا غلط منهم في فهم القرآن.

فلو صحَّ ذلك لوجب طرده في جميع الأفعال، فيُقال: ما صليت إذ صليت، وما صمت إذ صمت، وما ضحيت إذ ضحيت، ولا فعلت كل فعل إذ فعلته، ولكن الله فعل ذلك، فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد ـ طاعتهم ومعاصيهم ـ إذ لا فرق، فإن خصوه بالرسول ﷺ وحده وأفعاله جميعها، أو رميه وحده؛ تناقضوا، فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية.

وبعد، فهذه الآية نزلت[٤] في شأن رميه ﷺ المشركين يوم «بدر» بقبضة من

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٤٠ ـ ٤٣).
(٢) المرجح: الحليم.
(٣) الثميلة: البقية. والصيب: المطر. وتبذح السحاب: أمطر.
(٤) **صحيح**: رواه ابن إسحاق (٢/٢٧٠)، والطبراني في «الكبير» (٣/٢٠٣) من حديث حكيم بن حزام، قال الهيثمي: (٦/٨٤): رواه الطبراني في «الكبير والأوسط»، وإسناده حسن. ورواه في «الكبير» أيضًا (١١/٢٨٥) عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ. قال الهيثمي (٦/٨٤): ورجاله رجال الصحيح. وَصَحَّحَهُ الألباني كما في «فقه السيرة» ص (٢٣٩).

الحصباء، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته، ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ.

فكان منه ﷺ مبدأ الرمي وهو الخذف، ومن اللَّه - سبحانه وتعالى - نهايته، وهو الإيصال.

فأضاف إليه رمي الخذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته، ونظير هذا قوله في الآية نفسها: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾. ثم قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فأخبره أنه وحده هو الذي تفرَّد بقتلهم، ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرَّد بإيصال الحصى إلى أعينهم، ولم يكن ذلك من رسوله، ولكن وجه الإشارة بالآية أنه - سبحانه - أقام أسبابًا ظاهرة، كدفع المشركين، وتولى دفعهم وإهلاكهم، بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس، فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافًا إليه وبه، وهو خير الناصرين»[1].

وقال ابن القيم - أيضًا رحمه اللَّه -: «وقد ظن طائفة من الناس أنَّ من هذا الباب قوله - تعَالَى -: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

وجعلوا ذلك من أدلتهم على القدرية، ولم يفهموا مراد الآية.

وليست من هذا الباب، فإن هذا خطاب لهم في وقعة «بدر»، حيث أنزل اللَّه - سبحانه - ملائكته فقتلوا أعداءه، فلم يفرد المسلمون بقتلهم، بل قتلتهم الملائكة. وأما رميه ﷺ فمقدوره، كان هو الخذف والإلقاء، وأما إيصال ما رمى به إلى وجوه العدو مع البعد، وإيصال ذلك إلى وجوه جميعهم فلم يكن من فعله، ولكن فعل اللَّه وحده، فالرمي يراد به الخذف والإيصال، فأثبت له الخذف بقوله: ﴿إِذْ

---

(١) مدارج السالكين (٣/٤٢٦، ٤٢٧).

رَمَيْتَ﴾، ونفي عنه الإيصال بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾»[١].

فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل من أبلاه بلاءً حسنًا إذا أنعم عليه.

قال: أبلاك اللَّه ولا ابتلاك، فأبلاه بالخير، وابتلاه بالمكاره، غالبًا[٢].

❑ متى نصر الله:

٧٣- قال - تعَالَى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [**الحج: ٣٨**].

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: ﴿يَدْفَع﴾، وقرأ الباقون: ﴿يُدَٰفِعُ﴾[٣]

قال ابن كثير: «**يخبر - تعَالَى - أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال - تعَالَى -:** ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾..

فقد ضمن للمؤمنين - إذن - أنه هو - تعَالَى - يدافع عنهم. ومن يدافع اللَّه عنه فهو ممنوع - حتمًا - من عدوه، ظاهرٌ - حتمًا - على عدوه.. **ففيم إذن يأذن لهم بالقتال؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح، والجهد والمشقة، والتضحية والآلام... والعاقبة معروفة، واللَّه قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد، ولا مشقة، ولا تضحية ولا ألم، ولا قتل ولا قتال؟**

والجواب: أن حكمة اللَّه في هذا هي العليا، وأن لله الحجة البالغة.. والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة، ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا

---

(١) شفاء العليل، لابن القيم ص (٥٩).
(٢) طريق الهجرتين، لابن القيم ص (٣٢٠).
(٣) القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة، لعلوي بن محمد بلفقيه.

أن اللَّه ـ سبحانه ـ لم يرد أن يكون حَمَلَةُ دعوته وحُمَاتُهَا من **«التنابلة»** الكسالى، الذين يجلسون في استرخاء، ثم يتنزل عليهم نصره سهلًا هينًا بلا عناء، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة، ويرتلون القرآن، ويتوجهون إلى اللَّه بالدعاء، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء!

نعم، إنهم يجب أن يقيموا الصلاة، وأن يرتلوا القرآن، وأن يتوجهوا إلى اللَّه بالدعاء في السراء والضراء. ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة اللَّه وحمايتها؛ إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة، والذخيرة التي يدخرونها للموقعة، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه، ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله.

لقد شاء اللَّه ـ تَعَالَى ـ أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم؛ كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركةِ. فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات ـ المذخورة فيها ـ كما تستيقظ وهي تواجه الخطر؛ وهي تدفع وتدافع، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة... عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد؛ لتؤدي دورها، ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة، ولتؤتي أقصى ما تملكه، وتبذل آخر ما تنطوي عليه، وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيأة له من الكمال.

والأمة التي تقوم على دعوة اللَّه في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها، واحتشاد كل قواها، وتوفز كل استعدادها، وتجمع كل طاقاتها؛ كي يتم نموها، ويكمل نضجها، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها.

والنصر السريع لا يكلف عناء، والذي يتنزل هينًا لينًا على القاعدين المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور؛ لأنه لا يحفزها، ولا يدعوها.

وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين سهل فقدانه وضياعه؛ أولًا: لأنه رخيص الثمن، لم تبذل فيه تضحيات عزيزة. وثانيًا: لأن الذين نالوه لم تدرب

قواهم على الاحتفاظ به، ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه، فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوجدانية، والدربة العملية، تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة، والكر والفر، والقوة والضعف، والتقدم والتقهقر، ومن المشاعر المصاحبة لها.. من الأمل والألم، ومن الفرح والغم، ومن الاطمئنان والقلق، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة... ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة، والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة، وقبلها، وبعدها، وكشف نقط الضعف ونقط القوة، وتدبير الأمور في جميع الحالات.. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس.

ومن أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله.. جعل اللَّه دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم، ولم يجعله «لقية» تهبط عليهم من السماء بلا عناء.

والنصر قد يبطئ على الذين ظُلِمُوا وأُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله.

● قد يبطئ النصر؛ لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع؛ لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكًا؛ لعدم قدرتها على حمايته طويلًا!

● وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليًا لا تبذله هينًا رخيصًا في سبيل الله.

● وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوة وحدها بدون سند من اللَّه لا تكفل النصر. إنما يتنزل النصر من عند اللَّه عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

● وقد يبطئ النصر؛ لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سندًا إلا الله، ولا متوجهًا إلا إليه وحده في الضراء. وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله. فلا تطغى، ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

● وقد يبطئ النصر؛ لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها. واللَّه يريد أن يكون الجهاد له وحده، وفي سبيله؛ بريئًا من المشاعر الأخرى التي تلابسه. وقد سئل رسول اللَّه ﷺ: الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليُرَى. فأيها في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

● كما قد يبطئ النصر؛ لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد اللَّه أن يجرد الشر منها؛ ليتمحض خالصًا، ويذهب وحده هالكًا، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

● وقد يبطئ النصر؛ لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تمامًا. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارًا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله؛ فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة. فيشاء اللَّه أن يبقى الباطل حتى يتكشف عاريًا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطئ النصر؛ لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار؛ فيظل الصراع قائمًا حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر،

---

(١) رواه الشيخان.

ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام، مع دفاع اللّه عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية.

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن اللّه به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

فوعد اللّه المؤكد لوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره.. فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله، فيستحقون نصر الله، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه؟ إنهم هؤلاء:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.. فحققنا لهم النصر، وثبتنا لهم الأمر.. ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾... فعبدوا الله، ووثقوا صلتهم به، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين.. ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.. فأدوا حق المال، وانتصروا على شح النفس، وتطهروا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدوا خلة الجماعة، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج، وحققوا لها صفة الجسم الحي ـ كما قال رسول اللّه ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».. ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.. فدعوا إلى الخير والصلاح، ودفعوا إليه الناس.. ﴿وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.. فقاوموا الشر والفساد، وحققوا ـ بهذا وذاك ـ صفة الأمة المسلمة التي لا تُبقي على منكر وهي قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه.

هؤلاء هم الذين ينصرون الله، إذ هم ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة، معتزين باللّه وحده دون سواه. وهؤلاء هم الذين يعدهم اللّه بالنصر على

وجه التحقيق واليقين. فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته، المشروط بتكاليفه وأعبائه.. والأمر بعد ذلك لله، يصرفه كيف يشاء، فيبدل الهزيمة نصرًا، والنصر هزيمة، عندما تختل القوائم، أو تهمل التكاليف ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ .

إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة؛ من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والنصر، المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات والمطامع والشهوات.. وهو نصر له سببه، وله ثمنه، وله تكاليفه، وله شروطه، فلا يُعطي لأحد جزافًا أو محاباة، ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه»[١] .

مراتب الجهاد

قال الإمام ابن القيم: «لما كان جهاد أعداءِ اللهِ في الخارج فرعًا على جهادِ العبد نفسه في ذاتِ اللهِ، كما قال النبيُّ ﷺ: «**المجاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في طَاعَةِ الله، والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عنه**»[٢] . كان جهادُ النفس مُقدَّمًا على جِهَادِ العدوِّ في الخارجِ، وأصلًا له، فإنه ما لم يُجاهِدْ نفسه أوَّلًا؛ لِتفعل ما أُمِرَتْ به، وتتركَ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبْهَا في الله، لم يُمكِنْهُ جهادُ عدوه في الخارجِ، فكيف يُمكِنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه في الله، بل لا يُمكنه الخروجُ إلى عدوِّه، حتى يُجاهِدَ نفسَه على الخروج.

فهذان عدوَّانِ قد امْتُحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالث، لا يمكنه

---

(١) الظلال (٤/٢٤٢٥ ـ ٢٤٢٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦/٢١) من حديث فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ مَنْ أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب» وسنده جيد، وَصَحَّحَهُ ابن حبان (٢٥)، والحاكم (١/١١)، ووافقه الذهبي.

جهادُهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يُثَبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخَذِّلُه، ويُرجِفُ به، ولا يزالُ يُخَيِّل له ما في جهادهما مِن المشاق، وتركِ الحظوظ، وفوتِ اللذاتِ، والمشتهيات، ولا يُمكنه أن يُجاهِدَ ذَيْنِكَ العدوَيْنِ إلا بجهاده، فكان جهادُه هو الأصل لجهادهما، وهو الشيطان، قال ـ تعالَى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه على استفراغ الوُسع في مُحاربته ومجاهدته، كأنَّهُ عدو لَا يَفْتُر، ولا يُقصِّر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أُمِرَ العبدُ بمحاربتها وجهادها، وقد بُلي بمحاربتها في هذه الدار، وسُلِّطَتْ عليه؛ امتحانًا من اللَّه له وابتلاء، فأعطى اللهُ العبدَ مددًا وعُدَّةً وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجِهَادِ، وأعطى أعداءه مددًا وعُدَّةً وأعوانًا وسِلاحًا، وبَلَا أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة؛ لِيَبْلُوَ أخبارهم، ويمتحِنَ من يتولَّاه ويتولَّى رسُلَهُ ممن يتولَّى الشيطانَ وحِزبه، كما قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال ـ تعالَى ـ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد: ٤]، وقال ـ تعالَى ـ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد: ٣١]. فأعطى عباده الأسماعَ والأبصارَ، والعُقول والقُوى، وأنزل عليهم كُتُبَه، وأرسلَ إليهم رسُلَه، وأمدَّهم بملائكته، وقال لهم: ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو مِن أعظم العونِ لهم على حرب عدوهم، وأخبرهم أنَّهم إن امتثلوا ما أمرهم به؛ لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوِّهم، وأنه إن سلَّطه عليهم، فلتَرْكِهم بعضَ ما أُمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يُؤَيِّسْهُم، ولم يُقنِّطْهُمْ، بل أمرهم أن يستَقْبِلُوا أمرهم، ويُداووا جِرَاحَهُم، ويَعُودوا إلى مُناهضةِ عدوهم؛ فينصرَهم عليهم، ويُظفرَهم بهم، فأخبرهم أنه معَ المتقين مِنهم، ومعَ المحسنينَ، ومع الصابرين، ومعَ المؤمنين، وأنه يُدافع عن عباده المؤمنين ما

لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوِّهم، ولولا دفاعُه عنهم، لتخطَّفهم عدوُّهم، واجتاحهم.

وهذه المدافعةُ عنهم بحسب إيمانِهم، وعلى قَدْرِهِ، فإنْ قَوِيَ الإيمانُ، قويتِ المُدافعة، فمن وجد خيرًا، فليحمَدِ الله، ومن وجد غيرَ ذلِكَ، فلا يلومنَّ إلا نفسه.

وأمرهم أن يُجاهِدوا فيه حقَّ جهاده، كما أمرهم أن يتَّقوه حقَّ تُقاته[1]، وكما أن حقَّ تُقاته أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكَرَ فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يُكفر، فحقُّ جهاده أن يُجاهِدَ العبد نفسَه؛ لِيُسْلِم قلبه ولِسانه وجوارِحه لِلَّهِ، فيكون كُلُّه لله، وباللهِ، لا لنفسهِ، ولا بنفسه، ويُجاهدَ شيطانه بتكذِيبِ وعدِهِ، ومعصيةِ أمرِهِ، وارتكابِ نهيه، فإنه يَعِدُ الأمانيَّ، ويُمنِّي الغُرورَ، ويَعِدُ الفقرَ، ويأمرُ بالفحشاء، وينهى عن التُّقى والهُدى، والعِفة والصبرِ، وأخلاقِ الإيمان كُلِّهَا، فجاهده بتكذِيبِ وعده، ومعصيةِ أمره، فينشأُ له من هذين الجهادين قوةٌ وسلطان، وعُدَّة يُجاهد بها أعداءَ اللَّه في الخارج بقلبه ولسانه ويده ومالِهِ، لِتكونَ كلمةُ اللَّه هي العليا.

واختلفت عباراتُ السلف في حقِّ الجهاد:

فقال ابن عباس: هو استفراغُ الطاقة فيه، وألا يَخافَ في اللهِ لومةَ لائم.

وقال مقاتل: اعملوا للهِ حقَّ عمله، واعبدُوه حقَّ عِبادته.

وقال عبداللَّه بنُ المبارك: هو مجاهدةُ النفس والهوى.

ولم يُصِبْ من قال: إن الآيتين منسوختان؛ لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يُطاق.

وحقُّ تُقاته وحق جهاده: هو ما يُطيقه كلُّ عبد في نفسه، وذلك يختلِف باختلافِ أحوال المكلفين في القُدرةِ، والعجزِ، والعلمِ، والجهلِ. فحقُّ التقوى،

---

(١) وذلك في قوله ـ تعالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقوله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

وحقُّ الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء، وتأمل كيف عقَّب الأمر بذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] والحَرَج: الضِّيقُ، بل جعله واسعًا يسَعُ كُلَّ أحد، كما جعل رِزقه يسع كُلَّ حي، وكلَّف العبدَ بما يسعه العبدُ، ورزق العَبدَ ما يسعُ العبد، فهو يسعُ تكليفَه، ويسعه رزقُهُ، وما جعل على عبده في الدين من حرج بوجه ما، قال النبيُّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**»(١)؛ أي: بالملة: فهي حنيفيّة في التوحيد، سمحَةٌ في العمل.

وقد وسَّع اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده غايةَ التَّوسِعة في دينه، ورِزْقه، وعفوه، ومغفرتِهِ، وبسط عليهم التوبةَ ما دامت الروحُ في الجسد، وفتح لهم بابًا لها لا يُغْلِقُهُ عنهم إلى أن تَطْلُعَ الشمسَ مِن مغربها، وجعلَ لِكلِّ سيئة كفارةً تُكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مُصيبة مكفرة، وجَعل بكل ما حرَّم عليهم عِوضًا مِن الحلال أنفعَ لهم منه، وأطيَبَ، وألَذَّ، فيقومُ مقامه؛ لِيستغني العبدُ عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يضيقُ عنه، وجعل لِكل عُسْرٍ يمتحنُهم به يُسرًا قبله، ويُسرًا بعده، «**فلن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسرَيْنِ**»(٢). فإذَا كان هذا شأنه ـ سبحانه ـ مع عباده، فكيف يُكلِّفُهم ما لا يسعهم، فضلًا عما لا يُطيقونه ولا يقدِرُونَ عليه؟!

إذَا عُرِفَ هذا، **فالجهادُ أربع مراتب**: جهادُ النفس، وجهادُ الشيطان، وجهادُ الكفار، وجهادُ المنافقين.

فجهاد النفس أربعُ مراتب ـ أيضًا ـ:

إحداها: أَنْ يُجاهِدَها على تعلُّم الهُدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخه» (٧/٢٠٩) من حديث جابر بلفظ: «بعثت بالحنيفية السمحة، ومن خالف سنتي، فليس مني» وسنده ضعيف.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٥٢٨) عن الحسن في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ قال: خرج النبي ﷺ مسرورًا فرحًا وهو يضحك وهو يقول: «لن يغلب عسرٌ يسرين؛ إن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا» ورجاله ثقات، لكنه مرسل.

سعادة ـ في معاشها ومعادها ـ إلا بِهِ، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت في الدَّارين.

الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم ينفعْها.

الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمِهِ مَنْ لا يعلمهُ، وإلا كان مِن الذين يكتُمون ما أنزل اللَّه مِن الهُدى والبينات، ولا ينفعُهُ علمُهُ، ولا يُنجِيه مِن عذاب اللهِ.

الرابعة: أن يُجاهِدَها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الرَّبَّانِيين، فإن السلفَ مُجمِعُونَ على أن العَالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمى ربانيًّا حتى يَعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَه. فمن علم وعَمِلَ وعلَّمَ فذاكَ يُدعى عظيمًا في ملكوتِ السماواتِ»[1].

❑ أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك:

٧٤ـ قال الله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾

الجهاد قسمان: جهاد الظاهر مع الكفار، وجهاد الباطن مع النفس والشيطان. وكما أن في جهاد الكفار غنيمة عند الظفر، ففي **جهاد النفس** غنيمة، وهو أن يملك العبد نفسه التي كانت في يد العدو (الهوى والشيطان)، فبعد أن كانت ظواهره مَقَرًّا للأعمال الذميمة، وبواطنه مستقرًّا للأحوال الدنيَّة يصير محلُّ الهوى مسكنَ الرضا، ومقرُّ الشهوات والمُنى مُسَلَّما لِما يَرِد عليه من مطالبات المولى، وتصير النفس مستلبةً من أَسْرِ الشهوات، والقلب مُختَطَفًا من وصف الغَفَلات، والروح منتزعة من أيدي العلاقات، والسِّر مصونًا عن الملاحظات، وتصبح غاغة النفس منهزمة، ورياسة الحقوق بالاستجابة لله خافقة.

---

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٣/٦ ـ ١٠).

وكما أن من جملة الغنيمة سهمًا لله وللرسول، وهو الخُمْس. فمما هو غنيمة على لسان الإشارة ـ سهم خالص لله؛ وهو ما لا يكون للعبد فيه نصيب، لا من كرائم العقبى، ولا من ثمرات التقريب، ولا من خصائص الإقبال، فيكون العبد عند ذلك مُحَرَّرًا عن رق كل نصيب، خالصًا لله وبالله، يمحو ما سوى الله».

وأما **جهادُ الشيطان**، فمرتبتان:

إحداهما: جهادُه على دفع ما يُلقي إلى العبد مِن الشبهات والشُّكوكِ القادحة في الإيمان.

الثانية: جِهادهُ على دفع ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهواتِ؛ فالجهادُ الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعدَه الصبر. قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]؛ فأخبر أن إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقينُ يدفع الشكوكَ والشبهات.

وأما **جهادُ الكفار والمنافقين**، فأربع مراتب: **بالقلب، واللِّسان، والمالِ، والنفسِ**، وجهادُ الكفار أخصُّ باليد، وجهادُ المنافقين أخصُّ باللسان.

وأما **جهادُ أرباب الظلم، والبدعِ، والمنكرات**، فثلاث مراتبَ:

الأولى: باليدِ إذا قَدَرَ، فإن عَجَزَ، انتقل إلى اللسان، فإن عَجَزَ، جاهد بقلبه، فهذِهِ ثلاثةَ عشرَ مرتبةً من الجهاد، و«**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ**»[1].

ولا يَتِمُّ الجِهادُ إلا بالهِجْرَةِ، ولا الهِجْرة والجهادُ إلا بالإيمَانِ، والرَّاجُونَ رحمة اللَّه هم الذين قاموا بِهذِهِ الثلاثة؛ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٠) في الإمارة: باب ذم من مات ولم يحدث نفسه بالغزو من حديث أبي هريرة، وأخرجه أبو داود (٢٥٠٢) في الجهاد: باب كراهية ترك الغزو، والنسائي (٣٠٩٩) في الجهاد: باب التشديد في ترك الجهاد.

هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وكما أن الإيمان فرضٌ على كل أحد، ففرضٌ عليهِ هِجرتان في كل وقت: هجرةٌ إلى اللهِ ﷻ بالتوحيدِ، والإخلاص، والإنابة، والتَّوكُّلِ، والخوفِ، والرَّجاءِ، والمحبةِ، والتوبةِ، وهِجرةُ إلى رسوله بالمُتابعة، والانقيادِ لأمره، والتَّصديقِ بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيرِهِ وخبره؛ «**فمن كانت هجرتُهُ إلى اللهِ ورسُولِهِ، فَهِجْرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، ومن كانت هِجْرتُهُ إلى دُنيا يُصيبها، أو امرأةٍ يتزوَّجُهَا، فَهِجْرته إلى ما هاجر إليه**».

وفرضَ عليه جهادَ نفسه في ذات الله، وجِهادَ شيطانه، فهذا كُلُّهُ فرضُ عينٍ لا ينوبُ فيه أحدٌ عن أحد.

وأما جِهَادُ الكُفار والمنافقين، فقد يُكتفى فيه ببعض الأمَّةِ إذا حَصَلَ منهم مقصود الجهاد». اهـ كلام الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ.

* * *



الفصل الثالث

الترغيب في الجهاد ذروة سنام الإسلام والترهيب من تركه في السنة المُطهرة

الترغيب في الجهاد ذروة سنام الإسلام والترهيب من تركه في السنة المُطهرة

هذه أحاديث نبوية عطرة نطق بها أطهر فم .. نطق بها الذي لا ينطق عن الهوى رسول اللَّه ﷺ يُرَغِّبُ في الجهاد، ويحث عليه، ويبين فضله وشرفه وَعِظَمَ قدره وكونه سنام الإسلام:

❑ المبايعة على الجهاد أبدًا:

(١) **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَيَنْقُلُونَ الْتُرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَيَقُولُونَ:**

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدا

وَالنَّبِيُّ ﷺ يُجِيبُهُمْ وَيَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَهْ فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»[1].

وعند البخاري أيضًا (٢٩٦١) (٣٧٩٦): «**كانت الأنصار يوم الخندق تقول:**

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما حيينا أبدا.

فأجابهم:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره فأكرم الأنصار المهاجره

- خرج النبي ﷺ في غداة باردة والمهاجرون والأنصار يحفرون الخندق، فقال: «**اللهم إن الخير خير الآخرة؛ فاغفر للأنصار والمهاجرة**» فأجابوا: «**نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا**»[2].

❑ الجهاد من أحب الأعمال إلى الله:

(٢) **وعن عبداللَّه بن مسعود ﷺ قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب**

---

(١) رواه البخاري «الفتح» (٦/ ٢٨٣٤، ٢٨٣٥) واللفظ له، ومسلم (١٨٠٥).

(٢) رواه البخاري (٧٢٠١).

إلى اللهﷻ؟ قال: الصلاة على وقتها. قال: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال: حدثني بهن ولو استزدتُهُ لزادني»[1].

(أخي!!) ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ.

نعم.. شأن عظيم أن تحب مولاك.. وأعظم منه أن يحبَّك المولى.. فاحرص على العمل الذي يوصلك إلى درجة المحبوبية؛ فهذا مطلب سادات العباد والربانيين وشرفهم وعزُّهم.

قال المناوي: «الجمع بين هذا وأخبار إطعام الطعام خير أعمال الإسلام، وأحب الأعمال إلى اللَّه أدومها، وغير ذلك أن المصطفى ﷺ كان يُجيب كُلًّا بما يُوافقه ويصلحه أو بحسب الوقت أو الحال، وقد تعارضت النصوص في تفضيل الصلاة على الصدقة، والذي عليه الجمهور أن الصلاة أفضل، لكن قد يعرض حال يقتضي مواساة مضطر فتكون الصدقة أفضل، وقسْ عليه. قال في المطامح: وَأَخَّرَ الجهاد مع أن فيه بذلَ النفس؛ لأن الصبر على أداء الصلاة أول وقتها وعلى ملازمة برِّهِما أمر متكرر دائم بدوام الأنفاس، ولا يصبر على مراقبة أمر اللَّه ـ تَعَالَى ـ فيه إلا الصديقون، أو لأن فضل الجهاد يكاد يكون بديهيًّا؛ إذ لا تنتظم العبادات والعادات إلا به، فلما استقل بمنزلته وعُرف بدرجته اهتم الشارع ببيان ما قد يخفى من شأن غيره تحقيقًا لمراتب الأعمال والعبادات وترغيبًا في الجد في الطاعات»[2].

(تنبيه!!) إن قيل: ما الحكمة في تعبيره بالأعمال دون الأفعال؟

قلنا: وجهه أن الفعل عامٌّ يُقال لِمَا كان بإجادة وغيرها، وما كان بعلم وغيره، وبقصد وغيره، ومن الإنسان وغيره؛ كالحيوان والجماد، والعمل لا يُقال إلَّا لِمَا كان

---

(١) رواه البخاري «الفتح» (٦/ ٢٧٨٢، ١٠/ ٥١٩٧٠)، ومسلم، وأحمد في «مسنده»، وأبو داود، والنسائي.

(٢) فيض القدير، للمناوي (١/ ١٦٥).

بإجادة تعلم وبقصد من الآدمي؛ كما ذكره الراغب، وقال بعضهم: العمل مقلوب عن العلم؛ فإن العلم فعل القلب، والعمل فعل الجارحة، وهو يبرز عن فعل القلب الذي هو العلم وينقلب منه»[1].

❑ **الجهاد من أفضل الأعمال:**

(٣) **وعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: سألتُ رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على ميقاتها»، قلتُ: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلتُ: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، فسكتُّ عن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني»[2].**

وللجمع بين الأحاديث التي تذكر أفضل الأعمال قال الحافظ في «**الفتح**» (٢/ ٩): «ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأحاديث بأنه أفضل الأعمال أن الجواب اختلف؛ لاختلاف أحوال السائلين بأن أَعْلَمَ كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم، أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات؛ بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره؛ فقد كان الجهاد عند ابتداء الإسلام أفضل من الصدقة، ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل، أو أن أفضل ليست على بابها؛ بل المراد بها الفضل المطلق، أو المراد من أفضل الأعمال؛ فحُذفت «**مِن**» وهي مرادة؛ قال ابن دقيق العيد: الأعمال في هذا الحديث محمولة على البدنية، وأراد بذلك الاحتراز عن الإيمان؛ لأنه من أعمال القلوب، فلا تعارض حينئذ بينه وبين حديث أبي هريرة: «**أفضل الأعمال إيمان بالله...**» الحديث.

وقال غيره: المراد بالجهاد هنا ما ليس بفرض عين؛ لأنه يتوقف على إذن

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٦٥).

(٢) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي.

الوالدين؛ فيكون برُّهما مقدمًا عليه. والله أعلم».

قال الحافظ في «**الفتح**» (٦/٧): «قال الطبري: إنما خصَّ ﷺ هذه الثلاثة بالذكر؛ لأنها عنوان على ما سواها من الطاعات؛ فإن مَن ضَيَّعَ الصلاة المفروضة حتى يخرج وقتها من غير عذر مع خفة مُؤنَتِهَا عليه وعظيم فضلها فهو لما سواها أَضْيَع، وَمنْ لم يبرَّ والديه مع وفور حقهما عليه كان لغيرهما أقلَّ برًّا، ومَن ترك جهاد الكفار مع شدة عداوتهم للدين كان لجهاد غيرهم من الفُسَّاق أترك؛ فظهر أن الثلاثة تجتمع في أنَّ من حافظ عليها كان لما سواها أحفظ، ومَن ضيعها كان لما سواها أضيْع».

وعند البخاري أيضًا: أن رجلًا سأل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الصلاة لوقتها، وبر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله**».

(٤) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال الصلاة لوقتها، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله»[١].

(٥) وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل العمل: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله»[٢].

(٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئِل: أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»[٣].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (١٤٨٩)، و«صحيح الجامع» رقم (١٠٩٥).

(٢) رواه البخاري واللفظ له «الفتح» (٥/٢٥١٨)، ومسلم (٨٤).

(٣) رواه البخاري واللفظ له «الفتح» (١/٢٦)، ومسلم (٨٣)، من حديث أبي هريرة، و(٨٤) من حديث أبي ذر، و(٨٥) من حديث ابن مسعود.

(٧) وقال رسـول اللَّه ﷺ: «أفضل الأعمال الإيمان باللَّه وحده، ثم الجهاد، ثم حجة برَّة تفضل سائر الأعمال كما بين مطلع الشمس إلى مغربها»(١).

(٨) وقال رسول اللَّه ﷺ: «أفضل الأعمال الإيمان باللَّه وحده، ثم الجهاد، ثم حجة مبرورة تفضل سائر الأعمال؛ كما بين مطلع الشمس إلى مغربها»(٢).

(٩) وقال ﷺ: «أفضل العمل: الصلاة لوقتها، والجهاد في سبيل الله»(٣).

(١٠) وقال رسول اللَّه ﷺ: «أفضل العمل: إيمان بالله، وجهاد في سبيل الله»(٤).

قال المناوي في «**فيض القدير**» (٢٧/١): «قال النووي: وذكر هنا الحج بعد الإيمان، وفي خبر آخر بدل الحج العتق، وفي آخر بدأ بالصلاة فالبر فالجهاد، وفي آخر السلامة من نحو يد ولسان، واختلاف الأجوبة باختلاف الأحوال والأشخاص كما تقدم. وقدَّم الجهاد وليس بركن على الحج وهو ركن؛ لقصور نفع الحج غالبًا، وتعدي نفع الجهاد أو كان حيث كان الجهاد فرض عين وكان أهم منه حَالَتَئِذٍ» اهـ.

قال العلامة ابن رجب الحنبليُّ في كتابه «**لطائف المعارف**»: «الإيمان باللَّه ورسوله وظيفة القلب واللسان، ثم يتبعهما عمل الجوارح، وأفضلها الجهاد في

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن ماعز، وَصَحَّحَهُ المناوي في «فيض القدير» (٢٧/١)، وأشار السيوطي إلى تحسينه، وَصَحَّحَهُ الألباني في «تخريج الترغيب» (١٠٧/٢)، و«صحيح الجامع» رقم (١٠٩١).

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، وأحمد في «مسنده»، وَصَحَّحَهُ.

(٣) **صحيح**: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (١٤٨٩)، و«صحيح الجامع» رقم (١١٢٣).

(٤) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه» عن أبي ذر، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (١٤٩٠)، و«صحيح الجامع» رقم (١١٢٤).

سبيل الله، وهو نوعان:

أفضلهما: جهاد المؤمن لعدوه الكافر، وقتاله في سبيل الله.

والثاني من الجهاد: جهاد النفس في طاعة الله؛ كما قال النبي ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في الله**».

وقال بعض الصحابة لمن سأله عن الغزو: ابدأ بنفسك فاغزها، وابدأ بنفسك فَجَاهِدْهَا، وأعظم مجاهدة النفس على طاعة اللَّه عمارة بيوته بالذكر والطاعة.

والنوع الأول من الجهاد أفضل من هذا الثاني؛ قال اللَّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩، ٢٠].

(١١) **وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير** رضي الله عنه **قال: «كنت عند منبر رسول اللَّه** ﷺ **فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملًا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل اللَّه أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول اللَّه** ﷺ **ـ وهو يوم الجمعة ـ، ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلتُ فاستفتيتُهُ فيما اختلفتم فيه؛ فأنزل اللَّه** عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] **إلى آخرها**»[(١)].

فهذا الحديث الذي ذكر فيه سبب نزول هذه الآية يبين أن المراد أفضل ما يُتَقَرَّبُ به إلى اللَّه ـ تَعَالَى ـ من أعمال النوافل «**الجهاد**»، وإن الآية تدل على أن أفضل ذلك الجهاد مع الإيمان؛ فَدَلَّ على أن التطوع بالجهاد أفضل من التطوع بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، وعلى مثل هذا يُحمل حديث

---

(١) صحيح مسلم (١٨٧٩).

أبي هـريرة رضي الله عنه، وأن الجهاد أفضل من الحج المتطوع به؛ فإن فرض الحج تأخر عند كثير من العلماء إلى السنة التاسعة، ولعل النبي ﷺ قال هذا الكلام قبل أن يُفْرَضَ الجهاد بالكلية؛ فكان حينئذ تطوعًا.

وقد قيل: إن الجهاد كان في أول الإسلام فرضَ عينٍ؛ فلا إشكال في هذا على تقديمه على الحج قبل افتراضه، فأما بعد أن صار الجهاد فرض كفاية، والحج فرض عين؛ فإن الحج المفترض حينئذ يكون أفضل من الجهاد.

قال عبدالله بن عمرو بن العاص: حجة قبل الغزو أفضل من عشر غزوات، وغزوة بعد حجة أفضل من عشر حجات.

وقد يكون المراد بحديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن جنس الجهاد أشرف من جنس الحج، فإن عُرض للحج وصف يمتاز به عن الجهاد وهو كونه فرض عين صار الحج المخصوص أفضل من الجهاد، وإلا فالجهاد أفضل، والله أعلم».

وقال عمر رضي الله عنه: شدوا الرحال في الحج؛ فإنه أحد الجِهَادَيْنِ[(١)].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إنما هو سرج ورحل؛ فالسرج في سبيل الله، والرحل الحج[(٢)].

قال المناوي: «الجهاد تحملُ الآلام بالبدن والمال وبذل الأرواح، والحج تحمل الآلام بالبدن وبعض المال دون الروح؛ فهو جهاد أضعف من الجهاد في سبيل الله، فمن ضعف عن الجهاد لعذر، فالحج له جهاد»[(٣)].

(١٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله لا يُخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته بأن يدخله الجنة أو يُرجعه إلى

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الحج ـ باب الحج على الرجال (٣/٤٤٤، ٤٤٥) ذكره البخاري تعليقًا، وَوَصَلَهُ عبدالرزاق وسعيد بن منصور.

(٢) خَرَّجَهُ الإمام أحمد في «مناسكه».

(٣) فيض القدير (٣/٤٠٧).

مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة»(١).

● وعنه رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**تكفل اللَّه لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهادُ في سبيله وتصديق كلمته أن يُدخله الجنة أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة**»(٢).

قال الحافظ في «**الفتح**» (١٣/٤٥١): «وتصديق كلماته»: أي الواردة في القرآن بالحث على الجهاد وما وعد فيه من الثواب.

(١٣) **قال مجاشع: «أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلتُ: يا رسول الله، جئتك بأخي؛ لتبايعه على الهجرة. قال: «ذهب أهل الهجرة بما فيها». فقلتُ: على أي شيء تبايعه؟ قال: «أبايعُهُ على الإسلام والإيمان والجهاد»، فلقيت معبدًا بعد ـ وكان أكبرهما ـ فسألته فقال: صدق مجاشع»(٣).**

(١٤) **وعن مجاشع بن مسعود: «انطلقت بأبي معبد إلى النبي ﷺ؛ ليبايعه على الهجرة، قال: «مضت الهجرة لأهلها، أبايعه على الإسلام والجهاد»، فلقيت أبا معبد فسألته فقال: «صدق مجاشع»(٤).**

(١٥) **وقال مجاشع بن مسعود السلمي: أتيت النبي ﷺ أُبايعه على الهجرة؛ فقال: «إن الهجرة قد مضت لأهلها، ولكن على الإسلام والجهاد والخير»(٥).**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [٧٤٥٧]، ومسلم، والنسائي.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ [٧٤٦٣].

(٣) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب المغازي (٤٣٠٥).

(٤) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب المغازي (٤٣٠٧).

(٥) رواه مسلم في «صحيحه» (١٨٦٣)، كتاب الإمارة ـ باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير.

(١٦) وقال مجاشع بن مسعود السلمي: «جئت بأخي أبي معبد إلى رسول الله ﷺ بعد الفتح فقلتُ: يا رسول الله بايعْهُ على الهجرة؛ قال: «قد مضت الهجرة بأهلها»؛ قلتُ: فبأي شيء تبايعه؟ قال: «على الإسلام، والجهاد، والخير»، قال أبو عثمان: فلقيت أبا معبد فأخبرته بقول مجاشع؛ فقال: صدق»[١].

❑ تمني النبي ﷺ للغزو والشهادة في سبيل الله.. وأي شرف فوق ما تمناه النبي ﷺ:

(١٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَضَمَّنَ الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجه إلا جهادًا في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا بِرُسُلِي، فهو عليَّ ضامن أن أُدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده ما مِنْ كَلْمٍ يُكْلمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِمَ، لونه لون دم وريحه مِسْك، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدتُ خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فَأُقْتَلُ، ثم أغزو فَأُقْتَلُ، ثم أغزو فَأُقْتَلُ»[٢].

❑ الجهاد باب من أبواب الجنة:

(١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دُعِيَ من أبواب ـ يعني الجنة ـ: «يا

---

(١) المصدر السابق (١٨٦٤).
قال النووي في «شرح مسلم» (٥٢٨/٤): قوله: «إن الهجرة قد مضت لأهلها» معناه: أن الهجرة الممدوحة الفاضلة التي لأصحابها المزية الظاهرة فإنما كانت قبل الفتح، ولكن أبايعك على الإسلام والجهاد وسائر أفعال الخير، وهو من باب ذكر العام بعد الخاص، فإن الخير أعمُّ من الجهاد، ومعناه: أبايعك على أن تفعل هذه الأمور.
(٢) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ـ تَعَالَى ـ (١٨٧٦).

عبداللّه هذا خيرٌ»؛ فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعِيَ من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعِيَ من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الصيام وباب الريان. فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يُدْعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: هل يُدْعَى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر»[1].

(١٩) عن سهل بن سعد الساعدي: أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، فأقبلت حتى جلستُ إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول اللّه ﷺ أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُمِلُّها عليَّ قال: يا رسول الله، واللّه لو أستطيع الجهاد لجاهدت ـ وكان أعمى ـ؛ فأنزل اللّه على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي؛ فثقلت عليَّ حتى خفتُ أن تُرضَّ[2] فخذي، ثم سُرِّي عنه؛ فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾»[3].

قال الحافظ في «الفتح» (٨/١١١): «استثنت أولي الضرر من عدم الاستواء؛ فأفهمت إدخالهم في الاستواء؛ إذ لا واسطة بين الاستواء وعدمه؛ لأن المراد منه استواؤهم في أصل الثواب لا في المضاعفة؛ لأنها تتعلق بالفعل».

(٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: دُلَّني على عمل يعدل الجهاد. قال: «لا أجده». قال: «هل تستطيعُ إذا خرج المجاهد أن

---

(١) رواه البخاري واللفظ له (٣٦٦٦)، ومسلم، والترمذي، والنسائي.
قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٤/١١٢): والمراد بالزوجين إنفاق أي صنف من أصناف المال من نوع واحد.

(٢) أي: تدقها. وَسُرِّيَ؛ أي: كشف.

(٣) رواه البخاري «الفتح» (٦) (٢٨٣٢)، كتاب التفسير، باب ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصومَ ولا تُفطر؟» قال: ومن يستطيع ذلك؟ قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد ليَسْتَنُّ[1] في طِوَلِهِ[2]؛ فيُكتب له حسنات»[3].

قال الحافظ في «**الفتح**» (٦/٧، ٨): «وهذه فضيلة ظاهرة للمجاهد في سبيل اللَّه تقتضي أن لا يعدل الجهادَ شيءٌ من الأعمال... قال عياض: اشتمل حديث الباب على تعظيم أمر الجهاد؛ لأن الصيام وغيره مما ذُكِرَ في فضائل الأعمال قد عدلها كلها الجهادُ حتى صارت جميع حالات المجاهد وتصرفاته المباحة معادلة لأجر المواظب على الصلاة وغيرها؛ ولهذا قال ﷺ «**لا تستطيع ذلك**»... واستدل به على أن الجهاد أفضل الأعمال مطلقًا.

وقال ابن دقيق العيد: القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل؛ لأن الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره وإخماد الكفر ودحضه؛ ففضيلته بحسب فضيلة ذلك، واللَّه أعلم» اهـ.

❑ المجاهد في سبيل اللَّه كالصائم القانت:

(٢١) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قيل للنبي ﷺ: ما يعدل الجهادَ في سبيل اللَّه ﷻ ؟ قال: «لا تستطيعونه»، قال :فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه»، وقال في الثالثة: «مَثَلُ المجاهد في سبيل الله؛ كمثل الصائم القائم القانت بآيات اللَّه لا يفترُ من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل اللَّه ـ تَعَالَى»[4].

---

(١) استن الفرس يستن استنانًا؛ أي: عدا لمرحه ونشاطه شوطًا أو شوطين، ولا راكب على ظهره.

(٢) الطول والطيل ـ بالكسر ـ: الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره، والآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير (٢٧٨٥)، ومسلم، والنسائي.

(٤) رواه مسلم في «صحيحه»، كتاب الإمارة ـ باب فضل الشهادة في سبيل الله ـ تَعَالَى.

قال النووي في «**شرحه لمسلم**» (٤/٥٤٤): «معنى القانت هنا المطيع».

وفي هذا الحديث: عظيم فضل الجهاد؛ لأن الصلاة والصيام والقيام بآيات اللَّه أفضل الأعمال، وقد جعل المجاهد مثل من لا يفتر عن ذلك لحظة من اللحظات، ومعلوم أن هذا لا يتأتى لأحد؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا تستطيعونه**».. واللَّه أعلم».

(٢٢) وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول اللَّه ﷺ من غزوة تبوك، فلما رأيته خَلِيًّا قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة قال: «بخ...» فذكر الحديث، وفيه: «ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذُروة سنامه؟ أما رأس الأمر فالإسلام؛ فمن أسلم سلم، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد»[1].

(٢٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول اللَّه ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل اللَّه ـ واللَّه أعلم بمن يجاهد في سبيله ـ؛ كمثل الصائم، القائم، الخاشع، الراكع، الساجد»[2].

(٢٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل اللَّه ـ واللَّه أعلم بمن يجاهد في سبيله ـ كمثل الصائم القائم الدائم، الذي لا يفتر من صيام ولا صدقة حتى يرجع، وتوكل اللَّه ـ تَعَالَى ـ للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالِمًا مع أجر أو غنيمة»[3].

(٢٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «انتدب اللَّه لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي، أن أُرجعه بما نال من أجر أو

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد وابن ماجه والترمذي.

(٢) **صحيح**: رواه النسائي عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «تخريج الترغيب» (٢/١٧٩)، و«صحيح الجامع» رقم (٥٨٥٠).

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، وَلَوَدِدْتُ أني أُقْتَلُ في سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقْتَلُ ثم أحيا، ثم أُقْتَلُ ثم أحيا»(١).

❑ **الجهاد ذروة سنام الإسلام:**

(٢٦) **وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، فلما رأيته خَلِيًّا، قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة قال: بخ!! لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه؛ تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتُؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ألا أدلك على أبواب الخير؟! الصوم جُنَّة، والصدقة تُطفئ الخطيئة؛ كما يطفئ الماءُ النارَ، وصلاة الرجل في جوف الليل. ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام؛ من أسلم سلم، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد. ألا أخبرك بملاك(٢) ذلك كله؟ كُفَّ عليك هذا - وأشار إلى لسانة - قال: يا نبي الله، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك(٣) أمك يا معاذ!! وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»(٤).**

- وزاد البيهقي والطبراني: «**إنك لن تزال سالمًا ما سكتَّ، فإذا تكلمتَّ كُتِب لك أو عليك**».
- وعند الترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبرك برأس الأمر كله وذِروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: رأس الأمر الإسلام،**

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي عن أبي هريرة.

(٢) خلاصته.

(٣) فقدتك، وهي كلمة تجري على ألسنة العرب دون قصد الدعاء.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، والترمذي، والحاكم في «المستدرك»، وابن ماجه، والبيهقي في «الشعب»، والطبراني في «الكبير» عن معاذ، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥١٣٦)، و«الإرواء» (٤١٣)، وتخريج إيمان ابن أبي شيبة (١، ٢).

وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

❑ الجنة تحت ظلال السيوف:

(٢٧) **عن عبدالله بن أبي أوفى - رضي الله عنهما -: أن رسول الله ﷺ قال: «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»**(١).

(٢٨) **عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»، فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى، آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟! قال: نعم. قال: فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام. ثم كسر جَفْنَ سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو؛ فضرب به حتى قُتِلَ»**(٢).

«يعني أن ظلال السيوف والضرب بها في سبيل الله سبب للفوز بظلال بساتين الجنة ونعيمها؛ لما أنه سبب موصل إليها ذكره بعضهم. وفي النهاية: هو كناية عن الدنو من الضرب في الجهاد حتى يعلوه السيف ويصير ظله عليه. وقال الطيبي معناه: ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيف في سبيل الله؛ فأحضروا الجهاد بصدق النية واثبتوا، وإنما هي عن لقاء العدو؛ لما فيه من صورة الإعجاب والاتكال على النفس والوثوق بالقوة»(٣).

وعن عمار بن ياسر بسند صحيح أنه قال: «**الجنة تحت البارقة**»؛ أي: السيوف اللامعة.

---

(١) رواه البخاري (٢٨١٨)، ومسلم وأبو داود.

(٢) رواه أحمد ومسلم في المغازي، وأبو داود في الجهاد، والترمذي، ورواه الحاكم في «المستدرك» عن أبي موسى، وقال: صحيح على شرط مسلم. وأقره الذهبي، وظاهر كلام الحاكم أن هذا مما لم يخرجه الشيخان ولا أحدهما، وهو ذهول.
وفي رواية للبخاري: «بارقة السيوف».

(٣) فيض القدير (٣/٣٦٢).

❑ الجهاد سياحة هذه الأمة؛ كالصوم:

(٢٩) عن أبي أمامة ﷺ قال: «قال رجل: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة. فقال ﷺ: إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»[١].

قال المناوي: «إن سياحة أمتي ليست هي مفارقة الوطن، وهجر المألوفات، وترك اللذة والجمعة والجماعات، والذهاب في الأرض، والانقطاع عن النساء، وترك النكاح للتخلي للعبادة؛ بل هي الجهاد في سبيل الله؛ أي: قتال الكفار؛ بقصد إعلاء كلمة الجبار».

❑ الجهاد رهبانية الإسلام:

(٣٠) وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوصيك بتقوى اللَّه ـ تَعَالَى ـ؛ فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد؛ فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر اللَّه ـ تَعَالَى ـ وتلاوة القرآن؛ فإنه رَوْحك[٢] **في السماء وذكرك في الأرض»**[٣].

«أي الزم الجهاد؛ فإنه رهبانية الإسلام؛ أي أن الرهبان وإن تخلوا عن الدنيا وزهدوا فيها، فلا تخلّي وزهد أفضل من بذل النفس في سبيل الله؛ فكما أن الرهبانية أفضل عمل أولئك، فإن الجهاد أفضل عملنا»[٤].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، والحاكم، وقال: صحيح. وأقره الذهبي، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان»، وقال النووي في «رياضه» ثم العراقي: إسناده جيد. وَصَحَّحَهُ السيوطي، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٠٩٣)، و«تخريج المشكاة» (٧٢٤)، ورواه ابن عساكر وابن المبارك عن سعد بن مسود الكندي.

(٢) رَوْحك ـ بفتح الراء ـ: راحتك.

(٣) رواه أحمد في «مسنده»، وقال الهيثمي: رجاله ثقات. وَحَسَّنَهُ السيوطي، وحَسَّنَهُ الألباني في السلسة «الصحيحة» رقم (٥٥٥)، و«الروض النضير» (٣٧٢/٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٥٤٣).

(٤) «فيض القدير» (٧٥/٣).

(٣١) عن سبرة بن أبي فاكة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بِأَطْرُقِهِ[١]، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تُسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ فعصاه؛ فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك ـ إنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل!![٢] ـ؟ فعصاه؛ فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد ـ فهو جَهْدُ[٣] النفس والمال ـ فتُقَاتِل؛ فتُقْتَلُ فتُنْكَحُ المرأةُ وَيُقَسَّمُ المالُ، فعصاه؛ فجاهد؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: فمن فعل ذلك كان حقًّا على اللَّه ﷻ أن يدخله الجنة، ومن قُتِلَ كان حقًّا على اللَّه ﷻ أن يُدخله الجنة، وإن غَرِقَ كان حقًّا على اللَّه أن يُدخله الجنة، وإن وَقَصَتْهُ دابته كان حقًّا على اللَّه ﷻ أن يدخله الجنة»[٤].

❑ المجاهد في سبيل اللَّه أفضل من الذي يعتزل الناس:

(٣٢) عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «قيل: يا رسول الله، أي الناس أفضل؟ قال رسول اللَّه ﷺ: مؤمن يجاهد في سبيل اللَّه بنفسه وماله. قالوا: ثُمَّ مَن؟ قال: مؤمن في شِعْب[٥] من الشعاب يتقي اللَّه ويدع الناس من شره»[٦].

---

(١) أطرقه: جميع طريق.
(٢) الطِّوَل ـ هو بكسر الطاء وفتح الواو ـ: وهو الحبل الطويل الذي يُشَدُّ أحد طرفيه في وتد غيره. قال السندي في قوله «وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل: «هذا من كلام الشيطان، ومقصوده أن المهاجر يصير كالمقيد في بلاد الغربة، لا يدور إلا في بيته ولا يخالط إلا بعض معارفه، فهو كالفرس في طول لا يدري ولا يرعى إلَّا بقدره، بخلاف أهل البلاد في بلادهم، فإنهم مبسطون لا ضيق عليهم فأحدهم كالفرس المرسل.
(٣) أي: إضاعة المال.
(٤) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «تخريج الترغيب» (١٧٣/٢)، و«صحيح الجامع» رقم (١٦٥٢).
(٥) شعب: انفراج بين الجبلين.
(٦) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه.

قال الحافظ في «**الفتح**» (٦/٦): «وكأن المراد بالمؤمن مَن قام بما يتعين عليه القيام به، ثم حَصَّلَ هذه الفضيلة، وليس المراد مَن اقتصر على الجهاد وأهمل الواجبات العينية؛ وحينئذ فيظهر فضل المجاهد؛ لما فيه من بذل نفسه وماله لله ـ تَعَالَى ـ، ولما فيه من النفع المتعدي، وإنما كان المؤمن المعتزل يتلوه في الفضيلة؛ لأن الذي يخالط الناس لا يسلم من ارتكاب الآثام؛ فقد لا يفي هذا بهذا، وهو مقيد بوقوع الفتن».

(٣٣) وعن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألا أخبركم بخير الناس منزلة؟ رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل اللَّه حتى يموت أو يُقْتَل. ألا أخبركم بالذي يتلوه؟ رجل معتزل في شعب، يقيم الصلاة، ويُؤتي الزكاة، ويعتزل شرور الناس. ألا أخبركم بشر الناس؟ رجل يُسأل باللَّه ولا يُعطي»[١].

(٣٤) وعن أبي هريرة مرفوعًا: «يأتي على الناس زمان يكون خير الناس فيه منزلة مَن أخذ بعنان فرسه في سبيل اللَّه يطلب الموت في مَظَانِّهِ، ورجل في شِعْب من هذه الشِّعاب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويدع الناس إلَّا من خير»[٢].

(٣٥) وعن أبي هريرة ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «مِنْ خير معاش[٣] الناس لهم: رجلٌ ممسك عِنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه كلما سمع هَيْعَةً أو فَزْعَةً، طار عليه يبتغي القتل والموت مَظَانَّهُ[٤]، أو رجل في غنيمة في رأس شَعَفَةٍ

---

(١) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٢٥٥)، و«تخريج الترغيب» (٢/١٧٣)، و«المشكاة» (١٨٨١)، (١٩١٤).

(٢) أخرجه مسلم وابن حبان.

(٣) قال النووي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ (٥/١/٣٥): المعاش هو العيش، وهو الحياة، وتقديره ـ والله أعلم ـ من خير أحوال عيشهم رجل ممسك.

(٤) وقال ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: قوله ﷺ: «يطير على متنه كلما سمع هيعةً أو فزعةً طار على متنه يبتغي القتل والموت مظانه» معناه: يُسارع على ظهره ـ وهو متنه ـ، كلما سمع هيعةً وهي الصوت عند حضور العدو. =

من هذه الشَّعَف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلَّا في خير»[١].

(٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تَعِس[٢] عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة؛ إن أُعْطِيَ رَضِيَ، وإنْ لم يُعط سَخِطَ، تعس وانتكس[٣]، وإذا شيكَ فلا انْتَقَشَ[٤]، طوبى لعبد آخذٍ بعنان فرسه في سبيل اللَّه أشعث رأسُهُ مُغْبَرَّةٍ قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة[٥]، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يُؤْذن له، وإن شفع لم يُشَفَّع»[٦].

(٣٧) عن فضالة بن عُبَيْد رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «أنا زعيم - والزعيم الحميل[٧] - لمن آمن بي وأسلم وهاجر ببيت في ربض[٨] الجنة - وببيت في وسط الجنة، وأنا زعيم لمن آمن بي وأسلم وجاهد في سبيل اللَّه ببيت في ربض

= ومعنى يبتغي القتل مظانه: يطلبه في مواطنه التي يرجى فيها لشدة رغبته في الشهادة. غُنيمة: تصغير غنم. والشعْفة: أعلى الجبل، وفي هذا الحديث فضيلة الجهاد والرباط والحرص على الشهادة.

(١) رواه مسلم وابن ماجه.

(٢) تَعِسَ أو تَعَسَ؛ أي: شقي، وقيل: التعس: الكب على الوجه، والنكس: أن يَخِرَّ على رأسه، قال الخليل: التعس: أن يعثر فلا يفيق من عثرته. وقيل: التعس: الشر والبعد والهلاك.

(٣) وانتكس؛ أي: عاوده المرض.

(٤) وإذا شيك فلا انتقش؛ أي: إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها بالمنقاش.

(٥) قال ابن الجوزي: المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو، فإن اتفق له السير سار، فكأنه قال: إن كان في الحراسة استمر فيها وإن كان في الساقة استمر فيها.

(٦) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٧)، ورواه ابن ماجه.

(٧) قال السندي: الحميل: الكفيل، والظاهر أن تفسير الزعيم مدرج من بعض الرواة، وقال السيوطي: ويشبه أن يكون قوله: «والزعيم الحميل» من قول ابن وهب - أحد الرواة -، أدرج في الخبر.

(٨) قال السيوطي: قال في «النهاية»: «ربض» - بفتح الباء -: ما حولها خارجًا عنها تشبيهها بالأبنية التي تكون حول المدن.

الجنة، وببيت في وسط الجنة، وببيت في أعلى غُرَفِ الجنة، مَن فعل ذلك فلم يدع للخير مطلبًا[١] ولا من الشر مهربًا[٢]، يموت حيث شاء يموت»[٣].

❑ في الجنة مئة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيله:

(٣٨) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «مَن آمن باللَّه وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقًّا على اللَّه أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل اللَّه أو جلس في أرضه التي وُلد فيها. فقالوا: يا رسول الله، أفلا نُبَشِّرُ الناس؟ قال: إن في الجنة مئة درجة أعدها اللَّه للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين؛ كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللَّه فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط[٤] الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال: وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة»[٥].

قال الحافظ ابن حجر في «**الفتح**» (٦/١٦، ١٧): «في الحديث فضيلة ظاهرة للمجاهدين، وفيه عِظَمُ الجنة وَعِظَمُ الفردوس منها، وفيه إشارة إلى أن درجة المجاهد قد ينالها غير المجاهد؛ إما بالنية الخالصة أو بما يوازيه من الأعمال الصالحة؛ لأنه ﷺ أمر الجميع بالدعاء بالفردوس بعد أن علمهم أنه أعد للمجاهدين».

(**تنبيه!!**) زعم بعض شُرَّاحِ المصابيح أن النبي ﷺ سوى بين الجهاد في سبيل اللَّه وبين عدمه وهو الجلوس في الأرض التي وُلِدَ المرء فيها، وليست التسوية على

---

(١) قال السندي: أي محل طلب؛ أي: ما من مكان يُطلب منه الخير إلا حضر، وطلب فيه الخير وأخذ منه حظه.

(٢) أي: ما من مكان يُهرب إليه من الشر ويُلجأ إليه ويُعتصم به للخلاص منه إلا هرب إليه.

(٣) **صحيح**: رواه النسائي، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرك»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (٢/١٧٣)، و«صحيح الجامع» (١٤٦٥).

(٤) قال الحافظ: المراد بـ«الأوسط» هنا: الأعدل والأفضل؛ كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

(٥) رواه البخاري في كتاب «الجهاد والسير» باب «درجات المجاهدين في سبيل الله » حديث رقم ٢٧٩٠.

عمومها؛ وإنما في أصل دخول الجنة لا في تفاوت الدرجات، وليس في هذا السياق ما ينفي أن يكون في الجنة درجات أخرى أعدت لغير المجاهدين دون درجة المجاهدين.

❑ المجاهدون في ضمان اللَّه وعونه وحمايته:

(٣٩) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ثلاثة كلهم ضامن على الله: رجل خرج غازيًا في سبيل اللَّه فهو ضامن على اللَّه حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر أو غنيمة، ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على اللَّه حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر، ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله»(١).

قال المناوي: «**ثلاثة كلهم ضامن**»؛ أي: مضمون على حد ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: مرضية، أو ذو ضمان؛ كالقاسط فهو من باب النسب ذكره البيضاوي، وساق نحوه النووي في «**الأذكار**»؛ فقال: معنى ضامن صاحب الضمان، والضمان الرعاية للشيء؛ كما يُقَالُ: تَامِرٌ وَلَابِنٌ؛ أي: صاحب تمر ولبن.

«**رجل خرج غازيًا في سبيل الله**»؛ أي: لإعلاء كلمة اللَّه «**فهو ضامن على الله**» الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ولا يزال مضمونًا عليه «**حتى يتوفاه**» اللَّه «**فيدخله الجنة**» برحمته «**أو يرده بما نَالَ من أجر أو غنيمة**» «**ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على اللَّه حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر أو غنيمة، ورجل دخل بيته بسلام**»؛ أي: لازم بيته؛ إيثارًا للعزلة وطلبًا للسلامة من الفتنة، أو المراد أنه إذا دخل سلم على أهله؛ ائتمارًا بقوله - سبحانه -: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، قال الطيبي:

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود في «سننه»، كتاب الجهاد ولم يضعفه، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه»، كتاب البيوع، وَصَحَّحَهُ وأقره الذهبي، وَصَحَّحَهُ السيوطي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٩)، «تخريج المشكاة» (٧٢٧)، و«صحيح الجامع» (٣٠٥٣).

والأول أوجه وبملاءمة ما قبله أوفق؛ لأن المجاهدة في سبيل اللَّه سفر، والرواح إلى المسجد حضر، ولزوم البيت اتقاءً من الفتن أخذ بعضها بحجزة بعض «**فهو ضامن على الله**» قال النووي ﵁ في «**الأذكار**»: معناه أنه في رعايته وما أجزل هذه العطية. وقال الطيبي: عَدَّى «**ضامن**» بـ«**على**» تضمينًا لمعنى الوجوب والمحافظة على سبيل الوعد؛ أي: يجب على اللَّه وعدًا أن يكلأه من مضار الدنيا والدين، ولم يذكر الشيء المضمون به في الثالث؛ اكتفاء بما قبله»[1].

(٤٠) **وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ثلاثة في ضمان اللَّه ﷻ: رجل خرج إلى مسجد من مساجد الله، ورجل خرج غازيًا في سبيل الله، ورجل خرج حاجًّا»**[2].

«في ضمان الله»؛ أي: في حفظه وكلاءته ورعايته.

(٤١) **عن معاذ ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «خمسٌ من فعل واحدة منهن كان ضامنًا على الله: مَن عاد مريضًا، أو خرج غازيًا، أو دخل على إمامه يريد تعزيره وتوقيره، أو قعد في بيته فسلم الناس منه وسلم من الناس»**[3].

(٤٢) **عن أنس ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يقول اللَّه ـ تَعَالَى ـ: المجاهد في سبيلي هو عليَّ ضامن؛ إن قبضته أورثته الجنة، وإن رجعته رجعته بأجر أو غنيمة»**[4].

---

(١) «فيض القدير» (٣/٣١٩، ٣٢٠).

(٢) **صحيح**: رواه أبو نعيم في «الحلية»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (٥٩٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٠٥١).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، والطبراني في «الكبير». قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة وفيه مقال مشهور، وبقية رجاله ثقات. وَصَحَّحَهُ السيوطي، والألباني في «الترغيب» (٢/١٦٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٢٥٣).

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي في «سننه»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الترغيب» (٢/١٧٨)، و«صحيح الجامع» (٨١٣٥).

﴿٤٣﴾ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله ـ تَعَالَى ـ عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتَب[1] الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»[2].

قال المناوي: «إنما آثر هذه الصيغة إيذانًا بأن هذه الثلاثة من الأمور الشاقة التي تكدح الإنسان وتقصم ظهره لولا أن يُعان عليها.

فإذا رأيتَ واحدًا من هؤلاء فأعنه بمال أو قال أو حال؛ فإنك إذا أعنتهم فأنت نائب الحق في عونهم؛ فإنه إذا كان عون هؤلاء حقًّا على الله، فمن أعانهم فقد أدَّى عن اللَّه ما أوجبه على نفسه؛ فيتولى اللَّه كرامته بنفسه، فما دام المجاهد مجاهدًا بما أعنته عليه؛ فأنت شريكه في الأجر ولا ينقصه شيء، وإذا وُلِدَ للناكح ولدٌ صالح كان لك في ولده وعقبه أجر، وأقر به عين محمد ﷺ يوم القيامة».

❑ الجهاد باب من أبواب الجنة يُذْهِبُ اللَّه به الهم والغم:

﴿٤٤﴾ عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «عليكم بالجهاد في سبيل الله؛ فإنه باب من أبواب الجنة، يُذْهِبُ اللَّه به الهم والغم»[3].

وما أكثر الهموم والغموم والأحزان، ودم المسلم أرخص الدماء في كل شبر ومكان!!

قالوا سهرتَ وفي فؤادِك حرقة ... تَـدْمَـى وألـفُ تـسـاؤلٍ يـتـردَّدُ
وعلى جبينك قصَّةٌ مكلومَةٌ ... تروي المآسي للجميع وتَسردُ

(١) المكاتَب: العبد الذي كاتبه سيده على نجوم إذا أدَّاها عُتِق.

(٢) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي في الجهاد، وابن ماجه في الأحكام، والحاكم في النكاح، وقال: على شرط مسلم. وقال الترمذي: حسن. وحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٠٥٠).

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط» عن أبي أمامة، ورواه أحمد في «مسنده»، والحاكم في «المستدرك»، والهيثم، وابن بشران، والضياء في «المختارة» عن عبادة، قال الحاكم: صحيح. وأقرَّهُ الذهبي.
قال الهيثمي: فيه عمرو بن الحصين متروك، وعمرو هذا قال الطبراني تفرَّد به. والحديث ضعفه السيوطي، وَصَحَّحَهُ الألباني في السلسة «الصحيحة» رقم (١٩٤١)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٠٦٣).

ودموعك المَلْأَى بألف حكايةٍ رسمتْ على خَدَّيْك نارًا تُوقدُ
أنا يا صحابُ قضيَّةٌ مسلوبةٌ لَعِبَ الدَّعِيُّ بها وغاب السيِّدُ
أنا يا صحابُ مشاعرٌ موتورةٌ للثأر تسعى والمسالِكُ تُوصَدُ
أنا يا صحابُ مدامعٌ محمومةٌ تَهْمَى من الألم المميت فتبردُ
أنا يا صحابُ من الجراح معذَّبٌ في كل أرض جُرْحنا يتمدَّدُ
في كل أرض تُستباحُ دماؤُنا في كل أرضٍ يُستباحُ المسجدُ
هل هذه كشمير ضاع نحيبُهَا بين اللظى وبها الكلاب استأسدوا
أم هذه حلب ظلامٌ مُوحشٌ صمت يقطعه الأنين الأسودُ
أم هذه القدس الجريحة تشتكي مما يخططه القريبُ الأنجدُ
أم هذه أفغانُ تلعق جرحها وتبيت تبحث عن صديق يُنْجِدُ
وأبيت تلحقني معرَّة ذلتي وبكاءُ أحبابي هناك استنجدوا

❑ **الروحة والغدوة في سبيل اللَّه خير من الدنيا وما فيها، وخير مما طلعت عليه وغربت:**

(٤٥) عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الروحة والغدوة في سبيل اللَّه أفضل من الدنيا وما فيها»[١].

(٤٦) وقال رسول اللَّه ﷺ: «غدوة في سبيل اللَّه أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[٢].

(٤٧) وعن أبي أيوب ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «غدوة في سبيل اللَّه أو روْحة خير مما طلعت عليه الشمس وغربت»[٣].

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب الغدوة والروحة في سبيل الله (٢٧٩٤)، ومسلم، والنسائي.
(٢) رواه أحمد، والبخاري ومسلم عن أنس، والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن سهل بن سعد، ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة، والترمذي عن ابن عباس.
(٣) رواه أحمد، ومسلم، والنسائي.

٤٨ **وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لَقَابُ قوسٍ في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب». وقال: «لغدوة أو روْحة في سبيل اللَّه خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب»**[١].

الغَدْوة ـ بالفتح ـ: المرة الواحدة من الغدو؛ وهو: الخروج في أي وقت كان من أول النهار إلى انتصافه.

والروحة: المرة الواحدة من الرواح؛ وهو: الخروج في أي وقت كان من زوال الشمس إلى غروبها.

«**في سبيل الله**»؛ أي: الجهاد.

«**خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب**» هو المراد بقوله «خير من الدنيا وما فيها».

قال ابن حجر في «**الفتح**» (٦/١٨): «قوله خير من الدنيا وما فيها» قال ابن دقيق العيد: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس تحقيقًا له في النفس؛ لكون الدنيا محسوسة في النفس مستعظمة في الطباع؛ فلذلك وقعت المفاضلة بها، وإلا فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا لا يساوي ذرة مما في الجنة.

والثاني: أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها في طاعة اللَّه ـ تَعَالَى ـ... والحاصل أن المراد تسهيل أمر الدنيا وتعظيم أمر الجهاد، وأن من حصل له من الجنة قدر سوط يصير كأنه حصل له أمر أعظم من جميع ما في الدنيا؛ فكيف بمن حصل منها أعلى الدرجات.

والنكتة في ذلك: أن سبب التأخير عن الجهاد الميل إلى سبب من أسباب الدنيا؛ فنبه هذا المتأخر أن هذا القدر اليسير من الجنة أفضل من جميع ما في الدنيا».

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجهاد والسير ـ باب الغدوة والروحة في سبيل الله (٢٧٩٣).

(٤٩) وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «لغدوة في سبيل الله أو روْحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قَدِّهِ[١] في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض، لملأت ما بينهما ريحًا، ولأضاءت ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[٢].

● وعند البخاري: **«لروْحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب[٣] قوس أحدكم من الجنة أو[٤] موضع قيدٍ - يعني: سوْطه - خير من الدنيا وما فيها، ولو أنَّ امرأة من أهل الجنة اطَّلعت إلى أهل الأرض، لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[٥].**

إن كان نصيفها وخمارها خيرًا من الدنيا وما فيها؛ فما بالك بصاحبة الخمار؟!

وإن كان كل واحدة يُعْطَاهَا من الحور العين لو اطلعت على الدنيا لأضاءتها كلها؛ فما ظنك باثنتي وسبعين زوجة من الحور العين للشهيد؟!

❏ الغازي من وفد الله الذين دعاهم فأجابوه وسألوه فأعطاهم:

(٥٠) عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: «الغازي في سبيل الله ﷻ، والحاج، والمعتمر وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»[٦].

---

(١) قدِّه: سوطه المتخذ من الجلد.

(٢) رواه أحمد، والبخاري ومسلم، والترمذي، وابن ماجه.

(٣) ولقاب؛ أي: ولقدر، وكذلك قِيد - بكسر القاف -: معناه القدر.

(٤) أو - هنا -: شك من الراوي هل قال قاب أو قِيد. نصيفها؛ أي: خمارها.

(٥) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجهاد والسير - باب الحور العين وصفتهن (٢٧٩٥).

(٦) صحيح: رواه ابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والطبراني في «الكبير».

❑ عُلُوٌّ درجة المجاهدين:

(٥١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يا أبا سعيد، مَن رَضِيَ باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وَجَبَتْ له الجنة»، فعجب لها أبو سعيد!! فقال: أَعِدْها عليَّ يا رسول الله!! ففعل، ثم قال: «وأخرى يُرفع بها العبد مئة درجة في الجنة ما بين كل درجتين؛ كما بين السماء والأرض». قال: وما هي يا رسول الله؟! قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»[(١)].

قال النووي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: قال القاضي عياض ﷺ: يحتمل أن هذا على ظاهره، وأن الدرجات هنا المنازل التي بعضها أرفع من بعض في الظاهر، وهذه صفة منازل الجنة؛ كما جاء في أهل الغرف أنهم يتراءون الكوكب الدري. قال: ويحتمل أن المراد الرفعة بالمعنى؛ من كثرة النعيم وعظيم الإحسان مما لم يخطر على قلب بشر ولا بصفة مخلوق، وأن أنواع ما أنعم اللَّه به عليه من البر والكرامة يتفاضلا كثيرًا، ويكون تباعده في الفضل؛ كما بين السماء والأرض في البعد. قال القاضي: والاحتمال الأول أظهر، وقال النووي: وهو كما قال، واللَّه أعلم».

ولا مانع من اجتماع المعنيين؛ فجود اللَّه لا يُحَدُّ وكذلك قدرته.

❑ الغبار في سبيل اللَّه يُحَرِّمُ النار على المجاهد:

ريحُ العبير لكم ونحن عبيرنا وهج السنابك والغبار الأطيبُ

(٥٢) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يجتمع غبارٌ في سبيل اللَّه ودخان جهنم في منخري مسلم أبدًا»[(٢)].

(٥٣) وقال رسول اللَّه ﷺ: «لا يجتمع غبارٌ في سبيل اللَّه ودخان جهنم في

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٤/٣)، ومسلم (١٨٨٤)، والنسائي (٥٧/٢).

(٢) **صحيح**: رواه النسائي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «تخريج المشكاة» (٣٨٢٨)، و«صحيح الترغيب» (١٦٦/٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٧٦١٧).

جوف عبد أبدًا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا»[١].

(٥٤) وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يجتمعان في النار: مسلم قتل كافرًا ثم سدَّد وقارب، ولا يجتمعان في جوف مؤمن غبار في سبيل اللَّه وَفَيْحُ جهنم، ولا يجتمعان في قلب عبد الإيمان والحسد»[٢].

(٥٥) وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يلج النار رجل بكى من خشية اللَّه حتى يعود اللبن في الضَّرْع، ولا يجتمع غبار في سبيل اللَّه ودخان جهنم في منخري مسلم أبدًا»[٣].

(٥٦) وعن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما خالط قلب امرئ مسلم رَهَجُ في سبيل اللَّه إلا حرَّم اللَّه عليه النار»[٤] والرهج: هو غبار القتال.. فما أطيب هذا الغبار.. إن كان يُحرِّم علينا النار!!.

(٥٧) عن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من راح روحة في سبيل اللَّه كان له بمثل ما أصابه من الغبار مسكًا يوم القيامة»[٥].

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي، والحاكم في «مستدركه» عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «تخريج المشكاة» (٣٨٢٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٧٦/٦).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، والنسائي، والحاكم في «المستدرك»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الترغيب» (١٦٧/٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٧٦٢٠).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، والحاكم في «المستدرك»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «تخريج المشكاة» (٣٨٢٨)، و«صحيح الترغيب» (١٦٦/٢).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، ورمز السيوطي لِحُسْنِهِ، قال المناوي في «فيض القدير» (٤٤٣/٥): وهو كما قال أوْ أعلى؛ فقد قال الهيثمي: رجاله ثقات. وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٢٧)، و«صحيح الجامع» رقم (٥٦١٦).

(٥) حسن: رواه ابن ماجه في «سننه»، والضياء في «المختارة»، وفيه شبيب البجلي، قال أبو حاتم: لين. نقله عنه في «الكاشف»، وأشار إلى حُسنه السيوطي، وحَسَّنَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٣٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٦٢٦٠).

ما أعد اللَّه له من النعيم قدر ذلك الغبار الذي أصابه في المعركة وفي ذهابه إليها مسكًا يتنعم به!!.

والله، إن الدنيا كلها من يوم خلقها اللَّه إلى يوم القيامة لا تساوي أقل ذرة من هذا المسك.. ففي نيل هذا المسك نافس.. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

❑ فضل من اغْبَرَّتْ قدمه في سبيل الله:

(٥٨) عن أبي عَبْس عبدالرحمن بن جبر: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما اغبرَّتا قدما عبدٍ في سبيل اللَّه إلا حرَّم اللَّه عليه النار»[١].

● ولفظ البخاري: **«ما اغبرَّتا قدما عبدٍ في سبيل اللَّه فتمسه النار»**[٢].

قال ابن حجر: «والمعنى أن المسَّ ينتفي بوجود الغبار المذكور؛ وفي ذلك إشارة إلى عظيم قدر التصرف في سبيل الله؛ فإذا كان مجرد مسِّ الغبار للقدم يحرِّم عليها النار؛ فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفد وسعه؟!»[٣].

(٥٩) عن أبي عبس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ «من اغبرت قدماه في سبيل الله، حرَّمه اللَّه على النار»[٤].

والمراد: المشي في سبيل الله؛ أي: في طريق يطلب فيها رضا الله؛ فشمل طريق الجهاد، وطلب العلم، وحضور الجماعة والحج وغير ذلك؛ لأنه اسم جنس مضاعف يفيد العموم إلَّا أن المتبادر في سبيل اللَّه الجهاد.

فيه تنبيه على فضيلة المشي على الأقدام للطاعات، وأنه من الأعمال الرابحة

---

(١) **صحيح**: أخرجه الشيرازي في «الألقاب» عن عثمان، وأحمد، والبخاري، والترمذي والنسائي عن عبدالرحمن بن جبر، ورواه أحمد، والدارمي عن مالك بن عبدالله، والطيالسي وأحمد عن جابر. وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٢١٩)، و«صحيح الجامع» (٥٥٤٣).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجهاد والسير - باب من اغبرَّت قدماه في سبيل الله (٢٨١١).

(٣) فتح الباري (٣٦/٦).

(٤) رواه أحمد في «مسنده»، والبخاري، والترمذي، والنسائي.

التي يستوجب العبد بها معالي الدرجات والفردوس الأعلى.

● وعند ابن حبان من حديث جابر: أنه كان في غزاة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: فذكر نحو حديث الباب، قال: فتواثب الناس عن دوابهم فما رُئِيَ أكثر ماشيًا من ذلك اليوم.

❑ حرام على النار أن تمسَّ عين المجاهد:

(٦٠) عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عينان لا تُصيبهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[١].

(٦١) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار أبدًا: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[٢].

(٦٢) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عينان لا تريان النار: عين بكت وجلًا من خشية الله، وعين باتت تكلأ في سبيل الله»[٣].

«قال الطيبي: قوله: «**عين بكت...**» إلخ كناية عن العالم العابد المجاهد مع نفسه؛ لقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؛ حيث حصر الخشية غير متجاوزة عنهم؛ فحملت النسبة بين العينَيْنِ: عين مجاهدة مع النفس والشيطان وعين مجاهدة مع الكفار»[٤].

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي، وَصَحَّحَهُ السيوطي، والألباني في «تخريج المشكاة» (٣٨٢٩)، و«الترغيب» (١٥٣/٢)، و«صحيح الجامع» (٤١١٢).

(٢) **صحيح**: رواه أبو يعلى، والضياء في «المختارة»، وقال المنذري: رجاله ثقات. وَصَحَّحَهُ السيوطي، والألباني في «تخريج المشكاة» (٣٨٢٩)، و«الترغيب» (١٥٣/٢)، و«صحيح الجامع» (٤١١٣).

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط» وقال المناوي في «فيض القدير» (٣٦٨/٤): «وفيه زافر بن سليمان، قال ابن عدي: لا يُتَابَعُ على حديثه، وشبيب بن بشر أورده الذهبي في الضعفاء، وقال: قال أبو حاتم: لين الحديث» اهـ. وَصَحَّحَهُ السيوطي، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤١١١)، و«المشكاة» (٣٨٢٩)، و«الترغيب» (١٥٣/٢).

(٤) «فيض القدير» (٣٦٨/٤).

(٦٣) وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «حُرِّم على عينين أن تنالهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[١].

«باتت تحرس في سبيل الله» في أيام القتال أو في الرباط في الثغر، و«عين بكت من خشية الله» فهذان لا يردان النار إلا تحلة القسم؛ جزاء بما كانوا يعملون.

(٦٤) وعن أبي ريحانة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: حُرِّمت النار على عين بكت من خشية الله، وحُرِّمت النار على عين سهرت في سبيل الله، وحُرِّمت النار على عين غضَّت عن محارم الله، أو عين فُقِئت في سبيل الله»[٢].

(٦٥) عن أبي الزبير قال: قال عثمان بن عفان ﷺ وهو يخطب: أحدثكم حديثًا لم يمنعني أن أحدثكم به إلَّا الضنُّ به: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «حرس ليلة في سبيل اللَّه أفضل من ألف ليلة يُقَامُ ليلها ويُصام نهارُهَا»[٣].

---

(١) حسن: رواه الحاكم والبيهقي في «شعب الإيمان».
وسكت عنه الحاكم فتعقبه الذهبي وقال: فيه انقطاع. وَصَحَّحَهُ السيوطي في «الجامع الصغير»، وحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٥٥/٢)، و«صحيح الجامع» (١٣١٣٦).

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، والحاكم في «المستدرك»، وقال الحاكم: صحيح. وأقرَّه الذهبي، وقال الهيثمي والطبراني: رجال أحمد ثقات. وَصَحَّحَـهُ السيوطي في «الجامع الصغير» قال أبو ريحانة ﷺ: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فأوفى بنا على شرف، فأصابنا برد شديد حتى كاد أحدنا يحفر الحفير، فيدخل فيه ويغطى بجحفته. فلما رأى ذلك فقال: «ألا رجل يحرسنا الليلة أدعو الله له بدعاء يصيب فضلًا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا. فدعا له، فقلت: أنا. فدعا لي ثم ذكره...

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، قال الحاكم: صحيح. وأقره الذهبي في «التلخيص»، قال المناوي في «الفيض» (٣٧٩/٣): «وهو غير سديد، كيف وقد أورد هو مصعبًا هذا في الضعفاء، وقال: ضعفوا حديثه. وقال في «الكاشف»: فيه لين لغلطه. نعم، قال ابن حجر: إسناده حسن» اهـ.

عينان[1]

عينانِ كلتاهما في الليل ساهرةٌ ... وتحت ثوب الدجى والصمت تلتحِفُ
في كل رعشة جَفْنٍ منهما أَلَقٌ ... إلى السماء ونحو الخلد مُنْعَطَفُ
إحداهما في سبيل اللَّه قائمةٌ ... على الثغور وفي جَفنِ الرَّدى يَقِفُ
وأختُهَا في سكون الليل خاشعةٌ ... مقروحةُ الجَفن في المحراب تعتكِفُ
من خشية اللَّه أوْ مِن فيضِ رحمته ... باتت ومَدْمَعُهَا في لوعةٍ يَكِفُ
كأنها في بحار الشوق سابحةٌ ... أوْ من رحيق الهدى والطهر تغترِفُ
بين الرجاء وبين الخوفِ منزلةٌ ... ينبيك عن سرها المكنون من عرفوا
عينان هذا مع الرحمن شأنُهما ... يأويهما منه في جناته كَنَفُ

(٦٦) **عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ليس شيء أحبَّ إلى اللَّه ـ تَعَالَى ـ من قَطرتَيْنِ وأثرَيْنِ: قطرة دموع من خشية اللَّه ـ تَعَالَى ـ، وقطرة دم تُهراق في سبيل اللَّه ـ تَعَالَى ـ، وأما الأثران: فأثر في سبيل اللَّه ـ تَعَالَى ـ، وأثر في فريضة من فرائض اللَّه ـ تَعَالَى»**[2].

قال المناوي في «**فيض القدير**» (٥/٣٦٥): «ليس شيء أحب إلى اللَّه ـ تَعَالَى ـ من قطرتين وأثرين قطرة دموع»؛ أي: قطراتها؛ فلما أضيفت إلى الجمع أُفردت ثقة بذهن السامع «**من خشية الله**»؛ أي: من شدة خوف عقابه أو عتابه «**وقطرة دم تهراق في سبيل الله**» أفرد الدم وجمع الدمع تنبيهًا على تفضيل إهراق الدم في سبيل اللَّه على تقاطر الدموع.

«**وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله**» قال ابن العربي: الأثر ما يبقى بعده من عمل يجري عليه أجره من بعده؛ ومنه قوله ﷻ:

(١) نداء الحق، لأحمد محمد الصديق ص (١١١، ١١٢).
(٢) **صحيح**: رواه الترمذي في «سننه» في الجهاد، والضياء في «المختارة»، وفي سند الترمذي الوليد بن جميل قال في الكاشف: لَيَّنَهُ أبو زرعة. وَصَحَّحَهُ الألباني.

﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾. وقال غيره: الأثر ما يبقى من رسوم الشيء وحقيقته ما يدل على وجود الشيء، والمراد خطوة الماشي وخطوة الساعي في فريضة من فرائض اللَّه أو ما بقي على المجاهد من أثر الجراحات وعلى الساعي المتعب نفسه في أداء الفرائض والقيام بها والكد فيها كاحتراق الجبهة من حرِّ الرمضاء التي يسجد عليها وانفطار الأقدام من برد ماء الوضوء ونحو ذلك» اهـ.

❐ قيام ساعة في الصف وأجرها العظيم:

(٦٧) قال رسول اللَّه ﷺ: «قيام ساعة في الصف للقتال في سبيل اللَّه خير من قيام ستين سنة»[١].

نعم، قيام ساعة في الصف إذا تعين الجهاد والقتال في سبيل اللَّه خير من تهجد ستين سنة!!.

(٦٨) عن أبي هريرة قال: مَرَّ رجلٌ من أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ من ماءٍ عَذْبَةٌ، فأعجبته؛ لِطِيبِهَا؛ فقال: لو اعتزلت الناسَ، فأقمت في هذا الشِّعْبِ، ولن أفعل حتى أستأذن رسولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذلك لرسول اللَّه ﷺ؛ فقال: «لا تفعل؛ فإن مقامَ أحدكم في سبيل اللَّه أفضلُ من صلاته في بيته سبعين عامًا؛ ألا تحبون أن يغفر اللَّه لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله؛ من قاتل في سبيل اللَّه فُواق ناقة وجبت له الجنة»[٢].

(٦٩) عن أبي هريـرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «موقف ساعة في

---

(١) **صحيح**: رواه ابن عدي وابن عساكر عن أبي هريرة، وأحمد والترمذي، والحاكم، ورواه أحمد عن أبي أمامة، والدارمي والحاكم والبيهقي في «سننه» عن عمران بن حصين، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٠٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٤٢٩).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي، والحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «تخريج المشكاة» (٣٨٣٠)، و«الترغيب» (١٧٤/٢)، و«صحيح الجامع» (٧٣٧٩).

سبيل اللَّه خيرٌ من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود»[١].

(٧٠) وعن عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لقيام رجل في الصف في سبيل اللَّه ﷻ ساعة أفضل من عبادة ستين سنة»[٢].

(٧١) وعن عمران بن حصين ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مقام الرجل في الصف في سبيل اللَّه أفضل من عبادة ستين سنة»[٣].

وما ورد من الاختلاف في الروايات من كون المقام في الصف أفضل من ستين وفي غيرها أفضل من سبعين «قال البيهقي: القصد به تضعيف أجر الغزو على غيره، وذلك يختلف باختلاف الناس في نياتهم وإخلاصهم، ويختلف باختلاف الأوقات، ويحتمل أن يعبر عن التضعيف والتكثير مرة بأربعين مرة، ومرة بستين، وأخرى بما دونها، وأخرى بما فوقها اهـ. وقال بعضهم: فمن وجب عليه الغزو وكان التخلي للعبادة المندوبة يفوته فالتخلي لها معصية بل هي حينئذ معصية؛ لِاسْتِلْزَامِهَا ترك الفرض، وأما التعليل بأن الاشتغال بالعبادة لا يوجب الغفران ودخول الجنان فغير صواب»[٤].

(١) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٦٨)، و«الترغيب» (١٥٢/٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٦٦٣٦).

(٢) **صحيح**: أورده البيهقي في «سننه»، والخطيب في «تاريخه» في ترجمة عبدالرحمن البخاري، وفيه إسماعيل بن عبيد الله المكي، قال في «الميزان»: لا يُعرف. وسبقه العقيلي فأورده في «الضعفاء» فقال: لا تُحفظ أحاديثه. وساق له هذا الحديث.
أخرجه الدارمي، والعقيلي، وابن عساكر عن عمران، وأحمد والترمذي والحاكم، والبيهقي في «سننه» عن أبي هريرة، وأحمد عن أبي أمامة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٠٢، ١٩٠١)، و«صحيح الجامع» رقم (٥١٥١).

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، والحاكم، والبيهقي كلهم في الجهاد، وقال الحاكم: على شرط البخاري. وأقرَّه الذهبي، وقال الهيثمي ـ بعدما عزاه للطبراني ـ: فيه عبدالله بن صالح كاتب الليث وَثَّقَهُ ابن معين، وَضَعَّفَهُ أحمد. وَصَحَّحَهُ السيوطي في «الجامع الصغير»، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٠٢)، و«صحيح الجامع» (٥٨٨٦).

(٤) «فيض القدير» (٥٢٨/٥).

(٧٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويتقيدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوف[١]، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[٢].

(٧٣) عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّما مسلم رمى بسهم في سبيل الله، فَبَلَغَ مخْطِئًا أو مصيبًا، فله من الأجر كرقبةٍ أعتقها من ولد إسماعيل، وأيما رجل شَابَ في سبيل الله فهو له نور، وأيما رجل أعتق رجلًا مسلمًا فكل عضو من الْمُعْتِقِ بعضو من الْمُعْتَقِ فداءً له من النار، وأيما رجل قام وهو يريد الصلاة فأفضى الوضوء إلى أماكنه سلم من كل ذنب وخطيئة هي له، فإن قام إلى الصلاة رفعه الله - تَعَالَى - بها درجة وإن رقد رقد سالمًا»[٣].

قال المناوي: «**أيما مسلم رمى بسهم في سبيل الله**»؛ أي: في الجهاد؛ لإعلاء كلمة الله «**فبلغ**» إلى العدو «**مخطئًا أو مصيبًا فله من الأجر كرقبة**»؛ أي: مثل أجر نسمة أعتقها من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، «**وأيما رجل شَابَ في سبيل الله**»؛ أي: في الجهاد أو في الرباط؛ يعني: من هول ذلك، ويحتمل أن المراد دَوَامَ على الجهاد حتى أسنَّ»[٤].

(٧٤) وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن رمى العدو

---

(١) خلوف: جمع خَلْف؛ وهو: القرن من الناس.

(٢) رواه أحمد في «مسنده»، ومسلم.

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٥٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٧٣٩).

(٤) «فيض القدير» (١٥٦/٣).

بسهم في سبيل الله، فبلغ سهمه العدو، أصاب أو أخطأ، يعدل رقبة»[١].

(٧٥) وعن أبي نجيح رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من رمى بسهم في سبيل الله، فهو له عدل مُحَرَّرٍ»[٢].

«والمعنى من رمى بسهم بنية جهاد الكفار، كان له ثواب مثل ثواب تحرير رقبة؛ أي: عتقها»[٣].

قال أبو نجيح: حاصرنا قصر الطائف، فسمعت رسول اللَّه ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ يقول:... الحديث. قال أبو نجيح: فبلغت يومئذ ستة عشر سهمًا.

(٧٦) عن أبي نجيح رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَن بلغ بسهم في سبيل اللَّه فهو له درجة في الجنة»[٤]؛ أي: من شارك بسهم.

❑ المجاهد الصابر الصادق الثابت حبيب إلى الله:

(٧٧) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يَشْنَؤُهُمُ الله: الرجل يلقى العدو في فئة فَيَنْصِبُ لهم نحره حتى يُقتل أو يُفْتَحَ لأصحابه، والقوم يسافرون فيطول سُرَاهم حتى يحبوا أن يمسوا الأرض فينـزلون، فيتنحى أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم، والرجل يكون له الجار يؤذيه جاره

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، والنسائي، وابن ماجه، والطبراني في «المعجم الكبير»، والحاكم في «المستدرك»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الترغيب» (٢/١٧١)، و«صحيح الجامع» (٦٢٦٧).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، والنسائي، والحاكم في «المستدرك»، قال الحاكم: على شرطهما. وأقره الذهبي، وَصَحَّحَهُ السيوطي، وكذا صححه الألباني في «الترغيب» (٢/١٧١)، و«صحيح الجامع» (٦٢٦٨).

وعدل ـ بكسر العين وفتحها ـ؛ أي: مثل.

(٣) «فيض القدير» (٦/١٣٨).

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرك»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «تخريج فقه السيرة» (٢٢٥)، و«تخريج المشكاة» (٣٨٧٣)، و«الترغيب» (٢/١٧١)، و«صحيح الجامع» (٦١٢٦).

فيصبر على أذاه حتى يفرِّق بينهما موت أو ظعن، والذين يشنؤهم الله: التاجر الحلاف، والفقير المختال، والبخيل المنَّان»[١].

(٧٨) وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله؛ فأما الذين يحبهم الله: فرجل أتى قومًا، فسألهم بالله، ولم يسألهم لقرابةٍ بينه وبينهم، فمنعوه، فتخلف رجل بأعقابهم، فأعطاه سرًّا، لا يعلم بعطيته إلا اللَّه والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فوضعوا رءوسهم، فقام أحدهم يتملقني[٢] ويتلو آياتي، ورجل كان في سرية، فلقي العدو، فهُزموا، فأقبل بصدره حتى يُقْتَل أو يُفتح له، والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم»[٣].

❏ **ويضحك اللَّه إليه، ومن ضحك اللَّه إليه فلا حساب عليه:**

(٧٩) عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ثلاثة يضحك اللَّه إليهم: الرجل إذا قام من الليل يصلي، والقوم إذا صَفُّوا للصلاة، والقوم إذا صَفُّوا للقتال»[٤].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، قال العراقي: فيه ابن الأحمس ولا يُعرف حاله. قال: ورواه - أيضًا - أحمد والنسائي بلفظ آخر بإسناد جيد. اهـ.
وكذا رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، وابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن نصر والطحاوي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «تخريج المشكاة» (١٩٢٢)، و«صحيح الجامع» (٣٠٧٤). ويشنؤهم؛ أي: يبغضهم.

(٢) أي: يتضرع إليَّ ويزيد في الدعاء.

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي في «سننه» في صفة الجنة، والنسائي في الزكاة، وابن حبان والحاكم في الزكاة والجهاد، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: على شرطهما. وأقرَّه الذهبي، وَصَحَّحَهُ السيوطي.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، وأبو يعلى، وَصَحَّحَهُ السيوطي، ورواه ابن ماجه في باب ما أنكرت الجهمية من حديث أبي سعيد مع بعض خلاف لفظي.

من ضحك اللَّه إليه، فلا حساب عليه؛ فطوبى للمجاهدين!!.

والضحك صفة من صفات اللَّه عَزَّوَجَلَّ أثبتها له رسول اللَّه ﷺ.

من ضحك اللَّه إليه، لا يدع شيئًا من الرضا والقرب والإنعام والإكرام إلَّا فعله في حقه.

قال الطيبي: «قدَّم قيام الليل على صف الصلاة، وأخَّر صف القتال؛ **إما تنزُّلًا**؛ فإن محاربة النفس التي هي أعدى عدو لله أشق من محاربة عدوك الذي هو الشيطان، ومحاربة الشيطان أصعب من محاربة أعداء الدين، **أو ترقيًا**؛ فإن محاربة مَنْ يَلِيكَ أقدم، والأخذ بالأصعب فالأصعب أحرى وأولى من أخذ الأصعب ثم الأسهل».

(٨٠) **وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يحبهم الله، ويضحك إليهم، ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عَزَّوَجَلَّ، فإما أن يُقتل وإما أن ينصره اللَّه ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه؟ والذي له امرأة حسنة وفراش لين حسن، فيقوم من الليل، فيقول: يذر شهوته ويذكرني، ولو شاء رقد. والذي إذا كان في سفر، وكان معه ركب، فسهروا، ثم هجعوا، فقام من السحر في ضرَّاء وسراء»**[(١)].

❑ **ويعجب ربك من الذي صبر بنفسه لله:**

(٨١) **«عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله، فانهزم أصحابه، فعلم ما عليه، فرجع حتى أهريق دمه؛ فيقول اللَّه عَزَّوَجَلَّ لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي حتى أهريق دمه»**[(٢)].

(١) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وقال: إسناده حسن. وقال الهيثمي في المجمع: رجاله ثقات. وحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٦٢٥).

(٢) **حسن**: رواه أبو داود عن ابن مسعود، وكذا رواه أحمد، وابن أبي عاصم، وابن حبان، والحاكم وقال الحاكم: صحيح. وأقره الذهبي ورمز السيوطي لِحُسْنِهِ، وحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٢٦)، و«السنة» (٥٦٩)، و«صحيح الجامع» (٣٩٨١).

وصفة العجب أثبتها علماء السلف لربنا؛ قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ⑫﴾؛ أثبتها اللَّه لنفسه، وأثبتها له رسوله فلا نؤولها، ولا نعطلها، ولا نشبه، ولا نمثل، ولا نفوض.

وَالْمُتَعَجَّبُ منه وهو المجاهد الذي صبر بنفسه لله حين فَرَّ غيره حتى أريق دمه عند اللَّه بمنزلة عظيمة، وجزاؤه كثير وفير قد استحسن اللَّه منه فعله وعمله، وهذه منزلة عظيمة للذين يصدقون اللَّه ويصبرون عند البأس.

(٨٢) وقال رسول اللَّه ﷺ: «عجب ربنا من رجلين: رجل ثار[(١)] عن وطائه ولحافه، مِن بين أهله وحِبِّه إلى صلاته؛ فيقول اللَّه ـ جَلَّ وَعَلَا ـ: [أيا ملائكتي][(٢)] **انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حِبِّهِ وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي. ورجل غزا في سبيل الله، وانهزم أصحابه، وعلم ما عليه في الانهزام، وماله في الرجوع، فرجع حتى يُهْريق دمه؛ فيقول اللَّه** [لملائكته][(٣)]**: انظروا إلى عبدي رجع رجاءً فيما عندي، وشفقة مما عندي، حتى يهريق دمه!!»**[(٤)].

❑ المجاهدون يقودون أقوامًا إلى الجنة بالسلاسل؛ فيعجب الرب ـ جَلَّ وَعَلَا ـ ويعجب رسول اللَّه الكريم ﷺ:

(٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ «عجب ربنا من قوم

(١) أي: نهض ووثب. وَحِبه؛ أي: حبيبه.

(٢) زيادة من المسند.

(٣) زيادة من المسند وابن حبان.

(٤) **حسن**: قال المنذري في «الترغيب والترهيب»: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وابن حبان في «صحيحه» من رواية ابن مسعود، وحَسَّنَهُ الهيثمي. وقال الشيخ أحمد شاكر في «تحقيق المسند»: إسناده صحيح. وَحَسَّنَ إسنادَهُ الألبانيُّ في «صحيح الترغيب» (٢٥٨/١) حديث (٦٢٦).
وقال الأرناءوط في «تحقيق شرح السنة» (٩٣٠): أخرجه أحمد ورجاله ثقات، إلا أن عطاء بن السائب قد اختلط، وحماد بن سلمة ممن روى عنه قبل الاختلاط وبعده. وَصَحَّحَهُ ابن حبان.

يقادون إلى الجنة في السلاسل»[١].

(٨٤) **ولفظ البخاري: «عجب اللَّه من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»[٢].**

(٨٥) **وقال رسول اللَّه ﷺ: «عجبت لأقوام يُساقون إلى الجنة في السلاسل وهم كارهون»[٣].**

وفي الصحيح الموقوف على أبي هريرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «**خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام**»[٤].

قال الحافظ في «**الفتح**» (٦/١٦٨، ١٦٩): «إن كان المراد حقيقة وضع السلاسل في الأعناق فالترجمة مطابقة، وإن كان المراد المجاز عن الإكراه فليست مطابقة، قلت: المراد بكون السلاسل في أعناقهم مقيَّد بحالة الدنيا، فلا مانع من حمله على حقيقته، والتقدير يدخلون الجنة، وكانوا قبل أن يسلموا في السلاسل»، ثم ساق قول أبي هريرة ثم قال: «قال ابن الجوزي: معناه أنهم أُسِرُوا وقُيِّدوا، فلما عرفوا صحة الإسلام؛ دخلوا طوْعًا؛ فدخلوا الجنة، فكان الإكراه على الأسر والتقييد هو السبب الأول، وكأنه أُطْلِقَ على الإكراه التسلسل، ولما كان هو السبب في دخول الجنة أقام المسبب مقام السبب.

وقال الطيبي: ويحتمل أن يكون المراد بالسلسلة الجذب الذي يجذبه الحق من خلص عباده من الضلالة إلى الهدى ومن الهبوط في مهاوي الطبيعة إلى العروج للدرجات، لكن الحديث في تفسير آل عمران يدل على أنه على الحقيقة، ونحوه ما

---

(١) رواه أحمد في «مسنده»، والبخاري، وأبو داود، ورواه أحمد عن أبي أمامة.

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب الأسارى في السلاسل (٣٠١٠).

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن أبي أمامة، وأبو نعيم في «الحلية» عن أبي هريرة وأشار السيوطي إلى حُسْنِهِ، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٩٨٣)، و«تخريج السنة» (٥٧٣).

(٤) رواه البخاري في كتاب التفسير ـ باب ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٤٥٥٧).

أخرجه من طريق أبي الطفيل رفعه: «**رأيت ناسًا من أمتي يُساقون إلى الجنة في السلاسل كرهًا. قلت: يا رسول الله، من هم؟ قال: قوم من العجم يسبيهم المهاجرون فيدخلونهم في الإسلام مكرهين**».

وأما إبراهيم الحربي فمنع حمله على حقيقة التقييد، وقال: المعنى يقادون إلى الإسلام مُكرهين؛ فيكون ذلك سبب دخولهم الجنة، وليس المراد أن ثم سلسلة. اهـ

فلله درهم، وما أعظم فضلهم، وقد أسلم الكثيرون على أيديهم، وقد قال ﷺ: «**فوالله، لأن يهدي اللَّه بك رجلًا خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النَّعَم**».

❏ أقرب العمل إلى اللَّه ﷻ الجهاد:

(٨٦) عن فضالة ﷺ قال: «أقبل رجل فقال: يا رسول الله، صَلَّى اللَّه عليك، ما أقرب العمل إلى الله؟ فقال ﷺ: أقرب العمل إلى اللَّه ﷻ: الجهاد في سبيل الله، ولا يقاربه شيء؛ [إلَّا مَن كان مثل هذا. وأشار النبي ﷺ **إلى رجل قائم لا يفتر من قيام وصيام**]»[١].

❏ الحث على الجهاد:

(٨٧) عن عبادة بن الصامت مرفوعًا: «كان ﷺ يأخذ الوَبَرة من جَنْب البعير من المغنم ثم يقول: ما لي فيه إلا مثل ما لأحدكم. ثم يقول: إياكم والغلول؛ فإن الغلول خزي على صاحبه يوم القيامة، فأدُّوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك، وجاهدوا في اللَّه القريب والبعيد، في الحضر والسفر؛ فإن الجهاد باب من الجنة؛ إنه ينجي من الهم والغم، وأقيموا حدود اللَّه في القريب والبعيد، ولا تأخذكم في اللَّه لومة لائم»[٢].

---

(١) **إسناده حسن**: رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (١٥٢/٢/٢)، وَحسَّنَ إسنادَهُ الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٩٣٨).

(٢) **إسناده جيد**: أخرجه عبدالله بن أحمد (٣٣٠/٥)، والضياء في «المختارة» (١/٦٧).

(٨٨) عن عبادة رضي الله عنه «إن رسول اللَّه ﷺ صَلَّى بهم في غزوة إلى بعير من الْمَقْسَمِ، فلما سلَّم قام رسول اللَّه ﷺ فتناول وَبَرَة بين أنملتيه فقال: إن هذه الوبرة من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم، إلا الخمس، والخمْس مردود عليكم، فأدُّوا الخيْط والمخيْط في أكثر من ذلك وأصغر، ولا تَغُلُّوا؛ فإن الغُلُول نار وعار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في اللَّه ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ القريب والبعيد، ولا تبالوا في اللَّه لومة لائم، وأقيموا حدود اللَّه في الحضر والسفر، وجاهدوا في سبيل الله؛ فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، ينجي اللَّه ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ به من الغم والهم»(١).

(٨٩) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»(٢).

(٩٠) عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أول هذا الأمر نُبُوَّةٌ ورحمة، ثم يكون خلافةً ورحمةً، ثم يكون مُلكًا ورحمةً، ثم يَتَكَادَمُونَ عليه تَكَادُمَ الحُمُرِ، فعليكم بالجهاد، وإن أفضل جهادكم الرِّباط، وإن أفضل رباطكم عسقلان»(٣).

(٩١) عن سهل بن معاذ عن أبيه عن النبي ﷺ: «أن امرأة أتته فقالت: يا رسول الله، انطلق زوجي غازيًا، وكنت أقتدي بصلاته إذا صَلَّى وبفعله كله،

---

(١) **صحيح بمجموع الطرق**: أخرجه أحمد (٣١٤/٥، ٣١٦، ٣٢٦)، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٩٢): «الحديث حسن على أقل الدرجات بل هو صحيح».

(٢) **صحيح**: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك» في الجهاد عن أنس بن مالك، قال الحاكم: على شرط مسلم. وأقرَّه الذهبي، وقال في «الرياض» بعد عزوه لأبي داود: إسناد صحيح. وَصَحَّحَهُ الألباني في «تخريج المشكاة» (٣٨٢١)، و«صحيح الجامع» (٣٠٩٠).

(٣) **إسناده جيد**: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١١٣٨/٨٨/١١). وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٢٧٠): إسناد جيد.

فأخبرني بعمل يبلِّغني عمله حتى يرجع. فقال لها: أتستطيعين أن تقومي ولا تقعدي، وتصومي ولا تفطري، وتذكري اللّه ولا تَفْتَري حتى يرجع؟! قالت: ما أطيق هذا يا رسول الله. فقال: والذي نفسي بيده، لو طُوِّقْتِيهِ ما بَلَغْتِ العشر من عمله حتى يرجع»[(١)].

□ الطائفة المنصورة طائفة مجاهدة:

(٩٢) عن سَلَمَةَ بن نُفَيْلٍ الكِنْدِي وكان قومه بعثوه وافدًا إلى رسول اللَّه ﷺ قال: بينا أنا مع رسول اللَّه ﷺ تمسُّ ركبتي ركبته مستقبل الشام بوجهه، مُوَليًا إلى اليمن ظهره، إذ أتاه رجل فقال: يا رسول الله، أذال الناس الخيل[(٢)]، ووضعوا السلاح، وزعموا أن الحرب قد وضعت أوزارها. فقال رسول اللَّه ﷺ: كذبوا؛ بل الآن جاء القتال، لا تزال فرقة من أمتي يقاتلون على أمر اللَّه يُزيغ اللَّه لهم قلوب أقوام وينصرهم عليهم حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله، الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وهو يُوحَى إليَّ أني مقبوض غير ملبث فيكم، وأنكم مُتَّبِعي أفنادًا[(٣)]، وعقر دار المؤمنين بالشام»[(٤)].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٣/٤٣٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/٤٤٠، ٤٤١)، والحاكم (٢/٧٣)، وعفيف الدين أبو الفرج المقرئ في «الأربعين في الجهاد والمجاهدين».
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/٢٧٤) وقال: «رواه أحمد والطبراني، وفيه رشدين بن سعد وَثَّقَهُ أحمد وَضَعَّفَهُ جماعة» اهـ.
قال الشيخ بدر بن عبدالله البدر: قد رواه الطبراني من غير طريقه؛ فكان على الهيثمي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أن يُنَبِّهَ على ذلك؛ فإسناده خير بن نعيم حسن لذاته، والله أعلم. وَصَحَّحَهُ الحاكم ووافقه الذهبي، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» من رواية أحمد ولم يعزه إلى الطبراني وقال: «رواه أحمد من رواية رشدين بن سعد، وهو ثقة عنده، ولا بأس بحديثه في المتابعات والرقائق». وقال الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٣٢١): صحيح لغيره.
(٢) أذال الناس الخيل: الإذالة: الإهانة؛ أي: أهانوها واستخفوا بها بقلة الرغبة فيها، وقيل: أراد أنهم وضعوا أداة الحرب عنها وأرسلوها.
(٣) أفنادًا؛ أي: جماعات متفرقين قومًا بعد قوم، واحدها فِنْد؛ كذا في «النهاية، لابن الأثير» (٣/٤٧٥).
(٤) العُقر ـ بضم العين وفتحها ـ؛ أي: أصلها وموضعها.

● وعند أحمد في «المسند» (٤/ ١٠٤): «**الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس، يزيغ اللَّه قلوب أقوام يقاتلونهم، ويرزقهم اللَّه منهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم على ذلك، ألا إن عقر دار المؤمنين بالشام، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[١].

● وفي رواية أخرى: «**ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويزيغ اللَّه لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد اللَّه**»[٢].

(٩٣) **وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»**[٣].

(٩٤) **وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»**[٤].

(٩٥) **عن جابر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صل لنا. فيقول: لا؛ إن بعضكم على بعض أمير تكرمة اللَّه لهذه الأمة»**[٥].

---

(١) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (٤/ ١٠٤)، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٦١): وهذا إسناد شامي حسن، رجاله كلهم موثقون.

(٢) **إسناد صحيح على شرط مسلم**: أخرجه النسائي (٢/ ٢١٧، ٢١٨)، وابن حبان (١٦١٧)، وأحمد (٤/ ١٠٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٤٢٧، ٤٢٨)، والحربي في «غريب الحديث»، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٣٥٧، ٦٣٥٨، ٦٣٥٩) عن سلمة بن نفيل، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٣٥): إسناد صحيح على شرط مسلم.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه مسلم، والحاكم.

(٥) أخرجه أحمد ومسلم عن جابر.

(٩٦) وعن عمران بن حصين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال»[١].

(٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال عند الله إيمان لا شك فيه، وغزو لا غُلُولَ فيه، وحج مبرور»، قال أبو هريرة: حجة مبرورة تكفر الخطايا سنة[٢].

(٩٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «أنه سُئِلَ: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله سَنَامُ العمل. قال: ثم أي؟ قال: حج مبرور»[٣].

(٩٩) عن عبدالله بن سلَّام قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا؛ فأنزَل الله عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا﴾» حتى ختمها، قال عبدالله: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها»[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١/٣٨٨، ٣٨٩)، والحاكم (٤/٤٥٠)، وأحمد (٤/٤٢٩)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٥٩): وهو كما قالا.

(٢) **إسناده صحيح على شرط الشيخين:** أخرجه أحمد (٢/٢٥٨، ٤٤٢، ٥٢١)، والطيالسي (٢٥١٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥٩٧)، واللفظ له.

(٣) **إسناده حسن:** أخرجه أحمد (٢/٢٨٧)، والترمذي (١٦٥٨) في فضائل الجهاد، وقال: حديث حسن صحيح. وابن حبان في «صحيحه» (الإحسان/ ٤٥٩٨)، واللفظ له.

(٤) **إسناده صحيح:** أخرجه الدارمي (٢٣٩٥)، وعنه الترمذي (٣٣٠٩)، وابن كثير في «تفسيره» (٨/ ١٣٠)، والحاكم (٢/٦٩، ٢٢٨، ٢٢٩)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الشعب» (٤/٦)، وَصَحَّحَهُ ابن حجر في «الفتح» (٨/٦٤١)، قال الحافظ في «الفتح»=

● وعند ابن حبان، عن عبدالله بن سلام ﵁ قال: جلستُ في نفر من أصحاب رسول اللّه ﷺ فقلت: أيكم يأتي رسول اللّه ﷺ فيسأله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: فَهِبْنَا أن يسأله منا أحد، قال: فأرسل إلينا رسول اللّه ﷺ يُفردنا رجلًا رجلًا يتخطَّى غيرنا، فلما اجتمعنا عنده، أَوْمَأَ بَعضنا إلى بعض: لأي شيء أرسل إلينا؟ ففزعنا أن يكون نزل فينا، قال: فقرأ علينا رسول اللّه ﷺ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: ١] قال: فقرأ من فاتحتها إلى خاتمتها»[1].

❑ فضل الرباط في سبيل الله:

الرباط ـ بكسر الراء وبالموحدة الخفيفة ـ: ملازمة المكان الذي بين المسلمين والكفار؛ لحراسة المسلمين منهم. وبين المرابطة والحراسة عموم وخصوص.

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال الحسن البصري وقتادة: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ على طاعة الله، ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ أعداء اللّه في الجهاد، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ في سبيل الله.

وعن محمد بن كعب القرظي: اصبروا على الطاعة، وصابروا لانتصار الوعد، ورابطوا العدو، واتقوا اللّه فيما بينكم.

وعن زيد بن أسلم: اصبروا على الجهاد، وصابروا العدو، ورابطوا الخيل.

قال ابن قتيبة: أصل الرباط أن يربط هؤلاء خيلهم وهؤلاء خيلهم استعدادًا للقتال؛ قال اللّه ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾.

وليس من ذلك ملازمة الصوفية للربط، وانقطاعهم فيها للتعبد، وتركهم

= (٥٠٩/٨): وقع لنا سماع هذه السورة؛ يعني: سورة «الصف» مسلسلًا في حديث ذُكِرَ في أول نزولها، وإسناده صحيح قَلَّ أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوه.

(١) **إسناده حسن**: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٤٥٩٤/ الإحسان).

الاكتساب، اكتفاءً منهم ـ كما زعموا ـ بكفالة مسبب الأسباب ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١٠٠) عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل اللَّه خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل اللَّه أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»[1].

وفائدة العدول عن قوله «**وما فيها**» وذكر «**خير من الدنيا وما عليها**» أن معنى الاستعلاء أعم من الظرفية وأقوى؛ فقصده زيادة المبالغة.

(١٠١) وعن سلمان ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأُجري عليه رزقه، وأمن الفُتَّان[2]»[3].

● وعند مسلم أيضًا: «**وإن مات مرابطًا جرى عليه عمله...**».

(١٠٢) وعن فضالة بن عُبَيْد ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «كل ميت يُختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله؛ فإنه يُنمى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر»[4].

(١٠٣) وعن أبي الدرداء ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «رباط شهر خير من صيام دهر، ومن مات مرابطًا في سبيل اللَّه أَمِن من الفزع الأكبر، وغُدِيَ عليه

---

(١) رواه البخاري والترمذي وروى مسلم منه جملة «الغدوة».

(٢) بضم الفاء جمع (فاتن)؛ وهما: منكر ونكير اللذان يفتنان المقبور؛ من إطلاق الجمع على اثنين.

(٣) رواه مسلم واللفظ له، والترمذي، والنسائي.

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. وابن حبان في «صحيحه»، وزاد في آخره قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «المجاهد من جاهد نفسه لله ﷻ »، وهذه الزيادة في بعض نسخ الترمذي.

برزقه، ورِيحَ من الجنة، ويُجرى عليه أجر المرابط حتى يبعثه اللَّه ﷻ»[١].

(١٠٤) وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كل عمل ينقطع عن صاحبه إذا مات إلا المرابط في سبيل الله؛ فإنه يُنَمَّى له عمله، ويُجرى عليه رزقه إلى يوم القيامة»[٢].

(١٠٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: «من مات مرابطًا في سبيل اللَّه أُجري عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأُجري عليه رزقه، وأَمِن من الفُتَّان، وبعثه اللَّه يوم القيامة آمنًا من الفزع الأكبر»[٣].

(١٠٦) وعن ابن عمرو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عن رسول اللَّه ﷺ قال: «رباط يوم خير من صيام شهر وقيامه»[٤].

❑ «رباط يوم وليلة أفضل من صيام شهر وقيامه».

(١٠٧) وعن أنس بن مالك مرفوعًا: «رباط يوم في سبيل اللَّه أفضل من قيام رجل وصيامه في أهله شهرًا»[٥].

(١٠٨) وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «رباط يوم في سبيل اللَّه

---

(١) **صحيح لغيره**: رواه الطبراني في «الكبير»، وقال المنذري في «الترغيب»: رواته ثقات. وَصَحَّحَهُ السيوطي، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١٢١٩): صحيح لغيره.

(٢) **حسن صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير» (٦٤١/٢٥٦/١٨) وفيه معاوية بن يحيى وهو الصدفي، قال الألباني: قال الحافظ: ضعيف، وما حدَّث بالشام أحسن مما حدَّث بالريِّ. وهذا من رواية الشاميين عنه، فهو حسن - إن شاء الله -، وصحيح بما قبله. **انظر**: «صحيح الترغيب» (١٢٢٠).

(٣) **صحيح لغيره**: رواه ابن ماجه بإسناد صحيح، قال المنذري في «الترغيب» وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١٢٢١): صحيح لغيره.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» عن ابن عمرو، ورواه أحمد عن سلمان، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٨٦٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٤٨٠).

(٥) **صحيح**: رواه أحمد أبو حزم الحنبلي في «الفروسية» (١/٨/١)، وَصَحَّحَهُ الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٨٦٦).

أفضل من صيام شهر وقيامه، ومن مات فيه وُقِيَ فتنة القبرِ، وَنَمَا له عمله إلى يوم القيامة» [(١)].

(١٠٩) وعن سلمان ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ «من رابط يومًا وليلة في سبيل اللَّه كان له كأجر صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطًا جرى له مثل ذلك من الأجر، وأُجري عليه الرزق، وأمن الفتَّان» [(٢)].

(١١٠) وعن عثمان بن عفان ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «رباط يوم في سبيل اللَّه خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل» [(٣)].

ورواه ابن ماجه إلا أنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«من رابط ليلة في سبيل الله، كانت كألف ليلة صيامها وقيامها»**.

● ولفظ ابن حبان: «قال عثمان في مسجد الخيف بمنى: أيها الناس، إني سمعت من رسول اللَّه ﷺ حديثًا كنت كتمتكموه ضنًّا بكم، وقد بدا لي أن أُبديه نصيحة لله ولكم؛ سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«يومٌ في سبيل اللَّه خير من ألف يوم فيما سواه»**، فلينظر كل امرئ منكم لنفسه.

قال المناوي: «جعل حسنة الجهاد بألف، وأخذ البعض من تعبيره بالجمع المُحلَّى بلام الاستغراق أن المرابط خير من المجاهد في المعركة، وَعَكَسَهُ بَعْضُهُمْ مجيبًا بأن الحديث في حق من فُرِضَ عليه الرباط وتعينَّ بنصب الإمام. قال في المطامح: اختلف: هل الأفضل الجهاد أم الرباط؟ والحديث يدل على أن الرباط أفضل؛ لأنه

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي عن سلمان، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» (١٢٠٠) و«صحيح الجامع» (٣٤٨١).

(٢) **صحيح**: رواه النسائي والحاكم عن سلمان، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٥٩).

(٣) **حسن لغيره**: رواه النسائي (٦/ ٤٠) والترمذي (١٦٦٧)، وقال: حديث حسن غريب. ورواه ابن حبان في «صحيحه» والحاكم (٢/ ٦٨)، وزاد: «فلينظر كل امرئ لنفسه»، وهذه الزيادة مدرجة من كلام عثمان غير مرفوعة، وقال الحاكم: على شرط البخاري. ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد (١/ ٦٢)، والدارمي (٢/ ٢١١).

جعله الغاية التي ينتهي إليها أعمال البر، والرباط يحقن دماء المسلمين، والجهاد يسفك دماء المشركين، فانظر ما بين الدمَيْنِ حتى يصح لك أفضل العملَيْنِ»[١].

وقال المناوي: «قال ابن حبيب: الرباط شعبة من الجهاد، وبقدر خوف ذلك الثغر يكون كثرة الأجر. وقال أبو عمرو: شُرِعَ الجهاد؛ لسفك دماء المشركين، وشُرِعَ الرباط؛ لصون دماء المسلمين، وصون دمائهم أحب إليَّ من سفك دماء أولئك، وهذا يدل على أنه مُفَضَّلٌ على الجهاد»[٢].

(١١١) وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من سنَّ سنَّةً حسنةً، فله أجرُها ما عُمِلَ بها في حياته وبعد مماته حتى تُتْرَكَ، ومن سنَّ سنَّةً سيئةً، فعليه إثمها حتى تُتْرَكَ، ومَن مات مرابطًا في سبيل اللَّه جرى عليه عمل المرابط في سبيل اللَّه حتى يبعث يوم القيامة»[٣].

(١١٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه : «أنه كان في الرباط، ففزعوا إلى الساحل، ثم قيل: لا بأس. فانصرف الناس وأبو هريرة واقفٌ، فَمَرَّ به إنسان، فقال: ما يوقفك يا أبا هريرة؟! فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «موقف ساعةٍ في سبيل اللَّه خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود»[٤].

ولا تعارض واختلاف بين أحاديث الرباط.

قال ابن حجر في «**الفتح**» (٦/١٠١): «قال ابن بزيزة: ولا تعارض بينهما؛ لأنه يُحمل على الإعلام بالزيادة في الثواب عن الأول، أو باختلاف العاملين.

---

(١) فيض القدير (٤/١٤).

(٢) فيض القدير (٦/١٣٤).

(٣) **حسن صحيح**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» بإسناد لا بأس به، قاله المنذري، وقال الألباني في «صحيح الترغيب»: حسن صحيح.

(٤) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه» والبيهقي في «شعب الإيمان»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٢٢٣)، و«السلسلة الصحيحة» (١٠٦٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٦٦٣٦).

قلت: أو باختلاف العمل بالنسبة إلى الكثرة والقلة».

❑ **رباط عُبَّاد السلف:**

لقد هام الربانيون بالرباط؛ لعلمهم بفضله العظيم؛ وإليك نماذج من رباطهم:

فهذا الإمام إبراهيم بن أدهم:

قال عنه ابن شاكر: «غزا في البحر مع أصحابه، فَاخْتَلَفَ في الليلة التي مات فيها إلى الخلاء خمسًا وعشرين مرة، كل مرة يجدد الوضوء، فلما أحس بالموت قال: أَوْتِرُوا لي قوسي، وتوفي وهي في كفنه، وَدُفِنَ في جزيرة من جزائر البحر في بلاد الروم»(١).

وشيخ الإسلام عبدالله بن المبارك:

قال حِبَّان بن موسى السلمي: خرجنا مع ابن المبارك مرابطين إلى الشام، فلما نظر إلى ما فيه القوم من التعبد والغزو والسرايا كل يوم التفت إليَّ وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون على أعمار أفنيناها وليال وأيام قطعناها في علم «**الخلية والبرية**»، وتركنا هاهنا أبواب الجنة مفتوحة»(٢).

ومعنى الخلية والبرية؛ أي: كنايات الطلاق.

«وكان - رَحِمَهُ اللَّهُ - يقطع مسافة «٢٦٠٠» كيلو متر راجلًا أو راكبًا دابته؛ ليقاتل في سبيل الله في ثغور المسلمين»(٣).

وتوفي وهو منصرف من الغزو في «١٨٢» هـ.

وشيخ الإسلام وحافظ الدنيا الإمام محمد بن إسماعيل البخاري:

يقول محمد بن أبي حاتم وراق البخاري: «رأيته استلقى على قفاه يومًا ونحن

---

(١) فوات الوفيات، لابن شاكر (١٣/١).

(٢) العقد الفريد (٢٨٥/٥).

(٣) المشوق في الجهاد، لعدنان بن سالم الرومي، وعلي بن صالح الهزاع ص (٥٧)، مكتبة المنار بالكويت نقلًا عن عبدالله بن المبارك، للدكتور عبدالمجيد المحتسب ص (١٢٠).

بـ«فرير» في تصنيف كتاب «التفسير»، وكان أَتْعَبَ نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث، فقلتُ له: يا أبا عبدالله، سمعتك تقول: ما أتيت شيئًا بغير علم قط مذ عقلتُ؛ فأي علم في هذا الاستلقاء؟! فقال: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم، وهذا ثغر خشيتُ أن يحدث حدث في أمر العدو، فأحببتُ أن أستريح، وآخذ أهبة ذلك، فإن عافصنا عدو كان بنا حِراك»[١].

الإمام عبدالرحيم بن عبد ربه الربعي المالكي الثقة المتوفى سنة «٢٤٦» هـ:

كان الإمام سحنون «يعرف له فضله ويعظمه ويسأله الدعاء له، وكان يقول: رأيت ابن القاسم وفلانًا وذكر شيوخه، فما رأيتُ مثل عبدالرحيم»[٢].

«كان ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ أولًا بزازًا، ثم لزم الرباط حتى مات»[٣].

زهير بن قمير المروذي الثقة المتوفى سنة «٢٥٨» هـ:

كان يقول: «أشتهي لحمًا من أربعين سنة ولا آكله حتى أدخل الروم فآكله من مغانم الروم»[٤].

قال الخطيب: «كان ثقة صادقًا ورعًا زاهدًا، وانتقل في آخر عمره عن بغداد إلى طرسوس فرابط بها إلى أن مات»[٥].

سيد أهل زمانه الفقيه المالكي: جبلة بن حمود بن عبدالرحمن بن جبلة الصدفي:

قال أبو سعيد محمد بن سحنون: «كانت مع جبلة همة يتيه بها على الخلفاء»[٦].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات، للنووي (١/٧٥، ٧٦).
(٢) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، للقاضي عياض (٣/٩٥).
(٣) المصدر السابق.
(٤) تهذيب التهذيب، لابن حجر (٣/٣٤٨).
(٥) ترتيب المدارك (٣/٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢).
(٦) ترتيب المدارك (٣/٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢).

رباطه: يقول القاضي عياض: «لما دخل عبيد اللَّه ـ الرافضي ـ أفريقية ونزل رقادة، ترك جبلة سكنى الرباط ونزل القيروان، فَكُلِّمَ في ذلك فقال: كنا نحرس عدوًّا بيننا وبينه البحر، والآن حَلَّ هذا العدو بساحتنا وهو أشد علينا من ذلك. فكان إذا أصبح وصلى الصبح خرج إلى طرف القيروان من ناحية رقادة ومعه سيفه وترسه وقوسه وسهامه وجلس محاذيًا لرقادة نهاره إلى غروب الشمس، ثم يرجع إلى داره، ويقول: أحرس عورات المسلمين منهم، فإذا رأيت منهم شيئًا حركت المسلمين عليهم!!»(١).

قاضي الكوفة التابعي الجليل عروة بن الجعد:

وهو راوي حديث: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»(٢).

قال شيب بن غرقدة: «رأيت في دار عروة بن الجعد سبعين فرسًا مربوطة للجهاد في سبيل الله»(٣). ونزل الكوفة، وولي القضاء بها، وأتى المدائن، ثم انتقل إلى مرو الروذ ـ على مرحلة من النهروان ـ، فأقام بها مرابطًا وقد اشترى لذلك فرسًا وأخذه بعشرين ألف درهم»(٤).

(١١٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سألتُ رسول اللَّه ﷺ عن أجر الرباط، فقال: «من رابط حارسًا من وراء المسلمين كان له مثل أجْر من خَلَّفه ممن صام وصلى»(٥).

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٠).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٣١)، وفتح الباري (٦/٥٥).

(٤) تاريخ بغداد (١/١٩٤).

(٥) **حديث حسن:** أخرجه أحمد (٤/١٥٠، ١٥٧)، والطبراني (١٧/٣٠٨)، وابن عساكر في «الأربعين في الحث على الجهاد» (٢٢)، والدارمي (٢٤٣٠)، والمقرئ في كتاب «الأربعين في الجهاد والمجاهدين». قال الهيثمي في «المجمع» (٥/٢٨٩): «وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، قال الشيخ بدر البدر: ليس حديث ابن لهيعة حسنًا بعمومه، بل هو مخصص برواية من روى عنه قبل اختلاطه، وهذا الحديث يرويه عنه الدارمي، وعنه المصنف (المقرئ) وابن عساكر وأحمد عبدالله بن يزيد المقرئ وهو ممن روى عنه قبل اختلاطه، فيكون الحديث بذلك حسنًا ـ والله أعلم» اهـ.

ونختم بهذا الحديث الجليل القدر في فضل المرابط:

(١١٤) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ميت يُختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله عز وجل فإنه يجري له عملُه حتى يُبعث»[(١)].

❏ الترغيب في النفقة في سبيل الله وتجهيز الغزاة وخلفهم في أهلهم:

(١١٥) عن عبدالله بن سهل بن حُنيف، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «من أعان مجاهدًا في سبيل الله، أو غارمًا في عُسْرته، أو مكاتبًا في رقبته، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»[(٢)].

(١١٦) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أظلَّ رأس غازٍ، أظله الله يوم القيامة»[(٣)].

---

(١) **إسناد الحديث لا بأس به**: أخرجه أبو الفرج محمد بن عبدالرحمن المقرئ في «كتاب الأربعين في الجهاد والمجاهدين (٦) ص (٣١) »، وابن النجار في «ذيل تاريخ بغداد»، كما في «كنز العمال» (١٣٣٧) وفيه: «من رابط ليلته حارسًا»، وأخرجه كذلك ابن زنجويه، والدارقطني في «الأفراد»، كما في «الكنز» (١٠٧٢٠)، وقال الشيخ بدر بن عبدالله البدر في تخريجه كتاب «الأربعين»: وإسناد الحديث لا بأس به.

(٢) **سنده جيد**: أخرجه أحمد (٤٨٧/٣)، وابن أبي شيبة (٢٥٠/٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٤٧٠) (٤٢٤/١) وابن أبي عاصم (٩٤)، والطبراني في «الكبير» (٥٥٩٠) (١٠٤/٦، ١٠٥)، والحاكم (٨٩/٢، ٩٠) والبيهقي في «سننه» (٣٢٠/١٠)، وفي «الشعب» (٣٥/٤)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي في «التلخيص» وقال: عمرو رافضي خبيث.
قال الشيخ بدر البدر: تابع عمرو بن ثابت زهير بن محمد. وجوَّد إسناده الحافظ في «الفتح» (٢/ ١٦٨، ١٦٩)، وَصَحَّحَهُ السيوطي في «تمهيد الفرش» ص (٥٨)، وحَسَّنَهُ المناوي في «فيض القدير» (٧٢/٦)، والشيخ بدر البدر في تخريجه لكتاب «الأربعين لمحمد بن عبدالرحمن المقرئ» ص (٥٦)، وإن كان الألباني قد ضعَّفه في «ضعيف الجامع» رقم (٥٤٥٦) و«الضعيفة» (٤٥٥٥).

(٣) **حديث صحيح**: أخرجه أحمد (٢٠/١)، وأبو يعلى (٢٥٣)، وابن ماجه (٢٤٣/١) رقم (٧٣٥، ٢٧٥٨)، والبزار (١٦٦٥)، والحاكم (٨٩/٢)، والبيهقي (١٧٢/٩)، وابن حبان (٤٦٢٨- الإحسان)، والطبري في «تهذيب الآثار»، والمزي في «تهذيب الكمال»، وَصَحَّحَهُ الحاكم ووافقه الذهبي.

● ولفظ ابن حبان: «من أظل رأس غاز، أظله اللَّه يوم القيامة، ومن جَهَّزَ غازيًا في سبيل اللَّه لجهاده، فله مثل أجره، ومن بنى مسجدًا يُذْكَرُ فيه اسم الله، بنى اللَّه له بيتًا في الجنة».

(١١٧) عن خُرَيْم بن فاتك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل اللَّه كُتِبَتْ له بسبع مئة ضعف»[(١)].

(١١٨) عن زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من جَهَّزَ غازيًا في سبيل اللَّه فقد غزا، ومن خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا»[(٢)].

(١١٩) وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول اللَّه ﷺ: «من جَهَّزَ غازيًا في سبيل الله، أو خلفه في أهله، كُتِبَ له مثل أجره حتى أنه لا ينقص من أجر الغازي شيء»[(٣)].

(١٢٠) وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن رسول اللَّه ﷺ بعث إلى بني لحيان: ليَخْرج من كل رجلَيْن رجل. ثم قال للقاعد: أيُّكم خلف الخارج في أهله فله مثل أجره»[(٤)].

● وعند ابن حبان: **«أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر**

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي والترمذي وقال «حديث حسن»، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد. وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٢٣٦).

(٢) رواه البخاري (٢٤٨٣)، ومسلم (١٨٩٥)، وأبو داود (٢٥٠٩)، والترمذي (١٦٢٨)، والنسائي (٤٦/٦)، وأحمد (١١٥/٤، ١١٦، ١١٧) (١٩٣/٥)، والطيالسي (٩٥٦)، وابن حبان (٤٦٣١- الإحسان).

(٣) **إسناده صحيح على شرط مسلم**: رواه أحمد (١١٤/٤، ١١٥، ١١٦) (١٩٢/٥)، والحميدي (٨١٨)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٢٨)، والدارمي (٢٠٩/٢)، والترمذي (١٦٢٩)، وابن ماجه (٢٧٥٩)، ولم يذكر خلفه في أهله، والطبراني في «الكبير» (٥٢٦٧، ٥٢٦٨، ٥٢٧٠، ٥٢٧١ إلى ٥٢٧٧)، وفي المعجم الصغير (٨٣٦)، والبيهقي (٢٤٠/٤)، وابن حبان (٤٦٣٠- الإحسان) واللفظ له.

(٤) رواه مسلم (١٨٩٥)، وأبو داود (٢٥١٠)، والحاكم (٨٢/٢) وَصَحَّحَهُ، ووافقه الذهبي، وأحمد (٨٢/٢)، وابن الجارود في «المنتقى» (١٠٣٨) وابن حبان (٤٦٢٩).

الخارج».

(١٢١) وعن زيد بن خالد الجهني، عن النبي ﷺ قال: «من جهز غازيًا في سبيل اللَّه أو خلفه في أهله، كُتِب له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجره شيء، ومن فطر صائمًا كُتِب له مثل أجره لا ينقص من أجره شيء»(١).

(١٢٢) وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من جَهَّزَ غازيًا في سبيل اللَّه فله مثل أجره، ومن خلف غازيًا في أهله بخير وأنفق على أهله فله مثل أجره»(٢).

(١٢٣) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أفضل الصدقات ظل فسطاط في سبيل الله، ومِنْحةُ خادمٍ في سبيل الله، أو طروقة فحل في سبيل الله»(٣).

(١٢٤) وعن ابن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «للغازي أجره، وللجاعل أجره وأجر الغازي»(٤).

(١٢٥) وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يُخلف رجلًا من

---

(١) **إسناده صحيح**: رجاله ثقات رجال الصحيح، رواه ابن حبان في «صحيحه» (٤٦٣٣ - الإحسان).

(٢) **حسن**: رواه الطبراني في «الأوسط»، وقال المنذري والهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وحَسَّنَهُ الألباني في «الصحيحة» (٣٣٥٦)، و«صحيح الترغيب» (١٢٣٩).

(٣) **حسن**: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
«طروقة الفحل» - بفتح الطاء -: هي الناقة التي صلحت لطرق الفحل، وأقل سنها ثلاث سنين وبعض الرابعة، وهذه هي «الحُقة» ومعناه: أن يُعطي الغازي خادمًا أو ناقة هذه صفتها، فإن ذلك أفضل الصدقات.

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود، وأحمد، والطحاوي وأبو عوانة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (٢١٥٣)، والجاعل هو المجهزُ للغازي تطوعًا.

المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة، فقيل له: قد خلفك في أهلك فخذ من حسناته ما شئت، فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم؟!»[(١)].

وفي لفظ آخر: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كأمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلًا من المجاهدين إلا نُصِبَ له يوم القيامة، فيُقال: يا فلان هذا فلان، فخذ من حسناته ما شئت. ثم التفت إلى أصحابه فقال: فما ظنكم ما أرى يدع من حسناته شيئًا؟!»[(٢)].

(١٢٦) وعن بريدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من قاعد يخلف مجاهدًا في أهله بسوء إلا أُقِيمَ له يوم القيامة، فيُقال له: هذا خَلفَك في أهلك بسوء، فخذ من حسناته»[(٣)].

❑ **فضل النفقة في سبيل الله:**

(١٢٧) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل اللَّه دَعَاهُ خزنة الجنة ـ كُلُّ خزنة باب ـ: أيْ فُل، هَلُمَّ». قال أبو بكر: يا رسول الله، ذاك الذي لَا تَوَى عليه. فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكون منهم»[(٤)].

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٢٣٣١)، وعنه مسلم (١٨٩٧) (١٤٠) في الإمارة: باب حرمة نساء المجاهدين، وأبو داود (٢٤٩٦)، والبيهقي (١٧٣/٩)، وأحمد (٣٥٢/٥)، والنسائي (٥١/٦)، وابن حبان (٤٦٣٤).

(٣) أحمد (٣٥٥/٥)، ومسلم (١٨٩٧)، والنسائي (٥٠/٦)، والطبراني (١١٦٤)، وابن حبان (٤٦٣٥ ـ الإحسان).

(٤) رواه البخاري (٢٨٤١)، ومسلم (٧١٢/٢، ٧١٣)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢٣٣)، والنسائي (٣١٨٤).
أي: «فُل»: ترخيم من فلان؛ كما جزم الخطابي.
لا توى: لا ضياع ولا خسارة وهو من التوى: الهلاك.

❑ من رمى بسهم وجبت له الجنة:

(١٢٨) عن عتبة بن عبد السلمي: أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «قوموا فقاتلوا»؛ فرمى رجل بسهم؛ فقال النبي ﷺ: «أَوْجب هذا»[(١)].

(١٢٩) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَن قاتل في سبيل اللَّه عز وجل فُواق ناقة وجبت له الجنة»[(٢)] وفواق ناقة: هو ما بين الحَلْبَتَيْنِ من الراحة. وقال الدارمي: هو قدر ما تدر حلْبها.

(١٣٠) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه يُدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة: صانِعَهُ يحتسب في صنعه الخير، وَالْمِدَّ بِهِ، والرامي به»[(٣)].

❑ فتح أبواب السماء وإجابة الدعاء عند الصف:

(١٣١) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ساعتان تُفَتَّحُ فيهما أبواب السماء، وَقَلَّمَا تُرَدُّ على داعٍ دعوتُهُ: عند حضور النداء، والصف في

---

(١) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (١٨٤/٤)، وعنه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٠٥/١٧)، وأخرجه - أيضًا - أحمد (١٨٣/٤)، والطبراني (٣٠٦/١٧)، وذكر اللفظَ الأولَ الهيثميُّ في «المجمع» (٥/ ٢٧٠)، وعزاه إلى أحمد والطبراني، وقال: «إسنادهما حسن»، وذكر اللفظَ الثانيَ (١٤/٧)، وَحَسَّنَهُ كذلك، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٨١/٢) باللفظ الأول، وحَسَّنَهُ كذلك.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٤١)، وأحمد (٢٣٠/٥، ٢٣١، ٢٤٤)، والنسائي (٦/ ٢٥)، والترمذي (١٦٥٧)، وابن ماجه (٢٧٩٢)، والطبراني (٢٠٤/٢٠، ٢٠٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٠/٩)، والحاكم (٧٧/٢) وقال: على شرط مسلم. والدارمي (٢٠١/٢)، وابن أبي عاصم (١٣٧)، وابن حبان (٤٦١٨ - الإحسان).

(٣) **إسناد حسن**: أخرجه الدارمي (٢٤١٠)، والطيالسي (١٠٠٦)، وابن أبي شيبة (٣٤٩/٥، ٣٥٠)، وأحمد (١٤٤/٤)، والترمذي (١٦٣٧)، وابن ماجه (٢٨١١)، والفسوي (٥٠٢/٢)، والطبراني (٩٤٠/١٧، ٩٤١)، والبيهقي في «سننه» (١٣/١٠، ١٤)، وابن عساكر في «تاريخه» ص (٥١٧)، وقد صَرَّحَ يحيى بن أبي كثير بالتحديث عند أحمد (١٤٤/٤)، وابن عساكر ص (٥٧١)؛ فَانْتَفَتْ شبهةُ تدليسِهِ لهذا الحديث.

سبيل الله»[١].

● وفي لفظ: «ثنتان لا تُرَدَّانِ ـ أَوْ قَلَّمَا يُرَدَّانِ ـ: الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضٌ بعضًا»[٢].

❑ المجاهد ضامن على الله:

(١٣٢) عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ثلاثة كلهم ضامن على اللَّه إن عاش رُزِقَ وكُفِيَ، وإن مات أدخله اللَّه الجنة: من دخل بيته فَسَلَّمَ، فهو ضامن على الله، ومن خرج إلى المسجد فهو ضامن على الله، ومن خرج في سبيل اللَّه فهو ضامن على الله»[٣].

(١٣٣) وعن عبداللَّه بن عمرو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «ست مجالس المؤمن ضامن على اللَّه ـ تَعَالَى ـ ما كان في شيء منها: في مسجد جماعة، وعند مريض، أو في جنازة، أو في بيته، أو عند إمام مقسط يُعَزِّرُهُ، ويُوَقره، أو في مشهد جهاد»[٤].

❑ الإسلام ثمانية أسهم:

(١٣٤) عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، والصوم سهم، وحج البيت سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والجهاد في سبيل اللَّه سهم، وقد خاب من لا سهم

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، وابن حبان في «صحيحه»، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/٣٨٠)، والدارقطني في «غرائب مالك»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٢٧).

(٢) **حسن**: حَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٢٧).

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود، وابن حبان في «صحيحه»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣١٩).

(٤) **حسن**: رواه الطبراني في «الكبير»، والبزار، وقال المنذري: ليس إسناده بذاك، لكن روي من حديث معاذ بإسناد صحيح. والحديث حَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٣٢٦).

له»[١].

☐ الترهيب من التكاسل عن الجهاد وتركه، أو أن يموت الإنسان ولم يحدث نفسه بالغزو:

(١٣٥) عن أبي عمران قال: «كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفًّا عظيمًا من الروم؛ فخرج إليهم من المسلمين مثلُهُمْ وأكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم؛ فصاح الناس وقالوا: سبحان الله!! يُلْقِي بيديه إلى التهلكة!!. فقام أبو أيوب فقال: يأيها الناس، إنكم لَتَأَوَّلُونَ هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار؛ لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإسلامَ وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًّا دون رسول اللَّه ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن اللَّه ـ تَعَالَى ـ قد أَعَزَّ الإسلامَ، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، وأصلحنا ما ضاع منها!!. فأنزل اللَّه ـ تَعَالَى ـ على نبيه ما يرد علينا ما قلناه: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، وكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها وتَرْكنا الغزو. فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل اللَّه حتى دُفِنَ بأرض الروم»[٢].

(١٣٦) وعن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا تبايعتم بِالْعِينَةِ[٣]، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط اللَّه عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٤].

---

(١) حسن لغيره: رواه البزار، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٣٢٤): حسن لغيره.

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وقال: حديث غريب صحيح. وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٨٨).

(٣) الْعِينَةُ: هي أن يبيع الرجلُ سلعةً بثمنٍ إلى أجلٍ إلى رجلٍ آخرَ، ثم يشتريها منه بأقل من ذلك الثمن نقدًا، وهو محرم؛ لما فيه من الاحتيال على الربا.

(٤) صحيح: رواه أبو داود، وأحمد، وابن شاهين، والطبراني في «الكبير» وابن عدي، وأبو نعيم في =

(١٣٧) وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من مات ولم يَغْزُ، ولم يحدِّثْ به نفسه؛ مات على شعبة من النفاق»[١].

(١٣٨) وعن أبي أمامة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «من لم يَغْزُ، أو يجهِّزْ غازيًا، أو يُخلفْ غازيًا في أهله بخير؛ أصابه اللَّه ـ تَعَالَى ـ بقارعة قبل يوم القيامة»[٢].

(١٣٩) وعن أبي بكر ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما ترك قوم الجهاد؛ إلا عمَّهُمُ اللَّه بالعذاب»[٣].

❏ تَغَيُّرُ بني الزمان وحديث عظيم من أعلام نبوة سيد ولد عدنان ﷺ:

(١٤٠) عن أبي عبدالرحمن عبداللَّه بن عمرو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ليأتينَّ على الناس زمان؛ قلوبهم قلوب الأعاجم؛ حب الدنيا، سُنَّتُهم سُنَّةُ الأعراب، ما أتاهم من رزق جعلوه في الحيوان، يَرَوْنَ الجهاد ضررًا، والزكاة مغرمًا»[٤].

(١٤١) قال رسول اللَّه ﷺ: «من لقي اللَّه بغير أثر من جهاد، لقي اللَّه وفيه ثلمة»[٥].

= «الحلية»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١)، و«صحيح الترغيب» (١٣٨٨).

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

(٢) **حسن**: رواه أبو داود، وابن ماجه، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٩١).

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٨٥١)، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٩٢).

(٤) **إسناده جيد ورجاله ثقات**: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٢/٣٦/١٣)، قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٥٧): وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، رجال الصحيح، غير خالد بن حميد المهري؛ قال أبو حاتم: لا بأس به، ورواه أبو يعلى في «المسند الكبير»، والحارث كما في «المطالب العالية» (ق ٢/١٠١) موقوفًا على عبدالله بن عمرو، ولا يضر؛ لأنه في حكم المرفوع؛ كما لا يخفى.

(٥) **إسناده صحيح**: أخرجه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وَضَعَّفَهُ الألباني في «ضعيف الترمذي» (٢٨٠)، و«ضعيف الجامع» (٥٨٣٣)، وَصَحَّحَ إسنادَهُ في «مشكاة المصابيح» (٣٨٣٥).

(١٤٢) وفي سنن أبي داود: «أن فتى من أسلم قال: يا رسول الله، إني أريد الجهاد وليس لي مال أتجهز به. قال: «اذهب إلى فلان الأنصاري؛ فإنه كان قد تجهز فمرض، فقل له: إن رسول اللَّه ﷺ يُقرئك السلام، وقُل: له ادفع إليَّ ما تجهَّزت به»؛ فأتاه فقال له ذلك؛ فقال لامرأته: يا فلانة، ادفعي له ما جهزتني به ولا تحبسي منه شيئًا؛ فوالله، لا تحبسين منه شيئًا فيبارك اللَّه فيه»[١].

(١٤٣) وعن ابن عمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة[٢]، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أدخل اللَّه ـ تَعَالَى ـ عليهم ذلًّا لا يرفعه عنهم، حتى يراجعوا دينهم»[٣].

(١٤٤) وفي التعليقات الرضية (٢/٤٠٥): «إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله؛ أنزل اللَّه بهم بلاء، فلا يرفعه حتى يراجعوا دينهم»[٤].

(١٤٥) قال رسول اللَّه ﷺ: «من عَلِمَ الرمي ثم تركه فليس منا، أو قد عصى»[٥].

---

(١) **صحيح:** أخرجه أبو داود في «سننه»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٤١٧).

(٢) هو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى، ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به. **انظر:** النهاية.

(٣) **صحيح:** أخرجه أحمد، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» (١١)، و«صحيح الجامع» (٦٧٥).

(٤) **إسناده صحيح:** صحح إسناده الألباني في «التعليقات الرضية» (٢/٤٠٥).

(٥) أخرجه مسلم (٦/٥٢)، وأبو عوانة (٥/١٠٢، ١٠٣)، والبيهقي في «السنن» (١٠/١٣)، والروياني في «مسنده» (١/١٦٣/١٩٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/٣١٨/٨٨٢) وليس في رواية أبي عوانة والطبراني: «أو قد عصى».

(١٤٦) قال رسول اللَّه ﷺ: «آمركم بخمس: بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، وإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلامِ من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَا جهنم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»(١).

(١٤٧) وفي كتاب «السنة، لابن أبي عاصم» (١٠٣٦): قال رسول اللَّه ﷺ: «أنا آمركم بخمس كلمات أمرني اللَّه بهن: السمع، والطاعة، والجماعة، والهجرة، والجهاد»(٢).

(١٤٨) عن الحارث بن أبي الحارث الأشعري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ «إن اللَّه أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فكأنه أَبْطَأَ بهنَّ؛ فأوحى اللَّه إلى عيسى: «إِمَّا أَنْ يُبَلِّغَهُنَّ أو تُبَلِّغَهُنَّ»؛ فأتاه عيسى فقال له: «إنك أُمِرْتَ بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تُبَلِّغَهُنَّ وإما أن أُبَلِّغَهُنَّ»، فقال له: «يا روح الله، إني أخشى إن سبقتني أن أُعَذَّبَ أو يُخْسَفَ بي»؛ فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرفات، فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: «إن اللَّه أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن:

وأولهن: أن تعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئًا؛ فإن مثل من أشرك بالله؛ كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو وَرِقٍ، ثم أسكنه دارًا، فقال: اعمل وارفع إليَّ. فجعل العبد يعمل ويرفع إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟! وإن اللَّه خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

وأمركم بالصلاة، وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا؛ فإن اللَّه ﷻ يُقْبِلُ بوجهه

---

(١) **إسناده حسن:** حَسَّنَ إسنادَهُ الألبانيُّ في «مشكاة المصابيح» (٣٧٥٨).

(٢) **إسناده صحيح:** صحح إسناده الألباني في «تخريج كتاب السنة، لابن أبي عاصم» (١٠٣٦).

على عبده ما لم يلتفت.

وأمركم بالصيام، ومثل ذلك؛ كمثل رجل معه صرةُ مِسْكٍ في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإنَّ خَلُوفَ فم الصائم أطيب عند اللَّه من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة، ومثل ذلك؛ كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدَّموه؛ ليضربوا عنقه فقال لهم: هل لكم أن أفتدى نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فَكَّ نفسه.

وأمركم بذكر اللَّه كثيرًا، ومثل ذلك؛ كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره، فأتى حصنًا حصينًا، فأحرز نفسه فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر اللَّه ـ تَعَالَى.

وأنا آمركم بخمس أمرني اللَّه بهن: الجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله؛ فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه إلا أن يُرَاجع، ومن دعا بدعوة الجاهلية فهو من جُثَاء جهنم، وإن صام وزعم أنه مسلم، فادعوا بدعوة اللَّه التي سَمَّاكُمْ بها المسلمين المؤمنين عباد الله»[1].

(١٤٩) عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أُعْطِيتُ ما لم يُعْطَ أحد من الأنبياء. فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟! قال: نُصِرْتُ بالرعب، وَأُعْطِيتُ مفاتيح الأرض، وَسُمِّيتُ أحمد، وَجُعِلَ الترابُ لي طهورًا، وجُعِلَتْ أمتي خير الأمم»[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد، والبخاري في «التاريخ»، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرك»، والطيالسي، وابن خزيمة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٧٢٤) و«صحيح الترغيب» (٥٥٣)، و«تخريج المشكاة» (٣٦٩٤)، وقال الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في «الصحيح المسند» (٢٩٥): صحيح على شرط مسلم.

(٢) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (٩٨/١)، والبيهقي في «السنن» (٢١٣/١، ٢١٤)، وَحَسَّنَ إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٩٣٩).

● وعند الشيخين: «بُعِثْتُ بجوامع الكلم، وَنُصِرْتُ بالرعب، وبينا أنا نائم أُتِيتُ بمفاتيح خزائن الأرض، فَوُضِعَتْ بين يدي».

(١٥٠) وعن جندب بن سفيان: «أن رسول اللَّه ﷺ كان في بعض المشاهد قد دَمِيَتْ إِصْبَعُهُ فقال: هل أنت إلا إصبَعٌ دَمِيتِ وفي سبيل اللَّه ما لَقِيتِ»[١].

(١٥١) وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان يوم الأحزاب ـ وفي رواية: يوم الخندق[٢] ـ ينقل معنا التراب، ولقد وَارَى الترابُ بياضَ بطنِهِ ـ وفي رواية: شعر صدره[٣] ـ و[كان رجلًا كثير الشعر][٤]**، وهو** [يرتجز برجز عبداللَّه بن رواحة][٥]**؛ وهو:**

واللَّه لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينة علينا ... [وثبت الأقدام إن لَاقينا][٦]

إن الأُلى قد أَبَوا ـ وفي رواية: بَغَوا[٧] ـ علينا

إذا أرادوا فتنة أبينا [أبينا][٨]

ويرفع بها صوته»[٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٢) والسياق له، ومسلم (١٨١/٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٢٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٥٣٣)، وعنه ابن حبان في «صحيحه» (٦٥٤٣)، وكذا ابن السني في «عمله» (٥٠٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨٦/٢/ ١٧٠٨).

(٢) رواية البخاري.

(٣) رواية البخاري، وأحمد، والبيهقي.

(٤) عند البخاري والبيهقي.

(٥) عند البخاري، وأحمد، والبيهقي.

(٦) عند البخاري، وأحمد.

(٧) عند البخاري.

(٨) عند البخاري.

(٩) أخرجه البخاري (٢٨٣٧، ٤١٠٦، ٦٦٢٠، ٧٢٣٦)، ومسلم (١٨٧/٥، ١٨٨)، والدارمي (٢/ ٢٢١)، وابن حبان (٤٥١٨ـ الإحسان)، والبيهقي (٤٣/٧)، وفي «الدلائل» (٤١٣/٣، ٤١٤)، وابن أبي شيبة (٤١٩/١٤)، وأحمد (٢٨٢/٤، ٢٨٥، ٢٩١، ٣٠٠، ٣٠٢)، والطيالسي (٧١٢/٩٧)، وأبو يعلى (١٧١٦/٣).

(١٥٢) **وقال ﷺ «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد وَنِيَّةٌ، وإذا اسْتُنْفِرْتُمْ فانفروا»** [١].

وعند البخاري عن مجاشع بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «**لا هجرة بعد فتح مكة**».

(١٥٣) **وقال رسول اللَّه ﷺ «إن الهجرة لا تنقطع ما دام الجهاد»** [٢].

(١٥٤) **وقال رسول اللَّه ﷺ «الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الحبشة، والجهاد والهجرة في المسلمين، والمهاجرين بعد»** [٣].

(١٥٥) **وفي سنن أبي داود: «أن رجلًا قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل اللَّه وهو يبتغي عرضًا من عرض الدنيا؟! فقال رسول اللَّه ﷺ لا أجر لَهُ!! فَأَعْظَمَ ذلك الناس؛ قالوا للرجل: عُدْ لرسول اللَّه ﷺ فلعلك لم تفهمه. فقال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل اللَّه وهو يبتغي عرضًا من عرض الدنيا؟! فقال: لا أجر له!! فقالوا للرجل: عُدْ لرسول اللَّه ﷺ فقال له في الثالثة؛ فقال له: لا أجر له!!»** [٤].

(١٥٦) **عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى اسْتُشْهِدْتُ. قال: كذبتَ؛ ولكنك قاتلتَ؛ لأن يُقال: فلان جريء، فقد قيل.**

---

(١) أخرجه مسلم عن عائشة، وأحمد والنسائي عن صفوان بن أمية، وأحمد والترمذي والنسائي عن ابن عباس.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد عن جنادة، ورواه أحمد والطحاوي وابن حبان والخطيب عن عبدالله بن السعدي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٩٩١).

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد، والطبراني في «الكبير»، وابن أبي عاصم، وابن عساكر عن عتبة بن عبد، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٤٢)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (١٨٥١).

(٤) **حسن**: رواه أبو داود في «سننه»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح أبي داود» رقم (٣١٩٦).

ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِيَ في النار..»[١].

(١٥٧) قال رسول اللّه ﷺ: «أفضل الجهاد من عُقِرَ جواده وأهريق دمه»[٢].

* * *

(١) رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة.

(٢) **حسن بمجموع الطرق**: أخرجه أحمد من طريقين عن عمرو بن عبسة مرفوعًا (٣٨٥/٥)، (١٨٧/٥) في أثناء حديث (٣٨٥/٥)، فهذا القدر منه حسن بمجموع الطريقين. قاله الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٥٥٢).

الفصل الرابع

إِعْلَامُ النُّبَلَاءِ بِفَضْلِ الشَّهَادَةِ وَالشُّهَدَاءِ

يا ويحَ نفسي وما ارتفعت بنا هِمَمٌ — إلى الجنان وَتَالِي القوم أوَّابُ
إلى كواعب للأطراف قاصرةٍ — وظل طوبى وعطر الشدو يَنْسَابُ
إلى قناديلِ ذَهَبٍ عُلِّقَتْ شرفًا — بعرش ربي لمن قُتِلُوا وَمَا غَابُوا

إِعْلَامُ النُّبَلَاءِ بِفَضْلِ الشَّهَادَةِ وَالشُّهَدَاءِ

الشهادة أعلى فضائل الإنسان، ارتقت معه إلى ذروتها العليا، واستعد بها النوع البشري لفهم العقيدة والإيمان، والشهادة حيث وُجدت مقرونة بفضيلة الفداء وبذل النفس والنفيس في سبيل اللَّه أقول في هذا:

يا ويحَ نفسي وما ارتفعت بنا هِمَمٌ ... إلى الجنانِ وَتَالِي القومِ أَوَّابُ
إلى كواعب للأطراف قاصرةٍ ... وظل طوبى وعطر الشدو يَنْسَابُ
إلى قنابل ذهب عُلِّقَتْ شرفًا ... بعرش ربي لمن قُتِلُوا وَمَا غَابُوا[١]

الشهيد من يُشهد اللَّه على صدقه وإنْ كذَّبه الناس، وخسر عندهم الحياة وحسن الأحدوثة على الأفواه بعد الحياة.

والشهيد من يبذل حياته في سبيل الحق، أو من يذهب مظلومًا في سبيله صابرًا غير متزعزع ولا ناكص على عقبيه.

والشهيد في الرفيق الأعلى، مع النبيين والصديقين والصالحين..

غاية لا يبلغها كل طالب ولا يطلبها كل من شاء، إلا أن يشاءها بما هي أهله من عدة الخلق والبصيرة والإيمان.

هذي بساتين الجنان تزيَّنتْ ... للطالبين فأين من يرتادُ

الشهيد ومعاني الشهادة:

«**اختُلِفَ في سبب تسمية الشهيد شهيدًا:**

فقال النضر بن شُمَيْلٍ: لأنه حي فكأن أرواحهم شاهدة؛ أي: حاضرة.

وقال ابن الأنباري: لأن اللَّه وملائكته يشهدون له بالجنة.

وقيل: لأنه يشهد عند خروج روحه ما أُعِدَّ له من الكرامة.

---

(١) الأبيات لسيد حسين العفاني.

وقيل: لأنه يشهد له بالأمان من النار.

وقيل: لأن عليه شاهدًا بكونه شهيدًا.

وقيل: لأنه لا يشهده عند موته إلا ملائكة الرحمة.

وقيل: لأنه الذي يشهد يوم القيامة بإبلاغ الرسل.

وقيل: لأن الملائكة تشهد له بحسن الخاتمة.

وقيل: لأن الأنبياء تشهد له بحسن الاتباع.

وقيل: لأن اللَّه يشهد له بحسن نيته وإخلاصه.

وقيل: لأنه يشاهد الملائكة عند احتضاره.

وقيل: لأنه يشاهد الملكوت من دار الدنيا ودار الآخرة.

وقيل: لأنه مشهود له بالأمان من النار.

وقيل: لأن عليه علامةً شاهدةً بأنه قد نجا.

وبعض هذه يختص بمن قُتِلَ في سبيل الله، وبعضها يعم غيره، وبعضها قد ينازع فيه[1].

قالوا: الشهيد بمعنى الشاهد؛ والشاهد: هو الحاضر في الجنة، وقال القربي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: وهذا هو الصحيح[2].

وقال ابن فارس في «**معجم مقاييس اللغة**»: «الشهيد القتيل في سبيل الله، وسُمِّيَ بذلك: إما لأن الملائكة تشهده، وإما لأنه شهد على نفسه لله عَزَّ وَجَلَّ حتى لزمه الوفاء بالبيعة التي بايع الله عليها والتي أشار لها في قوله - تَعَالَى - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ

---

(١) فتح الباري (٦/٥١).

(٢) عشاق الحور وطُلَّاب دار السرور، لإبراهيم محمد العلي ص (٤١)، دار النفائس.

وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١].

❑ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ﴾:

قال ابن القيم ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «إن الشهادة عند اللَّه من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقرَّبون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو ـ سُبْحَانَهُ ـ يُحِبُّ أن يتخذ من عباده شهداء، تُرَاقُ دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحبته على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المقتضية إليها من تسليط العدو»[(١)].

وقد دلت الشهادة باسمها على معناها الرفيع: الشهادة هي الحضور، والشهيد حاضر في ساعة الروع حين يغيب الخائف الحريص على الحياة، والشهيد حاضر بذكراه، والشهيد حاضر بآثاره وآثار أعماله وهي حية لا تموت.

والشهادة فضيلة عزيزة لا ينالها كل طامع فيها ولا يدركها إلا من هو أهل لها، مستحق للإيمان بها، صابر على شدائدها وأهوالها.

الشهادة درجة عالية لا يهبها اللَّه إلَّا لمن يستحقها...

إنها اختيار من العلي الأعلى للصفوة من البشر؛ ليعيشوا مع الملإ الأعلى؛ حيث قال ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

إنها اختيار واتخاذ واصطفاء للأفذاذ النبلاء من البشر؛ ليكونوا في صحبة الأنبياء؛ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩].

❑ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ﴾:

هو تعبير عجيب عن معنى عميق...

---

(١) زاد المعاد (٣/٢٢١، ٢٢٢).

إن الشهداء لمختارون؛ يختارهم اللَّه من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه ـ سُبْحَانَهُ ـ، فما هي رزية ـ إِذَنْ ـ ولا خسارة أن يُسْتَشْهَدَ في سبيل اللَّه مَنْ يُسْتَشْهَدُ!!

إنما هي اختيار وانتقاء، وتكريم واختصاص.. إن هؤلاء هم الذين اختصهم اللَّه ورزقهم الشهادة؛ ليستخلصهم لنفسه ـ سُبْحَانَهُ ـ، ويخصهم بقربه.

ثم هم شهداء يتخذهم الله، ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس... يستشهدهم فيؤدون الشهادة...

يؤدونها أداء لا شبهة فيه، ولا مطعن عليه، ولا جدال حوله...

يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق، وتقريره في دنيا الناس...

يطلب اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ منهم أداء هذه الشهادة:

على أن ما جاءهم من عنده الحق..

وعلى أنهم آمنوا به، وتجردوا له، وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه..

وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق..

وعلى أنهم هم استيقنوا هذا؛ فلم يألوا جهدًا في كفاح الباطل، وطرده من حياة الناس، وإقرار هذا الحق في عالمهم، وتحقيق منهج اللَّه في حكم الناس..

يستشهدهم اللَّه على هذا كله فيشهدون، وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت، وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال!!

إذا اقتضى الأمر أن يموت في سبيله؛ فهو ـ إِذَنْ ـ شهيد؛ أي: شاهد، طَلَبَ اللَّه إليه أداء هذه الشهادة فأدَّاها، واتخذه اللَّه شهيدًا، ورزقه هذا المقام..

هذا فقه ذلك التعبير العجيب ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾[1].

---

(١) الظلال (١/٤٨١، ٤٨٢).

❑ **لله ما أحلاها من كلمة!!**

«الشهيد هو الذي يقدم شهادة من روحه ودمه أن دين اللَّه أغلى عنده من حياته؛ ولذلك يبذل روحه وحياته فداءً لدين الله!!».

يا شهيدًا رفع اللَّه به ... جبهة الحق على طول المدى
سوف تبقى في الحنايا عَلَمًا ... حاديًا للرَّكب رمزًا للفدى
ما نسينا أنت قد علمتنا ... بسمة المؤمن في وجه الردى

إن الناس يعيشون ويموتون، لكن الشهداء يعيشون ويعيشون!!

إن الناس يعيشون؛ ليموتوا، ولكن الشهداء يموتون؛ ليعيشوا!!

إنهم الذين يحسنون طريقة الموت.. الواحد منهم آنِسٌ بالموت من الطفل بثدي أمه!!

إنهم الذين يخطُّون تاريخ الأمم؛ لأن صروح المجد لا تُبْنَى إلا بجماجمهم وأشلائهم، وهم الذين يحفظون شجرة هذا الدين من أن تضمحل أو تذوى؛ لأن شجرة هذا الدين لا تُرْوَى إلا بالدماء، وهم الخالدون بذكرهم في الأرض والسماء، وبذكرهم تحيا القلوب؛ لأنهم قُتِلُوا؛ لتحيا أممهم، ويَحْيَونَ هم أنفسهم، هؤلاء هم عُشَّاق الموت الذين تُبْنَى بهم الحياة؛ فهم يبحثون عن الموت، ويبغونه في مظانه؛ ليبعثوا الحياة في أممهم وفي الأجيال التي تأتي من بعدهم؛ كما قال ﷺ: «**مِنْ خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هَيْعَةً أو فَزْعَةً طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانَّهُ...**»(١).

فهم يبتغون الموت مظانَّهُ؛ أي: أنهم حيثما ظنوا مكان الموت أسرعوا إليه ومضوا مسرعين يطلبونه.

ما العيش إلا معهم، وقربهم حياة للأرواح، وبذكرهم تطيب المجالس وتحيا القلوب.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٩).

تضيق بنا الدنيا إذا غبتم عنا … وتزهق بالأشواق أرواحنا منا

بعادكم موتٌ وقربكم حيا … ولو غبتم عنا ولو نفسًا متنا

نعيش بذكراكم ونحيا بقربكم … ألا إن تذكار الأحبة ينعشنا

الشهادة في سبيل اللَّه مرتبة سامية ورتبة عظيمة، لا يُلَقَّاهَا إلا ذو حظ عظيم، ولا ينالها إلا كفؤ ماجد نبيل كريم، سبقت له من ربه الحسنى والفوز المقيم.

□ فَحَيَّهَلَا إن كنت ذا همة... إلى الشهادة وبلوغ أعلى الجنَّة:

قال - تَعَالَى -: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١].

قال ابن كثير: «يخبر - تَعَالَى - أنه عَاوَضَ عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه؛ فإنه قَبِلَ العوض عما يملكه بما تفضَّل به على عباده المطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم - واللَّه - فأغلى ثمنهم.

وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله عَزَّ وَجَلَّ في عنقه بيعة، وَفَّى بها أو مات عليها، ثم تَلَا هذه الآية؛ ولهذا يُقَالُ: من حمل في سبيل اللَّه بايع الله؛ أي: قَبِلَ هذا العقد وَوَفَّى بِهِ.

وقال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبداللَّه بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**» قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآية.

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾؛ أي: سواء قَتَلُوا أو

قُتِلُوا أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء في «**الصحيحين**»: «**وَتَكَفَّلَ اللَّه لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلًا ما نال من أجر أو غنيمة**»[1].

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار؛ وهي: التوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد ـ صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾؛ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد، وَوَفَّى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم»[2].

هم العُصبة المُثْلى ولولا جراحُهم ... لظلَّ بهيمُ الليل كالموج عاتيا
وظلَّت خفافيشُ الظلام تَنُوشُني ... وظلَّتْ كلابُ الأرضِ تَوْلَغُ إنَائِيا
إلى اللَّه أمضي والجهاد يَهُزُّني ... أُسَدِّدُ فيه السهمَ يومًا وثانيا
لعلي إذا ما مِتُّ ألقاه راضيا ... وألقى أحبائي هناك وجاريا
كرامًا على درب الجهاد توسَّدوا ... ترابًا يفوح المسكَ ريَّان قانيا[3]

«جعل ـ سُبْحَانَهُ ـ هاهنا الجنة ثمنًا لنفوس المؤمنين وأموالهم؛ بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد وأكده بأنواع من التأكيد:

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب فرض الخمس (٣١٢٣)، وصحيح مسلم ـ كتاب الإمارة رقم (١٨٧٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٩١، ٢٩٢)، طبعة أولاد الشيخ.
(٣) إنها الصحوة .. إنها الصحوة، لمحمود مفلح ص (٤٤)، دار الوفاء.

أحدها: إخبارهم ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ بصيغة الخبر المؤكد بأداة «**إن**».

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضي الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه ـ سُبْحَانَهُ ـ، وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعدًا لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة «**على**» التي للوجوب؛ إعلامًا لعبادة بأن ذلك حق عليه أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد على ذلك بكونه حقًّا عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه أفضل كتبه المنزلة من السماء؛ وهي: التوراة، والإنجيل، والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة «**استفهام الإنكار**»، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه ـ سُبْحَانَهُ ـ.

التاسع: أنه ـ سُبْحَانَهُ ـ أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد ويبشر به بعضهم بعضًا بشارة مَنْ قد تَمَّ له العقد ولزم؛ بحيث لا يثبت فيه خيار ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخبارًا مؤكدًا بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم، والبيع ههنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن؛ وهو: الجنة، وقوله: ﴿بَايَعْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: عَاوَضْتُمْ وَثَامَنْتُمْ به، ثم ذكر ـ سُبْحَانَهُ ـ أهل هذا العقد الذي وقع العقد، وتم لهم دون غيرهم[1].

❑ لله در ابن القيم من إمام رباني:

يقول ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «أخبر ـ سُبْحَانَهُ ـ أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وَأَعَاضَهُمْ عليها الجنة، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه

---

(١) حادي الأرواح، لابن القيم (٧٥، ٧٦).

المنزلة من السماء؛ وهي: التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أَكَّدَ ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ، ثم أَكَّدَ ذلك بِأَنْ أَمَرَهُمْ بأن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم، فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع، ما أعظم خطرَهُ وأجلَّهُ؛ فإن اللَّه عَزَّوَجَلَّ هو المشتري، والثمن جنات النعيم والفوز برضاه والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من «**الملائكة والبشر**»، وإن سلعةً هذا شأنُهَا لقد هُيِّئَتْ لأمر عظيم وخطبٍ جسيم».

قد هَيَّئُوكَ لأمر لو فَطِنْتَ له ... فَارْبَأْ بنفسِك أن ترعى مع الهَمَلِ[1]

مَهْرُ المحبة والجنة بذلُ النَّفس والمال لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين، فما للجبانِ الْمُعْرِضِ الْمُفْلِسِ وَسَوْمِ هذه السلعةِ، باللَّه ما هُزِلَتْ فَيَسْتَامُهَا المفلسون، ولا كَسَدَتْ فيبيعها بالنسيئة الْمُعْسِرُونَ، لقد أُقيمت للعرض في سوق من يُريد، فلم يرض ربُّها لها بثمن دون بذل النفوس؛ فَتَأَخَّرَ الْبَطَّالون، وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن يكون نفسه الثمن، فدارت السلعة بينهم، ووقعت في يد ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثر المدَّعون للمحبة، طُولِبُوا بإقامةِ البينة على صحة الدعوى، فلو يُعْطَى الناس بدعواهم، لَادَّعَى الخليُّ حُرْقَةَ الشجيِّ، فتنوَّع المدَّعون في الشهود؛ فقيل: لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ فتأخر الخلق كلهم، وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه، فَطُولِبُوا بعدالة البيِّنة وقيل: لا تُقْبَلُ العدالة إلا بتزكية: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ فَتَأَخَّرَ أكثر المدَّعين للمحبة، وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فسلموا ما وقع عليه العقد؛ فإن اللَّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وعقد التبايع

(١) هو آخر بيت من «لامية العجم»، للطغرائي.

يُوجب التسليم من الجانبين، فلما رأى التجار عظمة المشتري، وَقَدْرَ الثمن، وجلالةَ قَدْرِ من جرى عقد التبايع على يديه، ومقدارَ الكتاب الذي أثبت فيه هذا العقد، عرفوا أن للسلعة قدرًا وشأنًا ليس لغيرها من السِّلَع؛ فرأوا من الخسران البيِّن والغَبْن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة، تذهب لذتها وشهوتها وتبقى تِبِعَتُهَا وَحَسْرَتُهَا؛ فإن فاعل ذلك معدود في جملة السفهاء، فعقدوا مع المشتري بيعةَ الرِّضوان رِضًى واختيارًا من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله، لا نقيلكَ ولا نستقيلك، فلما تَمَّ العقد، وسلموا المبيع، قيل لهم: قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفرَ ما كانت وأضعاف أموالكم معها ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ٦٩]، لم نبتع منكم نفوسكم وأموالكم طلبًا للربح عليكم؛ بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المعيب والإعطاء عليه أَجَلَّ الأثمان، ثم جَمَعْنَا لكم بين الثمنِ والمثمَّنِ.

تأمل قصة جابر بن عبدالله «وقد اشترى منه ﷺ بعيره، ثم وَفَّاهُ الثمنَ وزاده، وَرَدَّ عليه البعير»[(١)]، وكان أبوه قُتِلَ مع النبي ﷺ في وقعة أحد، فذكَّره بهذا الفعل حال أبيه مع الله، وأخبره «**أن الله أحياه، وَكَلَّمَهُ كِفَاحًا وقال: يا عبدي تَمَنَّ عليّ**»[(٢)]، فسبحان من عَظُمَ جودُهُ وكرمُهُ أن يُحيط به علمُ الخلائق؛ فقد أعطى السلعة، وأعطى الثمن، وَوَفَّقَ لتكميل العقد، وَقَبِلَ المبيع على عيبه، وَأَعَاضَ عليه أَجَلَّ الأثمان، واشترى عبده من نفسه بما له، وجمع له بين الثمن والْمُثَمَّنِ، وأثنى عليه، ومدحه بهذا العقد، وهو ـ سُبْحَانَهُ ـ الذي وَفَّقَهُ له، وشاءه منه:

فَحَيَّهَلَا إِنْ كنتَ ذا هِمَّةٍ فقدْ ... حَدَا بكَ حادي الشوقِ فَاطْوِ المراحِلا

(١) أخرجه البخاري (٣/٣٩٥) في الوكالة، (٥/٤٠) في الاستقراض، (٨٤) في المظالم، (٢٢٩، ٢٣٦) في الشروط، (٦/٤٩، ٥٠) في الجهاد؛ ومسلم (٧١٥)؛ والترمذي (١٢٥٣)؛ وأبو داود (٥ : ٣٥)؛ والنسائي (٧/٢٩٧ ـ ٣٠٠)؛ وابن ماجه (٢٢٠٥).

(٢) **سنده حسن:** أخرجه الترمذي (٣٠١٣)، وابن ماجه (١٩٠، ٢٨٠٠) من حديث جابر بن عبدالله.

وقـل لمنـادي حُـبِّهـم ورِضَـاهُـم إذا ما دَعَا لَبَّيْكَ أَلْفًا كَوَامِلا
ولا تَنْظُرِ الأطلالَ مِن دُونِهم فإنْ نَظَرْتَ إلى الأطلالِ عُدْنَ حوائِلا
ولا تنتظرْ بالسيرِ رِفْقَةَ قاعدٍ وَدَعْهُ فإنَّ الشَّوْقَ يَكْفِيكَ حَامِلا
وخُذْ مِنْهُمْ زادًا إليهم وَسِرْ على طريقِ الهدى والحُبِّ تُصْبِحْ واصِلا
وأَحْيِ بذكراهم شِرَاكَ إذا دَنَت ركابُك فالذكرى تُعيدُك عَامِلا
وَإمَّا تَخافَنَّ الكَلالَ فَقُلْ لها أمامَكِ وِرْدُ الوَصْل فابغِي المَناهِلا
وَخُذْ قَبَسًا مِن نورهمْ ثُمَّ سِرْ به فنُورُهُـمْ يهديك ليسَ المشاعلا
وَحَيِّ على وادي الأَرَاكِ فَقِلْ بِهِ عَسَاكَ تراهُمْ ثَمَّ إنْ كنتَ قَائِلَا
وإلَّا ففي نَعْمَانَ عندي مُعَرَّفُ الأَ حِبَّةِ فَاطْلُبْهُمْ إذا كنتَ سَائِلَا
وإلَّا فـفـي جَـمْـعٍ بِلَيْلَتِهِ فَإنْ تَفُتْ فَمِنًى يا ويحَ مَن كانَ غَافِلا
وَحَيِّ على جناتِ عَدْنٍ فَإنَّها مَنَازِلُكَ الأُولَى بها كُنتَ نازِلا
ولكن سَبَاكَ الكاشحون لِأَجْلِ ذَا وقفتَ على الأطلالِ تبكي المنازلا
وحَيِّ على يومِ المزيدِ بجنةِ الـ ـخُلُودِ فَجُدْ بالنفس إنْ كنتَ باذلا
فَدَعْهَا رُسومًا دارساتٍ فما بها مَقِيلٌ وَجَاوِزْهَا فليستْ منازِلا
رُسُومًا عَفَتْ يَنْتَابُهَا الخلقُ كَمْ بِها قتيلٌ وكم فيها لِذَا الخلقِ قاتلا
وخُذْ يُمْنَةً عَنْهَا على المنهج الذي عليه سَرَى وَفْدُ الأحِبَّةِ آهِلا
وَقُلْ ساعدي يا نفسُ بالصبرِ ساعةً فعِنْدَ اللِّقَا ذَا الكَدِّ يُصبحُ زائلا
فما هِيَ إلا ساعةٌ ثم تَنْقَضِي وَيُصْبِحُ ذو الأحزانِ فَرْحَانَ جاذلا

لقد حَرَّكَ الداعي إلى اللَّه وإلى دار السلام النفوسَ الأبية والهمم العالية، وأسمع منادي الإيمان مَنْ كانت له أذن واعية، وأسمع اللَّه من كان حيًّا؛ فَهَزَّهُ السماع إلى منازل الأبرار، وَحَدَا به في طريق سيره؛ فما حَطَّتْ به رحاله إلا بدار القرار؛ فقال: «**انتدب اللَّه لمن خرج في سبيله، لا يُخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية،**

ولوددت أني أُقْتَلُ في سبيل اللَّه ثم أحيا، ثم أُقْتَلُ ثم أحيا، ثم أُقْتَلُ»[١] اهـ[٢].

فَأَعْظِمْ بها ميتةً تَمَنَّاهَا رسول اللَّه ﷺ!!

فهل لك من شوق إليها؟!

رزقنا اللَّه وإياك شهادةً في سبيله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾:

«هذا النص الذي تلوتُهُ من قَبْلُ وسمعتُهُ ما لا أستطيع عَدَّهُ من المرات، في أثناء حفظي للقرآن، وفي أثناء تلاوته، وفي أثناء دراسته بعد ذلك في أكثر من ربع قرن من الزمان..

هذا النص حين واجهتُهُ في «الظلال» أحسستُ أنني أدرك منه ما لم أدركه من قَبْلُ في المرات التي لا أملك عَدَّهَا على مدى ذلك الزمان!!

إنه نص رهيب!!

إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله، وعن حقيقة البيعة التي أعطوها ـ بإسلامهم ـ طوال الحياة!! فمن بايع هذه البيعة وَوَفَّى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف «**المؤمن**» وتتمثل فيه حقيقة الإيمان.

حقيقة هذه البيعة ـ أو هذه المبايعة؛ كما سماها اللَّه كرمًا منه وفضلًا وسماحة ـ أَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ قد استخلص لنفسه أنفسَ المؤمنين وأموالهم؛ فلم يَعُدْ لهم منها شيء.. لم يَعُدْ لهم أن يَسْتَبْقُوا منها بقيةً لا ينفقونها في سبيله.. لم يَعُدْ لهم خيارٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٦/١) في الإيمان ـ باب الجهاد من الإيمان، وفي الجهاد ـ قول النبي ﷺ: «أُحِلَّت لكم الغنائم»، وفي التوحيد ـ باب قول الله ـ تَعَالَى ـ: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾، وباب قوله ـ تَعَالَى ـ: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي﴾، وأخرجه النسائي (١١٩/٨) في الإيمان ـ باب الجهاد، وابن ماجه (٢٧٥٣) في الجهاد ـ باب فضل الجهاد في سبيل الله من حديث أبي هريرة.

(٢) زاد المعاد، لابن قيم الجوزية (٧٢/٣ ـ ٧٦)، مؤسسة الرسالة.

في أن يبذلوا أو يمسكوا.. كلا.. إنها صفقة مشتراة.. لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير، ولا يناقش، ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.. والثمن: هو الجنة.. والطريق: هو الجهاد والقتل والقتال.. والنهاية: هي النصر أو الاستشهاد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.. من بايع على هذا.. من أمضى عقد الصفقة.. من ارتضى الثمن وَوَفَّى، فهو المؤمن.. فالمؤمنون هم الذين اشترى اللَّه منهم فَبَاعُوا.. ومن رحمة اللَّه أن جعل للصفقة ثمنًا، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال، ولكنه كَرَّمَ هذا الإنسان فجعله مُرِيدًا، وَكَرَّمَهُ فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها ـ حتى مع اللَّه ـ، وَكَرَّمَهُ فقيده بعقوده وعهوده؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة، ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة.. شر البهيمة.. ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.. كما جعل مناطَ الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة ـ بلا شك ـ ولكنها في عنق كل مؤمن ـ قادر عليها ـ لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه؛ ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

عونك اللهم!! فإن العقد رهيب..!!

ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين على عهد رسول اللَّه ﷺ ؛ فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم، ولم تكن

مجرد معان يتملونها بأذهانهم، أو يحسونها مجردةً في مشاعرهم.. كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها؛ لتحويلها إلى حركة منظورة، لا إلى صورة متأملة.. هكذا أدركها عبدالله بن رواحة رضي الله عنه في بيعة العقبة الثانية؛ قال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ « يعني ليلة العقبة»: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**». قال: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: «**الجنة**». قالوا: ربح البيع، ولا نقيل ولا نستقيل.

هكذا.. «ربح البيع، ولا نقيل ولا نستقيل»..

لقد أخذوها صفقةً ماضيةً نافذةً بين متبايعين، انتهى أمرها، وأمضي عقدها، ولم يَعُدْ إلى مرد من سبيل: «**لا نقيل ولا نستقيل**»؛ فالصفقة ماضيةٌ لا رجعة فيها ولا خيار.. والجنة: ثمن مقبوض لا موعود!! أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن؟ وعدًا قديمًا في كل كتبه: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾..

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾؟

أجل، ومن أوفى بعهده من الله؟

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعتق كل مؤمن.. كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله.. إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾.. ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾.. ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله، وأخذ الجنة عوضًا وثمنًا؛ كما وعد الله..

وما الذي فات؟ ما الذي فات المؤمن الذي يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة؟

والله، ما فاته شيء؛ فالنفس إلى موت.. والمال إلى فوت.. سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل اللَّه أم في سبيل سواه!!

والجنة كسب.. كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة.. فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك!!

وَدَعْ عنك رفعةَ الإنسان وهو يعيش لله.. ينتصر ـ إذا انتصر ـ؛ لإعلاء كلمته، وتقرير دينه، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه.

وَيُسْتَشْهَدُ ـ إذا اسْتُشْهِدَ ـ في سبيله؛ ليؤدي لدينه شهادةً بأنه خير عنده من الحياة.. ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة أنه أقوى من قيود الأرض، وأنه أرفع من ثقلة الأرض.. والإيمان ينتصر فيه على الألم.. والعقيدة تنتصر فيه على الحياة!!.

إن هذا وحده كسب.. كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة، وانتصار الإيمان فيه على الألم.. وانتصار العقيدة فيه على الحياة.. فإذا أضيفت إلى ذلك كله الجنة.. فهو بيع يدعو إلى الاستبشار.. وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال:

﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

واللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ يقول في كتابه المحفوظ: إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل اللَّه فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن.. فهذا ـ إِذَنْ ـ هو القول الفصل الذي ليس بعده لقائل مقال!!

إن الجهاد في سبيل اللَّه بيعةٌ معقودةٌ بعنق كل مؤمن.. كل مؤمن على الإطلاق.. منذ كانت الرسل.. ومنذ كان دين الله..

ولكن الجهاد في سبيل اللَّه ليس مجردَ اندفاعة إلى القتال؛ إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال، والمؤمنون الذين عقد اللَّه معهم البيعةَ، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصلية.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾.

توبةٌ تَكُفُّهُ عن الذنب وتدفعه إلى العمل الصالح.. وعبادةٌ تصله باللَّه وتجعل اللَّه معبوده وغايته ووجهته.. وَحَمْدٌ لله على السراء والضراء؛ نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة المطلقة برحمته وعدله.. وسياحةٌ في ملكوت اللَّه مع آيات اللَّه الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق.. وأمرٌ بالمعروفِ ونهيٌ عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة.. وحفظٌ لحدودِ اللهِ يَرُدُّ عنها العادين والمضيعين ويصونها من التهجم والانتهاك.

هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها اللَّه على الجنة، واشترى منها الأنفس والأموال؛ لتمضي مع سنة اللَّه الجارية منذ كان دين اللَّه ورسله ورسالاته، قتال في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، وقتل لأعداء اللَّه الذين يحادُّون الله، أو استشهاد في المعركة التي لا تَفْتُرُ بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية، وبين الهدى والضلال.

وليست الحياة لهوًا ولعبًا، وليست الحياة أكلًا كما تأكل الأنعام ومتاعًا، وليست الحياة سلامةً ذليلةً، وراحةً بليدةً وَرِضًى بالسلم الرخيص؛ إنما الحياة هي هذه: كفاح في سبيل الحق، وجهاد في سبيل الخير، وانتصار لإعلاء كلمة الله، أو استشهاد كذلك في سبيل الله، ثم الجنة والرضوان.

هذه هي الحياة التي يُدْعَى إليها المؤمنون بالله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾...

وصدق الله، وصدق رسول الله»[١].

أجر الشهادة ومنزلة الشهيد

لقد مَنَّ اللَّه على الشهداء بنعمٍ لا تُحْصَى، وفضائل ومآثر لا تُنْسَى، ومن أَجَلِّ هذه النعم وأعظمها أن اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ جعلهم أحياء عنده يُرزقون من الجنة حيث يشاءون.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤].

إن هنالك قتلى سيخرون شهداء في معركة الحق، شهداء في سبيل الله، قتلى أعزاء أحباء، قتلى كرامًا أزكياء؛ فالذين يخرجون في سبيل الله، والذين يضحون بأرواحهم في معركة الحق هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح وأطهر النفوس، هؤلاء الذين يقتلون في سبيل اللَّه ليسوا أمواتًا، إنهم أحياء، فلا يجوز أن يقال عنهم: أموات. لا يجوز أن يعتبروا أمواتًا في الحس والشعور، ولا أن يقال عنهم: أموات بالشفة واللسان، إنهم أحياء بشهادة اللَّه ـ سُبْحَانَهُ ـ، فهم لا بُدَّ أحياء.

إنهم قتلوا في ظاهر الأمر، وحسبما ترى العين، ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررها هذه النظرة السطحية الظاهرة.. إن سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد. وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع.. وهؤلاء الذي يقتلون في سبيل اللَّه فاعليتهم في نُصْرَةِ الحق الذي قُتلوا من أجله فاعليةٌ مؤثرةٌ، والفكرةُ التي من أجلها قُتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد، وَتَأَثُّرُ الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتد؛ فهم ما يزالون عنصرًا فعالًا دافعًا مؤثرًا في تكييف الحياة وتوجيهها، وهذه هي صفة الحياة الأولى؛ فهم أحياء أولًا بهذا الاعتبار الواقعي في

---

(١) الظلال (١٧١٦ ـ ١٧٢٠) باختصار.

دنيا الناس، ثم هم أحياء عند ربهم؛ إما بهذا الاعتبار، وإما باعتبار آخر لا ندري نحن كُنْهَهُ؛ وحسبنا إخبار اللَّه ـ تَعَالَى ـ به: ﴿أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾..

لأن كُنْهَ هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود، ولكنهم أحياء.

أحياء: ومن ثَمَّ لا يُغَسَّلُونَ كما يُغَسَّلُ الموتى، ويكفنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها؛ فالغسل تطهير للجسد الميت وهم أطهار بما فيهم من حياة، وثيابهم في الأرض ثيابهم في القبر؛ لأنهم بعد أحياء.

أحياء: فلا يشق قتلهم على الأهل والأحباء والأصدقاء.

أحياء: يشاركون في حياة الأهل والأحباء والأصدقاء.

أحياء: فلا يصعب فراقهم على القلوب الباقية خلفهم، ولا يتعاظمها الأمر، ولا يهولنها عِظَمُ الفداء.

ثم هم بعد كونهم أحياءً مكرمون عند الله، مأجورون أكرم الأجر وأوفاه.

في «**صحيح مسلم**»: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فَاطَّلَعَ عليهم ربك اطلاعةً، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيل اللَّه حتى نقتل فيك مرة أخرى ـ لما يرون من ثواب الشهادة ـ!! فيقول الربُّ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون».

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقْتَلُ عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة**»[1].

(١) أخرجه مالك والشيخان.

ولكن مَنْ هم هؤلاء الشهداء الأحياء؟

إنهم أولئك الذين يقتلون «**في سبيل الله**»..

في سبيل اللَّه وحده، دون شركة في شارة، ولا هدف، ولا غاية إلا الله. في سبيل هذا الحق الذي أنزله..

في سبيل هذا المنهج الذي شرعه..

في سبيل هذا الدين الذي اختاره..

في هذا السبيل وحده، لا في أي سبيل آخر، ولا تحت أي شعار آخر، ولا شركة مع هدف أو شعار.

وفي هذا شدد القرآن وشدد الحديث، حتى ما تبقى في النفس شبهةٌ أو خاطرٌ غير الله.

عن أبي موسى ﷺ قال: «**سئل رسول اللَّه ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال:** «**من قاتل؛ لتكون كلمة اللَّه هي العليا، فهو في سبيل الله**»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ: «**أن رجلًا قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل اللَّه وهو يبتغي عرضًا من الدنيا؟ فقال:** «**لا أجر له**»، فأعاد عليه ثلاثًا، كل ذلك يقول: «**لا أجر له**»[2].

فهؤلاء هم الشهداء، هؤلاء الذين يخرجون في سبيل الله، لا يخرجهم إلا جهاد في سبيله، وإيمان به، وتصديق برسله.

ولقد كَرِهَ رسول اللَّه ﷺ لفتى فارسي يجاهد أن يذكر فارسيته ويعتز بجنسيته في مجال الجهاد؛ عن عبدالرحمن بن أبي عقبة عن أبيه ـ وكان مولى من أهل فارس ـ قال: «شهدت مع النبي ﷺ أحدًا، فضربت رجلًا من المشركين، فقلت:

(١) أخرجه مالك والشيخان.

(٢) أخرجه أبو داود.

خذها وأنا الغلام الفارسي. فالتفت إليَّ النبي ﷺ فقال: **«هلَّا قلتَ: وأنا الغلام الأنصاري؟ إن ابن أخت القوم منهم، وإن مولى القوم منهم»** [أخرجه أبو داود].

فقد كره له ﷺ أن يفخر بصفة غير صفة النصر للنبي ﷺ، وأن يحارب تحت شارة إلا شارة النصر لهذا الدين، وهذا هو الجهاد، وفيه وحده تكون الشهادة، وتكون الحياة للشهداء.

ثم يمضي السياق في التعبئة لمواجهة الأحداث، وفي تقويم التصور لحقيقة الأحداث:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

ولا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف، والشدائد، وبالجوع، ونقص الأموال والأنفس والثمرات..

لا بد من هذا البلاء؛ ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة؛ كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف ـ والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها ـ، لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى؛ فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين، وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها، كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها.

كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها.. إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيرًا مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء، ولا صبروا عليه؛ وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها؛ وعندئذ يجيء نصر اللَّه والفتح، ويدخل الناس في دين اللَّه أفواجًا.

ولا بد من البلاء كذلك؛ ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى؛ فالشدائد تستجيش مكنونَ القوى ومذخورَ الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله الالتجاء إلى اللَّه وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى اللَّه وحده، لا يجد سندًا إلا سنده؛ وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر.. لا شيء إلا الله.. لا قوة إلا قوته.. لا حول إلا حوله.. لا إرادة إلا إرادته.. لا ملجأ إلا إليه؛ وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصريح صحيح.

والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق:

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ كلنا.. كل ما فينا.. كل كياننا وذاتيتنا.. لله، وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير.. التسليم.. التسليم المطلق.. تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهًا لوجه بالحقيقة الوحيدة وبالتصور الصحيح.

هؤلاء هم الصابرون.. الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل..

وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾.

﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نَبِيِّهِ الذي يصلي عليه هو ـ سُبۡحَانَهُ ـ وملائكته.. وهو مقام كريم.. ورحمة وشهادة من اللَّه بأنهم هم المهتدون.

وكل أمر من هذه هائل عظيم..

وَبَعْدُ.. فلا بد من وقفة أمام هذه الخاتمة في تلك التعبئة للصف الإسلامي.. التعبئة في مواجهة المشقة والجهد، والاستشهاد والقتل، والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات.. التعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف.

إن اللَّه يضع هذا كله في كِفَّةٍ. ويضع في الكِفَّةِ الأخرى أمرًا واحدًا.. ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.. إنه لا يعدهم هنا نصرًا، ولا يعدهم هنا تمكينًا، ولا يعدهم هنا مغانم، ولا يعدهم هنا شيئًا إلا صلوات اللَّه ورحمته وشهادته.. لقد كان اللَّه يُعِدُّ هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها؛ فكان من ثَمَّ يجردها من كل غاية، ومن كل هدف، ومن كل رغبة من الرغبات البشرية... كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته.. كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رِضَى اللَّه وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون.. هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها.. فأما ما يكتبه اللَّه لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنما هو لدعوة اللَّه التي يحملونها.

إن لهم في صلوات اللَّه ورحمته وشهادته جزاءً.. جزاءً على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات.. وجزاءً على الخوف والجوع والشدة.. وجزاءً على القتل والشهادة.. إن الكفة ترجح بهذا العطاء؛ فهو أثقل في الميزان من كل عطاء، أرجح من النصر، وأرجح من التمكين، وأرجح من شفاء غيظ الصدور..

هذه هي التربية التي أخذ اللَّه بها الصف المسلم؛ لِيُعِدَّهُ ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين[1].

---

(١) في ظلال القرآن (١/١٤٣ - ١٤٦).

وقال - تعَالَى - ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

(١) قال ابن كثير: «يخبر - تعَالَى - عن الشهداء بأنهم وإن قُتِلُوا في هذه الدار، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار».

(٢) عن إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل بئر معونة، قال: «لا أدري أربعين أو سبعين، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ، حتى أتوا غارًا مشرفًا على الماء فقعدوا فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال - أراه ابن ملحان الأنصاري -: أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ. فخرج حتى أتى حَيًّا منهم، فاختبأ أمام البيوت، ثم قال: يا أهل بئر معونة، إني رسولُ رسولِ الله إليكم، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله؛ فآمنوا بالله ورسوله. فخرج إليه رجل من كسر[1] البيت برمح، فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة. فاتبعوا أثره، حتى أتوا أصحابه في الغار، فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل».

(٣) وقال إسحاق: حدثني أنس بن مالك: «أن الله أنزل فيهم قرآنًا ﴿بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه﴾، ثم نُسِخَتْ فَرُفِعَتْ بعدما قرأناه

(١) أي: جانبه، ولكل بيت كسران؛ عن يمين وشمال؛ النهاية (١٧٢/٤).

زمنًا، وأنزل اللَّه ـ تعالَى ـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾؛ فقال: أَمَا إِنَّا قد سألنا عن ذلك فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل تحت العرش»[١].

(٤) وعن مسروق قال: «سألنا عبداللَّه عن هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾؛ فقال: أَمَا إِنَّا قد سألنا عن ذلك رسول اللَّه ﷺ فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، ثم قال: هل تشتهون شيئًا؟ فقالوا: أي شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن تَرُدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقْتَلَ في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»[٢].

(٥) وعن جابر رضي الله عنه قال: قال لي رسول اللَّه ﷺ: «أَمَا عَلِمْتَ أن اللَّه أحيا أباك، فقال له: تَمَنَّ عليَّ. فقال: أُرَدُّ إلى الدنيا فَأُقتل فيك مرة أخرى!! قال: إني قضيت الحكم أنهم إليها لا يرجعون»[٣].

- وعن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إخوانكم بأحد، جعل اللَّه أرواحهم في جوف طير خُضر ترد أنهار الجنة، تأكل من

---

(١) تفسير ابن جرير (٨٢٢٤/٧)، وحديث بئر معونة، أخرجه أحمد (٢١٠/٣)، والبخاري ـ كتاب الجهاد ـ باب من ينكب في سبيل الله (٢٨٠١)، ومسلم ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب استحباب القنوت (٢٩٧، ٦٧٧).

(٢) أخرجه مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة (١٢١، ١٨٨٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ـ باب «ومن سورة آل عمران» (٣٠١١)، وابن ماجه ـ كتاب الجهاد ـ باب فضل الشهادة في سبيل الله (٢٨٠١).

(٣) **حسن**: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦١/٣)، والحميدي (١٢٦٥)، (٥٣٢/٢)، وعبد بن حميد (١٠٣٩)، وأبو يعلى (٢٠٠٢) (٦/٤)، والحاكم بأطول من هذا في «المستدرك» (١١٩/٢، ١٢٠).

ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ومقيلهم[١]، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يتَّكلوا عند الحرب؟! فقال اللَّه ـ تَعَالَى ـ: أنا أبلغهم عنكم»[٢].

- وفي رواية: «قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع اللَّه لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب. فقال اللَّه عز وجل: أنا أبلغهم عنكم. فأنزل اللَّه عز وجل هؤلاء الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ وما بعدها».

(٦) وعن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾»[٣].

(٧) وعن جابر بن عبداللَّه قال: «نظر إليَّ رسول اللَّه ﷺ ذات يوم، فقال: «يا جابر، ما لي أراك مُهْتَمًّا؟! قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك دينًا وعيالًا. قال: فقال: «ألا أخبرك؟ ما كَلَّمَ اللهُ أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وإنه كَلَّمَ أباك كفاحًا؛ قال: سلني أعطك. قال: أسألك أن أُرَدَّ إلى الدنيا؛ فَأُقْتَلَ فيك

---

(١) وفي رواية: «طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم».

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/٢٦٦) (٢٣٨٩)، وبقي بن مخلد، كما في «التمهيد، لابن عبدالبر» (١١/٦١)، وأبو داود ـ كتاب الجهاد ـ باب في فضل الشهادة (٢٥٢٠)، وعنه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/١٦٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٨٨، ٢٩٧، ٢٩٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/٣٠٤)، وفي «شعب الإيمان» (٤/٤٢٤٠)، وفي «الأسماء والصفات» (٢/٧٧٥)، وفي «البعث» (٢٠١)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٥٢، ١٩٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤/٢٣٣١)، والضياء في «المختارة» (١٠/٣٧٥، ٣٧٦)، والآجري في «الشريعة» (٢/٩٨١)، وَصَحَّحَهُ الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «شرح الطحاوية» (٥٣٨)، و«المشكاة» (٣٨٥٣)، و«صحيح الجامع» (٥٢٠٥).

(٣) **صحيح**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/٣٨٧) وقال الحاكم: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

ثانية. فقال الرب ﷻ: إنه قد سبق مني القول أنهم إليها لا يرجعون. قال: أي رب، فَأَبْلِغْ من ورائي. فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ **حتى نفد الآية»**[1].

(٨) وعن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيًا»[2].

قال ابن كثير: «وكأن الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر؛ فيجتمعون هنالك، وَيُغْدَى عليهم برزقهم هناك وَيُرَاحُ، والله أعلم. وقد روينا في «مسند الإمام أحمد» حديثًا فيه بشارة لكل أحد مؤمن بأن روحه

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي في «سننه»، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة آل عمران» (٣٠١٠)، وابن ماجه في «المقدمة»، باب ما أنكرت الجهمية (١٩٠)، وكتاب الجهاد ـ باب فضل الشهادة في سبيل الله (٢٨٠٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٠٢/١)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٥٩٩/٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٣/٣، ٢٠٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٢٢/١٥)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في «الدر المنثور» (١٦٨/٢)، والواحديُّ في «أسباب النزول» ص (٨٦)، والبيهقيُّ في «دلائل النبوة» (٢٩٨/٣)، وَصَحَّحَهُ الحاكم، وقال الترمذي: حديث حسن غريب. وَصَحَّحَهُ ابن خزيمة وابن حبان.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٦/١) رقم (٢٣٩٠)، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٦٣/٤)، وابن جرير (٣٨٧/٧، ٣٨٨)، وابن أبي حاتم (٤٤٩٤/٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٨٢٥/١٠) وفي «الأوسط» (١/ ١٢٣)، وقال الطبراني: «لا يُروى هذا الحديث عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد، تَفَرَّدَ به محمد بن إسحاق، قلت: وهو صدوق مدلس، وقد صرح بالتحديث هنا؛ ولذا جَوَّدَ إسناده المصنفُ، وَصَحَّحَهُ من طريقه ابن حبان (٤٦٥٨/١٠)، والحاكم (٧٤/٢) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في موضعين من «المجمع» (٢٩٧/٥، ٣٠١)؛ قال في الأول: «رواه أحمد وإسناده رجاله ثقات، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط»، وقال في «الثاني»: «رواه أحمد والطبراني ورجاله أحمد ثقات، والحديث زاد نسبته السيوطيُّ في «الدر المنثور» (١٧١/٢) إلى عبد بن حميد، وابن المنذر، والبيهقي في البعث». وأخرجه أيضًا الضياء وَجَوَّدَ إسنادَهُ ابنُ كثير في «تفسيره» (٢٦٢/٣)، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٧٤٢)، و«الترغيب» (١٩٦/٢).

تكون في الجنة تسرح أيضًا فيها، وتأكل من ثمارها، وترى فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعدَّهُ اللَّه لها من الكرامة، وهو إسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ رواه عن محمد بن إدريس الشافعي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن مالك بن أنس الأصبحي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ، عن الزهري، عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه رضي الله عنه قال:

(٩) قال رسول اللَّه ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه اللَّه إلى جسده يوم يبعثه»(١).

قوله: يعلق: أي يأكل.

أما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر؛ فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين؛ فإنها تطير بنفسها؛ فنسأل اللَّه الكريم المنان أن يميتنا على الإسلام» اهـ. وقد ورد الحديث بلفظ آخر:

(١٠) قال رسول اللَّه ﷺ: «أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر تعلق في أشجار الجنة حتى يردها اللَّه إلى أجسادها يوم القيامة»(٢).

(١١) وعند أحمد: «إن أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر تعلق بشجر

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/٤٥٥)، ومالك في «الموطإ»، كتاب الجنائز ـ باب جامع الجنائز (١/٢٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/١٥٦)، والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٢٠٣)، والنسائي (٤/١٠٨)، وابن ماجه (٤٢٧١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/١٢٠) والآجري في «الشريعة» (٢/٩٨٠)، وأخرجه أحمد (٣/٤٥٥، ٤٥٦) (٦/٣٨٦)، والترمذي (١٦٤١)، وابن حبان (١٠/٤٦٥٧)، والطبراني (١٩/١١٩، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤)، والبيهقي (٢٠٢)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»، غير أن لفظ الرواية عنده: «إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمرة الجنة، أو شجر الجنة»، وَحَكَمَ عليها الألبانيُّ بالشذوذ في «الصحيحة» (٩٩٥).

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «المعجم» عن كعب بن مالك وأم مبشر، ورواه أحمد (٣/٤٥٥)، وصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٩١٢)، وقال: على شرط الشيخين.

الجنة»[١].

قال ابن كثير في «**تفسيره**» (٣/٢٦٣، ٢٦٤):

«**قوله - تعالَى -**: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾؛ أي: الشهداء الذين قُتِلُوا في سبيل اللَّه أحياء عند ربهم، وهم فرحون بما فيهم من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون في سبيل اللَّه أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل اللَّه الجنة.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ أي: ويسرون بلحوق من خلفهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم؛ ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب اللَّه الذي أعطاهم.

قال سعيد بن جبير: لما دخلوا الجنة، ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء، قالوا: يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة؛ فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا؛ فيصيبوا ما أصبنا من الخير. فأخبر رسول اللَّه ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم؛ أي: ربهم أني قد أنزلتُ على نبيكم، وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه، فاستبشروا بذلك؛ فذلك قوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية» اهـ.

وحول هذه الآيات كتب الأستاذ سيد قطب - رَحِمَهُ اللَّهُ - في «**الظلال**» (٥١٧- ٥١٨):

«لقد شاء اللَّه بعد أن جَلَا في قلوب المؤمنين حقيقة القدر والأجل، وتحدى ما يبثه المنافقون من شكوك وبلبلة وحسرات بقولهم عن القتلى: «لو أطاعونا ما قتلوا»، فقال يتحداهم: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (١٤٤٩)، والحربي في «غريب الحديث» (٥/١٠/٢١٠/١)، وابن منده في «المعرفة» عن كعب بن مالك، وصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٩٥).

شاء اللَّه بعد أن أراح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة أن يزيد هذه القلوب طمأنينة وراحة؛ فكشف لها عن مصير الشهداء الذين قتلوا في سبيل اللَّه ـ وليس هنالك شهداء إلا الذين يقتلون في سبيل اللَّه خالصة قلوبهم لهذا المعنى مجردة من كل ملابسة أخرى ـ؛ فإذا هؤلاء الشهداء أحياء، لهم كل خصائص الأحياء؛ فهم «يرزقون عند ربهم»، و«هم فرحون بما آتاهم اللَّه من فضله»، و«هم يستبشرون بمصائر من وراءهم من المؤمنين»، و«هم يحفلون الأحداث التي تمر بمن خلفهم من إخوانهم».. فهذه خصائص الأحياء: من متاع، واستبشار، واهتمام، وتأثر وتأثير.. فما الحسرة على فراقهم وهم أحياء موصولون بالأحياء وبالأحداث، فوق ما نَالَهُمْ من فضل الله، وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة؟ وما هذه الفواصل التي يقيمها الناس في تصوراتهم بين الشهيد الحي وَمَن خلفه من إخوانه؟ والتي يقيمونها بين عالم الحياة وعالم ما بعد الحياة؟ ولا فواصل ولا حواجز بالقياس إلى المؤمنين، الذين يتعاملون هنا وهناك مع الله.

إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصور الأمور، إنها تُعَدِّلُ ـ بل تنشئ إنشاء ـ تصورَ المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها، وهي موصولة لا تنقطع؛ فليس الموت خاتمة المطاف؛ بل ليس حاجزًا بين ما قبله وما بعده على الإطلاق!!

إنها نظرة جديدة لهذا الأمر، ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين، واستقبالهم للحياة والموت، وتصورهم لما هنا وما هناك.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

والآية نصٌ في النهي عن حسبان أن الذين قتلوا في سبيل الله، وفارقوا هذه الحياة، وبعدوا عن أعين الناس أموات.. ونصٌ كذلك في إثبات أنهم «**أحياء**».. «**عند ربهم**»، ثم يلي هذا النهي وهذا الإثبات وصفُ ما لهم من خصائص الحياة؛

فهم ﴿يُرۡزَقُونَ﴾.

ومع أننا نحن - في هذه الفانية - لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء، إلا ما يبلغنا من وصفها في الأحاديث الصحاح، إلا أن هذا النص الصادق من العليم الخبير كفيل وحده بأن يغير مفاهيمنا للموت والحياة، وما بينهما من انفصال والتئام.. وكفيل وحده بأن يعلمنا أن الأمور في حقيقتها ليست كما هي في ظواهرها التي ندركها، وأننا حين ننشئ مفاهيمنا للحقائق المطلقة بالاستناد إلى الظواهر التي ندركها لا ننتهي إلى إدراكٍ حقيقيٍّ لها، وأنه أولى لنا أن ننتظر البيان في شأنها ممن يملك البيان - سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهؤلاء ناس منا، يُقْتَلُونَ، وتفارقهم الحياة التي نعرف ظواهرها، ويفارقون الحياة كما تبدو لنا من ظاهرها، ولكن لأنهم: ﴿قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وتجردوا له من كل الأعراض والأغراض الجزئية الصغيرة، واتصلت أرواحهم بالله؛ فجادوا بأرواحهم في سبيله، لأنهم قتلوا كذلك؛ فإن اللَّه - سُبۡحَانَهُ - يخبرنا في الخبر الصادق: أنهم ليسوا أمواتًا، وينهانا أن نحسبهم كذلك، ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده، وأنهم يرزقون؛ فيتلقون رزقه لهم استقبال الأحياء.

ويخبرنا كذلك بما لهم من خصائص الحياة الأخرى:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾..

فهم يستقبلون رزق اللَّه بالفرح؛ لأنهم يدركون أنه ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ عليهم؛ فهو دليل رضاه، وهم قد قتلوا في سبيل الله، فأي شيء يفرحهم - إِذَنْ - أكثر من رزقه الذي يتمثل فيه رضاه؟

ثم هم مشغولون بمن وراءهم من إخوانهم، وهم مستبشرون لهم؛ لما علموه من رِضَى اللَّه عن المؤمنين المجاهدين: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

إنهم لم ينفصلوا من إخوانهم ﴿الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾، ولم تنقطع بهم صلاتهم؛ إنهم ﴿أَحۡيَآءٌ﴾ كذلك معهم، مستبشرون بما لهم في الدنيا والآخرة، موضع استبشارهم لهم: ﴿أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.. وقد عرفوا هذا واسْتَيْقَنُوهُ من حياتهم ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، ومن تلقيهم لما يفيضه عليهم من نعمة وفضل، ومن يقينهم بأن هذا شأن اللَّه مع المؤمنين الصادقين، وأنه ﴿لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

فما الذي يبقى من خصائص الحياة غير متحقق للشهداء الذين قُتِلُوا في سبيل الله؟

وما الذي يفصلهم عن إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم؟

وما الذي يجعل هذه النقلة موضع حسرة وفقدان ووحشة في نفس الذين لم يلحقوا بهم خلفهم وهي أولى أن تكون موضع غبطة ورضى وأُنْس عن هذه الرحلة إلى جوار الله، مع هذا الاتصال بالأحياء والحياة؟!

إنها تعديل كامل لمفهوم الموت ـ متى كان في سبيل اللَّه ـ وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم، وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم.. وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها؛ بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة، وحيث تستقر في مجال فسيح عريض، لا تعترضه الحواجز التي تقوم في أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة، ومن حياة إلى حياة!!

ووفقًا لهذا المفهوم الجديد الذي أقامته هذه الآية ونظائرها من القرآن الكريم في قلوب المسلمين سارت خطى المجاهدين الكرام في طلب الشهادة في سبيل الله».

❑ تمني الشهداء - دون غيرهم من المؤمنين - الرجوع إلى الدنيا للجهاد في سبيل اللَّه مرة أخرى؛ لما علموا من عِظَمِ أجر الشهداء:

(١٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد؛ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فَيُقْتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة»[(١)].

(١٣) وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما مِنْ نفس تموت، لها عند اللَّه خير، يَسُرُّهَا أنها ترجع إلى الدنيا، وأن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد؛ فإنه يتمنى أن يرجع؛ فَيُقْتَل في الدنيا؛ لما يرى من فضل الشهادة»[(٢)].

(١٤) وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما على الأرض من نفسٍ تموت، ولها عند اللَّه خير، تحب أن ترجع إليكم، ولها الدنيا، إلا القتيل في سبيل الله؛ فإنه يحب أن يرجع؛ فَيُقتل مرة أخرى؛ لما يرى من ثواب اللَّه له»[(٣)].

(١٥) وعن أنس مرفوعًا: «ما من نفس تموت فتدخل الجنة فتود أنها رجعت إليكم ولها الدنيا وما فيها إلا الشهيد؛ فإنه وَدَّ أنه قُتِلَ كذا وكذا مرة؛ لما رأى من الثواب»[(٤)].

(١٦) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يُؤْتَى بالرجل من أهل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٥)، (٢٨١٧)، ومسلم رقم (١٨٧٧)، والترمذي برقم (١٦٤٣)، وابن حبان برقم (٤٦٦١)، والبيهقي (٩/٤٦٣)، وأحمد (٣/١٠٣، ١٧٣، ٢٧٦).
(٢) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم واللفظ له.
(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/٣١٨، ٣٢٢)، والنسائي (٢/٦٢)، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٣٨)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٢٢٢٨).
(٤) **إسناده صحيح على شرط الشيخين**: أخرجه الدارمي (٢/٢٠٦)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٥/٢٦٩): إسناد صحيح على شرط الشيخين، وقد أخرجه بمعناه.

الجنة، فيقول له: يا ابن آدم، كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب، خَيْر منزل. فيقول: سَلْ وَتَمَنَّ. فيقول: يا رب، ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا؛ فَأُقْتَل في سبيلك عشر مرار؛ لما يرى من فضل الشهادة، وَيُؤْتَى بالرجل من أهل النار، فيقول له: يا ابن آدم، كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب، شر منزل. فيقول له: أتفتدي منه بطلاع الأرض ذهبًا؟! فيقول: أي رب، نعم. فيقول: كذبت؛ قد سألتك أَقَلَّ من ذلك وأيسر؛ فلم تفعل فَيُرَدُّ إلى النار»[1].

وعن ابن أبي عميرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما من الناس نفس مسلمة يقبضها ربها عز وجل تحب أن تعود إليكم ولها الدنيا وما فيها غير الشهيد»[2].

(١٧) وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من أهل الجنة أحد يسره أن يرجع إلى الدنيا وله عشرة أمثالها إلا الشهيد؛ فإنه وَدَّ لو أنه رُدَّ إلى الدنيا فَقُتِلَ شهيدًا عشر مرات؛ لما يرى من الفضل»[3].

(١٨) وعن أنس بن مالك، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «لما قُتِلَ حمزة وأصحابه يوم أحد، قالوا: يا ليت لنا من يُخبر إخواننا بالذي صِرْنا إليه من كرامة الله. قال: فَأَوْحَى ربهم - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - إليهم أني رسولكم إلى إخوانكم بما أحببتم.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/١٣١، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٣٩)، والنسائي برقم (٣١٦٠)، وأبو عوانة (٥/ ٣٣)، والحاكم (٢/٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٥٣)، وَصَحَّحَهُ الحاكم ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، وأصله في الصحيحين.

(٢) **سنده حسن**: أخرجه النسائي برقم (٣١٥٣)، وأحمد (٤/٢١٦)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» برقم (٢١٤)، والطبراني في «مسند الشاميين» (ق/٢٢٩)، وابن السكن، وابن شاهين كما في «الإصابة»، وقال الألباني في «تخريج كتاب الجهاد، لابن أبي عاصم» (٢/٥٤٧) حديث (٢١٤): إسناد المصنف حسن إن سلم من تدليس بقية، وأما الحديث فصحيح.

(٣) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/٢٥١ - ٢٨٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ق: ٩٣)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠/٣٦٢، ٣٦٣)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢١٧)، وَصَرَّحَ قتادة بالتحديث عند أحمد والبغوي، وَحَسَّنَ إسناده الألباني في «تعليقه على الجهاد، لابن عاصم» (٢/٥٥٠).

قال: فأنزل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]»(١).

وعن ابن مسعود ﷺ حَدَّثَ أن الثمانية عشر الذين قُتلُوا من أصحاب رسول الله ﷺ جعل الله أرواحهم في الجنة في طير خُضْر»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من الناس من نفس مسلمة يقبضها ربها تحب أن ترجع إليكم، وأن لها الدنيا وما فيها غير الشهداء، ولأن أُقْتَلَ في سبيل الله أحبُّ إليَّ من أن يكون لي أهل الوبر وَالْمَدَر**»(٣).

❑ ومن فضل الشهادة أنها الميتة التي تمنَّاها رسول الله ﷺ وَنَالَهَا:

(١٩) **عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده، لولا أن رجالًا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلَّفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أُقْتَلُ في سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقْتَلُ ثم أحيا، ثم أُقْتَلُ ثم أحيا، ثم أُقْتَلُ»**(٤).

وَنَالَهَا النبي ﷺ؛ فقد مات من جراء سم اليهودية له بالشاة المسمومة، وكان يعاوده حتى مات من جرائه؛ ولذا نعته الذهبي بأنه ﷺ النبي الشهيد.

(٢٠) **عن ابن أبي عميرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أُقْتَلَ في**

---

(١) **حديث حسن:** أخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» برقم (١٩٧)، واللفظ له، والطبراني في «مسند الشاميين» (ق/١٤٢)، وأخرجه ابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (٩٥/٢)، لكن جعله موقوفًا؛ وقال الألباني في تخريج «الجهاد، لابن أبي عاصم» (٥١٥/٢، ٥١٦): حديث حسن.

(٢) **إسناده حسن:** أخرجه ابن أبي عصام في «الجهاد» برقم (١٩٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٢٤٩: ١٠٤٦٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩٠/٦): «رواه الطبراني ورجاله ثقات»، وحسن إسناده الألباني في «التعليق على كتاب الجهاد» (٥١٧/٢).

(٣) **حسن:** رواه أحمد في «مسنده»، والنسائي عن عبدالرحمن بن أبي عميرة، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٨٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٩٧)، ومسلم (١٨٧٦)، والنسائي (٣١٢٢)، وابن ماجه (٢٧٥٣).

سبيل اللَّه أحبُّ إليَّ من أهل المَدَر[١] والوَبَر[٢]»[٣].

❑ ومن فضلها مشروعية سؤالها خلافًا للموت:

ومن فضل الشهادة أن الشارع الحكيم رَغَّبَ في سؤالها خلافًا لما ورد في النهي عن تمني الموت، وأن من سألها بصدق بلَّغة اللَّه منازل الشهداء وإن مات على فراشه.

(٢١) عن سهل بن حُنيف ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من سأل الشهادة بصدق، بلَّغه اللَّه منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[٤].

(٢٢) وعن أنس ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من طلب الشهادة صادقًا أُعْطِيَهَا، ولو لم تصبه»[٥].

(٢٣) وعن معاذ بن جبل ﵁ أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «من قاتل في سبيل اللَّه فُواق ناقة، فقد وجبت له الجنة، ومن سأل اللَّه القتل من نفسه صادقًا ثم مات أو قُتِلَ، فإن له أجر شهيد، ومن جُرِحَ جرحًا في سبيل اللَّه أو نُكِبَ نكبةً، فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها لون الزعفران، وريحها ريح المسك»[٦].

---

(١) أهل المدن؛ وهم: سكان البيوت المبنية بالطين.

(٢) أهل الوبر: سكان البادية.

(٣) **إسناده حسن:** أخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» واللفظ له (١٨٨)، والطبراني في «مسند الشاميين» (ق/٢٢٩)، وأحمد في «مسنده» (٢١٦/٤)، والنسائي في «سننه» (٣٣/٦)، كتاب الجهاد - باب تمني القتل في سبيل الله، وَحَسَّنَ إسنادَهُ المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» (١٩٠/٢)، والألباني في «تعليقه على الجهاد، لابن أبي عاصم» (٤٩٩/٢، ٥٠٠)، وقال: إسناده حسن إن سلم من تدليس بقيَّة.

(٤) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٥) رواه مسلم، والحاكم وقال: «صحيح على شرطهما».

(٦) **صحيح لغيره:** رواه أبو داود، والترمذي وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي، وابن ماجه، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٧٨): صحيح لغيره.

(٢٤) وعند ابن حبان بنحوه إلا أنه قال فيه: «... ومن سأل اللَّه الشهادة مخلصًا، أعطاه اللَّه أجر شهيد، وإن مات على فراشه»[(١)].

❏ ومن فضلها أنها تُكَفِّرُ ذنوب الشهيد التي بينه وبين الله:

والله، إن غفران ذنب واحد خير من الدنيا وما فيها، وخير مما طلعت عليه الشمس أو غربت، انظر إلى الصحابي الفقيه الذي مُلِئَ علمًا عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه حين يقول: **«وددتُ أن اللَّه غفر لي ذنبًا واحدًا ولا يُدْرَى لي نسب»**، **«وددتُ أن اللَّه غفر لي ذنبًا واحدًا وأني عبداللَّه بن روثة»**؛ فكيف إذا جاءت الشهادة بمغفرة الذنوب كلها؛ قال ـ تعَالَى ـ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

فالموت أو القتل في سبيل اللَّه ـ بهذا القيد وبهذا الاعتبار ـ خير من الحياة، وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أعراضها الصغار؛ من مال، ومن جاه، ومن سلطان، ومن متاع.. خير بما يعقبه من مغفرة اللَّه ورحمته، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون، وإلى هذه المغفرة وهذه الرحمة يكل اللَّه المؤمنين.. إنه لا يكلهم ـ في هذا المقام ـ إلى أمجاد شخصية، ولا إلى اعتبارات بشرية؛ إنما يكلهم إلى ما عند الله؛ ويعلق قلوبهم برحمة الله، وهي خير مما يجمع الناس على الإطلاق، وخير مما تتعلق به القلوب من أعراض.

وكلهم مرجعون إلى الله، محشورون إليه على كل حال، ماتوا على فراشهم، أو ماتوا وهم يضربون في الأرض، أو قتلوا وهم يجاهدون في الميدان؛ فما لهم مرجع سوى هذا المرجع، وما لهم مصير سوى هذا المصير، والتفاوت ـ إِذَنْ ـ إنما

---

(١) **حسن صحيح:** رواه ابن حبان في «صحيحه» واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما. وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٧٨): حسن صحيح.

يكون في العمل والنية وفي الاتجاه والاهتمام، أما النهاية فواحدة: موت أو قتل في الموعد المحتوم والأجل المقسوم، ورجعة إلى اللَّه وحشر في يوم الجمع والحشر، ومغفرة من اللَّه ورحمة، أو غضب من اللَّه وعذاب.. فأحمق الحمقى من يختار لنفسه المصير البائس وهو ميت على كل حال!!»(١).

(٢٥) عن أبي قتادة ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ: «أنه قام فيها، فذكر لهم أن الجهاد في سبيل اللَّه والإيمان باللَّه أفضل الأعمال. فقام رجل فقال: يا رسول الله: أرأيتَ إن قُتِلْتُ في سبيل الله، تُكَفَّرُ عني خطاياي؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ: «نعم؛ إن قُتِلْتَ في سبيل اللَّه وأنت صابر محتسب، مقبلٌ غيرُ مدبر»، ثم قال رسول اللَّه ﷺ: «كيف قلت؟» قال: أرأيتَ إن قُتِلْتُ في سبيل اللَّه أَتُكَفَّرُ عني خطاياي؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «نعم، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدَّيْن؛ فإن جبريل قال لي ذلك»(٢).

(٢٦) وعن عبداللَّه بن عمرو بن العاص ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يُغْفَرُ للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن»، وفي رواية أخرى قال: «القتل في سبيل اللَّه يُكَفِّرُ كل شيء إلا الدَّيْن»(٣).

(٢٧) وعن أبي هريرة ﷺ قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو يخطب على المنبر فقال: أرأيتَ إن قاتلتُ في سبيل الله، صابرًا محتسبًا، مقبلًا غيرَ مدبرٍ، أيُكَفِّرُ اللَّه عني سيئاتي؟ قال: نعم. ثم سكت ساعة، قال: أين السائل آنفًا؟ فقال الرجل: ها أنا ذا. قال: ما قلتَ؟ قال: أرأيتَ إن قُتِلْتُ في سبيل اللَّه صابرًا محتسبًا، مقبلًا

---

(١) الظلال (٤٩٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٥)، والترمذي (١٧١٤)، والنسائي (٣١٥٦، ٣١٥٧، ٣١٥٨)، وأحمد (٥/ ٣٠٣، ٣٠٤)، والبيهقي (٩/٣٥)، وأبو عوانة (٥/٥١، ٥٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٦)، وأحمد (٢/٢٢٠)، والحاكم (٢/١١٩).

غيرَ مدبرٍ، أَيُكَفِّرُ اللَّه عني سيئاتي؟ قال: نعم، إلا الدَّيْن سَارَّنِي به جبريل آنفًا»[١].

(٢٨) وقال ﷺ: «أول ما يُهراق[٢] من دم الشهيد يغفر ذنبه كله إلا الدَّيْن»[٣].

❑ الشهادة في سبيل اللَّه مُوجِبَةٌ لدخول الجنة:

(٢٩) عن جابر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحُد: أرأيتَ إن قُتِلْتُ، فأين أنا؟ قال: في الجنة. فألقى تمرات في يده، ثم قاتل حتى قُتِلَ»[٤].

❑ تظليل الملائكة للشهداء بأجنحتها:

(٣٠) عن جابر بن عبداللَّه ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: «لما قُتِلَ أبي جعلتُ أكشفُ الثوبَ عن وجهه أبكي، وَيَنْهَوْنِي عنه، والنبي ﷺ لا ينهاني، فَجَعَلَتْ عمتي فاطمة تبكي؛ فقال النبي ﷺ: تَبْكِينَ أَوَ لَا تَبْكِينَ، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه!!»[٥].

❑ ومن الشهداء من يكون رفيقًا لرسول اللَّه ﷺ في الجنة:

وتلك أقصى ما يتمناه المرء في دنياه وآخرته؛ فاللهم ارزقني الصدق في سؤال الشهادة، وارزقني رفقة النبي ﷺ في أعالي الجنان:

(٣١) عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال يوم أحد لما رَهِقُوهُ[٦]،

---

(١) **صحيح لغيره**: أخرجه النسائي برقم (٣١٥٥)، وأحمد (٢/٣٠٨، ٣٣٠).

(٢) يهراق: يسيل.

(٣) **حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، والحاكم في «المستدرك» عن سهل بن حُنيف، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٥٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٤٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٠٤٦)، ومسلم (١٨٩٩)، والنسائي (٦/٣٣)، والبغوي (٣٧٨٩)، والبيهقي (٩/٤٣، ٩٩)، وأحمد (٣/٢٠٨)، وابن حبان (٤٦٥٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٢٤٤)، ومسلم (٢٤٧١)، والنسائي (١٨٤٢).

(٦) أي: غشوه وقربوا منه. قاله النووي في «شرح مسلم» (١٢/١٤٧).

وهو في سبعة من الأنصار وَرَجُلَيْنِ من قريش: «مَن يَرُدُّهُمْ عنا وهو رفيقي في الجنة؟!»؛ فقام رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتِلَ، ثم قال مثل ذلك؛ فقام آخر فقاتل حتى قُتِلَ، فلم يزل كذلك حتى قُتِلَ السبعة؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما أنصفنا أصحابنا»[١].

❏ دار الشهداء في الجنة أحسن الدور:

(٣٢) عن سمرة بن جندب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال النبي ﷺ: «رأيت الليلة رجلَيْنِ أَتَيَاني، فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل لم أر قط أحسن منها، وقالا: أما هذه الدار فدار الشهداء»[٢].

❏ عُلُوُّ منازل الشهداء في الجنَّة:

(٣٣) عن أنس رضي الله عنه: «أن أم الرُّبيع بنت البراء[٣] ـ وهي أم حارثة بنت سُرَاقة ـ أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن حارثة ـ وكان قُتِلَ يوم بدر؛ أصابه سهم غرب ـ؟ فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء. فقال: «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[٤].

● وعند الترمذي: «يا أم حارثة، إنها جنات في جنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى، والفردوس ربوة الجنة، وأوسطها، وأفضلها»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤١٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٣١٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٦٩٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/٢٣٤ ـ ٢٣٥)، وفي «السنن» (٩/٤٤)، وكذا أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/٢٨٦)، والنسائي في «السنن الكبرى»، وعبد بن حميد ي «مسنده» (١٣٨٥)، وابن أبي عاصم (٢١٩)، وفيه: «ورجلين من غيرهم».

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٩١)، ومسلم (٢٢٧٥)، والترمذي (٢٢٩٤).

(٣) كذا وقع في «البخاري» وهو وَهْمٌ نَبَّهَ عليه غير واحد، وإنما هي الرُّبيع بنت النضر.

(٤) أخرجه البخاري.

(٥) أخرجه الترمذي في «سننه»، كتاب التفسير ـ باب «ومن سورة المؤمنون» (٣١٧٤).

وفي رواية: «يا أم حارثة، إنها ليست بجنة واحدة، ولكنها جنان كثيرة، وإن حارثة لفي الفردوس الأعلى»(١).

❑ **الشهيد المفتخر في خيمة اللَّه تحت عرشه لا يفضله إلا النبيون:**

(٣٤) عن عتبة بن عَبْدٍ السُّلَمِي ﷺ وكان من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «القتل ثلاثة: رجل مؤمن قاتل بنفسه وماله في سبيل اللَّه حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يُقْتَلَ؛ فذلك الشهيد الممتحن(٢) [الْمُفْتَخِر] في خيمة الله، تحت عرشه، لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوَّة. ورجل مؤمن قرف(٣) على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بنفسه وماله في سبيل اللَّه حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يُقْتَلَ(٤)، مُحِيتْ ذنوبه وخطاياه؛ إن السيف مَحَّاءُ الخطايا، وَأُدْخِل من أيِّ أبواب الجنة شاء؛ فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض. ورجل منافق جاهد بنفسه وماله، حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل الله(٥) حتى يُقْتَلَ، فإن ذلك في النار؛ السيف لا يمحو النفاق»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٩، ٣٩٨٢، ٦٥٦٧)، وأحمد (٣/٢١٠ - ٢٦٠)، وابن جرير في «تفسيره» (٣٨/١٦)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد ص (٣٦٩)، (٢٦٣/٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٤٣٤ - زوائد)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣/٢٦١ - ٣٢٣٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٧/٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٧٣٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٨٩/٥، ٢٩٠) والحاكم في «المستدرك» (٢٠٨/٣)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة».

(٢) أي: المصفَّى المهذب، وكذا في «النهاية» قال: «محنت الفضة إذا صفَّيتها وخلَّصتها من النار»، وقال المنذري: هو المشروح صدره؛ ومنه: ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾؛ أي: شرحها ووسَّعها. وفي رواية لأحمد: «المفتخِر».

(٣) قرف على نفسه من الذنوب والخطايا؛ أي: كسبها؛ قرف الذنب واقترفه : إذا عمله.

(٤) في رواية: «قاتل حتى يقتل؛ فتلك ممصمصة محت ذنوبه وخطاياه»، ممصمصة؛ أي: مطهرة من دنس الخطايا؛ يقال: مصمص إناءه: إذا جعل فيه الماء وَحَرَّكه؛ ليتنظَّف.

(٥) أي: فيما يبدو للناس، والحقيقة أنه إنما يقاتل نفاقًا.

(٦) **حسن**: أخرجه أحمد (١٨٥/٤، ١٨٦) واللفظ له، والطبراني (١٧/٣١٠ - ٣١١)، والبيهقي في «السنن» (١٦٤/٩)، والدارمي (٢٤١٦)، والطيالسي (١٢٦٧)، وابن حبان (٤٦٦٣ - الإحسان)، =

ولفظ ابن حبان:

(٣٥) «القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل اللَّه حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يُقتل؛ فذلك الشهيد الممتحن في خيمة اللَّه تحت عرشه، لا يفضله إلا النبيون بدرجة النبوة. ورجل قرف على نفسه من الذنوب والخطايا[١] حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يُقتل؛ فتلك مُمصمصةٌ مَحَتْ ذنوبه وخطاياه؛ إن السيف مَحَّاءٌ للخطايا، وأُدْخِل من أي أبواب الجنة شاء؛ فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض. ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل اللَّه حتى يُقْتَل؛ فذلك في النار؛ إن السيف لا يمحو النفاق».

❑ **إيثار اللَّه لهم على الملائكة، ودخول الملائكة عليهم من كل باب يسلمون عليهم:**

(٣٦) عن عبداللَّه بن عمرو بن العاص ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «هل تدرون أَوَّلَ من يدخل الجنة مِن خلق الله؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: أول من يدخل الجنة من خلق اللَّه الفقراء والمهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثغور، ويُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجَتُهُ في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول اللَّه لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحَيُّوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرَتُك من خلقك، أَفَتَأْمُرُنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادًا يعبدوني لا يشركون بي شيئًا، وتُسَدُّ بهم الثغور، ويُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجتُهُ في صدره لا يستطيع لها قضاء. قال: فتأتيهم الملائكة عند

= وابن المبارك في «الجهاد» (٧)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/٢٩١)، وقال: «رجال أحمد رجال الصحيح خلا أبي المثنى الأملوكي، وهو ثقة». وحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٧٠).

(١) وفي رواية أخرى: «ومؤمن خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا جاهد بنفسه وماله في سبيل الله».

ذلك؛ فيدخلون عليهم من كل باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾»[1].

(٣٧) وفي لفظ آخر عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ثلة يدخلون الجنة: الفقراء المهاجرون الذين تُتَقَى بهم المكاره، إذا أُمِرُوا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تُقْضَ له حتى يموت وهي في صدره، وإن الله ﷻ ليدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وَقُتِلُوا، وَأُوذُوا، وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة. فيدخلونها بغير حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون، فيقولون: ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار، ونقدِّس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب ﷻ: هؤلاء عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي. فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾»[2].

❑ الشهداء من أول الناس دخولًا الجنة:

لله درهم، وما أحسن ما لهم، وما أجملها من كرامة أعدها الله لهم:

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (١٦٨/٢) واللفظ له، والحاكم في «المستدرك» (٧٢/٢) وصَحَّحَهُ ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٤٧/١)، والهيثمي (٢٥٩/١٠) وعزاه لأحمد والبزار والطبراني ثم قال: «ورجالهم ثقات، ورجال الطبراني رجال الصحيح غير أبي عشانة، وهو ثقة».

(٢) **صحيح**: رواه الأصفهاني في «الترغيب والترهيب»، وأخرج نحوه أحمد (١٦٨/٢)، وابن حبان (٢٥٦٥)، والبزار (٢٥٦/٤، ٢٥٧ ـ كشف الأستار)، وأخرجه الحاكم (٧١/٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٢٧/٤، ٢٨)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وقال المنذري في «الترغيب»: «رواه الأصبهاني بإسناد حسن، ومتنه غريب»، قال الشيخ الألباني بعد رده على المنذري: «فالحديث صحيح عندي لا غبار عليه»؛ **انظر**: «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٥٥٩)، و«صحيح الترغيب» (١٣٧٣).

(٣٨) عن عبدالله بن عمرو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول الله ﷺ «أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم؟ فقال: المهاجرون؛ يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أَوَ قَدْ حُوسِبْتُمْ؟ فيقولون: بأي شيء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك؟! قال: فَيُفتح لهم، فيقيلون فيه أربعين عامًا قبل أن يدخلها الناس»(١).

❑ ضحك الله إلى الشهداء، ومن ضحك الله إليه فلا حساب عليه:

(٣٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد عند الله يوم القيامة الذين يلتقون(٢) في الصف الأول، فلا يلفتون وجوههم حتى يُقْتَلُوا، أولئك يَتَلَبَّطُونَ في الغرف من الجنة، يضحك إليهم ربك، وإذا ضحك ربك إلى قوم فلا حساب عليهم»(٣).

(٤٠) وعن نعيم بن همّار رضي الله عنه: أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: أي الشهداء أفضل؟ قال: «الذين إن يُلْقَوْا في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يُقْتَلُوا، أولئك ينطلقون في الغرف العلا من الجنة، ويضحك إليهم ربهم، وإذا ضحك ربك إلى

---

(١) صحيح على شرط مسلم: أخرجه الحاكم (٢/٧٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٥٣): «إنما هو على شرط مسلم فقط؛ فإن عياشًا هذا ـ عياش بن عباس ـ إنما أخرج له البخاري في جزء القراءة».

(٢) في الأصل «يُلقون»، والتصويب من «المعجم الأوسط» (٥/٨٠/٤١٤٣) قاله الألباني.

(٣) حسن صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط» (١/٢٤٩/أ)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/٢٩٢): «رواه الطبراني في «الأوسط» من طريق عنبسة بن سعيد، وثقه الدارقطني، كما نقل الذهبي، ولم يضعفه أحد، وبقية رجاله رجال الصحيح، وَحَسَّنَ إسناده المنذري في الترغيب والترهيب»، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٧٢): حسن صحيح.
ويتلبطون معناها هنا: يضطجعون.

عبد في الدنيا فلا حساب عليه»[1].

وفي لفظ آخر:

(٤١) «أفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول فلا يلفتون وجوههم حتى يُقْتَلُوا، أولئك يَتَلَبَّطُونَ في الغرف العُلَى من الجنة، يضحك إليهم ربك، فإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه»[2].

(٤٢) وفي حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله، ويضحك إليهم، ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله ﷻ، فإما أن يُقْتَلَ، وإما أن ينصره اللَّه ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه؟!»[3] الحديث.

(٤٣) وقال رسول اللَّه ﷺ: «يضحك اللَّه إلى رجلين قَتَلَ أحدهما الآخر يدخلان الجنة؛ يُقاتل هذا في سبيل اللَّه فَيُقْتَلُ، ثم يتوب اللَّه على القاتل فَيُسْلِمُ، فيقاتل في سبيل اللَّه فَيُسْتَشْهَدُ»[4].

(٤٤) وقال رسول اللَّه ﷺ: «ضحك اللَّه من رجلين قَتَلَ أحدهما صاحبه، وكلاهما في الجنة»[5].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» (٥/٢٨٧)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤/٢/٩٥)، والبيهقي (٢/٢٢١)، وفي «صحيح الترغيب» (١٣٧١)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» برقم (٢٢٨). وَصَحَّحَهُ الألباني.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير»، وأبو يعلى عن نعيم بن همَّار، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١١٠٧).

(٣) **حسن لغيره**: رواه الطبراني بإسناد حسن، قاله المنذري في «الترغيب»، وَحَسَّنَهُ لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٨٤) (٢/١٤٦).

(٤) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة.

(٥) **صحيح**: أخرجه ابن حبان في «صحيحه» عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٠٧٤)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٨٨٥).

❑ ويعجب ربك من الشهيد وحُسْنِ فعاله:

(٤٥) وعن عبدالله بن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب ربنا ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ من رجل غَزَا في سبيل الله فانهزم ـ يعني أصحابه ـ فعلم ما عليه، فرجع حتى أُهريق دمه، فيقول الله ﷻ لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، حتى أُهريق دمه»[(١)].

❑ الشهداء أمناء الله على خلقه:

(٤٦) ذُكِرَ عند أبي عتبة الخولاني الشهداء؛ فَذَكَرُوا المبطون، والمطعون، والنفساء؛ فغضب أبو عتبة وقال: حدثنا أصحاب نبينا عن نبينا ﷺ أنه قال: «إن شهداء الله في الأرض أمناء الله في الأرض[(٢)] في خلقه قُتِلُوا أو ماتوا»[(٣)].

قال المناوي في «فيض القدير» (١٦٥/٤):

«شهداء الله في الأرض هم أمناء الله على خلقه سواء (قُتِلُوا) في الجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، (أو ماتوا) على فرشهم من غير قتال؛ فإنهم شهداء؛ أي: في حكم الآخرة» اهـ.

❑ الشهيد لا يجد من ألم القتل إلا كَمَسِّ القرصة:

(٤٧) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «ما يجد الشهيد من مَسِّ القتل إلا كما

---

(١) **حسن لغيره**: رواه أبو داود، وأحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٨٤): حسن لغيره.

(٢) وفي «صحيح الجامع» (٣٧١٦): «شهداء الله في الأرض أمناء الله على خلقه قُتِلُوا أو ماتوا».

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٠٠/٤)، قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٢٦/٤) حديث (١٩٠٢): «وهذا إسناد جيد رجاله ثقات معروفون غير أبي عنبة الخولاني؛ قال ابن أبي حاتم: «ليست له صحبة، وهو من الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام»، وَرَجَّحَ الحافظ في «الإصابة» قول أحمد بن محمد بن عيسى: «أدرك الجاهلية، وعاش إلى خلافة عبدالملك، وكان ممن أسلم على يد معاذ والنبيُّ ﷺ حيٌّ»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع»، رقم (٣٧١٦).

يجد أحدكم من مس القرصة»[1].

ولفظ النسائي: «الشهيد لا يجد مس القتل إلا كما يجد أحدكم القرصة يقرصها».

(٤٨) وعن أبي قتادة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة»[2].

قال المناوي في «**فيض القدير**» (٤/١٨٢):

«القرصة: الأخذة بأطراف الأصابع، وَعَبَّرَ بأداة الحصر؛ دفعًا لتوهُّم تصور أن ألمه يفضل على ألمها، وهذه تسليةٌ لهم عن هذا الحادث العظيم، والخطب الجسيم، وتهييجُ الصبر على وقع السيوف واقتحام الحتوف».

وقال أيضًا: «يعني أنه - تَعَالَى - يُهَوِّنُ عليه الموت ويكفيه سكراته وكربه؛ بل رب شهيد يتلذذ ببذل نفسه في سبيل الله طيبة بها نفسه؛ كقول خبيب الأنصاري حين قُتِلَ:

ولست أبالي حين أُقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي».

❑ جراح الشهداء تفوح منها رائحة المسك:

(٤٩) عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يُكْلَمُ[3] أحد في سبيل الله - والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله - إلا جاء يوم القيامة

(١) **صحيح**: رواه النسائي (٢/٦٢)، والترمذي (٣/١٩) وابن ماجه (١٨٥)، والدارمي (٢/٢٠٥)، وابن بشران في «الأمالي»، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٦٤، ٢٦٥)، والبيهقي (٩/١٦٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٣/١٤١/١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح. وقال أبو نعيم: «ثابت مشهور من حديث القعقاع عن أبي صالح»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الصحيحة» رقم (٩٦٠)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٧٤٦).

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» عن أبي قتادة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٧٤٥).

(٣) يُكلَم: أي يجرح.

واللون لون الدم والريح ريح المسك[١]»[٢].

قال الحافظ ابن حجر في «**الفتح**» (٦/٢٥): «ولأصحاب السنن، وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم من حديث معاذ بن جبل: «**من جرح جرحًا في سبيل الله أو نُكِبَ نكبةً فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها لون الزعفران وريحها المسك**»، وَعُرِفَ بهذه الزيادة أن الصفة المذكورة لا تختص بالشهيد بل هي حاصلة لكل من جُرِحَ، ويحتمل أن يكون المراد بهذا الجرح هو ما يموت صاحبه بسببه قبل اندماله لا ما يندمل في الدنيا؛ فإن أثر الجراحة وسيلان الدم يزول، ولا ينفي ذلك أن يكون له فضل في الجملة، لكن الظاهر أن الذي «يجيء يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا» من فارق الدنيا وجرحه كذلك، ويؤيده ما وقع عند ابن حبان في حديث معاذ المذكور «**عليه طابع الشهداء**».

وقوله: «**كأغزر ما كانت**» لا ينافي قوله: (كهيئتها)؛ لأن المراد لا ينقص شيئًا بطول العهد، قال العلماء: الحكمة في بعثه كذلك أن يكون معه شاهد بفضيلته بذل نفسه في طاعة الله، واستدل بهذا الحديث على أن الشهيد يدفن بدمائه وثيابه».

(٥٠) وقال رسول الله ﷺ: «لا يُكْلَمُ أحد في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله ـ إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَبُ[٣] **دمًا، اللون لون الدم، والريح**

---

(١) وفي رواية همام «والعَرْف»؛ وهو: الرائحة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٣، ٥٥٣٣)، ومسلم (١٨٧٦)، وأحمد في «المسند» (٢/٢٤٢)، والترمذي (١٦٥٦)، والنسائي (٣١٤٧) (٦/٢٨، ٢٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/١٦٤، ١٦٥)، ومالك في «الموطإ» (٢/٤٦١)، وابن حبان (٤٦٥٢)، والدارمي (٢٤١١)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (١٧٥)، والحميدي (١٠٩٢)، وأبو عوانة (٥/٢٣، ٢٤)، وسعيد بن منصور (٢٥٧١، ٢٥٧٢).

(٣) يثعب: ينزف.

ريح المسك»[١].

(٥١) وقال رسول اللَّه ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يُكْلَمُ أحد في سبيل اللَّه ـ واللَّه أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله ـ، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَشْخُبُ[٢]، اللون لون الدم، والريح ريح المسك»[٣].

(٥٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما من مجروح يُجْرَحُ في سبيل اللَّه ـ واللَّه أعلم بمن يُجْرَحُ في سبيله ـ إلا جاء يوم القيامة وجرحه كهيئته يوم جُرِحَ، اللون لون الدم، والريح ريح المسك»[٤].

(٥٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما من مكلوم يُكْلَمُ في الله، إلا جاء يوم القيامة وَكَلْمُهُ[٥] يَدْمِي[٦]، اللون لون الدم، والريح ريح المسك»[٧].

(٥٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «كُلُّ كَلْمٍ يُكْلَمُهُ المسلم في سبيل اللَّه ـ تَعَالَى ـ يكون يوم القيامة كهيئتها إذا طُعِنَتْ؛ تَفَجَّرُ دمًا، اللون لون الدم، والعَرْفُ عَرْفُ المسك»[٨].

(٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن جُرْحَ الرجل الذي

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي، والنسائي، وأحمد (٢/٢٤٢) عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٧٧٢).

(٢) أي: ينزف.

(٣) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن أبي هريرة.

(٤) **صحيح**: رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٧٥٣).

(٥) كَلْمُهُ: جُرحه.

(٦) يَدمي: أي ينزف دمًا.

(٧) رواه البخاري.

(٨) رواه البخاري ومسلم. والعَرْف: أي الرائحة.

يُجْرَحُ به في سبيل اللَّه ـ واللَّه أعلم بمن يُجْرَحُ في سبيله ـ يأتي يوم القيامة يغازى؛ كلون الدم وريح المسك»(١).

(٥٦) وعن معاذ ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من قاتل في سبيل اللَّه فُواق ناقة فقد وجبت له الجنة، ومن سأل القتل في سبيل اللَّه من نفسه صادقًا ثم مات أو قُتِلَ فإن له أجر شهيد، ومن جُرِحَ جرحًا في سبيل اللَّه أو نُكِبَ نكبةً فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك، ومن خَرَجَ به خُرَاجٌ في سبيل اللَّه كان عليه طابع الشهداء»(٢).

(٥٧) وعن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال: «من خَرَجَ عليه خُرَاجٌ(٣) في سبيل اللَّه كان عليه طابع(٤) الشهداء»(٥).

❑ الشهداء لا يُفْتَنُونَ في قبورهم ولا يُصْعَقُونَ عند نشورهم:

(٥٨) عن راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: «أن رجلًا قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يُفْتَنُونَ في قبورهم إلا الشهيد؟! قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»(٦).

---

(١) **إسناده حسن**: أخرجه ابن أبي عاصم (٢٤٧) وقال الألباني في «تعليقه على كتاب الجهاد» (٢/ ٥٩٥): «إسناده حسن، إن سلم من تدليس بقيَّة، لكن للحديث طرق أخرى عن أبي هريرة».

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٥/٢٤٤)، وأبو داود (٣/٤٦) (٢٤٥١)، والترمذي (٤/١٨٥) (١٦٥٧)، والنسائي (٦/٢٥)، وابن حبان (٥/٧٧) (٣١٨١)، (٧/٦٧) (٤٥٩٩)، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤١٦).

(٣) هو ما خرج على الجسد من دُمَل ونحوه من القروح.

(٤) طابع: أي الخاتم الذي يختم به، قاله ابن سِيدَه في «المحكم» (١/٣٤٩).

(٥) **إسناده حسن لغيره**: أخرجه ابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢٤٨) واللفظ له، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣/٣٤١) (٣٤٦٥)، وللحديث شاهد من حديث معاذ السابق، وقال الألباني: إسناده حسن لغيره.

(٦) **صحيح**: أخرجه النسائي (٤/٩٩)، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٤٨٣).

(٥٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أنه سأل جبريل عن هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، مَنِ الذين لم يشأ اللَّه أن يصعقهم؟ قال: هم شهداء اللَّه عز وجل»(١).

❑ وَيُشَفَّعُ الشهيد في سبعين من أهل بيته:

(٦٠) عن نِمْرَان بن عتبة الذماري قال: دخلنا على أم الدرداء، ونحن أيتام، فقالت: أبشروا؛ فإني سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «يُشَفَّعُ الشهيد في سبعين من أهل بيته»(٢).

❑ للشهيد عند اللَّه سبع خصال كلٌّ منها خير من الدنيا وما فيها:

(٦١) عن المقدام بن معدي كَرِب الكِنْدِيِّ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن للشهيد عند اللَّه ستَّ(٣) خصال: أن يُغْفَرَ له في أول دُفْعَةٍ(٤) من دمه، وَيُرَى مقعدَهُ من الجنة، وَيُحَلَّى حُلَّة الإيمانِ، وَيُزَوَّجَ من الحور العين، ويُجَارَ من عذاب القبر، وَيأْمَنَ من الفزع الأكبر، وَيُوضَعَ على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، وَيُزَوَّجَ اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، وَيُشَفَّعَ في سبعين إنسانًا من أقاربه»(٥).

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/٢٥٣) وَصَحَّحَهُ، ووافقه الذهبي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/١٤٧) (١٣٨٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٥٢٢)، وابن حبان (٤٦٦٠)، والبيهقي في «السنن» (٩/١٦٤)، والآجري ص (٣٥٠)، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٦٩): صحيح لغيره. وَصَحَّحَهُ في «صحيح الجامع» برقم (٨٠٩٣).

(٣) هو في هذا الحديث يجعل الإجارة والأمن من الفزع واحدة.

(٤) «في أول دُفعة»: بضم الدَّال؛ كما قال المنذري، وكما هو مضبوط بجامع الترمذي، وكذلك قال أهل اللغة: الدُّفعة: ما دُفع من إناء أو سقاء فانصب بمرة، وكذلك الدفعة من المطر.
أما الدَّفْعة - بفتح الدال -: فهي المرة الواحدة من الدفع؛ وهو: الإزالة بقوة، فلا يصلح ههنا.

(٥) **صحيح**: أخرجه الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢٠٤)، =

(٦٢) **عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن للشهيد عند الله سبع خصال: أن يُغْفَرَ له في أول دُفْعَةٍ من دمه، وَيُرَى مقعدَهُ من الجنة، وَيُحَلَّى حلة الإيمان، وَيُجَارَ من عذاب القبر، وَيَأْمَنَ من الفزع الأكبر، وَيُوضَعَ على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، وَيُزَوَّجَ [اثنتين وسبعين زوجة] من الحور العين، وَيُشَفَّعَ في سبعين إنسانًا من أقاربه»**(١).

(٦٣) **وعن قيس الجذامي ـ رجل كانت له صحبة ـ قال: قال النبي ﷺ: «يُعْطَى للشهيد ستُّ خصال: عند أول قطرة من دمه يُكَفَّرُ عنه كل خطيئة، ويُرَى مقعده من الجنة، وَيُزَوَّجُ من الحور العين، وَيُؤَمَّنُ من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، وَيُحَلَّى حلة الإيمان»**(٢).

وفي «**السلسلة الصحيحة، للشيخ الألباني**» الحديث رقم (٣٢١٣):

عن المقدام بن معدي كرب، عن رسول الله ﷺ:

«**للشهيد عند الله خصال:**

١ـ يُغْفَرُ له في أول دُفعة من دمه.

٢ـ ويُرَى مقعده من الجنة.

٣ـ وَيُحَلَّى حلية الإيمان.

= وعبدالرزاق (٩٥٥٩)، وأحمد (١٣١/٤)، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب. وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٧٥).

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» (٣١/٤) والطبراني، وقال المنذري: «رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن»، وَصَحَّحَهُ الألباني، وهذه رواية الطبراني، ولفظ أحمد: «ست»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٧٤)، وَصَحَّحَهُ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٩٣).

(٢) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٠/٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١٤٣/١/٤)، وابن سعد (٤٢٦/٧)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» برقم (١٤٦)، وَحَسَّنَ إسناده الألباني في «الصحيحة» في «المجلد السابع ـ القسم الأول» ص (٦٤٩، ٦٥٠) في الحديث رقم (٣٢١٣).

٤ـ وَيُزَوَّجُ [اثنتين وسبعين زوجة] من الحور العين.
٥ـ وَيُجَارُ من عذاب القبر.
٦ـ وَيَأْمَنُ الفزع الأكبر.
٧ـ وَيُوضَعُ على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها.
٨ـ وَيُشَفَّعُ في سبعين إنسانًا من أهل بيته»[1].

❏ ما تفعل الحور الحسان بشهيد الحرب والطِّعان:

(٦٤) عن مجاهد، عن يزيد بن شجرة[2] رضي الله عنه ـ وكان يزيد بن شجرة ممن يصدق قوله فعله ـ: خطبنا فقال: «يأيها الناس، اذكروا نعمة اللَّه عليكم، ما أحسن نعمة اللَّه عليكم، ترى من بين أخضر وأحمر وأصفر، وفي الرِّحال ما فيها»، وكان يقول: «إذا صَفَّ الناس للصلاة، وصَفُّوا للقتال، فُتِحَتْ أبواب السماء وأبواب الجنة، وَغُلِّقَتْ أبواب النار، وَزُيِّنَ الحور العين وَاطَّلَعْنَ، فإذا أقبل الرجل قُلْنَ: اللهم انصره. وإذا أدبر احتجبن منه وَقُلْنَ: اللهم اغفر له. فأَنْهِكُوا[3] وجوه القوم فِدَى

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وأحمد (١٣١/٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٢٥٤/٢٥/٤)، وابن عساكر في «التاريخ» (٥١٧/٥)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. قال الألباني: «قلت: وإسناده شامي صحيح، وما بين المعقوفتين للترمذي، وليست عنده الفقرة (٣)، وهي عند ابن ماجه وأحمد، لكن ليس عند ابن ماجه الفقرة (٧)؛ فمجموع الفقرات في «السنن» «سبع»، وفي «المسند» «ثمان»، ومع ذلك فلفظ الحديث عندهم «ست خصال»، وهذا من نوادر الاضطراب في المتن مع صحة السند، واختلف موقف الحفاظ المُخَرِّجِينَ لهذا الحديث؛ فمنهم من ذكره كما ورد «ست»؛ كالمنذري وابن كثير، وخالف السيوطي وتبعه النبهاني؛ فجعل مكان لفظ «ست» «سبع»، ولكن بقي الخلاف عندهم بالنسبة لرواية أحمد؛ فإن المعدود عنده «ثمان»؛ كما في سياق رواية البيهقي وابن عساكر دون لفظ العدد؛ فسلمت من الاضطراب المذكور»، ثم ذكر الألباني رواية أحمد للحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وَمَالَ الشيخ الألباني إلى ترجيح حديث المقدام؛ لأنها رواية الأكثر عن ابن عياش. **انظر**: «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٢١٣).

(٢) يزيد بن شَجَرة: قيل له صحبة، ولا يثبت، والله أعلم.

(٣) أَنْهِكُوا وجوه القوم؛ أي: أجهدوهم. قال الألباني: والصواب فتح الهاء، و«النَّهَك»: المبالغة في كل شيء.

لكم أبي وأمي، ولا تُخْزُوا الحور العين؛ فإن أول قطرة تنضح من دمه يُكَفَّرُ عنه كل شيء عَمِلَهُ، وتنزل إليه زوجتان من الحور العين يمسحان التراب عن وجهه ويقولان: قد أَنَى[1] لك. ويقول: قد أَنَى لكما. ثم يُكْسَى مئة حُلَّة، ليس من نسيج بني آدم، ولكن من نَبْتِ الجنة، لو وضعن بين أصبعين لوسعن» وكان يقول: «نُبِّئْتُ أن السيوف مفاتيح الجنة»[2].

«رواه الطبراني من طريقين إحداهما جيدة صحيحة، والبيهقي في «كتاب البعث» إلا أنه قال:

«فإن أول قطرة تَقْطُرُ من دم أحدكم يحط اللَّه منه بها خطاياه؛ كما يحط الغصن من ورق الشجر، وتبتدره اثنتان من الحور العين، ويمسحان التراب عن وجهه، ويقولان: قد أَنَى لك. ويقول: قد أَنَى لكما. فَيُكْسَى مئة حلة، لو وُضِعَتْ بين إصبعي هاتين لَوَسِعَتَاهُمَا، ليست من نسج بني آدم، ولكنها من نبات الجنة، مكتوبون عند اللَّه بأسمائكم وسماتكم»[3] الحديث.

(٦٥) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن

---

(١) بالألف المقصورة، وهو الصواب، وقد جاء بلفظ «آن لك» و«آن لكما» في رواية عند ابن الأثير في «أُسْد الغابة»، وهي رواية البزار.

(٢) قد جاء من طرق مرفوعة أحدها صحيح.

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني من طريقين إحداهما جيدة صحيحة، والبيهقي في كتاب «البعث» قاله المنذري، ووافقه الألباني، وَصَحَّحَ الحديث في «صحيح الترغيب والترهيب» و«السلسلة الصحيحة» (٢/٦) ص (٣٧٤) حديث رقم (٢٦٧٢)؛ فقال: «رواه الطبراني من طريقين إحداهما جيدة صحيحة؛ كما قال المنذري (٢/١٩٥). وقال الهيثمي (٥/٢٩٤): ورجالها رجال الصحيح. قلت: أخرجه في «الكبير» (٢٢/٢٤٦، ٢٤٧) من طريقين؛ أحدهما عند عبدالرزاق، وهذا في «المصنف» (٥/٢٥٦، ٢٥٧)، وهذا إسناد صحيح موقوف، لكن له طريق أخرى مرفوع» اهـ. قال المنذري: «ورواه البزار والطبراني عن يزيد بن شجرة مرفوعًا ومختصرًا، وعن جدار أيضًا مرفوعًا، والصحيح الموقوف، مع أنه قد يُقَالَ: إن مثل هذا لا يُقَالُ من قِبَلِ الرأي؛ فسبيل الموقوف فيه سبيل المرفوع، والله أعلم».

السيوف مفاتيح الجنة»[١].

٦٦ عن أنس رضي الله عنه: «أن رجلًا أسود أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رجل منتن الريح، قبيح الوجه، لا مال لي، فإن أنا قابلت هؤلاء حتى أُقْتَلَ، فأين أنا؟ قال: «في الجنة»؛ فقاتل حتى قُتِلَ، فأتاه النبي ﷺ فقال: «قد بَيَّضَ اللَّه وجهك، وَطَيَّبَ ريحك، وأكثر مالك».

وقال لهذا أو لغيره: «فقد رأيت زوجته من الحور العين نازعته جبة له من صوف، تدخل بينه وبين جبته»[٢].

❑ ومن الشهداء من هو من ملوك الجنة:

٦٧ عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أن النبي ﷺ: «مَرَّ بخباء أعرابي وهو في أصحابه يريدون الغزو، فرفع الأعرابي ناحية من الخباء، فقال: مَنِ القوم؟ فقيل: رسول اللَّه ﷺ وأصحابه يريدون الغزو. فقال: هل من عرض الدنيا يصيبون؟ قيل له: نعم، يصيبون الغنائم، ثم تقسم بين المسلمين. فعمد إلى بكر فاعتقله، وسار معهم، فجعل يدنو ببكره إلى رسول اللَّه ﷺ، وجعل أصحابه يذودون بكره عنه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «دعوا لي النجديَّ؛ فوالذي نفسي بيده إنه لمن ملوك الجنة». قال: فلقوا العدو، فَاسْتُشْهِدَ، فَأُخْبِرَ بذلك النبي ﷺ، فأتاه فقعد عند رأسه مستبشرًا - أو قال: مسرورًا يضحك -، ثم أعرض عنه؛ فقلنا: يا رسول الله، رأيناك مستبشرًا تضحك، ثم أعرضت عنه؟! فقال: «أَمَّا ما رأيتم من استبشاري - أو قال: من سروري -؛ فَلِمَا رأيتُ من كرامة رُوحِهِ على اللَّه ﷻ، وَأَمَّا إعراضي عنه؛ فإن

(١) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/١٤٥/٢) وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٦٧٢).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (١٣٨١).

زوجته من الحور العين الآن عند رأسه»[١].

ما ظنك بهذا الجزاء العظيم .. اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين.. نَصِيفُ الواحدة منهن خير من الدنيا وما فيها.. فما ظنك بصاحبة الشال وربة الخمار؟!

قال ابن عباس ويرسل ربنا ... ريحًا تهزُّ ذوائب الأغصان
فتثير أصواتًا تَلَذُّ لمسمع الـ ... إنسان لا النغماتِ والأوزان
يا حسن ذياك السماع وطيبه ... مِنْ مثل أقمار على أغصانِ
والشمس تجري في محاسن وجهها ... كالبدر ليل الست بعد ثمانِ
والشمس تجري في محاسن وجهها ... والليل تحت ذوائب الأغصان
فيظل يعجب وهو خالق ذاك من ... ليل وشمس كيف يجتمعان
غاب الرقيب وغاب كل منغص ... وهما بثوب الوصل مشتملان
وكذاك فُسِّرَ شغلهم في سورة ... من بعد فاطر[٢] يا أخا العرفان

هذا ـ واللَّه ـ النعيم:

دَعِ المصوغات من ماءٍ وطين ... واشغل هواك بحور عين

* * *

(٦٨) **عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ليس شيء أحبَّ إلى اللَّه من قطرتين وأثرين؛ قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تُهراق في سبيل الله، وأما الأثران؛ فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله»[٣].**

---

(١) حسن: رواه البيهقي بإسناد حسن، قاله المنذري. وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٨٢): حسن.

(٢) وهي قول الله ﷻ في يس: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]؛ أي: مشغولون بفض الأبكار.

(٣) حسن: رواه الترمذي وقال: «حديث حسن غريب»، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٣٧٦).

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾
[محمد: ٤].

❑ الشهداء تُجْرَى عليهم أجورهم بعد موتهم:

قال ـ تَعَالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

قرأ أبو عمرو، وحفص، ويعقوب: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾.

وقرأ الباقون: ﴿والذين قاتلوا﴾.

قال ابن جرير الطبري (١١/٢٦): «اختلف القرَّاء في ذلك؛ فقرأته عامة قُرَّاء الحجاز والكوفة: ﴿والذين قاتلوا﴾ بمعنى: حاربوا المشركين وجاهدوهم ـ بالألف ـ، وكان أبو عمرو يقرؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ ـ بضم القاف وتخفيف التاء ـ؛ بمعنى: والذين قتلهم المشركون بالله. وأولى القراءات بالصواب قراءة مَن قال: ﴿والذين قاتلوا﴾؛ لاتفاق الحجة من القُرَّاء وإن كان لجميعها وجوه مفهومة».

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾: أي فلن يجعل اللَّه أعمالهم التي عملوها في الدنيا ضلالًا عليهم كما أضل أعمال الكافرين.

وقال ابن كثير: «لن يذهبها؛ بل يكثرها، وينميها، ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله في طول برزخه»[١].

وقال ابن القيم: أي أنه لَا يُبْطِلُهَا عليهم ولا يترهم إياها»[٢].

«هي أعمال مهتدية واصلة مربوطة إلى الحق الثابت الذي صدرت عنه، وانبعثت حماية له واتجاهًا إليه، وهي باقية من ثَمَّ؛ لأن الحق باقٍ لا يهدر ولا يضيع».

---

(١) تفسير ابن كثير (١٣/٦٢)، طبعة أولاد الشيخ.

(٢) شفاء العليل، لابن قيم الجوزية ص (١٦١).

(٦٩) قال رسول اللَّه ﷺ: «أربعة تَجْرِي عليهم أجورهم بعد الموت: مَنْ مات مرابطًا في سبيل الله، وَمَنْ عَلَّمَ عِلْمًا أُجْرِيَ له عمله ما عُمِلَ به، وَمَنْ تصدق بصدقة فأجرها يجري له ما وُجِدَتْ، ورجل ترك ولدًا صالحًا فهو يدعو له»(١).

(٧٠) وعن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جَرَى عليه عمله الذي كان يعمله، وَأُجْرِيَ عليه رزقه، وَأَمِنَ الفَتَّان»(٢).

(٧١) وعن فضالة بن عُبيد رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «كل الميت يُخْتَمُ على عمله إلا المرابط؛ فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويُؤَمَّنُ من فَتَّانِ القبر» واللفظ لأبي داود.

وفي لفظ آخر: «كل ميت يُخْتَمُ على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، وَيُؤَمَّنُ من فتان القبر»(٣).

(٧٢) وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «كل ميت يُخْتَمُ على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يُجْرَى له أجر عمله حتى يُبْعَثَ، وَيُؤَمَّنُ من فَتَّانِ القبر»(٤).

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده»، والطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٧٧)، و«صحيح الترغيب» (١١٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٣) واللفظ له، والنسائي (٣٩١٦)، وأحمد (٥/٤٤١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/١٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٨٠)، والبيهقي في الكبرى (٩/٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٩٠)، والبغوي (١٠/٣٥٢).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٠٠)، والترمذي (١٦٢١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/١٠٢)، وسعيد بن منصور (٢٤١٤)، وابن حبان رقم (٤٦٠٥)، (١٦٢٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٧٩ - ١٤٤)، وأحمد في «المسند» (٦/٢٠)، والطبراني (١٨/٣١٢)، وَصَحَّحَهُ الحاكم، ووافقه الذهبي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٥٦٢).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/١٥٠ - ١٥٧)، والدارمي (٢٤٣٠)، والطبراني =

(٧٣) **وقال رسول اللَّه ﷺ: «من مات مرابطًا في سبيل الله، أَجْرَى اللَّه عليه عمله الصالح الذي كان يعمله، وَأَجْرَى عليه رزقه، وَأَمِنَ من الفتان، وبعثه اللَّه يوم القيامة آمنًا من الفزع»**[(١)].

(٧٤) **وقال رسول اللَّه ﷺ: «من مات مرابطًا في سبيل الله، أَمَّنَهُ اللَّه من فتنة القبر»**[(٢)].

❑ والذي يموت مرابطًا يموت شهيدًا:

قال ابن حجر: «ولابن حبان من حديث أبي هريرة: **«من مات مرابطًا مات شهيدًا»**.

وأشار ابن حجر إلى أنه جيد في «**فتح الباري**» (٦/٥٢).

= (١٧/٣٠٨)، وابن عبدالحكم في «فتوح مصر» ص (٢٨٩)، وقال الهيثمي في المجمع (٥/٢٨٩): وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن. وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٥٦٢).

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة، وأخرجه أبو عوانة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٤٤).

(٢) **صحيح**: أخره الطبراني في «المعجم الكبير» عن أبي أمامة، وكذا رواه في «الأوسط»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٥٤٥).

هداية الله للشهداء

❑ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾

❑ **قال ـ تعَالَى ـ:** ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ [محمد: ٤، ٥].

قال ابن جرير: «سيوفقهم اللهُ ـ تَعَالَى ذِكْرُهُ ـ للعمل بما يرضى».

قال ابن كثير: «﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾؛ أي: إلى الجنة؛ كقوله ـ تعَالَى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾»[1].

وقال ابن القيم: «فيحتمل أن لا يكون من هذا[2]، وتكون الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة؛ فإنه رَتَّبَ هذا الجزاء على قتلهم، ويحتمل أن يكون منه، ويكون قوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾ إخبارًا منه ـ سبحانه ـ عما يفعله بهؤلاء الذين قُتِلُوا في سبيله قبل أن يُقْتَلُوا، وأتى به بصيغة المستقبل إعلامًا منه بأنه يجدد له كل وقت نوعًا من أنواع الهداية وإصلاح البال شيئًا بعد شيء.

فإن قلتَ: فكيف يكون ذلك المستقبل خبرًا عن الذين قُتِلُوا؟!

قلتُ: الخبر قوله: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ أي: أنه لا يبطلها عليهم ولا يترهم إياها، هذا بعد أن قُتِلُوا، ثم أخبر ـ سُبْحَانَهُ ـ خبرًا مستأنفًا عنهم أنه سيهديهم ويصلح بالهم لما علم أنهم سيقتلون في سبيله، وأنهم بذلوا أنفسهم له، فلهم جزآن: جزاء في الدنيا بالهداية على الجهاد، وجزاء في الآخرة بدخول الجنة، فيرد السامع كل جملة إلى وقتها؛ لظهور المعنى وعدم التباسه، وهو في القرآن كثير، والله

---

(١) تفسير ابن كثير (١٣/٦٤).

(٢) أي: من باب: أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الحسنة الأولى.

أعلم»[١].

وقال عن هدايتهم في الآخرة: «فهذه هداية بعد قتلهم؛ فقيل: المعنى: سيهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح حالهم في الآخرة بإرضاء خصومهم وقبول أعمالهم.

وقال ابن عباس: سيهديهم إلى أرشد الأمور، ويعصمهم أيام حياتهم في الدنيا.

واستشكل هذا القول؛ لأنه أخبر عن المقتولين في سبيله بأنهم سيهديهم، واختاره الزجاج، وقال: يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا.

قال: وأراد به يجمع لهم خير الدنيا والآخرة وعلى هذا القول فلا بد من حمل قوله: ﴿قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على معنًى يصح معه إثبات الهداية وصلاح البال»[٢].

قال أبو تراب النخشبي: «**إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله، فإذا أخلص فيه وجد حلاوته وقت عمله**».

❑ كأنس بن النضر ﵁؛ وجد ريح الجنة قبل أن يُقَاتِلَ:

(٧٥) عن أنس بن مالك ﵁: «عمي أنس بن النضر - سُمِّيتُ بِهِ - لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، فَكَبُرَ عليه؛ فقال: أول مشهد قد شهده رسول الله ﷺ غِبْتُ عنه!! أما والله، لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليرينَّ الله ما أصنع!!. قال: فَهَابَ أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، من العام المقبل، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا أبا عمرو، إلى أين؟ قال: وَاهًا لريح الجنة أجدها دون أحد!! فقاتل حتى قُتِلَ؛ فَوُجِدَ في جسده بضع وثمانون؛ من بين ضربة وطعنة ورمية. قالت عمتي الرُّبيِّع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه. ونزلت

---

(١) شفاء العليل، لابن قيم الجوزية ص (١٦١).

(٢) شفاء العليل (٨٤، ٨٥).

هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[1]

❑ **فالشهادة سبق اختيار من اللَّه ـ تَعَالَى ـ، والشهداء سبقت لهم الحسنى من ربهم:**

(٧٦) **عن البراء ﷺ قال: «أتى النبيَّ رَجلٌ وهو مُقنَّع بالحديد، فقال: يا رسول الله، أُقَاتِلُ أو أُسْلِمُ؟ قال: أَسْلِمْ ثم قَاتِلْ. فأسلم ثم قاتل؛ فَقُتِلَ؛ فقال رسول اللَّه ﷺ: عَمِلَ قليلًا وَأُجِرَ كثيرًا»[2].**

هم مُرادُ اللَّه قبل أن يُوجدوا .. منارات في سماء الهدى .. هداهم إلى طريق الجهاد وَمَنَّ عليهم بالشهادة.

❑ ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾:

قال ابن كثير: «أي أمرهم وحالهم».

وقال ابن جرير الطبري: «يصلح أمرهم وحالهم في الدنيا والآخرة».

وقال ابن عباس: «سيهديهم إلى أرشد الأمور ويعصمهم أيام حياتهم الدنيا».

وقال الزجاج: «يصلح بالهم في المعاش وأحكام الدنيا».

«يتعهدهم بإصلاح البال وتصفية الروح من بقية أوشاب الأرض، أو يزيدها صفاء؛ لتتناسق مع صفاء الملإ الأعلى الذي صعدت إليه، وإشراقه وسناه؛ فهي حياة مستمرة في طريقها لم تنقطع إلا فيما يرى أهل الأرض المحجوبون، وهي حياة يتعهدها اللَّه ربها في الملإ الأعلى، ويزيدها هدًى، ويزيدها صفاء، ويزيدها إشراقًا، وهي حياة نامية في ظلال الله.

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي في «جامعه»، كتاب التفسير، وقال: حسن صحيح. والنسائي في «الكبرى»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢٥٥٧)، وهو عند البخاري مختصرًا: أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر، وهو عند مسلم أيضًا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٨)، ومسلم (١٩٠٠).

حفظ اللَّه عليهم الإيمان، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، وأبقى لهم حسن الأحدوثة بعد مماتهم.. وظهرت عناية اللَّه وإكرامه لهم ولذويهم في الدنيا وبعد رحيلهم.. لقد نَمَّ ترابُ قبورهم عن إكرام اللَّه لهم، فَشُمَّ من قبر سعد بن معاذ رضي الله عنه المسك، وَشُمَّ من قبر أبي قريش العابد الطيِّب.

قال المغيرة بن حبيب: لما برز العدو، قال أبو قريش العابد عبداللَّه بن غالب: «على ما آسى من الدنيا؛ فواللَّه ما فيها للبيب جذل، وواللَّه لولا محبتي لمباشرة السهر بصفحة وجهي وافتراش الجبهة لك يا سيدي والمراوحة بين الأعضاء والكراديس في ظلم الليالي رجاء ثوابك وحلول رضوانك، لقد كنت متمنيًا لفراق الدنيا وأهلها، ثم كسر جفن سيفه، وتقدم فقاتل حتى قُتِلَ، فلما دُفِنَ أصابوا من قبره المسك، وكان الناس يأخذون من تراب قبره؛ كأنه المسك، ورآه رجل فيما يرى النائم فقال: يا أبا فراس، ماذا صنعت؟ قال: خير الصنيع. قال: إِلَامَ صرتَ؟ قال: إلى الجنة، قال: بم؟ قال: بحسن اليقين وطول التهجد وظمإ الهواجر. قال: فما هذه الرائحة الطيبة التي توجد من قبرك؟ قال: تلك رائحة التلاوة والظمإ»[(1)].

وانظر كيف حمى اللَّه جسد عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح بالدَّبْرِ ثم بالسيل؟!

وكيف وارت الملائكة جثمان عامر بن فهيرة؟!

وكيف غسلت حنظلة بن أبي عامر وحمزة بن عبد المطلب؟!

وانظر كيف حفظ اللَّه أجساد شهداء أحد بعد طول العهد تتثنى أجسادهم وكأنهم ماتوا في التوِّ والحال وذلك في خلافة معاوية رضي الله عنه؟!

ومنهم من يشم ريح الجنة قبل موته...!!

ومنهم من يطير مع الملائكة؛ كجعفر...!!

---

(١) مختصر قيام الليل، للسمرقندي ص (٢٩).

بل وانظر إلى حفظ النبي والصالحين لذويهم.. يضعون أكاليل الفخار فوق رءوسهم بما تتقطع دونه الأعناق علوَّ مكانة بين المسلمين.

يا حبيب، ما يبكيك.. أَمَا ترضى أن أكون أنا أبوك، وعائشة أمك؟!

(٧٧) عن بشر بن عقربة قال: استشهد أبي مع النبي في بعض غزواته، فَمَرَّ بي النبي ﷺ وأنا أبكي، فقال لي: «اسكت، أَمَا ترضى أن أكون أنا أبوك وعائشة أمك؟!»[١].

وعند ابن عساكر: **«يا حبيب، ما يبكيك؟ أَمَا ترضى أن أكون أنا أبوك، وعائشة أمك؟!»**.

أي شرف وفخار أعظم من هذا وأعلى وأغلى؟!

يقوله النبي ﷺ لابن شهيد.

❑ **«هذا مني وأنا منه» قالها ﷺ بعد استشهاد جليبيب:**

(٧٨) عن أنس ؓ قال: كان رجل من أصحاب النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ ـ يُقَالُ له: «جليبيب» في وجهه دمامة، فعرض عليه رسول اللَّه ﷺ التَّزويج، فقال: إذًا تجدني كاسدًا!! فقال: «غير أنك عند اللَّه لست بكاسد»[٢].

(٧٩) عن أبي برزة الأسلمي ؓ: «أن جليبيًا كان من الأنصار، وكان أصحاب النبي ﷺ إذا كان لأحدهم أَيِّمٌ لم يزوجها حتى يعلم أَلِلنَّبِيِّ ﷺ فيها حاجة أم لا؟! فقال رسول اللَّه ﷺ ذات يوم لرجل من الأنصار: زوجني ابنتك. فقال: نعم، ونعمة عين. فقال له: إني لست لنفسي أريدها!! قال: فَلِمَنْ؟ قال: لجليبيب. قال: حتى أَسْتَأْمِرَ أمها!! فأتاها فقال: إن رسول اللَّه ﷺ يخطب ابنتك. قالت:

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في «التاريخ» (١/٢/٧٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/٣٧٧)، وَصَحَّحَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٢٤٩).

(٢) **حسن**: أخرجه أبو يعلى (٦/٨٩).

نعم، ونعمة عين زوج رسول اللَّه ﷺ. قال: إنه ليس يريدها لنفسه. قالت: فلِمَنْ؟ قال: لجليبيب. قالت: حَلْقَى[1] لجليبيب أنيه؟! مرتين، لا، لعمر الله، لا أزوِّجُ جليبيبًا!! قال: فلما قام أبوها ليأتي النبي ﷺ، قالت الفتاة لأمها من خدرها: مَنْ خطبني إليكما؟ قالت: النبي ﷺ. قال: فَتَرُدُّونَ على النبي ﷺ أمره؟! ادفعوني إلى النبي ﷺ؛ فإنه لا يضيعني!! فأتى أبوها النبيَّ ﷺ، فقال: شأنك بها، فزوجها جليبيبًا»[2] ثم ذكر الحديث الآتي:

(٨٠) عن أبي برزة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «أن النبي ﷺ كان في مغزًى له، فأفاء اللَّه عليه؛ فقال لأصحابه: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: نعم، فلانًا وفلانًا وفلانًا. ثم قال: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: لا. قال: لكني أفقد جليبيبًا، فاطلبوه. فَطُلِبَ في القتلى؛ فوجدوه إلى جنب سبعة قد قَتَلَهُمْ ثم قَتَلُوهُ، فَأَتَى النبيُّ ﷺ فوقف عليه؛ فقال: قتل سبعة ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه. قال: فوضعه على ساعدَيْهِ ليس له إلا ساعدا النبي ﷺ، قال: فحفر له، ووضع في قبره، ولم يذكر غسلًا»[3].

والله، إن نعيم الدنيا كله لا يساوي معشار هذه الكلمات التي تتطاير لجلالها الأرض وزخرفها وما عليها.

قال ثابت عن زوجة جليبيب: فما في الأنصار أَيِّمٌ أنفق منها!!.

---

(١) أي: حلقه الله؛ يعني: أصابه وجع في حلقه، وهذا دعاء عليه.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/٤٢٢، ٤٢٥)، وابن حبان (موارد/ ٢٢٦٩).

وباقي القصة: قال إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة لثابت: أتدري ما دعا لها به النبي ﷺ؟ قال: وما دعا لها به النبي ﷺ؟ قال: «اللهم، صُبَّ عليها الخير صبًّا صبًّا، ولا تجعل عَيْشَهَا كدًّا كدًّا».

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٧٢)، وأخرجه أحمد (٤/٤٢٢، ٤٢٥) بالقصة التي ذكرناها قبل هذا الحديث، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٤٢).

□ «ليتني كنتُ صاحبَ اللحد»:

قالها عبدالله بن مسعود رضي الله عنه لَمَّا رأى الكرامة التي نَالَهَا عبدالله بن عبد نهم ذو البجادين رضي الله عنه.

(٨١) قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن إبراهيم التميمي: «كان عبدالله رجلًا من مزينة ـ وهو ذو البجادين ـ يتيمًا في حجر عمه، وكان محسنًا له، فبلغ عمَّهُ أنه أسلم؛ فنـزع منه كل شيء أعطاه حتى جرَّدَهُ من ثوبه، فأتى أمه فَقَطَعَتْ له بجادًا لها باثنتين، فَآتَزَرَ نصفًا، وارتدى نصفًا، ثم أصبح؛ فقال له النبي ﷺ: أنت عبدالله ذو البجادين؟ فالتزم بابي. فلزم بابه، وكان يرفع صوته بالذكر؛ فقال عمر: أَمُرَاءٍ هو؟! قال: بل هو أحد الأوَّاهين».

قال التميمي: وكان ابن مسعود يحدث قال: قمتُ في جوف الليل في غزوة تبوك، فرأيتُ شعلة من نار في ناحية العسكر فاتبعتها؛ فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبدالله ذو البجادين قد مات، فإذا هم قد حفروا له ورسول الله ﷺ في حفرته، فلما دفناه قال: اللهم، إني أمسيتُ عنه راضيًا، فَارْضَ عنه»[1].

فقال ابن مسعود: **«ليتني كنتُ صاحبَ اللحد».**

(٨٢) وعند ابن سعد: «فلما خرج النبي ﷺ إلى تبوك، قال: ادْعُ لي بالشهادة. فربط النبي ﷺ على عضديه لِحَى سَمُرة[2]، وقال: اللهم، إني أُحَرِّمُ دمه على الكفار. فقال: ليس هذا أردتُ!! قال النبي ﷺ: إنك إذا خرجتَ غازيًا فأخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد، أو وقصتك[3] دابتك فأنت شهيد. فأقاموا

---

(١) **انظر**: رسالة «الأولياء» من كتاب «مجموعة الرسائل، لابن أبي الدنيا» ص (١١٩)، والحلية (١/ ٣٦٥)، والإصابة (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩). قال ابن حجر: رواه البغوي بطوله من هذا الوجه، ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعًا وهو كذلك في السيرة النبوية، وأخرجه ابن منده.

(٢) اللحاء ـ بكسر اللام ـ: القشر. والسَّمُرة: ضرب من شجر الصلح.

(٣) الوقص: كسر العنق.

بتبوك أيامًا ثم توفي».

رَضِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ، لقد أتعبتم مَنْ بعدكم، وسبقتم على خيل ضمر، وتركتمونا على بغال عرجاء كَمَنْ تَحْمِلُ، سبقتمونا ولسان حالكم يقول:

إن كان عندكمُ كَرْمٌ بلا عنبٍ إنا لدينا معًا التينُ والعِنْبُ
أو كان أفقكُم مزنٌ بلا سحبٍ فالمزن في أفقنا حبلى به السحبُ[1]

(٨٣) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أفضل الشهداء من سُفِكَ دمه، وعُقِرَ جواده»[2].

❑ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٥].

«**الفتح أو الشهادة**»[3]؛ كما قاله الحافظ ابن حجر العسقلاني، بل الشهادة ـ واللَّه ـ أعظم؛ فالشهداء أفضل ممن انتصر وعاد سالمًا.

(٨٤) عن جابر رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، أي الجهاد أفضل؟ قال: «مَن عُقِرَ جواده وأُهْرِيقَ دمه»[4].

(٨٥) وعن عبداللَّه بن حُبشِي الخثعمي رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ سُئِلَ:

أي الأعمال أفضل؟

قال: إيمان لا شك فيه، وجهادٌ لا غلول فيه، وحجة مبرورة.

قيل: فأي الصلاة أفضل؟

قال: طول القنوت.

---

(١) انظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي (١/٦٧٨، ٦٧٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١١٠٨)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (١٥٠٤).

(٣) فتح الباري (٦/٢٥).

(٤) **حسن**: أخرجه أحمد (٣/٣٠٠)، وابن أبي شيبة (٥/٢٩٠)، وَحَسَّنَهُ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/٢٩١)، وَحَسَّنَهُ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٥٥٢).

قيل: فأي الصدقة أفضل؟

قال: جُهد المُقِلِّ.

قيل: فأي الهجرة أفضل؟

قال: من جاهد المشركين بماله ونفسه.

قيل: فأي القتل أشرف؟

قال: من أُهْرِيقَ دمه وَعُقِرَ جواده»[1].

(٨٦) وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال:

قال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟

قال: أن يُسْلِمَ قلبك لله عز وجل، وأن يَسْلَمَ المسلمون من لسانك ويدك.

قال: فأي الإسلام أفضل؟

قال: الإيمان.

قال: وما الإيمان؟

قال: تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت.

قال: فأي الإيمان أفضل؟

قال: الهجرة.

قال: فما الهجرة؟

قال: تهجر السوء.

قال: فأي الهجرة أفضل؟

قال: الجهاد.

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (١٤٤٩)، والنسائي (٥/٨٥)، وأحمد (٣/٤١٤)، والدارمي (١/١٣٣). انظر: صحيح النسائي، للألباني رقم (٢٣٦٦)، و«صحيح أبي داود» (١٣٨٦)، و«الصحيحة» رقم (١٥٠٤).

قال: وما الجهاد؟

قال: أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم.

قال: فأي الجهاد أفضل؟

قال: مَنْ عُقِرَ جواده وَأُهْرِيقَ دمه.

قال رسول الله ﷺ: ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما: حجة مبرورة أو عمرة[١].

□ ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝﴾:

قال ابن كثير: «عرَّفهم بها وهداهم إليها».

قال مجاهد: «يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يُخطئون؛ كأنهم ساكنوها منذ خُلِقُوا، لا يستدلون عليها أحدًا».

وقال محمد بن كعب: «يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة؛ كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة».

(٨٧) وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضًا رواه البخاري، عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خَلَصَ المؤمنون من النار حُبِسُوا بقنطرة بين الجنة والنار يَتَقَاصُّونَ مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله كان في الدنيا»[٢].

وقد مَرَّ بك في حديث أول ثلة يدخلون الجنة: «إن الله ﷻ ليدعو يوم القيامة

---

(١) **رجاله ثقات:** أخرجه أحمد في «المسند» (١١٤/٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٩/١). ورجاله ثقات.

(٢) صحيح البخاري - كتاب المظالم - باب قصاص المظالم (٢٤٤٠)، كتاب الرقاق - باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٥)، وأخرجه أحمد (١٣/٣، ٥٧، ٦٣، ٧٤)، وعبد بن حميد (٩٣٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٨٦).

الجنة؛ فتأتي بزخرفها وزينتها؛ فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وقُتِلُوا وَأُوذُوا وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير حساب».

وهذا هو المعنى الثاني لتفسير هذه الآية ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ : «طيبها لهم من العَرْف وهو طيب الرائحة»(١).

وذكره القرطبي، وهو أيضًا في «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور.

❑ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾:

قال ـ تعالَى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [الحديد: ١٩].

قال ابن عباس: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ هذه مفصولة ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

وقال مسروق: هي للشهداء خاصة.

ثم قال ابن جرير بعد عرضه للأقوال: «والذي هو أولى الأقوال عندي في ذلك بالصواب قول من قال: الكلام والخبر عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مُتَنَاهٍ عند قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، وأن قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خبر مبتدإ عن ﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾، وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصواب؛ لأن ذلك هو الأغلب من معانيه في الظاهر، وأن الإيمان غير موجب في المتعارف للمؤمن اسْمَ شهيدٍ، لا بمعنى غيره إلا أن يراد به شهيدًا على ما آمن به وَصَدَّقَهُ، فيكون ذلك وجهًا، وإن كان فيه بعض البُعْدِ؛ لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أُطْلِقَ بغير وصل.

فتأويل قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ إذًا: والشهداء الذين

---

(١) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للقمي النيسابوري على هامش تفسير الطبري (٢٨/١١).

قتلوا في سبيل اللَّه أو هلكوا في سبيله عند ربهم لهم ثواب اللَّه إياهم في الآخرة ونورهم». اهـ[١].

وأي ثواب أعظم من ثوابهم الذي مر بك؟!

وأي نور أعظم من نورهم؟!

وهم أول ثلة يدخلون الجنة، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والثانية على لون أحسن من كوكب دري في السماء**»[٢] الحديث.

وقوله ﷺ: «**أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على أثرهم كأشد كوكب دري في السماء إضاءة...**»[٣].

وهم سكان الغرف العلى من الجنة من أهل عليين...

إذا خرج الرجل منهم يسير في ملكه فما من خيمة في الجنة إلَّا ودخلها من نور وجهه وطيب ريحه حتى يخرج أهل الجنة فيقولون: رجل من أهل عليين خرج يسير في ملكه...

نور الرجل منهم يضيء كل قصور وخيام الجنة التي عرضها السموات والأرض، فاختر لنفسك!!.

أنت القتيل بكل من أحببته ... فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

---

(١) تفسير الطبري (١٣٤/١١).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد في «مسنده»، والترمذي عن أبي سعيد، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٥٦٤).

(٣) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾

(٨٨) عن أنس بن مالك ﷺ قال: «جاء ناس إلى النبي ﷺ، فقالوا: أن ابعث معنا رجالًا يعلمونا القرآن والسنَّة. فبعث إليهم سبعين رجلًا من الأنصار ـ يُقَالُ لهم: القرَّاء ـ، فيهم خالي حرام، يقرءون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون؛ فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء، فبعثهم النبي ﷺ، فعرضوا لهم؛ فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان.

فقالوا: اللهم، بَلِّغْ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنا!!

قال: وأتى رجل حرامًا خالَ أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه؛ فقال حرام: فزت ورب الكعبة.

فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه: إن إخوانكم قد قُتِلُوا، وإنهم قالوا: اللهم، بلِّغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا!!»[(١)].

❑ خرجوا من الدنيا وما نالوا منها ولا نالت منهم؛ فتم أجرهم، ونالوا الرضوان الأكبر:

(٨٩) عن عبداللَّه بن عمرو بن العاص ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما من غازية فتغنم؛ تغزو في سبيل الله، فيصيبون الغنيمة؛ إلا تعجَّلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، فإن لم يصيبوا غنيمة تَمَّ لهم أجرهم»[(٢)].

❑ وبلفظ آخر:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٠١، ٢٨١٤، ٣٠٦٤، ٤٠٩٠، ٤٠٩١، ٤٠٩٥)، ومسلم برقم (٦٧٧) واللفظ له ـ في الجهاد ـ باب ثبوت الجنة للشهيد، والبغوي (٣٧٩٠)، وابن حبان (٤٦٥١).

(٢) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

(٩٠) «ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا [كانوا قد] تعجلوا ثلثَيْ أجرهم، وما من غازية أو سرية تُخْفِقُ أو تُصَابُ، إلا تم أجرهم»..

انظر بربك إلى قول الصادق ﷺ: «تخفق» هذا عند أهل الدنيا، وعند الحق «تم أجرهم».. ورضوا عن ربهم ورضي عنهم ربهم.

❑ **وأخيرًا إِنْ تصدق اللَّه يصدقك:**

(٩١) **عن شداد بن الهاد رضي الله عنه: «أن رجلًا من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك. فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزاة، غنم النبي ﷺ [شيئًا] فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي ﷺ. فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا؟ قال: قسمتُ لك. قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرْمَى إلى ههنا ـ وأشار إلى حَلْقِهِ ـ بسهم فأموت؛ فأدخل الجنة. فقال: إن تَصدُق اللَّه يصدقك. فلبثوا قليلًا، ثم نهضوا في قتال العدو؛ فَأُتِيَ به إلى النبي ﷺ يُحْمَلُ قد أصابه سهم حيث أشار؛ فقال النبي ﷺ «أهو هو؟!». قالوا: نعم. قال: صدق اللَّه فصدقه. ثم كَفَّنَهُ النبي ﷺ في جبته التي عليه، ثم قَدَّمَهُ فصلى عليه وكان مما ظهر من صلاته: «اللهم، هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك، فَقُتِلَ شهيدًا، أنا شهيد على ذلك»[1]..**

وانظر إلى صورة عظيمة من صور الصدق في طلب الشهادة نختم بها: «يا خيل اللَّه اركبي»...

قالها الصادق الزاهد الصوَّام الشهيد شهيد غزاة أذربيجان عمرو بن عتبة بن فرقد السلمي العظيم الشأن.

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٣٦).

قال عمرو بن عتبة بن فرقد: «**سألتُ اللَّه ثلاثًا فأعطاني اثنتين، وأنا أنتظر الثالثة: سألته أن يزهّدني في الدنيا فما أُبَالِي ما أَقْبَلَ وما أَدْبَرَ، وسألته أن يُقَوِّيَنِي على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة فأنا أرجوها.**

واشترى ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فرسًا بأربعة آلاف درهم فَعَنَّفُوهُ، يَسْتَغْلُونَهُ، فقال: ما خطوة يخطوها، يقومها إلى الغزو إلا وهي أحبُّ إليَّ من أربعة آلاف»(١).

قال عنه مولاه: «**كنا نخرج إلى العدو فلا نتحارس؛ لكثرة صلاته، ورأيته ليلة يصلي، فسمعنا زئير الأسد؛ فهربنا وهو قائم يصلي لم ينصرف!! فقلنا له: أَمَا خِفْتَ الأسد؟! فقال: إني لأستحيي من اللَّه أن أخاف شيئًا سواه!!**»(٢).

عن علقمة قال: «**قطع عمرو بن عتبة جبة بيضاء فلبسها وقال: والله، إن تَحَدَّرَ الدم على هذه حسن. فَرُمِيَ؛ فرأيتُ الدمَ يَتَحَدَّرُ على المكان الذي وضع يده عليه؛ فمات**»(٣).

وعن عبدالرحمن بن يزيد قال: خرجنا في جيش فيهم علقمة، ويزيد بن معاوية النخعي، وعمرو بن عتبة بن فرقد، ومعضد. قال: فخرج عمرو بن عتبة وعليه جبَّة جديدة بيضاء، فقال: ما أحسن الدم يتحدَّر على هذه!! فخرج فتعرض للقصر؛ فأصابه حجر؛ فشجَّهُ، قال: فَتَحَدَّرَ عليها الدم ثم مات منها فدفناه، ولما أصابه الحجر فشجَّهُ، جعل يلمسها بيده ويقول: إنها صغيرة وإن اللَّه يبارك في الصغير!!»(٤).

قال ابن عَمٍّ لعمرو بن عتبة: نزلنا في مرج حسن، فقال عمرو بن عتبة: ما أحسن هذا المرج، ما أحسن الآن لو أن مناديًا ينادي: يا خيل اللَّه اركبي، فخرج رجل، وكان في أول من لقي، فأصيب ثم جيء به فَدُفِنَ في هذا المرج، قال: فما

(١) صفة الصفوة (٦٩/٣).
(٢) المصدر السابق ص (٧٠).
(٣) ، (٤) صفة الصفوة (٧١/٣).

كان بأسرع من أن نادى منادٍ: يا خيل اركبي. فخرج عمرو في سرعان الناس[١] في أول من خرج، فأتى عتبة فأُخبر بذلك، فقال: عليَّ عَمْرًا، عليَّ عمرًا. فأرسل في طلبه فما أدرِك حتى أصيب.

فما أراه دُفِنَ إلا في مركز رمحه وعتبة يومئذ على الناس[٢] هؤلاء هم الرجال:

لا تقعدنَّ لذكرنا في ذكرهم   ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

لما مات عمرو بن عتبة، دخل بعض أصحابه على أخته فقال: أخبرينا عنه. فقالت: قام ليلة فاستفتح ﴿حمٓ ۝١﴾ فأتى على هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾ [غافر: ١٨] الآية؛ فما جاوزها حتى أصبح[٣].

اللهم، إنك تعلم أنا نحب هؤلاء القوم ونشرف بذكر تراجمهم؛ ليتأسى بهم الناس، فارزقنا بعض صدقهم، وَمُنَّ علينا بصدق النية... نسألك باسمك الأعظم الذي إذا دُعِيتَ به أجبت أن ترزقنا أفضل الشهادة في سبيلك، تبيض بها وجوهنا، وتحسن بها خاتمتنا، إنك على كل شيء قدير.

مَاذَا سَأَشْدُو

ماذا أُغَنِّي؟ والسَّمَاءُ بِقُدْسِهَا وَبِنُورها.. غنَّتْ لهَم..؟!!

.. والأرض لَمْلَمَتِ العبيرَ وَضَمَّخَتْهُ بعاطرٍ من ذِكْرِهِمْ

واللهُ قَرَّبَهُمْ وَمَدَّ العَرْشَ أَظْلَالًا لِرَفْرَفِ خُلْدِهِمْ.

وكَتَائبُ الأحْرَارِ شَدَّتْ في النِّضَالِ ضِيَاءَهَا مِنْ دَرْبِهِمْ

وخُطَا الشُّعوب تضلُّ إن لَمْ تَسْتَمِدَّ حَيَاتَهَا مِنْ خَطْوِهِمْ

عرفوا طَرِيقَ الخُلْد فاتَّجَهُوا إِلَيْهِ وَعَانَقُوهُ بِعُمْرِهِمْ،

(١) سرعان الناس؛ أي: أوائلهم السابقون.

(٢)، (٣) صفة الصفوة (٣/٧١، ٧٢).

وبِرُوحهم، وبِسِرِّهِمْ
وبكلِّ ما حملَتْ مَنَابِتُ كَرْمِهِمْ.
وَبِكُلِّ ما وَهَبَتْهُ أقداحُ الحياةِ لِدَمْعِهِمْ ولخمرِهِمْ
بالنُّور.. والأغْلال تَرْفُضُ ضَوْءَهُ - من عِزَّةٍ - عنْ لَيْلِهِمْ
بِالحُبِّ.. وَالأغلال تنسخُهُ لَظًى متأججًا منْ سُخْطِهِمْ
بِالدَّم.. وهو الثَّارُ عاطِشة مُدَمْدِمَةٌ لساعةِ ثأْرِهِمْ
بالحلْم.. وَهْو تميمَةُ الجُبناءِ تَعجزُ أن تَطُوف بِلَيْلِهِمْ
بِالرُّوحِ.. وَهْيَ الطَّائرُ المَجْرُوحُ من غَيْظِ الترابِ بِأَرْضِهِمْ
بِوُجُودِهِمْ.. وَوُجُودُهُمْ هَذَا التُّرابُ الحرُّ يَصْرُخُ تحتَهُمْ:
إِنْ لم أكُنْ حُرًّا فَلَا دَاسَتْ على وَجْهي عُرُوبَةُ وَجْهِهِمْ؛
رَدُّوا عليه بِأَنْ سَقَوْهُ بكُلِّ آخرِ قطرَةٍ في كأسِهِمْ
بِدمائِهِمْ، بِفدائهِمْ، بِمَضَائِهِمْ قَطَفُوا الحياةَ بِمَوْتِهِمْ
واللهِ ما ماتوا.. ولا عَرَفَ الْبِلَى عِرْقًا يجِفُّ بجسْمِهِمْ
عَرَفُوا طريقَ الخلْدِ فَاتَّجَهُوا إليه وَبَايَعُوهُ بعمرهِمْ!!
مَنْ هؤلاء؟ هُمُ الَّذين مَشَاعِلُ الإنْسانِ تحمِلُ ضَوْءَهُمْ
صَنَعُوا منَ الآجالِ مصباحًا عَرَفْتُ بِهِ أَشِعَّةَ شمسِهِمْ..
فَعَرَفْتُهُمْ لَمَّا رأيتُ العارَ تَغْسِلُهُ الدماءُ بِجُرْحِهِمْ
وَعَرَفْتُهُمْ.. لَمَّا رأيتُ الذُّلَّ يحصدهُ الإباءُ بِكِبْرِهِمْ
وَعَرَفْتُهُمْ.. لَمَّا رأيتُ اليأسَ بَدَّدَهُ اليقينُ بِعزمهِمْ
وَعَرَفْتُهُمْ.. لَمَّا رأيتُ الأرضَ ترفَعُ رأسَها من بأسِهِمْ
وَبكلِّ يوم تَشْتَهِيهِمْ حاصدًا لِعَدُوِّهَا مِنْ تُرْبِهِمْ
وَعَرَفْتُهُمْ.. لَمَّا رأيتُ كرامَةَ الأوطانِ تَهزِجُ باسمهم

وَعَرَفْتُهُمْ.. لَمَّا اسْتَعْدتُ وُجُودَ وَجْهَي في الْوجُود بيَومِهِمْ
قد كانَ ضاعَ وضَاعَ.. حتَّى عَادَ يَمْتَشِقُ الإباءَ بِكَفِّهِمْ!!
شَهداءُ تخْشَعُ كلُّ ذَرَّاتِ الْفضَاءِ لهالَةٍ مِنْ طُهْرهمْ
وتميسُ راياتُ المعاركِ كلَّما نَشَقتْ مَعارجَ عِطْرهمْ
كُلُّ البطولَةِ قطرَةٌ شَرِبَتْ رحيق مِضائها مِنْ بَحْرِهِمْ
كلُّ الثَّرى عَبْدٌ إذا لمْ يَرْشُقُوهُ بوَقْدَةٍ منْ جَمْرِهِمْ
شهداءُ.. صَوْتُ الحقِّ جَلْجَلَ كالأذان مُحَلَّقًا من صَوْتِهِمْ
شهداءُ.. ريحُ النَّصر هَبَّتْ منْ لَظَى قَبَسِ اللَّظَى مِنْ صَدْرِهِمْ
ذبحوا أساطير الطُّغاة وَلَقَّنُوهَا آيَةَ مِنْ دَرْسِهِمْ
وَمَضَوْا، ويَمْضِي كلَّ يومٍ لِلْفَرَادِسِ زائرٌ مِنْ ركبهمْ
حتَّى تُغَرِّدَ في التراب حقيقة تُشْجِي سرائرَ طَيْرِهمْ!!
حَيَّيْتُهُمْ في كلِّ شِبْرٍ أَهْلَكُوا فيه سَلَاسِلَ قَيْدِهِمْ
وطرقتُ بابَ الخلْدِ أسألُ أيِّ رَوْضٍ في الأرائكِ ضَمَّهُمْ؟
وَبِأَيِّ رفرفِ جَنَّةٍ أَمْلاكُهَا وَطُيُورُهَا حظيت بِهِمْ؟
فَعَلِمْتُ أنَّ اللهَ كرَّمهم وَنعَّمَ بِالشهادةِ قربَهُمْ..
.. ماذَا أغني؟
والسماءُ بِقُدْسِهَا وبِنُورها غَنَّتْ لهُمْ!!
.. أَنَا إِنْ شَدَوْتُ فلَن أَكُونَ سِوَى صَدى لقصيدة
من شِعْرِهِمْ؟؟(١)

---

(١) قصيدة «موسيقا من الشهداء» من ديوان «موسيقا من السر»، لمحمود حسن إسماعيل (١٩٦٧ - ١٩٧٠) - الأعمال الكاملة، لمحمود حسن إسماعيل - دار سعد الصبَّاح.

الشهيد الكامل

«قال ابن الزملكاني: للشهيد الكامل المقتول في سبيل اللَّه شرائط وخصائص.

فمن شروطه: أن يقاتل مخلصًا؛ ومعنى الإخلاص أن يُقاتِل لتكون كلمة اللَّه هي العليا، وهذا دليل على أن العمل إنما يكون بالنية الصالحة فيما يعتبر، وإذا لم تصح النية فلا أثر له، وهو دليل على أن الفضل الذي ورد في الجهاد وما أعدَّ اللَّه للمجاهدين مختص بمن قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا، فمن قاتل لغير ذلك فليس في سبيل اللَّه ـ إن ذلك مقرون بالإخلاص واللَّه أعلم به فإنه من أفعال القلوب.

ومن شرائط الشهادة الكاملة: أن يُقاتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر فذلك هو السعيد الكامل»[(١)].

❑ فضل الشهادة أرفع من فضل العلم في قول جَمْعٍ من أهل العلم:

ترغيبًا في جهاد أهل الطغيان بحدِّ السيف والسنان، وإعلام بالتربية بما تحصل به التصفية بما يؤدي إليه مناصبة الكفار، ومقارعة أهل دار البوار، وجمعًا بين الأدلة قال بعض أهل العلم: فضل الشهادة أرفع من فضل العلم، وإليه ذهب جمع فاحتجوا له بما منه:

ـ أن العلم يحصله العبد في الحياة الدنيا؛ ليتقرب إلى اللَّه زلفى، والأجر في الآخرة يلقى، والشهادة تحصل للعبد عند خروج روحه من بدنه، فهي ثواب اللَّه الذي لا يبلغ أحدٌ أقصى أمده.

فالعلم مثاب عليه والشهادة من الثواب، وفي تفاضل الثواب والمثاب عليه نظر لا يخفى على أولي الألباب.

---

(١) فيض القدير (٤/١٨٣).

- وأيضًا فالشهادة درجة عند اللَّه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، والعلم يحصله العبد في الدنيا؛ ليكمل به عمله وإيمانه، والشهادة متى اتصف بها العبد حصلت له الدرجة العالية بيقين.

«والعلم قد يتصف به من لا يكون من المتقين؛ فيرجع علمه وبالًا عليه ولا يرغب بحق فيما لديه.

ولأن الشهادة اسم مدح في كل حال، والمتصف بها مخصوص بالأجر الذي لا تنقطع دونه الأماني وتنتهي إليه الآمال.

والعلم في نفسه ينقسم إلى محمود ومذموم، والمتصف بالممدوح مثاب ومرحوم.

والتحقيق أنه: لا يمكن إطلاق القول بتفضيل العلم ولا الشهادة، وأن ذلك لا يقاس بتفضيل عبادة على عبادة»[1].

---

(١) فيض القدير (١٨١/٤).

الشهداء وأنواع الشهادة

قال المناوي في «**فيض القدير**» (٤/١٧٩، ١٨٠): «قد التقط ابن العماد الشهداء من الأخبار ونظمها فقال:

من بعد حمد اللَّه والصلاة ... على النبي وآله العلاة
خذ عدَّة الشهداء سردا نظما ... واحفظ هُديت للعلوم فهْمَا
محب آل المصطفى ومن نطقْ ... عند إمام جائرٍ بقول حق
وذو اشتغال بالعلوم ثم مَنْ ... على وضوء موته نال المننْ
ومن يمت فجاءة أو حريق ... ومائد بغيه غريق
لديغ أو مسحور أو مسموم ... أو عطش بجرعة مألوم
أكيل سبع عاشق مجنونْ ... والنفسا والهدم والمبطونْ
ومن بذات الجنب أو ظلمًا قُتِلْ ... أو دون مال أو دم أهلٍ نُقِلْ
أو دِينٍ أوْ في الحربِ أو مات به ... مؤذن محتسب لربه
وجالب يبيع سعر يومهِ ... أو مات بالطاعون بين قومهِ
كذا الغريب أو بعينٍ أوْقرا ... أواخر الحشر بها نال الذرا
ومن يلازم وتره ووردِه ... عند الضحى والصوم حتم سعدِه

وفي هذا النظم أسباب صحيحة للشهادة وأخرى غير صحيحة.

قال ابن حجر في «**فتح الباري**» (٦/٥١، ٥٢): «إن الشهادة لا تنحصر في القتلى، بل لها أسباب أُخَر، وتلك الأسباب اختلفت الأحاديث في عددها؛ ففي بعضها خمسة، وفي بعضها سبعة، والذي وافق شرط البخاري الخمسة، فَنَبَّهَ بترجمة على أن العدد الوارد ليس على معنى التحديد» انتهى. وقد اجتمع لنا من الطرق الجيِّدة أكثر من عشرين خصلة[1]، ووردت أحاديث أخرى في أمور أخرى

---

(١) ذكر منها «موت الغريب» وقد نُوزِعَ فيها.

لم أُعَرِجْ عليها لضعفها.

قال ابن التين: هذه كلها ميتات فيها شدَّةٌ، تفضَّل اللَّه على أُمَّة محمد ﷺ بأن جعلها تمحيصًا لذنوبهم، وزيادةً في أجورهم، يبلِّغهم بها مراتب الشهداء. **قلت:** والذي يظهر أن المذكورين ليسوا في المرتبة سواء. ويدلُّ عليه أن النبي ﷺ سُئل: أي الجهاد أفضل؟ قال: «**من عقر جواده وأُهريق دمه**».. ويتحصَّل مِمَّا ذُكِرَ في هذه الأحاديث أن الشهداء قسمان:

(١) شهيد الدنيا.

(٢) وشهيد الآخرة: وهو من يقتل في حرب الكفار مُقبلًا غير مدبر، مخلصًا. وشهيد الآخرة ـ وهو من ذُكِرَ ـ؛ بمعنى أنهم يُعطون من جنس أجر الشهداء، ولا تجري عليهم أحكامهم في الدنيا».

❑ **ها نحن نورد أسباب الشهادة وأنواعَهَا:**

١ـ القتل في سبيل اللَّه في ميدان الجهاد.

٢ـ الطاعون:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الطاعون شهادة لكل مسلم**»[١].

وعن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: سألت رسول اللَّه ﷺ عن الطاعون؟ فقال: «**كان عذابًا يبعثه اللَّه على من كان قبلكم، فجعله اللَّه رحمة للمؤمنين، ما من عبد يكون في بلد يكون فيه، ويمكث لا يخرج صابرًا محتسبًا، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب اللَّه له، إلا كان له مثل أجر شهيد**»[٢].

وعن أبي عَسيب مولى رسول اللَّه ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أتاني جبرائيل**

---

(١) رواه البخاري في الجهاد ـ باب الشهادة سبع سوى القتل (٦/٥١) (٢٨٣٠)، ومسلم (٣/١٥٢٢).
(٢) رواه البخاري.

الطَّيْلاِ بالحمى والطاعون؛ فأمسكتُ الحمى بالمدينة[1]، وأرسلت الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادة لأمتي، ورجز على الكافر»[2].

وعن أبي منيب الأحدب قال: خطب معاذ بالشام فذكر الطاعون فقال: «**إنها رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وقبض الصالحين قبلكم**»، اللهم اجعل على آل معاذ نصيبهم من هذه الرحمة. ثم نزل عن مقامه ذلك، فدخل على عبدالرحمن بن معاذ، فقال عبدالرحمن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾، فقال معاذ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[3].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**فَنَاءُ أمتي بالطعن والطاعون**»، فقيل: يا رسول الله، هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «**وَخْزُ**[4] **أعدائكم من الجن، وفي كلٍّ شهادة**»[5].

وذُكِر الطاعون عند أبي موسى فقال: سألنا عنه رسول اللَّه ﷺ فقال: «**وَخْزُ أعدائكم الجن، وهو لكم شهادة**»[6].

---

(١) لعلَّ هذا كان في أول هجرته ﷺ إلى المدينة؛ فإنه قد صَحَّ أن النبي ﷺ دعا بنقل الحمى إلى الجحفة كما جاء في أحاديث... راجع «فيض القدير».

(٢) **صحيح**: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير»، ورواة أحمد ثقات مشهورون، قاله المنذري، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» برقم (١٤٠١). الرجز: العذاب.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد بإسناد جيد، قاله المنذري، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٠٢): صحيح.

(٤) الوَخْز: هو الطعن لكن ليس بنافذ، كذا قَيَّده أهل اللغة الجوهري وغيره. أفاده الناجي.

(٥) **صحيح**: رواه أحمد بأسانيد أحدها صحيح، قاله البزار، ورواه أبو يعلى، والبزار، والطبراني في «الكبير» عن أبي موسى، وكذا رواه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عمر، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (١٤٠٣)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٢٣١).

(٦) **حسن صحيح**: رواه الحاكم (١/٥٠) وقال: «صحيح على شرط مسلم»، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤٠٤): «حسن صحيح».

وكذا أخرجه أحمد (٤/٤١٣)، وابن خزيمة في كتاب التوكل من «صحيحه»، واللفظ له، والطبراني كما في «بذل الماعون» ص (١١٦). قال الحافظ ابن حجر في «بذل الماعون» ص (١١٨): «فالمتن بهذه الطريق صحيح بلا ريب، والله اعلم».

وعن أبي بردة بن قيس أخي أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اللهم اجعل فناء أمتي قتلًا في سبيلك بالطعن والطاعون**»(١).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**يختصم الشهداء والمتوفَّوْن على فرشهم إلى ربنا في الذين يتوفوْن من**(٢) **الطاعون، فيقول الشهداء: إخواننا، قُتِلوا كما قُتِلنا، ويقول المتوفَّوْن على فرشهم: إخواننا ماتوا على فرشهم كما متنا. فيقول ربُّنا: انظروا إلى جراحهم، فإن أشبهت**(٣) **جراحُهُم جراح المقتولين، فإنهم منهم ومعهم، فينظرون إلى جراح المطعونين، فإذا جراحهم قد أشبهت جراح الشهداء، فيلحقون بهم**»(٤).

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون**». قلت: يا رسول الله! هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «**غدَّة كغدّة البعير، المقيم بها كالشهيد، والفارُّ منها كالفارِّ من الزحف**»(٥).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**وخزةٌ تصيب أمتي من أعدائهم من الجن كغدة الإبل، من أقام عليها كان مرابطًا، ومن أصيب به كان شهيدًا، ومن فرَّ منه كان كالفارِّ من**

---

(١) **إسناده حسن صحيح**: أخرجه أحمد (٤٣٧/٣، ٢٣٨/٤)، وأبو إسحاق الحربي في «غريب الحديث»، كما في «بذل الماعون» ص (١٢١)، وابن أبي عاصم في «كتاب الجهاد» (٥٠١/٢: ١٨٩)، وفي «الآحاد والمثاني» له (٤٥٠/٤: ٢٥٠٣)، والدولابي في «الكنى» (١٨/١)، وابن حبان في «ثقاته» (٣٥٧/٧)، والطبراني في «الكبير» (٣١٤/٢٢: ٧٩٢، ٧٩٣)، والحاكم (٩٣/٢)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٩٨/٢ب)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٨٤/٦).
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣٣٦/٢): «رواه أحمد بإسناد حسن»، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤٠٥): حسن صحيح.

(٢) في صحيح الترغيب والترهيب: «في».

(٣) في صحيح الترغيب والترهيب: «جراح المقتولين فإنهم منهم ومعهم، فإذا جراحهم قد أشبهت جراحهم».

(٤) **حسن صحيح**: أخرجه أحمد في «مسنده»، والنسائي عن العرباض بن سارية، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤٠٧): حسن صحيح. وَحَسَّنَهُ في «صحيح الجامع» برقم (٨٠٤٦).

(٥) **حسن لغيره**: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٠٨): حسن لغيره.

الزحف»[١].

وعن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: قلت: يا رسول الله! هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «**يشبه الدمل، يخرج في الآباط والمراقّ**[٢]**، وفيه تزكية أعمالهم، وهو لكل مسلم شهادة**»[٣].

وعن جابر بن عبدالله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال:

سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في الطاعون: «**الفار منه كالفار من الزحف، ومن صبر فيه كان له أجر شهيد**»[٤].

وعن عتبة بن عبد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يأتي الشهداء والمتوفوْن بالطاعون، فيقول أصحاب الطاعون: نحن شهداء، فيُقال: انظروا فإن كانت جراحتهم كجراح الشهداء تسيل دمًا كريح المسك، فهم شهداء، فيجدونهم كذلك**»[٥].

٣ـ الغرق:

قال رسول اللَّه ﷺ: «**الغريق في سبيل اللَّه شهيد**»[٦].

٤ـ المرأة تموت بجُمْع:

أي: ماتت في شيء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكارة.

---

(١) **حسن لغيره**: رواه أبو يعلى، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٠٨): حسن لغيره.

(٢) (المَرَاقُّ): ما رَقَّ من أسفل البطن وَلَانَ، ولا واحد له، وميمه زائدة؛ كذا في «النهاية».

(٣) **حسن لغيره**: أخرجه البزار، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٠٨): حسن لغيره. وَخَرَّجَهُ في «الصحيحة» (١٩٢٨).

(٤) **صحيح لغيره**: رواه أحمد والبزار والطبراني، وقال المنذري في «الترغيب»: وإسناد أحمد حسن. وقال الألباني في «صحيح الترغيب»: صحيح لغيره.

(٥) **حسن صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد لا بأس فيه، قاله المنذري، وأخرجه أحمد (٤/ ١٣٤)، وَحَسَّنَهُ الحافظ في «الفتح» (١٠/١٩٤)، هو وحديث العرباض، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤٠٧): حسن صحيح.

(٦) **صحيح**: رواه البخاري في «التاريخ» عن عقبة بن عامر، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤١٧٣).

٥ـ الهَدْم:

صاحب الهدم الذي يموت تحت الأنقاض.

٦ـ الحرْق.

٧ـ المجنوب:

هو المريض بذات الجنب، وهي التهاب غلاف الرئة.

عن جابر بن عتيك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**... وما تعدون الشهادة**»؟ قالوا: القتل في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «**إن شهداء أمتي إذن لقليل، القتل في سبيل اللَّه شهادة، والمطعون شهادة، والمرأة تموت بجُمْع شهادة، والغرق، والحرق، والمجنوب شهادة**»[١].

٨ـ السُّل:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**السَّل شهادة**»[٢].

٩ـ المبطون:

المبطون هو صاحب داء البطن، وهو الإسهال. وقال القاضي عياض: هو الذي به الاستسقاء وانتفاخ البطن. وقيل: هو الذي يموت بداء بطنه مطلقًا.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**القتل في سبيل اللَّه شهادة، والطاعون شهادة، والبطن شهادة، والغرق شهادة، والنفساء شهادة**»[٣].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**الطاعون والغرَق والبطن والحرق والنفساء شهادة لأمتي**»[٤].

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٠٩٦).
(٢) **صحيح**: أخرجه أبو الشيخ، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٦٩١).
(٣) **صحيح**: رواه أحمد، والضياء، وَصَحَّحَهُ الضياءُ، والألبانيُّ في «صحيح الجامع» رقم (٤٤٣٨).
(٤) **صحيح**: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير»، والضياء في «المختارة» وَصَحَّحَهُ، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٩٥٠).

وقال ﷺ: «**الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله؛ المقتول في سبيل الله شهيد، والمطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة**[١]»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله**»[٣].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**البطن والغرق شهادة**»[٤].

١٠ـ من افترسه السبع:

عن ابن قانع، عن ربيع الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الطَّعْن، والطاعون، والهدم، وأكل السبع، والحرق، والبطن، وذات الجنب ـ شهادةٌ**»[٥].

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الغريق شهيد، والحريق شهيد... والمبطون شهيد... ومن يقع عليه البيت فهو شهيد... ومن قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون نفسه فهو شهيد**»[٦].

١١ـ النفساء شهيدة:

وعن راشد بن حبيش رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**القتل في سبيل الله**

---

(١) أي: تموت وفي بطنها ولد، أو من الولادة.

(٢) **صحيح**: أخرجه مالك، وأحمد، وأبو داود (٣١١١)، والنسائي (٤/١٣ ـ ١٨٤٦)، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٧٣٩).

(٣) أخرجه مالك، والبخاري، ومسلم، والترمذي.

(٤) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٨٨٨).

(٥) **صحيح**: قال الألباني: «أورده المنذري في «الترغيب والترهيب»، والهيثمي من رواية الطبراني دون قوله: «أكل السبع»، وجعل مكانه: «والنفساء بجمع شهادة». وقالا: ورجالهم محتج بهم في الصحيح. وفقرة السبع لم أجد لها شاهدًا إلَّا من قول ابن مسعود موقوفًا عليه».

(٦) **صحيح**: رواه ابن عساكر في «تاريخه»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٤١٧٢).

شهادة، والطاعون شهادة، والغرق شهادة، والبطن شهادة، والحرق شهادة، والسُّل، والنُّفَساء يجرُّها ولدها بسررها إلى الجنة»(١).

وعن عبدالله بن بسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«القتيل في سبيل الله شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والغريق شهيد، والنُّفَساء شهيدة»**(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا عند بعض أصحاب محمد ﷺ يومًا في مرضة مرضها وهو مغمي عليه، فأقبل عليه النبي ﷺ فقال: **«ما الذي كنتم فيه آنفًا؟»**، قال: تذاكرنا الشهداء من هذه الأمة، ما نراه إلا من خرج بماله حتى يُقتَل. قال ﷺ: **«إن شهداء أمتي إذًا لقليل، يستشهدون بالقتل، والطاعون، والغرق، والبطن، وموت المرأة جُمعًا، وموتها في نفاسها»**(٣).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«يستشهدون بالقتل، والطعن، والغرق، والبطن، وموت المرأة جمعًا، وموتها في نفاسها»**(٤).

١٢- منْ صُرِع عن دابَّته في سبيل الله.

١٣- مَنْ وَقَصَتْه فرسُه أو بعيرهُ وهو في سبيل الله.

١٤- من لَدَغَتْه هامةٌ وهو في سبيل الله.

١٥- من فصل في سبيل الله فمات، أو مات على فراشه بأيِّ حتْف:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ صُرِع عن دابَته فمات**

---

(١) **حسن:** رواه أحمد، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٤٣٩).

(٢) **صحيح:** رواه الطبراني في «الكبير»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٤٤١).

(٣) **إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيحين:** أخرجه الدورقي في «مسند سعد بن أبي وقاص» ص (١٣٢: ٧٢) والبزار في «مسنده» (١٧٢/أ) وهو في «كشف الأستار» (٢٨٦/٢: ١٧١٩)، وحمزة السهمي في «تاريخ جرجان» ص (٣٧٥)، وابن أبي شيبة في «مسنده» (ق: ٦٢/ب)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١٨٤/١: ١٥٤)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢٧٧/٢: ٢٦١٦)، وابن حجر في «المطالب العالية» (١٩١١).

(٤) **إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيحين:** أخرجه ابن أبي شيبة في «مسنده»، وابن حجر في «المطالب العالية» (١٩٢٠).

فهو شهيد»[1].

عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من فصل في سبيل الله فمات، أو قُتِل، أو وَقَصَتْه فرسُه أو بعيرُه، أو لدغتْه هامةٌ، أو مات على فراشه، بأيِّ حتْفٍ شاء الله؛ فإنه شهيد، وإن له الجنة**»[2].

قال المناوي في «**فيض القدير**» (٦/١٦٣): «**من صرع عن دابَّته**» في سبيل الله فمات «**فهو شهيد**»؛ أي: من شهداء المعركة إن كان سقوطه بسبب القتال، وعلى ذلك ترجم البخاري «**باب فضل من صُرع في سبيل الله فمات فهو منهم**»؛ أي: من المجاهدين، فلمَّا كان الحديث ليس على شرطه، أشار إليه بالترجمة، وفي الباب ما رواه أبو داود والحاكم والطبراني عن أبي مالك الأشعري مرفوعًا. والصرع ـ كما في القاموس وغيره ـ: الطَّرْح على الأرض، وعلَّةٌ معروفة، والمراد بالحديث السقوط عن الدابة حال قتال الكفار بسبب أي وجه كان؛ إمَّا بطرح الدابَّة له، أو بعروض تلك العلَّة في تلك الحالة عروضًا ناشئًا عن القتال، كأن أورثه شدَّة الانفعال».

١٦ـ مَنْ قُتِلَ دون أهله.

١٧ـ مَنْ قُتِلَ دون ماله.

١٨ـ مَنْ قُتِلَ دون دمه.

١٩ـ مَنْ قُتِلَ دون دينه.

٢٠ـ مَنْ قُتِلَ دون مظلمته:

---

(١) **إسناده حسن**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/٣٢٣: ٨٩٢)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣/٢٩٠: ١٧٥٢)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢/٥٧٨: ٢٣٧)، والروياني في «مسنده»، وابن حجر في «المطالب العالية» (١٩١٦)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٥/٤٥٦): إسناده حسن. وَصَحَّحَهُ في «صحيح الجامع» رقم (٦٣٣٦).

(٢) **إسناده قوي**: أخرجه أبو داود (٣/١٩: ٢٤٩٩)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٧٨) وَصَحَّحَهُ، والبيهقي في «الكبرى» بنحوه (٩/١٦٦)، وَحَسَّنَهُ ابن حجر، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤١٣).

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد»**(١).

وعن سويد بن مقرن رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قُتل دون مَظْلَمتِهِ فهو شهيد»**(٢).

وعن ابن عمرو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قُتل دون ماله مظلومًا دخل الجنة»**(٣).

وعن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أُتي عند ماله، فقُوتل، فقاتل، فقُتل، فهو شهيد»**(٤).

وقال رسول الله ﷺ: **«من قُتِل دون ماله فهو شهيد»**(٥).

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: والذي بعث محمدًا بالحق لسمعتُ رسول الله يقول: **«من قاتل على ماله - أو مَالٍ له - فقُتل، كان شهيدًا»**(٦).

وقال رسول الله ﷺ: **«من قُتِل دون ماله مظلومًا فله الجنة»**(٧).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» (١/١٩٠)، والنسائي (١/١١٥، ١١٦)، والترمذي (١٤١٨)، وأبو داود (٤٧٧٢)، والطيالسي (٢٣٣)، وأبو يعلى (٩٤٩)، والبيهقي (٨/١٨٧)، وابن حبان، والخطيب في «تاريخه» (١٠/٨١)، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٤٥).

(٢) **صحيح**: رواه النسائي، والضياء في «المختارة» عن سويد بن مقرن، ورواه أحمد في «مسنده» عن ابن عباس، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٤٧)، و«أحكام الجنائز» (٤٢).

(٣) **صحيح**: رواه النسائي عن ابن عمرو، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٤٦).

(٤) **صحيح**: رواه ابن ماجه عن ابن عمر، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٩٤٨). أُتي: أي: هوجم.

(٥) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن ابن عمرو، والترمذي وابن حبان عن سعيد بن زيد، والنسائي عن بريدة، وأبو يعلى في «مسنده» عن جابر بن عبدالله.

(٦) **إسناده حسن**: رواه ابن حجر في «المطالب العالية» (١٩١٢)، والبوصيري في «إتحاف المهرة» (٤/ ٨١/أ) من مسند إسحاق، وأحمد بن منيع، ولفظ الأخير: «مَنْ قُتِلَ دون ماله فهو شهيد».

(٧) **صحيح**: رواه النسائي عن ابن عمر، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٤٦).

وقال ﷺ: «**نِعْمَ الميتَةُ أن يموت الرجل دون حقه**»(١).

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من مسلم يُظلَم مظلمة، فيُقاتل فيُقتل، إلا قُتِل شهيدًا**»(٢).

٢١- المائد في البحر:

عن أم حرام - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**للمائِد أجرُ شهيدٍ، وللغريقِ أجرُ شهيدين**»(٣).

وعن أم حرام - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**المائِدُ في البحر الذي يُصيبه القَيْءُ له أجرُ شهيدٍ، والغريق له أجْر شهيدين**»(٤).

قال المناوي في «**فيض القدير**» (٥/٢٩١): «**للمائد**»؛ أي: الذي يلحقه دوران رأسه من ريح البحر واضطراب السفينة، من مادة يميد: إذا دار رأسه «**أجر شهيد، وللغريق أجر شهيدين**» قال المظهر: هذا إن ركبه لنحو طاعةٍ؛ كغزوٍ وحجٍّ، وطلب علمٍ وكذا التجارة، ولا طريق له غيره، وقَصَدَ طَلَبَ القُوت لا زيادة ماله».

٢٢- سؤال الشهادة بصِدْق:

عن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ طَلَبَ الشهادة صادقًا، أُعطيها ولو لم تُصِبْهُ**»(٥).

وعن سهل بن حنيف ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من سأل اللَّه الشهادة**

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، والترمذي عن أبي هريرة، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٧٧٥)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٦٩٧).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد عن ابن عباس، والنسائي عن سويد بن مقرن، وَصَحَّحَهُ الألباني في «أحكام الجنائز» ص (٤٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٥٧٦٥).

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير» عن أم حرام، ورواه أبو داود، والحميدي، وابن معين، والدولابي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥١٨٧).

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٦٤٢).

(٥) رواه أحمد في «مسنده»، ومسلم.

بصدقٍ، بلَّغه اللَّه منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[١].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ سأل اللَّه القتل في سبيل اللَّه صادقًا من قلبه، أعطاه اللَّه أجر شهيد، وإن مات على فراشه**»[٢].

٢٣ـ مَنْ قام إلى إمامٍ جائرٍ، فأمرَهُ بمعروفٍ؛ فقَتَلَهُ:

قال رسول اللَّه ﷺ: «**سيِّدُ الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ، فأمره ونهاه، فقتله**»[٣].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**أحب الجهاد إلى اللَّه كلمة حق تُقَالُ لإمام جائر**»[٤].

عن طارق بن شهاب أن رجلًا سأل النبي ﷺ وقد وضع رجله في الغرز: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «**كلمة حق عند سلطان جائر**»[٥].

وعند ابن ماجه: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة عَدْلٍ عند سلطانٍ جائر**»[٦].

٢٤ـ الشريق:

قال ابن الأثير في «**النهاية**»: هو الذي يشرق بالماء فيموت.

قال ابن حجر في «**الفتح**» (٦/٥٢): «**وللطبراني من حديث ابن عباس مرفوعًا: «المرء يموت على فراشه في سبيل اللَّه شهيد»**».

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، وأحمد، وابن حبان، والحاكم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي عن معاذ، ورواه الحاكم عن أنس، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٧٧).

(٣) **حسن**: رواه الحاكم والضياء عن جابر، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٦٧٥).

(٤) **حسن**: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة، وَحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٨)، و«الترغيب» (٣/١٦٨).

(٥) رواه النسائي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح النسائي» رقم (٣٩٢٥)، و«صحيح سنن ابن ماجه» رقم (٤٠١٢).

(٦) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (٤٠١١).

وقال ذلك ـ أيضًا ـ في المبطون، واللَّدِيغ، والغريق، والشريق، والذي يفترسه السبع، والخارّ عن دابَّته، وصاحب الهدم، وذات الجنب».

٢٥ـ مَنْ تَرَدَّى من رءوس الجبال:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إن من يتردَّى من رءوس الجبال، وتأكله السِّباع ويغرق في البحار، لشهيدٌ عند الله**»[(١)].

٢٦ـ المتمسِّك بالسُّنة في وقت الفتن:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن مَنْ ورائكم زمانَ صبرٍ، للمتمسِّك فيه أجْرُ خمسين شهيدًا منكم**»[(٢)].

وعن عتبة بن غزوان أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن من ورائكم أيامَ الصبر، للمتمسِّك فيهنَّ يومئذٍ بما أنتم عليه، أجْرُ خمسين منكم**». قالوا: يا نبيَّ الله، أوْ منهم؟ قال: «**بل منكم**»[(٣)].

٢٧ـ من دعا بدعوةِ يونس أربعين مرَّة في مرضه:

عن سعد بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**هل أدلكم على اسم اللَّه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى؟ الدعوة التي دعا بها يونس، حيث ناداه في الظلمات الثلاث:**

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فقال رجل: يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصَّةً أم للمؤمنين عامَّةً؟ فقال رسول اللَّه

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه عبدالرزاق في «المصنف»، كتاب الجهاد، باب في الشهادة (٥/٢٦٩)، موقوفًا بإسناد صحيح، والطبراني في «معجمه»، قال الحافظ في «الفتح» (٦/٥٢): إسناده صحيح، وأخرجه سعيد بن منصور في «سننه».

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود، قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/٢٦٨): «إسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات رجال مسلم»، وَصَحَّحَهُ في «صحيح الجامع» رقم (٢٢٣٤).

(٣) **صحيح**: صححه الألباني بشواهده في «الصحيحة» رقم (٤٩٤) (١/٢٦٨).

ﷺ: «**ألا تسمع قول الله** ﷻ: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]».

وقال رسول الله ﷺ: «**أيُّما مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة، فمات في مرضه ذلك، أُعطي أجر شهيد، وإن برأَ، برأ وقد غُفر له جميع ذنوبه**»[(١)].

٢٨ـ من أدَّى زكاة ماله طيِّب النَّفْس بها، فتُعُدِّي عليه في الحقِّ، فأخذ سلاحه فقاتل فقُتِل:

عن أُمِّ سلمة أن النبي ﷺ بينما هو في بيتها وعنده رجالٌ من أصحابه يتحدَّثون إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، كم صدقة كذا وكذا من التمر؟ قال رسول الله ﷺ: «**كذا وكذا من التمر**».

فقال الرجل: إن فلانًا تعدَّى عليَّ، فأخذ مني كذا وكذا، فازداد صاعًا. فقال رسول الله ﷺ: «**فكيف إذا سعى عليكم منْ يتعدَّى عليكم أشدَّ من هذا التَّعدِّي؟!**». فخاض الناس، وبهر الحديث حتى قال رجل منهم: يا رسول الله، إن كان رجلًا غائبًا عنك في إبله وماشيته وزرعه، فأدَّى زكاة ماله، فتُعُدِّي عليه الحقُّ، فكيف يصنع وهو غائب؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من أدَّى زكاة ماله، طيِّبةً بها نَفْسه، يريد به وجه اللَّه والدار الآخرة، لم يُغيِّب شيئًا من ماله، وأقام الصلاة وأدَّى الزكاة، فتُعدِّي عليه الحق، فأخذ سلاحه فقاتل فقُتِل، فهو شهيد**»[(٢)].

٢٩ـ الموت بعد المواظبة على قيام رمضان:

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا اللَّه وأنك رسول الله، وصلَّيتُ الصلوات الخمس، وأدَّيتُ الزكاة، وصُمت رمضان

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، كتاب الدعاء (١/٥٠٦)، وَصَحَّحَهُ، ووافقه الذهبي.

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، والحاكم واللفظ له، كتاب الزكاة (١/٤٠٤، ٤٠٥). وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. وأقرّهُ الذهبي، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وقُمتُه، فممَّن أنا؟ قال: «**من الصِّدِّيقين والشهداء**»(١).

ولفظ ابن خزيمة: جاء رسول اللَّه ﷺ رجلٌ من قضاعة فقال له: إنْ شهدتُ أن لا إله إلا اللَّه وأنك رسول الله، وصليتُ الصلوات، وصمت الشهر، وقمتُ رمضان، وآتيت الزكاة؟ فقال النبي ﷺ: «**من مات على هذا كان من الصِّدِّيقين والشهداء**».

قال ابن خزيمة: «**استحقاق قائمة اسم الصديقين والشهداء، إذا جَمَعَ مع قيامه رمضان صيامَ نهاره، وكان مُقيمًا للصلوات الخمس، مؤدِّيًا للزكاة، شاهدًا لله بالوحدانيَّة، مُقِرًّا للنبي ﷺ بالرسالة**».

٣٠ـ موت الغريب:

أخرج ابن ماجه عن ابن عباس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**موت الغريب شهادة**».

قال المناوي: «فيه الهذيل بن الحكم، قال في «**الميزان**»: قال ابن حبان والبخاري: منكر الحديث جدًّا، قال: ومن مناكيره هذا الحديث. قال ابن حجر في «**الترجيح**»: حديث ضعيف؛ لأنه ـ يعني ابن ماجه ـ أخرجه من طريق الهذيل بن الحكم عن ابن أبي روَّاد عن عكرمة، والهذيل قال البخاري: منكر الحديث، وزعم عبدالحق أن الدارقطني صححه، فتعقَّبه ابن القطان فأجاد. اهـ. وسبقه له البيهقي، فقال عقب تخريجه في «**الشعب**»: أشار البخاري إلى تفرُّد الهذيل به، وقال: هو منكر الحديث. اهـ.

وقال المنذري: قد جاء في أن موت الغريب شهادة جملةٌ من الأحاديث، لا يبلغ شيء منها درجة الحسن. وزاد الديلمي بعد قوله ﷺ: «**موت الغريب شهادة**»: «**وإنه إذا احتضر فرمى ببصره عن يمينه ويساره، فلم يَرَ إلَّا غريبًا، وذَكَرَ أهلهُ وولده**

---

(١) **صحيح**: رواه البزار، وابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما»، واللفظ لابن حبان، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الترغيب» رقم (٩٩٣) و«التعليق على ابن خزيمة» رقم (٢٢١٢).

فيتنفَّس، فله بكل نَفَسٍ يتنفَّسه يمحو اللَّه عنه ألْفَيْ ألف سيئة، ويكتب له ألفي حسنة». اهـ.

قال البغدادي: وهذا فيمن تغرَّب لقُربة أو مباحٍ؛ كتجارةٍ، فمات غريبًا متوحِّشًا عن مُؤانِسٍ متحسِّرًا في وحدته، مستسلمًا في نفسه، مسلِّمًا إلى ربه فيما نزل به، فهو شهيد؛ لصعوبة ما حلَّ به»(١).

وقال ابن حجر في «**الفتح**» (٦/٥٢): «وَصَحَّحَ الدارقطني من حديث ابن عمر: «**موت الغريب شهادة**»».

٣١ـ مَنْ مات مُرابطًا في سبيل الله:

قال ابن حجر: «**ولابن حبان من حديث أبي هريرة: «من مات مُرابطًا مات شهيدًا»**».

وأشار ابن حجر إلى أنه جيد في «**فتح الباري**» (٦/٥٢).

وعن سلمان أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**من مات مرابطًا في سبيل الله، أُومن عذاب القبر، ونما له أجرُه إلى يوم القيامة**»(٢).

وقال رضي الله عنه: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من مات مرابطًا، أُجرِيَ عليه عملُه الذي كان يعمل، وأُومِن الفتَّان، ويُجرى عليه رزقه**»(٣).

٣٢ـ مَنْ قَتَلَ الخوارج أو قَتَلَتْهُ الخوارج:

عن الفرزدق الشاعر، أنه سمع أبا هريرة وأبا سعيد، وسألهما فقال: إني رجل من أهل المشرق، وإن قومًا يخرجون علينا يقتلون من قال: لا إلا الله، ويؤمِّنون من سواهم. فقالا لي: سمعنا النبي ﷺ يقول: «**من قتلهم فله أجر شهيدٍ، ومن قتلوه فله**

---

(١) فيض القدير، للمناوي (٦/٢٤٦).

(٢) صحيح ابن حبان، وإسناده قوي.

(٣) **إسناده صحيح**. وفي الباب عن أبي هريرة عند ابن ماجه، والبزار، والمقصود: أجر عمله الذي كان يعمل في حياته من الطاعات.

أجر شهيد»(١).

هؤلاء الذين كفَّروا أهل الكبائر، وحَكَمُوا بخلودهم في النار، انظر كيف حكم النبي ﷺ بأن من قتلوه فهو شهيد، ومن قتلهم فهو شهيد، من قتلوه أو قتلهم يُغفر له ذنبه كلُّه إلا الدَّيْن... ألا سحقًا وبُعدًا للخوارج الذين قتلوا الصحابة.

أخرج يعقوب بن سفيان بسندٍ صحيح، عن حميد بن هلال، قال: حدَّثنا رجل من عبد القيس، قال: لحقت بأهل النهر فإني مع طائفةٍ منهم أسير، إذ أتينا على قريةٍ بيننا نهر، فخرج رجل من القرية مروَّعًا، فقالوا له: لا روع عليك. وقطعوا إليه النهر، فقالوا له: أنت ابن خبَّاب صاحب النبي ﷺ؟ قال: نعم. قالوا: فحدِّثنا عن أبيك. فحدَّثهم بحديث: «**يكون فتنة، إن استطعت أن تكون عبد اللَّه المقتول فكن**». قال: فقدَّموه فضربوه عنقه، ثم دعوا سُرِّيَّته وهي حُبْلَى، فبقروا عمَّا في بطنها.

ولابن أبي شيبة: وإنهم بقروا بطنها، وكانوا مرُّوا على ساقته، فأخذ واحدٌ منهم تمرةً فوضعها في فيه، فقالوا له: تمرة معاهدٍ، فيم استحللتها؟ فقال لهم عبداللَّه بن خبَّاب: أنا أعظمُ حُرمةً من هذه التمرة. فأخذوه فذبحوه(٢).

٣٣ـ قَتْلُ الصبر:

وهو أن يُمْسَكَ بالرجل في غير معركة بغير حق؛ فَيُقْتَلُ ظُلْمًا.

عن عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قتْلُ الصبر لا يَمُرُّ بذنب إلا محاه**»(٣).

---

(١) **سنده جيد**: رواه الطبراني في «الأوسط»، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٣١٦/١٢): بسندٍ جيدٍ.

(٢) فتح الباري (٣١٠/١٢).

(٣) **حسن**: أخرجه البزار عن عائشة، وحَسَّنَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٦٠)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٥٠١٦).

أحاديثُ أُخَرُ من بستان السنة

قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أُريد ماله بغير حق فقاتل فقُتِل، فهو شهيد**»(١).

وقال ﷺ: «**قاتِل دون مالك حتى تحوز**(٢) **مالك، أو تُقتَل فتكون من شهداء الآخرة**»(٣).

وعن خالد بن عرفطة وسليمان بن صرد قالا: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قتله بطنه لم يعذَّب في قبره**»(٤).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الميت من ذات الجنب شهيد**»(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما تقولون في الشهيد فيكم؟**» قالوا: القتل في سبيل الله. قال ﷺ: «**إن شهداء أُمتي إذن لقليل؛ من قُتل في سبيل اللَّه فهو شهيد، ومن مات في سبيل اللَّه فهو شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والغريق شهيد**»(٦).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل اللَّه فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات في**

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي عن ابن عمرو، وأخرجه أيضًا أحمد، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» (١٥٢٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٦٠١١).

(٢) تحوز: تمتلكه.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير» عن مخارق، وَصَحَّحَهُ الألباني في «الإرواء» رقم (١٥٢٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٢٩٣).

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، وَصَحَّحَهُ الألباني في «أحكام الجنائز» (٣٨)، و«صحيح الجامع» (٦٤٦١).

(٥) **صحيح**: أخرجه أحمد، والطبراني في «الكبير»، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٣٨)، و«الصحيحة» رقم (٢٣٧٢).

(٦) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٠٢).

البطن فهو شهيد، ومن غرق فهو شهيد». رواه مسلم.

وعن جابر بن عتيك ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ: **«وما تعدُّون الشهادة إلَّا مَنْ قُتل في سبيل الله! إن شهداءكم إذنْ لقليل؛ القتل في سبيل اللَّه شهادة، والبطن شهادة، والحرق شهادة، والغرق شهادة، والمغموم - يعني الهدم - شهادة، والمجنوب شهادة، والمرأة تموت بجُمْع»**[1].

❑ **وأخيرًا من شهد له النبي ﷺ بالشهادة دون سبب ظاهر من أسبابها:**

عن يحيى بن عبدالحميد بن رافع بن خديج عن جدته - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: أصيب رافع بن خَدِيج ﷺ يوم أحد في ثندوته بسهم، فأتى رسولَ اللَّه ﷺ فقال: انزع السهم، فقال: **«إن شئت نزعت السهم والقطنة**[2]**، وإن شئت نزعت السهم وتركت القطنة وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد؟»** فقلت: انزع السهم واترك القطنة، واشهد لي يوم القيامة أني شهيد، فقال: **«نعم»**، فنزع السهم وترك القطنة.

فعاش حياة رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر، وعمر، وعثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -، فلما كان زمن معاوية ﷺ، أو بعده، مات بعد العصر، فأرادوا أن يخرجوه، قال ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: إن مثل رافع بن خديج لا يُخرج به حتى يؤذن من حولنا من القرى، فجلس من الغد، فلما كان الغد أُخرِج، فبكت مولاة له على شفير القبر، فقال ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: إن الشيخ لا طاقة له بعذاب اللَّه ﷻ من هذه السفيهة، أو كلمة نحوها»[3].

اللهم يا رحمن، يا رحيم، يا ودود أسألك باسمك الأعظم أن تمنَّ عليَّ بأفضل

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي، وَصَحَّحَهُ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧١٢٤).

(٢) هكذا في جميع النسخ، ولعلها تصحيف، وفي «الإتحاف»: «قطبة»؛ والقطبة: هي نصل السهم؛ كما في «النهاية» (٤/٧٩)، و«كتاب السلاح، لأبي عبيد» ص (٢٦).

(٣) **إسناده حسن، ويرتقي متنه إلى الصحيح بمجموع شواهده**: رواه ابن حجر في «المطالب العالية» (١٩١٣)، والطبراني في «الكبير» (٤/٢٣٩: ٤٢٤٢)، والباروري في «الصحابة»، ومن طريقه ابن منده، لكنه قال: «بسهم في سرته»، وأخرجه أحمد في «المسند» (٦/٣٧٨) بنحوه.

الشهادة في سبيلك.

وبعد هذه المقدمة الطويلة نأتي إلى تراجم فرسان النهار على مر الأيام والأزمان... وكثيرون ما نذكرهم لا يضيع أجرهم عند ربهم... إن لم نعرفهم - وما ضرّهم إن لم نعرفهم - فإن الذي شرّفهم باختيارهم لنصرة دينه يعرفهم... وكفى بهذا شرفًا ورفعة.، وذلك ابتداءً من أول المجلد الثاني إن شاء الله تعالى

فهرس الموضوعات

فرسان النهار
المجلد الأول

الفصل الأول
فُرسَانُ النَّهارِ لِمَاذَا؟

الفصل الثاني
الجهاد في القرآن الكريم

الحثُّ عليه وبيانُ ثوابه وفضله، والترهيب من تركه والنكوص عنه

الفصل الثالث

الترغيب في الجهاد ذروة سنام الإسلام والترهيب من تركه في السنة المُطهرة

الفصل الرابع

إِعْلَامُ النُّبَلَاءِ بِفَضْلِ الشَّهَادَةِ وَالشُّهَدَاءِ



تم بحمد الله المجلد الأول ويليه المجلد الثاني